فجر الساهد وعون الساجد

في الرد على الغزالي أبي حامد

وبيان

المواطن التي نقدها عليه شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من العلماء

تأليف

عبد السلام محمد عمر علوش

دار الندوة الجديدة

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بسم الله وبه نستعين

بين يدي الكتاب

الباعث على التصنيف

إن الحمد لله مصعد الكلم الطيب، ثقلت في السماوات والأرض كلمات توحيدك الباقيات الصالحات، أتقرب إليك ربي بثنائك، لا أحصي ثناءً عليك، كالذي أثنيت به على نفسك، فبثنائك نثني والفضل منك وإليك، كما علمتنا ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ اضمحلت الترتيبات وطاشت العبارات التي ليس فيها ذكرك يوم ترجح الموازين.

اللهم هذه نواصينا بين يديك، ماضٍ فينا حكمك، عدل قضاؤك وقد رفعت الأقلام وجفت الصحف ولا مبدل لكلماتك، وليس أحد يدخل الجنة إلا بعفوك.

اللهم فإني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة(١).

أسير الخطايا عند بابك واقف
على وجل مما به أنت عارف
يخاف ذنوباً لم يغب عنك غيبها
ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائف

---

(١) عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الدعاء أفضل. قال: «سل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة» ثم سأله فأعاده ثم سأله فأعاد وزاد «فإذا أعطيت العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد أفلحت». رواه ابن ماجه والترمذي وحسّنه وفي السنن الثلاثة والمسند نحوه أيضاً عن غير صحابي، وقد صح عن عائشة أنها لما سألت رسول الله ﷺ ما تقول إذا علمت ليلة القدر قال: «قولي اللهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعف عني» فاحفظ هذا الدعاء ولا تنسه.

فمن ذا الذي يُرجى سواك ويُتقى
وما لك في فصل القضاء مخالف
فيا خالقي لا تخزني في صحيفتي
إذا نشرت يوم الحساب الصحائف[1]

اللهم وصل وسلم على عبدك ورسولك محمد ﷺ، وأوردنا حوضه يوم يبعثون، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

وبعد:

ففي سنة سبع وأربعمائة وألف لهجرة المصطفى المختار ﷺ، في الثلث الأخير من شهر جمادي الأولى، حضرتني صلاة الظهر أو العصر في المسجد الحرام بمكة المكرمة زادها الله شرفاً وتعظيماً، وكنت حينها قد التمست مكاناً بين الحجر الأسود والركن اليماني في الصف الأول ودخلت في الصلاة خلف الإمام، وقد يممت بصري الكعبة المشرفة ألبسها الله ثوب الحسن والمهابة، ثم بدأت بقراءة الفاتحة بعد دعاء الاستفتاح وما كنت عهدتني من قبل أتدبر الصلاة كتدبري ساعتها، وتفهمت من معنى الفاتحة ما لم أكن أدرك، واستحضرت من أقوال السلف في معانيها ما لم يجمع لي من قبل، وأحسست كأني أقرأ الفاتحة لأول مرة ولم أسمع بها، وأملت لو أن الشيخ الإمام يطيل ولا يركع، ولما قضيت الصلاة وقعدت متفكراً في شأن ما وقع لي عقدت النية على جمع مصنف عظيم في معنى الفاتحة.

وعندما بدأت طريق العودة بعد أيام وبدأت في جمع مادة «رفع البنيان على قواعد أم القرآن» وهو الإسم الذي وقع في نفسي لهذا المصنَّف، أسجل ملاحظاتي خشية التفلّت، وعند وقفتي على ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ التي روي فيها أنها حوت كل الكتب المنزّلة، صلت وجلت وأسهبت في الاستقصاء حول معنى العبادة وحدودها، ومقبولها ومردودها وأصولها، ودوران كل الأمور الشرعية حولها وأنها رأس الأمر ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(١) قال هذه الأبيات عبد الله بن محمد بن يوسف «الآداب الشرعية» (٢ / ٣٤).

وبعد سنوات وبينما أفصّل المجمل وأوثق العري بين ما جمعت في الآية نفسها وأشير إلى الذين أخطأوا في هذه المفاهيم وأساءوا الاستدلال وجدت أني أكاد أخرج عن أصل ما وضعت الكتاب لأجله وهنا وقع في نفسي الحديث عن ابتداع المتصوفة وانحرافاتهم ومزلة أقدامهم في هذه الطريق وإفراد ذلك في مصنف آخر.

ومن بواعثي على هذا الإخراج أمر آخر وهو الذي خصص، هو أني كنت منذ سنوات تعرفت لكثير منهم ولأحوالهم ومنشأ أصولهم وقد تكشف لي في تلك الأثناء أن علماء هؤلاء وحذاقهم إنما استمدوا علومهم وأمهات أفكارهم من كلمات ربما وقفوا عليها في الأحياء أو غيره من كتب أبي حامد رحمه الله أو سواه، ولكن صارف الترجيح يكون لكتبه رحمه الله في الأغلب. إذ يندر بين المتصوفة من صنف مثله أو نحوه وعلى القطع فإنه ليس من بين هؤلاء من نسب إلى العلم نسبة الغزالي رحمه الله، بل وثمة أمر جامع فيه وهو ارتضاؤه من كل فرق المتصوفة على اختلاف طرقهم، وجعله في رأس الحربة عند مقارعة الفقيه الرسمي كما يسميه الغزالي ويسمونه، ويقولون: هذا قول فقيه أصولي متمرس، علاوة على ما حواه من معرفة منقطعة النظير في علم التصوف وأسسه.

ولذلك فإنك تجد القاصي والداني منهم يحتج على طريقته وترجيح مسألته بأقوال أبي حامد التي هي عند أكثرهم كنصوص الكتاب والسنة.

من أجل ذلك دخلت عليهم من هذا الباب.

ولما كان الاحياء أجل كتبه وأجمعها وأحواها لعلوم التصوف الذي به نبُل وقد جعله محوراً لكثير من مصنفاته التي يدعو بها إليه كان الأليق بهذا المضمار جعله الغرض.

بين طيات الاحياء:

فشرعت في مطالعة الاحياء بعين الفاحص المدقق بعد أن كنت قرات قدراً كبيراً منه منذ سنوات، ووقفت على بعض عجائبه.

وكنت في أثناء طيّ صفحاته أحاول الربط بين أحاديثه المبثوثة في مؤلفاته، وبين المرحلة التي كان يعيشها تلك الآونة أثناء سفره لبيت المقدس بعد خلوته الطويلة في الشام وأيام الجدل والجاه في بغداد.

والذي ينكر ما في الأحياء من نفحات، هو إما جهول، وإما مغرض كذاب، فإن في الأحياء من نفائس الدرّ وعيون الجوهر ما لا يطاق حمله.

ولكنك لا تكاد تأنس، وتجنح بكليتك نحو أمور الآخرة، حتى تحمل عليك أجناد الشطح لتذهب بكل سكينة.

يطول بعضها ويقصر، ولكن قلما تركتك تفترق عن الكتاب على قلب واحد.

واستمرت الحال على هذا النحو حتى آخر الكتاب، حتى حوت الكراريس شيئاً جماً من تلك الشطحات والمزاعم.

ولما تفكرت في شأن الردود عليها، وبيان زيفها، وإخراج زبدها وقطع أصلها علمت أني مقدم على سفر عظيم.

ثمن أني تأملت بواعثها[1] وأساسها وعمادها، فإذا منشؤها ومعينها واحد، فعمدت إلى ما أصّل وقعّد ارميه بكل صنوف الحق وأشكال الصدق، حتى خرّت أركانه وتداعت تحت قذائف مجانيق الحجة والبرهان.

ـ مداخل التخليط وإيصادها:

والذي يجرب تجربتي، ويعرف معرفتي، يعلم أن التخليط دخل على أبي حامد من أبواب متفرقة.

فأول ذلك: إقحامه في موارد الشرع ما ليس منه كرؤيا المنام، وعلم الباطن، والفراسة والتحديث وخواطر القلوب والتلقي ربما عن الملائكة أو أرواح الأنبياء والأولياء، أو لقاء الخضر عليه السلام أو غير ذلك.

---

(١) أي بواعث الشطحات والمزاعم.

وثاني ذلك: إرادته الجمع بين شتات ما نقل عن أهل المنطق والفلسفة والكلام وبين ما أقرته قواعد الإسلام، بل وقطر كثير من نصوصه نحو مرادهم وترتيباتهم!!.

وآخر ذلك: كان وثوقه بكل ما حكي عن مشايخ الطريق، ونُقل عنهم، بعد أن جعلهم في مرتبة واحدة، سواء منهم الصديق والزنديق!!.

حتى علق في غوائل وحبائل، ما كان له أن يخرج منها بعد طول التكلف وإظهار التعسف. هذا مع قلة معرفته بصحيح نصوص الشرع وضعيفها، أو موضوعها.

(فابتدأت) باسم الواحد الأول، بإبراز مكانة السنة والأثر بعد كتاب الله تعالى، وأنهما بهما الاعتصام والائتلاف عند التضاد والاختلاف، وأن ليس للمؤمنين في ذلك خيرة، ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم...﴾.

ثم أقمت البرهان بغاية الإمكان على ضعف الغزالي في ميدان السنة، وقلة معرفته وقصر تجربته، وأنه شهد على نفسه: «أنا مُزجيّ البضاعة في الحديث».

بل وأنه ليس من بين شيوخه من اشتهر بهذا العلم الشريف لا رواية ولا دراية، ولا هو طلب ذلك من كتبه.

فكان صدوره عن المعين بغير تزود.

وإن أجل شيوخه الذي به تخرج وطالت مدته معه، هو أبو المعالي الجويني رحمه الله، أصولي متكلم ثم أنه أتم دراسته على يدي «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، و«الرعاية» للحارث المحاسبي ومنشورات الجنيد، ومتفرقات الشبلي وأبي يزيد، ونحوها!!!.

فأتت مؤلفاته بل أحسنها على تلك القافية ونفس المنوال، مما جعل جمعاً جماً من علماء عصره ورفقاء دهره ينكرون عليه بعض هذه التصانيف التي بسط فيها كلام زنادقة المتصوفة، وجعله من الحق والصدق، وخروجه عن

قانون الفقه وقواعد الشرع، ومحاولته دفع التهم عنه بعد أن أولج وأخرج من كلام رؤساء مشايخ الطريق ما يناسب طريقته، ويؤيد حجته، وحشده مما لا يصح الاستدلال به سواء من النصوص المنسوبة إلى الشرع وهي إما ضعيفة وإماموضوعة، أو من التأويلات الفاسدة البعيدة عن مراد الشارع.

وقد أوردت من أسماء هؤلاء العلماء المشاهير والجهابذة النحارير، من أفرد مصنفاً في الرد على كتبه ومزاعمه سوى من خصه ببعض فصول كتاب أو انتقده في عرض مسألة كعادة أهل العلم في ردودهم.

وفي آخر فصول الكتاب ولحاجة في نفس يعقوب، سردت حكاية الغزالي فيما اعتمده المتصوفة من موارد العلم الشرعي، واستغنوا بها عن طلبه، وكيف أطال في الاستدلال لهذه الموارد بذكر ما يزيد على ثلاثة عشر دليلاً.

ثم كيف أتيت عليها من أولها لآخرها، أبين ما فيها وأبطل كل دليل من أوجه متعددة حتى يقول قائل: «ليس بعد للصوفية[1] باب يدخلون منه ويخرجون».

وأما في إرادته الجمع بين الإسلام والتفلسف، في قالب التصوف، والعبارات الإسلامية، فقد غدا منقطع الحجة معدوم البرهان، كما في مسألة فلسفة القلم والملك الواردين في الحديث أن المراد بهما العقل، ولست أجزم أنه عنى العقل الأول الذي حكته الفلاسفة، ولكن إيراده للعقل وشرفه أقساماً في مطلع احيائه يحملني على التوقف في مراده، ونحو هذا حديثه في اكتساب النبوة الذي هو مذهب فلاسفة اليونان، وغلاة المتصوفة وأخوان الصفا فإن عباراته في هذا المعنى كثيرة صريحة حتى قال في ذلك الإمام أبو بكر الطرطوشي «إن الغزالي شبك كتابه الإحياء بمذاهب الفلاسفة، ومعاني رسائل أخوان الصفا، ورموز الحلاج، وهم يرون النبوّة مكتسبة».

وكلماته في هذا المعنى لم أضعها في مكان واحد، ولكنها ستأتيك مفرقة مبددة في فصول الكتاب. هذا، وستقف على مسائل كثيرة من هذه الشاكلة في حينها.

---

(١) أعني بهم الذين استغنوا عن العلم وطلبه، واعتمدوا خيالاتهم وخواطرهم.

وأما ثالث أبواب التخليط: فأودعته مباحث معرفة الغيب، واعتقاد الأسرار المكنونة ورؤية الله سبحانه وتعالى في الدنيا وسماع خطابه، ومبحث الفناء في التوحيد وغير ذلك، وفي معرض إبطال هذه المعتقدات ذكرت افتراق الأشياخ الذين جعلت أقوالهم أصلاً في فهم هذه الأحوال ما بين متّبع ومبتدع، وصديق وزنديق، ومعدود، ومردود، وعجبت كيف عدهم أمّة واحدة.

ونبهت أن بعض هذه الأحوال ليست من مطالب الشرع فضلاً عن كونها نهاية أحوال الواصلين، كمسألة الفناء.

وإن بعضها يضادّ الشرع ويناقضه كمعرفة الغيب وادعاء الأسرار المكنونة، وأما في مسألتي الرؤية وسماع الخطاب. فقد بيّنت أن أحوال مدعي ذلك يشبه حال من قيل فيهم: «استعجلوا الشيء قبل أوانه فعوقبوا بحرمانه».

وأوردت أثناء حديث الغزالي وقبله وبعده، تعارض ما ادعاه مع جحافل الأدلة الشرعية وجيوش نصوصها.

وثمة في الكتاب وحواشيه، فوائد فرائد نفائس، وتراجم عارضة كثيرة، وتحقيقات متنوعة في الأصلين وعلومهما، والقرآءات والرجال والمصنفات.

فجمعت فيه من أئمة الدنيا وأعلام العلماء ما أظنك لا تجتمع بهم في مثل هذا المجلس.

وكتبه

عبد السلام محمد علوش

في غرة جمادى الآخرة عام ألف وأربعمائة

وأحد عشر لهجرة المختار عليه السلام

ـ المقدمة ـ

الحمد لله الواحد الوتر، الرحيم البَرّ، مصعد الكلم الطيب، مُنْزل القَطْر، باعث المجددين على رأس كل مائة عام[1] لأجل أمر، الدعوة برسالة محمد ﷺ القائل: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[2]، صلى الله عليه وآله وصحبه وزوجاته أبد الدهر، والتابعين، جعلني الله وإياك منهم وتجاوز عنا كثير الآثام وزلات العمر؛ إنه سميع عليم.

واعلم رحمك الله وإياي، إن كثيراً من المسلمين قد عدوا الغزالي رحمة الله عليه علماً من هذه الأعلام ومجدداً من ألمع المجددين لهذا الدين، ثم منهم من غلا فيه ليرفعه فوق الأئمة الأربعة المجتهدين بل وقد يقدمه على أصحاب النبي ﷺ والخلفاء الراشيدين.

ولما كان لكل مذهب خصومه، كانت النتيجة حتمية في ظهور المبغضين له، الحانقين عليه، المنقصين من قدره، المشككين في عقيدته.

فأصبح الوقوف على صدق الخطب، وبرهان الحقيقة، أمر جلل، وهم جبل، يتردى فيه غير المتمرسين بين القمة والقاع، تتيه فيه عقولهم بين الأهواء، في مذهبي الإفراط والتفريط، فكان لا بد من القضاء، وإبداء القول الفيصل في ما جعله من دين الإسلام أو أنكره.

وقد يقول قائل: نحن دعاة ولسنا قضاة.

---

(١) هو معنى حديث أخرجه أبو داوود

(٢) أخرجه مسلم في أول حديث الشفاعة.

والجواب: إن هذا القول من حيث الأصل ليست بآية محكمة، ولا سنة ماضية، ولا شرع يتبع، وجملة ما فيه، أنه لا يستدل به إلا بحسب حظه من الخطأ أو الصواب، وهو خطأ من وجه وصواب من آخر.

فأما وجه الخطأ فيه، فسلبه للأمة منصب القضاء، وحياتها لا تستقيم إلا به، سواء في الحدود والأحكام والنزاعات والعقائد، فضلاً عن القضاء بين من ليسو تبعاً للأمة.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ ﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله...﴾.

وبمثل هذا قام الصدر الأول ومن بعدهم فحرروا بالسيف، وحبّروا بالقلم، لأن مجرد النداء بالإسلام قضاء بإبطال بقية الأديان وعدم قبولها عن الله، وبُدُور الملّة لم يتركوا زيفاً إلا وبنيوه، ولا صارخاً بباطل إلا أسكتوه، وذبّوا عن الدين انتحال المبطلين من داخل هذه الملة الحنيفية وخارجها، حتى خرجت أحوالهم وأقوالهم في ذلك عن الحصر، وليس صنيعنا هنا إلا من هذا الضرب.

وأما وجه الصواب فيه ـ وفي صوابه دخن ـ كوننا دعاة.

فإن الدعوة قسمان: دعوة تبليغ، ودعوة تصحيح.

فإن أراد قائله الدعوة الأولى فحق، إذ المخاطب هنا غير المسلم، والمراد تبليغه ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ... ﴾. دون التعرض لمقالات الخلق إلا بقدر ما جاء فيه [illegible] الاعتراض.

والمسلمون تبع لنبيهم ﷺ في هذا الخطاب.

وأما دعوة التصحيح، فتلك لون آخر وضرب ثانٍ، ولا تكون إلا بإنكار المنكر، ونفي الخبيث وإزهاق الباطل، والتحذير من كل صنوف الانحراف والضلال، التي أحدثها المحدثون في دين الله، سواءٌ منهم العامدون أم المخطئون، صغيرها وكبيرها، دقّها وجلّها، بعد طي نيّاتهم وغض البصر عن

سرائرهم التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

فقد جاء في الحديث «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه. فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[١].

وفي حديث آخر «ما من نبي بعثه الله في أمته قبلي: إلا كان له في أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[٢].

فبذلك قوام الأمر، وحفظ الشريعة، وردع المنافقين، وزجر الفاسقين.

وهو من درب طلاب الآخرة، ومحبي الباقية، الساعين في تحصيل الفلاح، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

وترك النهي عن المنكر من موجبات اللعن، كما قال تعالى: ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون**﴾.

ففي الآية أن ترك النهي عن المنكر من المعصية والاعتداء ولذلك جاء في السنن أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهوُنَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنّه فلا

(١) رواه مسلم وغيره من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم وغيره من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وفيه زيادة عن الحديث الذي قبله لحال من لم ينكر بقلبه، فتأمّله فإنه نافع.

يستجاب لكم»[١] وفي رواية «أو ليسلطن الله عليكم شراركم، فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم»[١].

فهذه دعوة انذار وتحذير، ولا تتحقق إلا برد الشبهات، ودرء المفسدات، ودرء المفاسد في الشريعة مقدم على جلب المصالح، وهذا هو الشطر الآخر من الدين وقاعدته الركنية التي لا يقوم إلا عليها، والتضاء من لوازمها، وفقه ساقط ليس فيه أن هذا من ذلك.

فإن قلت: فلم سميتها دعوة.

أجبتك: لأن من حذر من الشر فقد دعى إلى خير، وإن أول دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام لقومه، أنه كسر أصنامهم ثم قال لهم ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ و ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وعلى هذا قام الجهابذة المحققون، حصون الدين في الرد على شبه المخالفين، وعقائد الخارجين، من أهل الملل والنحل، وكتبهم في ذلك مسطورة مشهورة، حتى لم يبق بين مذاهب الإسلاميين وغيرهم، مذهب لم يقل فيه أهل السنة حكمهم.

وحتى في كتب التراجم والرجال قد يتهمون رجلاً بالكفر أو الزندقة أو الكذب أو سوء الحفظ، وآخر بالحفظ والضبط، أو الاتقان والتوثيق، باغين من ذلك الحكم الوقوف على صحة نسبة المروي لقائله، وتبيين مرتبته، وهل يصح الاحتجاج به أم لا.

ولم يهملوا في كتبهم رجلاً من الرجال ولا امرأة اقتحمت هذا الباب، بدءً بإمام الأئمة شيخ الإسلام أحمد بن حنبل، والإمام القدوة البخاري، وانتهاءً بمحمد بن سعيد المصلوب، وعبد القدوس الدمشقي، الذين هما من أكذب خلق الله على عباده ورسوله.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث حذيفة رضي الله عنه به، والترمذي وحسّنه وابن ماجه.

فروي القاضي عياض في كتابه «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد سماع»: باب ما يلزم من إخلاص النية في طلب الحديث وانتقاد من يؤخذ ه، بسنده إلى أبي هريرة وبآخر إلى أنس بن مالك رضي الله عنهما أن ي ﷺ قال: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه»[١].

ففي الحديث وجوب التحري عن رواة الحديث وأصحاب المقالات، ل من تلفظ بعلم سواء بسواء، فهذا أصل عظيم في التحري عن الشيوخ يائخهم، من عمل به أبصر، ومن تركه عمي.

ثم روي - القاضي عياض - بسنده عن الإمام مالك أنه قال: «لا تأخذوا م عن أربعة وخذوا عمن سواهم، لا يؤخذ العلم عن سفيه معلن بالسَّفه، كان من أروى الناس. ولا من صاحب هوى يدعو إلى هواه. ولا من اب يكذب في أحاديث الناس وإن كنت لا تتهمه بكذب على رسول ﷺ، ولا من شيخ له عبادة وفضل إذا كان لا يعرف الحديث»[٢].

وهو في مقدمة «صحيح مسلم» (١/ ١٤) وفي مسند الدارامي (١/ ١١٤) وعند أبي نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٧٨) وجاء في «إسعاف المبطأ على رجال الموطأ» (ص ٣) (وقال إسماعيل ن أبي أويس سمعت خالي مالكاً يقول: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم. لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين فما أخذت منهم شيئاً، وإن أحدهم لو إئتمن على بيت مال لكان به أميناً، لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، فقدم علينا ابن شهاب فكنا نزدحم على بابه»). وجاء قبل ذلك (ص٢) أدركت هذا المسجد وفيه سبعون شيخاً ممن أدرك أصحاب النبي ﷺ وروى عن التابعين لم نحمل العلم إلا عن أهله). ونحو هذا جاء عن أبي الزناد قال: «أدركت بالمدينة مائة لهم مأمون، ما يؤخذ عنهم الحديث» أنظر مقدمة صحيح مسلم. وأخرجه الحاكم في تاريخ»، والديلمي في «مسند الفردوس» عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: انظروا من تجالسون وعمن تأخذون دينكم...» ولكنه لم يصح، («منتخب كنز العمال» ٤/٧).

ظر «التمهيد» (١/ ٦٦) و «إسعاف المبطأ» (٣) و «فتح الملهم» (١/ ١٢٩) ونحو هذا ل الغزالي في «الأدب في الدين» فقال في آداب طالب الحديث: «ولا يكتب عمن لا عرف الحديث من الصالحين» (ص ١١٢) ضمن مجموعة «المنقذ» و «الكيمياء» «القواعد» ولكنك سوف ترى مدى التزامه بذلك. وانظر أيضاً: «جامع بيان العلم»

وهذا القول ذكره السيوطي في «الاسعاف» وزاد: (وقال إبراهيم بن المنذر فذكرت هذا الحديث لمطرف بن عبد الله فقال: أشهد على مالك لسمعته يقول: «أدركت بهذا البلد مشيخة أهل فضل وصلاح ما سمعت من أحد منهم شيئاً قط»، قيل لِمَ: قال: «كانوا لا يعرفون ما يُحَدِّثون»)[1] وهذا الكلام ساقه الحافظ شمس الدين المقدسي بتمامه في «الآداب الشرعية»[2] وزاد:

[وقال مالك لرجل أطلب هذا الأمر من عند أهله. . . فذكره.

وروى الخلال عن ابن عباس مرفوعاً: «لا تأخذوا العلم إلا ممن تجيزون شهادته» وروي عن الحسن وابن سيرين مرسلاً، وقال بهز بن أسد: «دين الله أحق أن يطلب عليه العدول» وقال هشيم بن مغيرة عن إبراهيم النخعي قال: كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سَمْتِه وإلى صلاته، وإلى حاله، ثم يأخذون عنه].

ومن هنا كان إدخال الرجل في أحد قفصي الاتهام هو بحث منهجي لما قعّد وأصّل ظناً منه أن ذلك من الدين. ولا جرم أن القضاء هنا يحتاج إلى طول الباع، وكثرة التتبع، وبعد النظر، وحسن الطوية، فهذه أربعة أمور واجبة الحضور عند المنصفين.

وذلك يذلله اتساع الوقت، وحسن المقصد، وقول السالفين من أهل التحقيق.

وإن الحديث في ذلك عن الإمام الغزالي رحمه الله، حديث ذو شؤون وشجون، طويل متقلب، تقلب حياة هذا الإمام كما يتضح ذلك لكل من قرأ سيرته وعرف حياته، وهو حكى ذلك عن نفسه حتى ذكر أنه في بعض فترات

= (٢/ ٤٨) و«الكامل» لابن عدي (ج ٣ ص ١١) و «الكفاية في علم الرواية» للخطيب البغدادي (ص ١٥٨).

(١) «إسعاف المبطأ برجال الموطأ» (ص ٣).

(٢) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٥٦).

حياته كان يترك في اليوم ما اعتقده بالأمس ثم يعود في الغد ليجزم بنقيضه، فيقول: (وبقيت قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال حتى شفي الله تعالى من ذلك المرض)[١]
وه بدفعني لحديث لا بد منه «السنة الميزان».

(١) «المنقذ من الضلال» (تحقيق محمد محمد جابر - ص ١٠).

«السنة الميزان»

حديث لا بد منه:

أخرج الإمام أحمد رحمه الله والطبراني، جعل الله قبره روضة من رياض الجنة، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لكل حياة شِرّة، ولكل شِرّة فترة، فمن كانت فترته لسنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته لغير ذلك، فقد ضل»[١].

وأخرج مالك في «الموطأ» وابن أبي عاصم في «السنة» قول النبي ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه»[٢] وعند ابن ماجه «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك». وأخرجه أحمد.

ومن هنا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لو تركتم سنة نبيكم لضللتم» وفي رواية «لكفرتم»[٣].

وقد قرأنا في كتاب ربنا ﴿... ويعلمهم الكتاب والحكمة...﴾ في غير موضع. وقال الشافعي الإمام رحمه الله: «سمعت ممن أرضى به من أهل العلم أن الحكمة في الكتاب في السنة»[٤].

وما في الكتاب والسنة من هذا المعنى كثير، وتتبعه يخرج عن مقصد الكتاب.

والشاهد من كل ذلك أن الناس إنما ينبلون بحسب متابعتهم للسنة، والتزامهم بها، وقيامهم عليها، وإنما خصصت السنة بالقول، لأن القرآن قد

(١) وفي صحيح ابن حبان بلفظ: «إن لكل عَمَلٍ شِرَّةً وإن لكل شِرَّةٍ فترة، فمن كانت شِرَّته إلى سنتي فقد أفلح ومن كانت شِرَّته إلى غير ذلك فقد هلك» والشِرَّة: الحرص على الشيء والرغبة والنشاط. والحديث في المسند من غير وجه، وعند الطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/٨٨) وابن أبي عاصم في «السنة» (٥١).

(٢) وللحديث شاهد عن ابن عباس أخرجه الحاكم وصححه، نبهت على ذلك لكونه معضلا من طريقهما.

(٣) هو قطعة من حديث أخرجه مسلم.

(٤) أنظر مقدمة «مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسُّنة» للسيوطي.

تساوت في معرفته الملل والنحل وكل الفرق[1]، وإنما حصل التقصير عندهم من جهة ما فاتهم من السنة، سواء المتعلق منها بالكتاب، من شرح وتبين وتفصيل وتخصيص مؤدّاه الجهل ببعض المراد به، فوقع الخطأ في فهمه. أو التابع منها للكتاب مما لم يذكر فيه صراحة، فدخلت عليهم الشبهات من جهة النقص في نصوص الشرع أو فهم معانيه، وشبهة ليست من جنسهما أندر من النادر.

هذا إن غضضنا الطرف عن الشهوات، فإننا بصدد العلم. وذلك أن أصل الضلال في الدنيا، إنما منشؤه الشهوات والشبهات، وبذلك كانت السنة الميزان.

واعلم أن من هذا الضرب قوله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد من حديث العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، قلنا يا رسول الله إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ قال: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشياً، عضوا عليها بالنواجذ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد إنقاد»

وأخرجه من طريق ثانية عن العرباض رضي الله عنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ الفجر ثم أقبل علينا فوعظنا... فذكر نحوه مع حذف وزيادة.

وأخرجه من طريق ثالثة نحو الثانية. ومن طريق رابعة وخامسة كذلك والحديث أخرجه ابن ماجه، والترمذي مع بعض الاختصار وقال حسن صحيح.

فجعل ﷺ المنقذ عند الاختلاف، والمَرَدّ، السنة والأثر، وقوله ﷺ (وسنة الخلفاء الراشيدين المهديين) من هذا القبيل، وذلك أن شتات السنة اجتمع بعد موته ﷺ في حياة خلفائه، ووقع الفصل بين الناسخ والمنسوخ وبلّغ السامع من لم يسمع، بل وأن كثيراً من نصوص السنة إنما فسرت بعمل الخلفاء.

(١) يعني من حيث وصوله إليهم، وإن كانوا اختلفوا في التفسير.

ومناظرات الصحابة رضي الله عنهم بعد موته ﷺ أكثر من أن تحصى بل ان الخلفاء كانوا إذا عرضت لهم المسألة جمعوا لها الصحابة فمن وجد عنده العلم حدث به وأخبر، واجتمعوا على ذلك، كما في مسألة فدك خيبر عن أبي بكر، والتيمم عن معاذ، والاستئذان بثلاث عن أبي موسى، وتفسير سورة العصر عن ابن عباس، والصلاة على الميت في المسجد عن عائشة، والفرار من أرض الوباء عن ابن عوف، وعلى رأس ذلك كله مسألة قتال مانعي الزكاة، وحادثة جمع القرآن، هذا مع الإشارة إلى أن العمل بالسنة ليس من العمل بالقرآن فحسب، لأن الله قد أمر بطاعة رسوله، بل لأن السنة توضيح للقرآن، بل قد روي عن بعض السلف أنه ما من حديث حدثه النبي ﷺ إلا وقد أخذه من القرآن، ولما كانت عقول سائر البشر بعد النبي ﷺ قاصرة عن هذا الفهم الواسع العظيم للكتاب، أمرت بمتابعة السنة، هذا في قول.

وفي قول آخر أن السنة متممة للقرآن بوحي آخر خاص بها. وقد قال الحافظ ابن حبان بعد إخراجه هذا الحديث في صحيحه[1]: «قوله ﷺ: «فعليكم بسنتي عند ذكره الاختلاف الذي يكون في أمته بيان واضح أن من واظب على السنة وقال بها ولم يُعَرِّج على غيرها من الآراء هو من الفرق الناجية يوم القيامة جعلنا الله منهم».

وبذلك كانت السنة الميزان، ومن أجل هذا لم يعرف بين أئمة الهدى من لم يسمع الحديث ويرحل في طلبه. أو يكتبه، والأمة لم تقبل بين علمائها من لم يشتهر بذلك في العلم والعمل، كأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني والشافعي، ومالك وأبي حنيفة والبخاري، والأوزاعي والثوري، والبصري ،والخطابي ،والقرطبي ،والنووي، والعسقلاني، والسيوطي، وغيرهم ممن لا يحصيهم إلا الله تعالى. وما تكلم في أحد منهم ـ ليس على سبيل الانتقاص ـ إلا لعدم موافقته الكتاب أو السنة في نادر المسائل. وكل المسلمين يشهدون، أن الأئمة ما تركوا نصاً أو خالفوه إلا ولهم في ذلك معتمد

(١) الاحسان في تقريب صحيح ابن حبان تحقيق شعيب الارناؤوط (١/١٧٨).

ومستند شرعي ـ في نظرهم ـ ، وليس يعرف لأحد منهم موقف واحد رد فيه حديثاً وحداً. والحاصل الذي لا محصل سواه أن سبب الترك عندهم كان، إما لضعف في الدلالة على نص المسألة وتطرق الاحتمال، أو غياب مناط الحكم، أو رجحان لدليل آخر أصح منه من حيث الإسناد، أو لغياب النص عنه ورحم الله الشافعي القائل: «وأينا لا تغيب عنه سنة رسول الله ﷺ وتذهب»[1]. من أجل ذلك كان «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»[2].

ورؤساء الطوائف وأصحاب النحل ما رفع أحد منهم إلا بما معه من الإثبات من أدلة الكتاب والسنة وما انتقص ولا أعيب إلا بما عليه من ذلك. بل لا يفصل بين طوائف المسلمين وغيرهم، ولا بين عقيدة وأخرى ولا ترجح كفة الميزان إلا بهما.

فالرافضة ما رفضوا إلا لما رفضوا بعض النصوص منهما. والخوارج ما أخرجوا إلا بما خرجوا عن مثل ذلك. والزيدية ما قال بقربها بعض المسلمين إلا لقربها بالنسبة لغيرها من الكتاب والحديث. والمعتزلة لا يُحْمَدون إلا بقدر ما وافقوا أهل السنة وردوا فيه على المبتدعة والرافضة ما خرجوا به عن الدليل والسنة والحديث، حتى قال أبو عبد الله محمد بن علي الدامغاني الحنفي قاضي بغداد[3] في زمانه وأبو إسحاق إبراهيم بن علي الفيروزبادي الشيرازي الشافعي[4] الفقيه بعدم جواز لعنتهم وتعزير من يلعنهم، وذلك في خلافة النظام، لما استفتاهم[5].

وأبو الحسن الأشعري إنما ذمّه الناس وانتقصوه وعابوه لما خرج عن السنة والأثر ثم رفعوه وأحبوه لما رجع إليهما، واحد من المسلمين لم ينتصر له

(١) رواه عنه الحاكم بسند متصل، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٥/١/٣)، وذكره ابن القيِّم عنه في «أعلام الموقعين» (٢/٣٦١).
(٢) أنظر كتاب «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لشيخ الإسلام ابن تيمية.
(٣) أنظر «البداية» ص ١٢/١٢٩.
(٤) أنظر «البداية» ص١٢/١٣٤.
(٥) راجع «نقض المنطق» ص١٤.

ويذبّ عنه إلا بما وافق أهل السنة والحديث، كأبي القاسم القشيري وأبي بكر البيهقي، وأبي القاسم الدمشقي هبة الله بن عساكر، وأفرد في ذلك مصنفاً أسماه «تبين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري»، ذكر فيه رجوع أبي الحسن عما انتحله، وموافقته لمذهب الإمام أحمد خاصة وأهل السنة والجماعة عامّة. أورد فيه قول الشيخ أبي إسحاق: «إنما نفقت الأشعرية عند الناس بانتسابهم إلى الحنابلة» ثم قال: «ما زالت الأشاعرة والحنابلة متفقين غير مفترقين حتى حدثت فتنة ابن القشيري»[1]؛

قلت: وإنما أحبه المسلمون ومن ذبّوا عنه لافتضاحه المعتزلة على المنبر[2] لما خالفوا السنة. والسجستاني أبو عبد الله محمد بن كرّام؛ إمام الكرّامية كان إماماً يقتدي به موافقاً متابعاً، فلما تغير ذمه السلف وعابوه حتى قال ابن حبان: «خذل حتى التقط من المذاهب أرداها، ومن الأحاديث أوهاها» وقال الذهبي: «ساقط الحديث على بدعته». وذلك أنه كان يقول: «الإيمان قول بلا عمل ولا اعتقاد» فتركه أهل القدس ونفاه متوليها إلى غورزغر فمات بها[3].

وأبو محمد علي بن حزم، فقيه أهل الظاهر وإمامهم ولسانهم وحجتهم، لم يبلغ ما بلغ إلا بقدر تمسكه بالكتاب والحديث، وموافقة أهل السنة والجماعة في مسائل القدر والإرجاء وتعظيم سلف الأمة، ومعرفته بالحديث مقبوله ومردوده، وموافقته الإمام أحمد في مسألة خلق القرآن. بخلاف ما انفرد به في مسألة تفضيل الصحابة، ووقوعه في الأكابر، ورده القياس والمبالغة في دعوى متابعة الظاهر، وإنكار الحكم والتعليل، فإنه مما يؤخذ عليه لا عنه. هذا مع ما له من سعة الاطلاع والتبحر وطول الباع، بما لا يكاد يقع لغيره من الفقهاء وهو ما لا يدفعه إلا مكابر.

وأكثر من ذلك كله إن أهل السنة والجماعة عامّةً وأئمةً يقدمون الرجل لاشتهاره بكتابة الحديث، أو روايته واعتنائه بالسنة، ويرفعونه، وبعض

---

(١) «تبيين كذب المفتري فيما نسب لأبي الحسن الأشعري» لابن عساكر ص١٦٣.

(٢) أنظر «البداية» ص١٨٧/١١.

(٣) أنظر «البداية» ص٢٠/١١.

المتأخرين يسمونه أمير المؤمنين في الحديث كابن شهاب وابن المبارك والسفيانين وابن إسحاق، وابن المديني، وابن معين، وابن راهويه وخلق كثيرين لا يحصيهم إلا الله عز وجل.

والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين إنما اشتهر من اشتهر منهم بكثرة روايته الحديث عن رسول الله ﷺ، كأبي هريرة بين أهل الصفة، وعائشة بين أمهات المؤمنين، وابن مسعود بين المهاجرين بعد الخلفاء[١]، وابن عباس وابن عمر وأنس وابن عمرو بين من أدركوه ﷺ من الفتيان.

وكثير من الأصحاب الذين عرفوا بسبب روايتهم الحديث، ولولا ذلك لم يعرفوا كما حكى ذلك ابن حجر في «الإصابة» وابن عبد البر في «أسد الغابة»[٢].

وحمران مولى عثمان أمير المؤمنين رضي الله عنه، تقدم واشتهر بروايته حديث الوضوء عن عثمان، ونافع مولى ابن عمر ما فاق أقرانه وبلغ صيته الآفاق إلا لكثرة روايته عن مولاه عبد الله وهذا أبين من الشمس في ضحاها.

وقد كان عمر رضي الله عنه يدخل ماء الوضوء في عينيه، ويأخذ لأذنيه ماءً جديداً، وكان أبو هريرة رضي الله عنه يغسل يديه إلى العضدين في الوضوء ويقول: من استطاع أن يطيل غرته فليفعل. وروي عنه أنه كان يمسح العنق ويقول: هو موضع الغلّ. وقد استباح أبو طلحة أكل البَرد وهو صائم، واستباح حذيفة السحور بعد ظهور الضوء المنتشر، وكره عبد الله بن عمر وأبوه الطيب قبل الطواف بالبيت، وكان سلمان يرى أن الريق نجس، وكان ابن - لا يجيز نكاح الكتابية، وورّث معاذ ومعاوية المسلم من الكافر، ومنع ابن مسعود وعمر الجنب من التيمم وأوجبا السكنى والنفقة للمبتوتة، وأفتى عليّ وابن عباس في الحامل المتوفي عنها: أنها تعتد أبعد الأجلين، وقال ابن

(١) وذلك أن الخلفاء إنما قلّت الرواية عنهم لاشتغالهم بأمور الخلافة ثم أن حياتهم لم تطل بعد وفاة النبي ﷺ. وانظر مقدمة «كنزل العمال»، وقول السيوطي في ذلك.

(٢) راجع مقدمة «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر و«أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن عبد البر.

عباس في المتوفي عنها: ليس عليها لزوم المنزل، وكان أبو ذر يقول: المال كنز ولو أديت زكاته، وكره بعض الصحابة فسخ الحج إلى التمتع، ولم يجوز بعضهم للمسافر أن يصوم.

وكل هؤلاء رضي الله عنهم لهم في ما قالوا مستند ومعتمد، فهموا منه واستنبطوا، واجتهدوا، ومع ذلك فإنك لا تجد أقوالهم هذه وأفعالهم وفتاويهم، إلا في بطون كتب الفقه ونوادر الأثر، وقد طمست لأن السنة لم ترد بذلك، وفي ذلك كفاية. فلنقتصر على ما ذكرنا والله الهادي.



الغزالي يحكي ترجمته

في سنة خمسين وأربعمائة في مدينة طوس من مدن خراسان، ولد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزّالي، نسبة لوالده الذي كان يغزل الصوف وقد قل متاعه من حطام الدنيا.

يحكي بعض من ترجم لأبي حامد الغزّالي رحمه الله، أن أباه محمداً كان محباً للخط وفنونه مولعاً به، دون أن يدرك في ذلك مأرباً، فأراد تحقيق ما تمنى في ولديه ـ محمد وأحمد ـ فصرفهما لذلك فكانا يشتغلان بالنسخ من أجل القوت، فقال الغزالي أبو حامد رحمه الله في ذلك: «طلبنا العلم لغير الله. فأبى أن يكون إلا لله»[١].

وهكذا نشأ أبو حامد بين الكتب والكتّاب، متلقياً مبادىء الفقه والعربية على أحمد بن محمد الراذكاني وذلك في سنة خمس وستين وأربعمائة على قول السبكي.

ويذكر ابن خلكان أن أول خروج له كان إلى جرجان حيث تلقى فيها الأصول علي أبي القاسم إسماعيل بن مسعدة الإسماعيلي الجرجاني وعلى يديه صنف أول رسائله «التعليقة في فروع المذهب» وهي التي أخذها منه قطاع الطرق ثم أرجعوها إليه أثناء رحلته فيما بعد إلى نيسابور.

ولما وصل نيسابور مع بعض شباب طوس، راح يختلف لدروس إمام الحرمين الجويني في الفقه والأصول والجدل والمنطق والكلام والفلسفة فتخرج في مدة قريبة، وبزّ الأقران، على ما حكى ابن عساكر، ثم صنف «المنخول» وعرضه على الجويني شيخه فاستجاده واستحسنه وقال له: «دفنتني وأنا حيّ».

فلما توفي أبو المعالي الجويني سنة ثمان وسبعين وأربعمائة خرج الغزالي من نيسابور إلى بغداد، حيث لم يكن له أستاذ بعد.

---

(١) «طبقات الشافعية» للسبكي (٤/ ص١٠١) وما بعدها.

كان اسم الغزالي قد سبقه إلى العراق وذاعت إمامته فما أن وصل حتى اتصل بالوزير «نظام الملك» الذي فوّض إليه التدريس بالنظامية ببغداد سنة أربع وثمانين وأربعمائة على قول ابن كثير القائل: «درّس بالنظامية وله أربع وثلاثون سنة فحضر عنده رؤوس العلماء منهم أبو الخطّاب وابن عقيل وهما من رؤوس الحنابلة فتعجبوا من فصاحته واطلاعه». فلبث الغزالي على هذه الحال قريباً من أربع سنين حتى أصابه المرض فاضطر لمفارقة بغداد. وقد حكى ذلك هو في المنقذ فقال[1]:

(قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة، إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمه على الله تعالى.

وإن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهروب من الشواغل والعلائق، ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق وقد أحدقت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه، وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هار وأني قد أشفيت على النار، إن لم اشتغل بتلافي الأحوال.

فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحلّ العزم يوماً، وأقدّم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها جند الهوى حملة فتفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تتجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: «الرحيل، الرحيل». فلم يبق من العمر إلا قليلاً وبين يديك السفر الطويل وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، فإن لم تستعد الآن للآخرة، فمتى تستعد. وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟.

(١) «المنقذ من الضلال» للغزالي (ص٤٥) وما بعدها.

فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهروب والفرار، ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمن المسلّم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرّس يوماً واحداً، تطييباً لقلوب المختلفين إليّ، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتّة، حتى أورثت هذه العقلة في لساني حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشرب، فكان لا ينساغ لي ثريد ولا تنهضم لي لقمة، وتعدى إلي ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج. إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم.

ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب وأظهرت عزم الخروج إلى مكة، وأنا أدبّر في نفسي سفر الشام حذراً من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بالشام.

فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد، على عزم أن لا أعاودها أبداً، واستهدفت لأئمة العراق كافةً، إذ لم يكن فيهم من يجوّز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين، وكان ذلك مبلغهم من العلم.

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات، وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة، وأما من قرب من الولاة وكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي، والانكباب علي وإعراضي عنهم أو عن الالتفات إلى قولهم،

فيقولون: هذا أمر سماوي وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم.

ففارقت بغداد.

وفرّقت ما كان معي من المال، ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح، لكونه وقفاً على المسلمين، فلم أر في العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه.

ثم دخلت الشام.

وأقمت بها قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلت من علم الصوفية، وكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي.

ثم وصلت منها إلى بيت المقدس.

أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي ثم تحركت في داعية فريضة الحج والاستعداد من بركات مكة والمدينة، وزيارة رسول الله عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسرت إلى الحجاز.

ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن.

فعاودته.

بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه، فآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش، تغير وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة، وكان يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود إليها، فدمت على ذلك مقدار عشر سنين)[1].

[2](فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب ورأيت نفسي لازمة مجتهدة ملبية كشف هذه الشبهة حتى كان افتضاح

---

(١) «المنقذ» (ص ٤٩) تحقيق محمد محمد جابر.

(٢) «المنقذ» (ص ٦٣).

هؤلاء[١] أيسر عندي من شربة ماء لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعلمية والمتوسمين من العلماء، انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت محتوم.

فماذا تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عمّ الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك ثم قلت في نفسي متى تشتغل لكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة، والدور دور الباطل، ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق لعاداك أهل الزمان في جمعهم وأنى تقاومهم، فكيف تعايشهم. ولا يتم ذلك إلا بزمان يساعد، وسلطان متدين قاهر فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة، وتعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت[٢] من نفسه لا بتحريك من خارج فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور لتدارك هذه الفتنة.

وبلغ الإلزام حداً كان ينتهي لو أصررت على الخلاف إلى حد الوحشة، فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق، ولم ترخص نفسك لعسر مقاساة الخلق، والله تعالى يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ﴾

وقول الله عز وجل لرسوله ﷺ وهو أعز خلقه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ﴾

ويقول عز وجل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * يسٓ ① وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ...﴾ فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة

(١) تقدم ذكرهم من قبل أسطر وهم الخائضون في علم الفلسفة وطرق التصوف ودعوى التعليم وغيرهم راجع (ص ٦٠) من «المنقذ».
(٢) هو فخر الملك علي بن نظام الملك.

والخروج من الزاوية وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدره الله على رأس هذه المائة وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة، فاستحكم الرجاء وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادة ويسر الله الحركة.

إلى نيسابور.

للقيام بهذا المهم، في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة).

وعن هذا يحكي عبد الغافر الفارسي تلميذ الغزالي فيقول بأن فخر الملك علي بن نظام الملك وزير نيسابور طلب من الغزالي العودة للتدريس في النظامية وألح عليه إلحاحاً شديداً، فأجابه الغزالي لذلك حتى سنة ثلاث وخمسمائة، حيث قضى الباطنيون فيها على فخر الملك وعندها.

عاد الغزالي إلى بلدة طوس.

فأقام بها وابتنى رباطاً واتخذ داراً حسناً وغرس فيها بستاناً أنيقاً وأقبل على تلاوة القرآن، وحفظ الأحاديث الصحاح وكانت وفاته يوم الإثنين، الرابع عشر من جمادي الآخرة سنة خمس وخمسمائة، ودفن بطوس رحمه الله تعالى[1].

وقد سأله بعض أصحابه وهو في السياق فقال: أوصني، قال: عليك بالإخلاص، ولم يزل يكررها حتى مات رحمه الله[2].

---

(١) «طبقات الشافعية» للسُبكي (٤/١٠٨).

(٢) ترجمة الغزالي في «المنتظم» لابن الجوزي، وقد نقل ذلك عنه ابن كثير في «البداية» (١٢/١٧٤) وهذا القول ذكره الحاكمي الطوسي، انظر «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٩/٣٢٣) وما بعدها، و«تبيين كذب المفتري فيما نسب لأبي الحسن الأشعري» لابن عساكر (ص ٢٩١) وما بعدها. و«لسان الميزان» لابن حجر العسقلاني (ج١/ ص٢٩٣). و«مفتاح السعادة» (ج٢/ص١٩١) و«شذرات الذهب» (ج٤/ص١٠) وما بعدها و«الوافي

(وعند احتضاره، دعا بكفنه ومسح به على وجهه وقال: مرحباً بالقدوم على الملك)[1]، (وتوفي وصحيح البخاري على صدره)[2].

= بالوفيات» (ج١/ص٢٧٧) وما بعدها و«وفيات الأعيان» (ج٣/ ص٣٥٣) وما بعدها و«روضات الجنّات» (ص٧٥).

(١) «الوفيات» لأبي العباس وابن قنفذ (ص٢٦٦).

(٢) «مجموع الفتاوي الكبرى» لابن تيمية (ج٥/ص٤٢) ونحوه في «الصفدية» (ج٢/ص٢١٢) وتقدم عنه ذلك في «المنتظم» و«البداية»، وعند السّبكي في «الطبقات» (٤/ ١٠) إنه كان يسمع في آخر حياته صحيح البخاري من أبي سهيل محمد بن عبد الله الحفصي، وسنن أبي داوود من القاضي أبي الفتح الحاكمي الطوسي.



الغزالي يذكر مؤلفاته

كنت آثرت في بداية الأمر ألا أفرد لمصنفات الغزالي فصلاً خاصاً، وذلك لما اشتهر وانتشر من أقوال المتصدين لهذا الأمر سلفاً وخلفاً، وسيما، وقد أفرد بعض المعاصرين في مؤلفات أبي حامد سفراً ضخماً، وثمة أمر آخر وهو أني إنما عالجت من نصوصه ما ثبتت نسبته إليه، وصرح هو بنسبة هذه الكتب إليه في إحيائه أو منقذه أو منخوله أو مستصفاه أو جواهر القرآن أعني كتبه التي أطبقت الدنيا على أنها من صنعه وتأليفه.

ثم وجدت أنه لا بد من ذلك استيفاءً للبحث من جهة، وعدم احتياجه لغيره من جهة ثانية، وللجم كثيرين من الذين ينكرون نسبة بعض الكتب له وهم في ذلك ما قدموا ولا أخروا فجلّ ما يودعه أبو حامد كتاباً من كتبه إلا وتجد أمثاله ونظائره في أماكن كثيرة مبددة في كتبه الأخرى على عادته.

والعارفون بمواد كلامه، ومشابهة بعضه بعضاً لا يترددون في نسبة كثير من هذه الكتب المتنازع فيها إليه، وهو ما حكاه شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله[1] وهو ما ستجده مقرراً في مواضع كثيرة جداً من هذا المصنف بل أنك ربما تقف لا أقول على اللفظة بعينها أو الجملة ولكن الفقرة بأسرها في كتابين أو ثلاثة أو أكثر.

فـ «المضنون به على غير أهله» كان وما يزال طائفة من الناس يكذبون ثبوته عنه مع أنه لم ينسب لأحد سواه وغالب الذين ترجموا لأبي حامد ذكروه في جملة مصنفاته من غير تردد ولم لا يكون الكتاب له ومبدأ أبي حامد يقبله ويرتضيه.

فاسمع إليه ما يقول في جواهر القرآن[2]:

«ومقصود هذا العلم ـ علم الكلام ـ حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة، ولا يكون هذا العلم ملياً بكشف الحقائق...».

---

(1) «نقض المنطق» (ص٥٥).

(2) «جواهر القرآن» (ص ٢١) الطبعة الثانية ١٣٥٢ هـ.

وقال في المنقذ[1]:

«إنما مقصوده ـ يعني علم الكلام ـ حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة» وهذا حكاه في الاحياء أكثر من مرة[2].

فلهذا العلم أهله في نظر الغزالي، ولا يجوز إطلاقه بين العامة.

ولست أرى فارقاً بين «المضنون به على غير أهله» و «الاقتصاد في الاعتقاد» وبين «الجام العوام عن علم الكلام»، من حيث تسمية الكتاب والمراد به. إلا في تغير الألفاظ، والذي يجحد ذلك يبطل العقل، اللهم إلا ما بين صفحات «الألجام» في أمور تذكر في حينها في آخر هذا الكتاب.

وأما إن كان لا بد من صريح العبارة، فخذها من فيه وهو يقول[3]: «وإن أردت صريح المعرفة بحقائق هذه العقيدة من غير مجمجة ولا مراقبة فلا تصادفه إلا في بعض كتبنا المضنون بها على غير أهلها، وإياك أن تغتر وتحدث نفسك بأهليته...».

فتأمل قوله: «في بعض كتبنا المضنون بها على غير أهلها» فكأنه أراد الكتب السالفة الذكر جميعها.

وبالجملة فقد بلغت كتب الغزالي مبلغاً لا بأس به، أجلها «الاحياء» و «تهافت الفلاسفة» و «المنقذ» و «المستصفى» و «المنخول» و «جواهر القران» و «إلجام العوام».

---

(١) «المنقذ من الضلال» (ص١٤) ضمن مجموعة «كيمياء السعادة» و«الأدب في الدين» و«القواعد العشرة» تحقيق محمد محمد جابر.

(٢) أنظر فصله الخاص بعلم الكلام في كتابه الاحياء.

(٣) كتاب «الأربعين في أصول الدين» (ص٢١). قال صاحب «كشف الظنون»: (وهو ـ أي كتاب الأربعين في أصول الدين ـ قسم من كتابه المسمى بـ «جواهر القرآن» وقد أجاز أن يكتب مفرداً، فكتبوه وجعلوه كتاباً مستقلاً) قلت: ويؤيد هذا قول الغزالي في أول «الأربعين»: «الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله أجمعين، أما بعد: ولعلك تقول هذه الآيات التي أوردتها في القسم الثاني تشتمل...»، وقال في آخره: «ولنختم به أصول الأربعين ولنختم به كتاب جواهر القرآن، ومن طلب مزيداً عن هذا فليطلبه من كتاب ذكر الموت من كتاب «الاحياء»».

ومما لم يختلف العلماء في نسبته إليه ـ فيما أعلم ـ كذلك: «القسطاس المستقيم»، و «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»، و «كيمياء السعادة»، وقد صرح بنسبتهم له في «المنقذ»[1] وغيره.

وأما في كتاب «الأربعين في أصول الدين» فقد نسب لنفسه:

١ ـ المقصد الأسنى في معرفة أسماء الله الحسنى[2].

٢ ـ الاقتصاد في الاعتقاد[3].

٣ ـ بداية الهداية[4].

٤ ـ رياضة النفس[5].

٥ ـ ترتيب الأوراد[6].

٦ ـ الجام العوام عن علم الكلام[7].

٧ ـ وأشار إلى المضنون به على غير أهله[8].

ونسبه لنفسه أيضاً في مواضع أخرى.

وكذلك فليس من الناس من يشك فيما له بنسبة «المنخول» و «المستصفى في علم الأصول» أنهما له، وكذلك «جواهر القرآن» و «ومقاصد الفلاسفة» و «تهافت الفلاسفة».

---

(١) «القسطاس المستقيم» صرح به (ص٤١)، و«فيصل التفرقة» (ص٤١)، و«كيمياء السعادة» (ص٦٥) «المنقذ من الضلال» ضمن مجموعة «كيمياء السعادة» و«الأدب في الدين» و«القواعد العشرة»، تحقيق محمد محمد جابر.

(٢) «الأربعين» (ص١٣ و٢١).

(٣) «الأربعين» (ص٢١)، وذكره في «الاحياء» (٢٤٧/٤و١/٩٨).

(٤) «الأربعين» (ص٧٦)، وبذلك يتبين بطلان ما زعمه العز بن عبد السلام من أن «بداية الهداية» ليس للغزالي، لكثرة ما فيه من الباطل، راجع «نقض المنطق» لابن تيمية (ص٥٤ ـ ٥٥).

(٥) «الأربعين» (ص٥٨).

(٦) «الأربعين» (ص٧٦).

(٧) «الأربعين) (ص٢١).

(٨) «الأربعين» (ص٢١)، وانظر كتاب «الغزالي» لـ البارون كارادوفو (ص٥٣) وجزمه بنسبة الكتاب إليه.

و «معيار العلم» و «محك النظر» ذكرهما لنفسه في مقدمة «المستصفى في علم الأصول»[١] وفي «جواهر القرآن»[٢] وغيرهما وأما «حجة الحق» و «قواصم الباطنية»فاقتصرعلى نسبتهما له في «المستصفى»[٣] دون «الجواهر».

وما ينسب له وهو كذلك على الراجح[٤]:

١ ـ عمدة المحققين.

٢ ـ الدّرّة الفاخرة في كشف علوم الآخرة، ذكره الحافظ في الفتح ونسبه له وقال: أكثر فيه من الأحاديث التي لا أصول لها فلا يغتر بشيء منها[٥].

٣ ـ مكاشفة القلوب (وقيل ليس له).

٤ ـ منهاج العابدين.

٥ ـ سرّ العالمين.

٦ ـ الأجوبة الغزالية والمسائل الأخروية.

٧ ـ الحكمة في مخلوقات الله.

٨ ـ آداب الصوفية.

٩ ـ الكشف والتبيين.

١٠ ـ ميزان العمل.

١١ ـ قانون التأويل.

---

(١) «المستصفى» (ص٧) ط القاهرة ١٣٥٦. وجاء ذكرهما في «تعريف الأحياء بفضائل الاحياء»، (ملحق بالاحياء).

(٢) «جواهر القرآن» (ص٢١) ط مصطفى محمد ط ثانية القاهرة ١٣٥٢ هـ.

(٣) «المستصفى» (ص٧) ط القاهرة ١٣٥٦.

(٤) انظرهم في: «كشف الظنون» وذيله لحاجي خليفة.
«لسان الميزان» لابن حجر (ج١/ ٢٩٣).
«وفيات الأعيان» لابن خلكان (ج٣/ ٣٥٣ ـ ٣٥٥).
«شذرات الذهب» لابن العماد (ج٤/ ص١٠ ـ ١٣).
«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (ج٤/ ١٠١ ـ ١٨٢).
وغير ذلك من كتب التراجم.

(٥) «فتح الباري» (١١/٤٣٤).

ومن الرسائل:

١ ـ السعادة اللدنية.

٢ ـ الأدب في الدين.

٣ ـ أيها الولد.

٤ ـ القواعد العشرة.

٥ ـ مشكاة الأنوار.

٦ ـ رسالة الطير.

٧ ـ الرسالة الوعظية.

وفي كتاب «تعريف الأحياء بفضائل الأحياء» وقفت على جملة من الكتب سوى ما تقدم تنسب إليه كذلك[1] منها:

١ ـ البسيط.

٢ ـ الوسيط.

٣ ـ الوجيز، وقد نسب الغزالي الثلاثة له في أول كتاب أسرار الصلاة من الاحياء[2]، قلت: قال السلفاني: «وقفت للوجيز على سبعين شرحاً»[3].

٤ ـ الخلاصة في الفقه، وقال صاحب «تعريف الأحياء»: إنها من مشهورات مصنفاته.

٥ ـ المنتحل في علم الجدل.

٦ ـ حقيقة القولين.

٧ ـ ياقوت التأويل في تفسير التنزيل، وذكر أنه يقع في أربعين مجلداً، فالله أعلم.

٨ ـ الأنيس في الوحدة.

٩ ـ القربة إلى الله عز وجل.

١٠ ـ أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار.

١١ ـ الذريعة إلى مكارم الشريعة.

١٢ ـ المبادىء والغايات.

---

(١) «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء» (ملحق بالإحياء) (ج٥/ص٩).

(٢) الأحياء (١/١٤٥).

(٣) «تحفة الأحوذي» المقدمة (٢٢٦).

١٣ ـ تلبيس إبليس[١].

١٤ ـ نصيحة الملوك.

١٥ ـ شفاء العليل في القياس والتعليل.

١٦ ـ الانتصار.

١٧ ـ الرسالة القدسية[٢] (رسالة).

١٨ ـ إثبات النظر.

١٩ ـ المآخذ، (وبعضهم يسميه: (تحصين المآخذ).

٢٠ ـ الرد الجميل على من غير الإنجيل.

٢١ ـ المستظهري ـ صرح به في المنقذ[٣].

٢٢ ـ الأمالي.

٢٣ ـ علم أعداد الوقف وحدوده.

٢٤ ـ مقصد الخلاف (ولعله غير مآخذ الخلاف ومفصل الخلاف) فالله أعلم.

٢٥ ـ جزء في الرد على المنكرين بعض ألفاظ احياء علوم الدين[٤]، وقد نسب في غيره أيضاً وكثير من هذه الكتب نسبت له في غير موضع أيضاً[٥].

ومما نسب له أيضاً من الكتب:

١ ـ تهذيب الأصول.

٢ ـ أساس القياس.

٣ ـ حقيقة القرآن.

---

(١) المعلوم أن هذا الكتاب هو لإبن الجوزي، ولم يذكره أحد من كتب الإمام الغزالي إلا فيما ندر، لكن المرجح أنه من تصنيفه لما قاله في الإحياء (٣/٣٠): «ولعلنا أن أمهل الزمان صنفنا فيه كتاباً على الخصوص نسميه (تلبيس إبليس).

(٢) ذكر غير واحد أنه أرسلها لأهل القدس، وذكرها هو في أحيائه (١/٩٨).

(٣) «المنقذ»(ص٤١).

(٤) هو كتاب «الإملاء في إشكالات الأحياء» (ملحق بالأحياء).

(٥) أنظر «مؤلفات الغزالي» لعبد الرحمن بدوي.

٤ ـ الاستدراج.

٥ ـ أسرار معاملات الدين.

٦ ـ رسالة الأقطاب.

٧ ـ غاية الغور في دراية الدور.

٨ ـ غور الدور في المسألة السريجية (رجع فيه عن الأول).

٩ ـ عجائب الخواص.

١٠ ـ المضنون الصغير (وقد ألمح له في آخر المضنون الأول).

١١ ـ رسالة في رجوع أسماء الله إلى ذات واحدة على رأي المعتزلة والفلاسفة.

١٢ ـ المعارف العقلية والأسرار الإلهية.

١٣ ـ جواب الغزالي على مؤيد الملك بشأن دعوته للتدريس في النظامية.

١٤ ـ جواب المسائل الأربع التي سألها الباطنية بهمدان.

١٥ ـ كتاب في مسألة كل مجتهد مصيب.

١٦ ـ معيار العقول.

١٧ ـ الفتوى اليزيدية (توقف في يزيد).

١٨ ـ فتوى لابن تاشفين.

١٩ ـ لباب النظر.

٢٠ ـ خلاصة المختصر، ونقاوة المعتصر.

٢١ ـ التعليقة في فروع المذهب.

٢٢ ـ كتاب الدرج المرقوم بالجداول، وصرح به في المنقذ[1].

ومن الرسائل:

١ ـ التبر المسبوك.

٢ ـ روضة الطالبين.

٣ ـ خلاصة التصانيف في التصوف.

٤ ـ جامع الحقائق بتجريد العلائق.

---

(١) «المنقذ» (ص٤١).

٥ ـ كتاب مراقي الزلف.
٦ ـ معراج السالكين.
٧ ـ مقامات العلماء بين يدي الأمراء والخلفاء.
٨ ـ الرد الجميل لألوهية عيسى بصريح الإنجيل.
٩ ـ رسالة في المعرفة.
١٠ ـ فضائل القرآن.
١١ ـ لباب احياء علوم الدين (وقد يكون لأخيه أحمد على الصحيح).
١٢ ـ كتاب النصوح في المواعظ.
١٣ ـ بدائع صنع الله[١].

---

(١) ذكرها جميعها البدوي في «مؤلفات الغزالي» فانظرها فيه.

الغزالي بين الحديث والمحدثين

مما تقدم في ترجمة أبي حامد رحمه الله، تتضح أمور في غاية البرهان، أجلها أن أبا حامد ما عرف له في الحديث طلب، ولا رواية، وإنه ليس بين كتبه مصنف واحد في الحديث أو علومه، على كثرة ما صنف بل ليس بين شيوخه من اشتهر بالرواية والدراية[١]. ولذلك قال هو عن نفسه: «وبضاعتي في الحديث مزجاة» (٢).

وقال عنه الإمام الذهبي حامل لواء أهل الجرح والتعديل في «سير أعلام النبلاء»: «ولم يكن له علم بالآثار، ولا خبرة بالسنة النبوية القاضية على العقل»[٣].

وقال ابن النجار: «لم يكن للغزالي إسناد ولا طلب شيئاً من الحديث، ولم أر له إلا حديثاً واحداً»[٤] وقريب منه قول ابن عساكر[٥].

قلت: وهذا لا يعكر عليه ما جاء في حفظ أبي حامد للأحاديث في آخر أيامه، لأن الحفظ للحديث شيء وطلبه وإسناده شيء آخر كما لا يخفى.

وإني قد تفحصت في تراجم من هم من طبقة أبي حامد، أو فوقه، بل وقرأت من كتب تراجم طبقته ما لا ينضبط، فلم أقف له على شيخ في الحديث، إلا ما جاء في ترجمة عمر بن عبد الكريم بن سعدوية الدهقاني قال

(١) وكان أجلهم إمام الحرمين الجويني الذي ضعف حديث عمر في صلاة النبي ﷺ على عبد الله بن أبي بن سلول مع أن الحديث مخرج عند البخاري ومسلم وسائر من أخرجوا الصحيح، وتبع الغزالي إمامه إمام الحرمين في ذلك فقال ابن حجر: «وطرق الحديث تنادي عليهم بعدم المعرفة وقلة الإطلاع» («الفتح» ٨/٣٣٨).

(٢) «قانون التأويل» (ص١٦) ط الحسيني مطبعة الأنوار القاهرة (١٩٤)، وذكره عنه ابن كثير في «البداية» (١٢/١٧٤) والبضاعة المزجية هي التي قل ثمنها ورخصت، كما قال أخوة يوسف عليه السلام: ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة... الآية﴾.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (ج١٩/ ٣٢٣ - ٣٢٤)، و«سيرة الغزالي» (ص٧١).

(٤) «طبقات الشافعية» (٦/٢٠٠) ط عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٦٨.

(٥) «طبقات الشافعية» (٦/٢١٥) ط عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٦٨.

فيه ابن كثير: «وقد صحح عليه أبو حامد الغزالي كتاب الصحيحين»[١] وعمر هذا كانت وفاته سنة ثلاث وخمسمائة بسرخس، حيث ذكروه في وفياتها فيكون هذا من جنس ما قدمناه في ميله آخر حياته لحفظ الحديث.

وقول تلميذه عبد الغافر: وقد سمعت أنه ـ الغزالي ـ سمع سنن أبي داود من القاضي أبي الفتح الحاكمي الطوسي.

ذكر ذلك الحافظ الذهبي في «السير»[٢]، و«الطبقات» وزاد: «وما عثرت على سماعه» قلت: فيبقى محتملاً، والله أعلم.

والذي لا شك فيه، أن نظرة سريعة لأعظم كتبه الأحياء توقفك على بيت القصيد وتبلغ بك مرتبة القطع.

وإنني قد تتبعت وأحصيت ما فيه من الأحاديث، على ما ذكر شيخ الحفاظ العراقي[٣] فوجدت سوى ما صح عند الشيخين أو أحدهما أو ابن حبان

---

(١) «البداية» (١٢/١٧٢)، قلت: لعل المقصود بكتاب الصحيحين كتاب «الجمع بين الصحيحين» للإمام البغوي المفسر فإنه من طبقته وإلا فلا أعرف كتاباً قبله وُسم بذلك وكتب الجمع كالتي لأبي بكر الرمّاني وأبي مسعود الدمشقي وأبي عبد الله الحميدي فهي متأخرة، والله أعلم.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/٣٢٧).

(٣) قال الإمام السيوطي في «طبقات الحفاظ» (تحت رقم ١١٧٧ ص٥٣٨): هو الإمام الكبيرالشهير أبو الفضل زين الدين العراقي، حافظ العصر، اشتغل بالعلوم وأحب الحديث فأكثر السماع وتقدم في الحديث بحيث كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة كالسبكي والعلائي والعز بن جماعة والعماد بن كثير وغيرهم، ونقل عن الشيخ جمال الدين الأسنوي في «المهمات» قوله «حافظ العصر». وكذلك وصفه في «الطبقات» ابن سيد الناس، فقال الأسنوي: شرح ابن سيد الناس قطعة من الترمذي نحو مجلدين ثم أكمل شرحه حافظ الوقت زين الدين العراقي إكمالاً مناسباً لأصله، ثم أورد السيوطي كلام الحافظ ابن حجر فيه: «وشرع في إملاء الحديث سنة ست وتسعين فأحيا الله به سنة الإملاء بعد أن كانت داثرة، فاملى في أكثر من أربعمائة مجلس وكانت أماليه يمليها من حفظه متقنة مهذبة محررة كثيرة الفوائد الحديثية. . ثم ذكر ابن حجر وهو من تلامذته الشيء الكثير في حفظه وورعه وقيامه وخشوعه وصيامه ومعيشته. إنتهى ما جاء عند السيوطي.

أو ابن خزيمة أو الحاكم وأضرابهم سبعمائة واثنين وعشرين حديثاً قال الحافظ العراقي في كل حديث منها: «ضعيف». وما قال فيه «لم أجده» أو «ليس له أصل» فمائة وتسعون وهي بحكم الموضوع[1]. وأما ما صرح بوضعه من الأحاديث فبلغت عشرين، ذكرها ابن الجوزي في الموضوعات وغيره والذي

= وقال ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (ج٧/ ص٥٥) قال بعد أن ساق قريباً من كلام السيوطي: «ولم نر في هذا الفن أتقن منه وعليه تخرج غالب أهل عصره» انتهى.

وقال السخاوي في «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (ج٤/ ص١٧١ ـ ١٧٧): وحفظ القرآن وهو ابن ثمان و«التنبيه» وأكثر «الحاوي» وكان رام حفظه جميعه وكذا حفظ «الإلمام» لابن دقيق العيد وكان ربما حفظ منه في اليوم أربعمائة سطر إلى غير ذلك من المحافيظ. قال: وكان الأسنوي يثني على فهمه ويستحسن كلامه ويصغي لمباحثه ويقول: «إن ذهنه صحيح لا يقبل الخطأ» ثم ذكر قريباً من قول السيوطي وزاد:

قال العز بن جماعة: «كل من يدعي الحديث بالديار المصرية سواه فهو مدّع».

قال السخاوي: «ومن مؤلفاته الكثير مما اشتملت عليه علوم الدين واللغة، وولي التدريس للمحدثين بأماكن دار الحديث الكاملية والظاهرية القديمة والقرا سنقورية وجامع ابن طولون وغيرها وحج مراراً بالحرمين وجاور فيهما فحدث فيهما بالكثير وولي قضاء المدينة النبوية وخطابتها وإمامتها في ثاني عشر جمادي الأولى سنة ثمان وثمانين يعني وثمانمائة ـ ثم ساق في عبادته وورعه الشيء الطيب ثم قال: قال الهيثمي ـ وكان رفيقه وصهره ـ: سألت سيدنا وقدوتنا ومعلمنا ومفيدنا ومخرجنا شيخ الإسلام أوحد الأعلام حسنة الأيام حافظ الوقت. قال الهيثمي وقد لازمته عشر سنين سوى ما تخللها من الرحلات وكذا لازمه البرهان الحلبي نحواً في عشر سنين وقال أيضاً: لم أر أعلم ببضاعة الحديث منه وبه تخرجت وقد أخبرني أنه عمل بتخريج أحاديث البيضاوي بين الظهر والعصر ثم ذكر من عبادته وقيامه وعلمه وحلمه وقال: وكان ظاهر الوضاءة كأن وجهه مصباح ومن رآه عرف أنه رجل صالح وغلب عليه الحديث فاشتهر به وانفرد بالمعرفة فيه مع العلو وكان ذهنه في غاية الصحة ونقله نقر في حجر.

وذكره ابن الجزري في «طبقات القراء» فقال: حافظ الديار المصرية ومحدثها وشيخها أ.هـ وقال: التقي الفاسي في «ذيل التقييد»: كان حافظاً متقناً عارفاً بفنون الحديث والفقه والعربية، ثم قال: وأخذ عنه علماء الديار المصرية وغيرهم وأثنوا على فضائله قال: وقال المقريزي في «السلوك»: شيخ الحديث، انتهت إليه رياسته. ولم يزد.

إنتهى ملخصاً من كلام السخاوي.

(١) كذا قال غير واحد من أهل العلم، وفيه يقول الحافظ العلائي: «وهذا إنما يقوم به الحافظ

قال فيه: «غريب» أو «منكر» أو «مضطرب» أو «إسناده مظلم» أو «معضل» أو «منقطع» أو «ليس بذاك» فتجاوز تعدادها التسعين.

هذا سوى ما سكت عليه واكتفى بذكر من رواه وقد بلغ مجموع ذلك أربعمائة وعشرين حديثاً وبذلك يكون ما لا يقبل من أحاديث الاحياء قد تجاوز الألف حديث(١).

فتأمل هذا القدر الهائل من الأحاديث المردودة بل الموضوعة المنكرة.

وبعواجل سنحى من عفو الخاطر يبدو لك الخطر العظيم الذي قد يحدثه كل هذا الكم وذلك الأثر السيء.

وكم قاعدة قُعِّدت، وأصْل أُصِّل، وأساس أُسِّس، على شفا جُرُفٍ هار.

الكبير الذي قد أحاط حفظه بجميع الحديث أو معظمه كالإمام أحمد وعلي بن المديني ويحيى بن معين، ومن بعدهم كالبخاري وأبي حاتم وأبي زرعة ومن دونهم كالنسائي والدارقطني وغيرهم». قال ابن عراق معقباً: فاستفدنا من هذا أن الحفاظ الذين ذكرهم وإضرابهم إذا قال أحدهم في حديث «لا أعرفه أو لا أصل له» كفى ذلك بالحكم عليه بالوضع، والله أعلم. انظر «تنزيه الشريعة المرفوعة» لابن عراق (١/٩٧) و«تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي» للسيوطي (ص١٨٠) الطبعة الأولى، ومقدمة «تذكرة الحفاظ» للذهبي.

(١) لا ستمائة حديث كما يقول عبد الرحمان دمشقية (ص٢٢٣) في «أبو حامد الغزالي والتصوف» ثم قال في حاشية الصفحة [مع أن الغزالي قد حث في رسالته الصغيرة «الأدب في الدين» المتحدث على التحدث بالأحاديث المشهورة وترك المناكير قائلاً: «آداب المحدث: على المحدث أن يحدث بالمشهور ويروي عن الثقات ويترك المناكير» (ص١١١) ملحقة بكتاب «المنقذ» ثم قال «دمشقية»: ومع هذه النصيحة التي قدمها الغزالي للمحدث فقد حشا إحياءه بالمئات من هذه الأحاديث المنكرة وقد جمع السبكي معظم هذه الأحاديث في طبقاته فبلغت ثماني وثلاثين صفحة أنظر الطبقات (٤/١٤٥ ـ ١٨٢)] قلت: وهذا جيد.

والعجب من قول الإمام الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» عند ذكره كتب الأحاديث الضعيفة: [«وقسم جعلوا مصنفاتهم مختصة بالأحاديث الموضوعة كموضوعات ابن الجوزي... ثم قال «وتخريج الأحياء للعراقي»] «مقدمة تحفة الأحوذي ٢٢٨».

وصدق أبو بكر الطرطوشي[١] ـ وهو من أقران الغزالي ـ حيث قال: «شحن أبو حامد الاحياء بالكذب على رسول الله ﷺ، فلا أعلم كتاباً على بسيط الأرض أكثر كذباً منه»[٢].

وعن ذلك يقول العلامة ابن الجوزي في «المنتظم»[٣]: «وذكر في كتابه «الاحياء» من الأحاديث الموضوعة، وما لا يصلح غير قليل، وسبب ذلك قلة معرفته بالنقل» ويقول: «وصنف كتاب «الاحياء» على طريقة القوم الصوفية وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها»[٤].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية[٥]: «وفي «الاحياء» أحاديث وآثار ضعيفة، بل موضوعة، ما لا يعتمد عليه من له علم بالآثار[٦]».

ويقول أبو الفداء عماد الدين ابن كثير[٧]: «وهو ـ الاحياء ـ كتاب عجيب يشتمل على علوم كثيرة وغرائب، ومنكرات وموضوعات».

وبالجملة فهذه البلوى من «الاحياء» لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر وأمثال هذه العجائب والغرائب والمنكرات إنما طغت وأشاعها من لا خبرة له بالعلوم الحديثية، ولا عناية من مشايخ لهم فضل وصلاح كما ذكر ذلك أمام دار الهجرة مالك بن أنس، ونقلته عنه في مقدمة هذا الكتاب.

---

(١) هو محمد بن الوليد كان حجة في الفقه والحديث، زاهداً عابداً منكراً للذات، له تصانيف منها: «سراج الملوك» و«بر الوالدين» توفي سنة عشرين وخمسمائة، أنظر «نفح الطيب» (٢/٩٠) وما بعدها ـ «وفيات الأعيان» (٣٩٣/٣) وما بعدها ـ «النجوم الزاهرة» (ج٥)، «سير أعلام النبلاء» (١٩/٤٩٣). «الصلة» (ج٢/رقم ١٢٦٩) «بغية الملتمس» (١٢٥) ـ «الديباج المذهب» (٢٧٦)، وغير ذلك.

(٢) «سيرة الغزالي» لعبد الكريم عثمان (ص ٧٥) ط دار الفكر دمشق.

(٣) «المنتظم» (ج٩/ ص١٦٩) ط حيدر آباد الهند ١٣٠٩.

(٤) «تلبيس إبليس» (١٦٦).

(٥) «مجموع الفتاوى» (ج٢/ص٢٣٠).

(٦) «شرح العقيدة الأصفهانية» (١٢٨).

(٧) «البداية» (١٢/١٧٤).

فإن المشتغلين بما اشتغل به أبو حامد رحمه الله من أعمال القلوب والتصفية والخلوات، عرف منهم تساهل كبير، بل أن الكذب ووضع الحديث متصور منهم، وإن كان الظن بأبي حامد غير ذلك لما عرف عنه من صدق عزيمته، وحسن طويته، ومعرفته بالعلوم الشرعية فوق من هم من أضرابه.

وغالب الظن أن ما جاء عنده من هذا القبيل، هو مما قرأه من غير تثبت، أو سمعه من بعض الأشياخ ممن يجيزون ذلك، من الذين صحبهم، من أهل الخير كما يسمونهم.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «المشتغلون بالتعبد الذين يترك حديثهم على تسمية منهم من شغلته العبادة عن الحفظ، فكثر الوهم في حديثه، ومنهم من كان يتعمد الوضع، ويتعبد بذلك كغلام الخليل محمد بن أحمد بن غالب ـ وغلام الخليل الذي ذكره الحافظ ابن رجب، كان زاهد هاجراً لشهوات الدنيا، ويتقوّت الباقلا صرفاً ـ قيل له هذه الأحاديث التي تحدث بها من الرقائق، فقال: وضعناها لنرقق بها قلوب العامة، قال أبو داوود: أخشى أن يكون دجّال بغداد»[1].

وقال يحيى بن سعيد القطان ـ شيخ البخاري ومسلم ـ : «لم نر أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث»[2]. قال مسلم مقعباً: [يقول: يجري الكذب على لسانهم ولا يتعمدون الكذب. وقال أبو عاصم النبيل: «ما رأيت الصالح يكذب في شيء أكثر من الحديث»][3].

[قال يحيى القطان: كم من رجل صالح لو لم يحدث لكان خيراً له، وقال أيضاً: ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير قال البيهقي: «لأنهم اشتغلوا بالعبادة عن ضبط الحديث واتقانه فأدخل عليهم الكذابون ما ليس من حديثهم، ومنهم قوم توهموا أن في وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب أجراً وجهلوا ما في الكذب

---

(١) «شرح علل جامع الترمذي» (ص٩٦) مختصراً.
(٢) «الميزان» (ج١/ ص١٤١ ـ ١٤٢).
(٣) مقدمة «صحيح مسلم» (ج١/ص١٣).

على رسول الله ﷺ من كبير الإثم...». وقال ربيعة: من إخواننا من نرجو بركة دعائه ولو شهد عندنا على شهادة ما قبلناها. وقال ابن طاهر المقدسي سمعت أبا محمد السمرقندي الحافظ الحسن بن أحمد سمعت أبا العباس المستغفري الحافظ سمعت أبا عبد الله محمد بن إسحاق بن مندة الحافظ يقول: «إذا رأيت في الإسناد حدثنا فلان الزاهد فاغسل يدك من ذلك الإسناد»][1].

وهذا باب يطول شرحه، وليس هنا مكان بسطه[2]، وإنما نبهنا عليه للحاجة.

والمتصوفة، أقل الناس اعتناءً بالسنة من حيث الغالب، بل عامة شيوخهم ممن انحرفوا عن الجادة، وطلقوا الشرع، نهوا عن الاشتغال بها، وعدّوا ذلك من الرغبة في الدنيا، والإقبال على ما لا يفيد في طريق الآخرة، كما سيأتي في مباحث هذا الكتاب.

والحاصل أن ضعف أبي حامد في السنة مما يضنيه ولا يعينه، بل ما يوقعه في مزالق لا مخرج له منها إلا بالسنة والأثر، فهي شارحة المختصر، مفصِّلة المجمل، مبيِّنة المبهم، وجل ما في الكتاب تبينه السنة وتفسّره من أجل هذا كانت أدوات أبي حامد قليلة، فلم يحكم صناعته، ولم يتقن عمله.

فتراه يحتج على صحة المكاشفة في المغيبات، وإلقاء الأسرار في قلب العبد بحديث: «إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله سبحانه الحجاب بينه وبين عبده وواجهه بوجهه... الحديث».

قال الحافظ العراقي فيه: «لم أجده»[3].

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/١٥٨).

(٢) أنظر مقدمتي: «اللآلىء المصنوعة» للسيوطي، و«الموضوعات» لابن الجوزي وديباجة ابن عراق على «تنزيه الشريعة» وكتاب «منهج النقد في علوم الحديث» (ص٣٠٤ وما بعدها) لنور الدين عتر، وقد أخذت عنه هنا بتصرف.

(٣) «الإحياء» (ص١٧٠/ج١) قلت: قد أخرج البخاري وغيره قوله ﷺ «إن أحدكم إذا صلّى يناجي ربه» وأخرج مسلم وغيره الحديث القدسي: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي

وتراه يثبت لشهر رجب صلاة في أول خميس منه، لم يصلها أحد من المسلمين ـ فيما نعلم ـ ولم يذكرها أئمة الدين، لا في كتب الفقه، ولا السنة، علاوة على ما فيها من الغرابة في تأديتها، والنكارة في فضل من صلاها.

عمدته في ذلك حديث موضوع مختلق، وكيف لا يكون كذلك. وفي آخره: «ومن صلى تلك الصلاة، يشفع يوم القيامة في سبعمائة من أهل بيته ممن قد استوجب النار»!!!.

قال الحافظ العراقي مخرجاً: «هو حديث موضوع»[1].

وأما ما ذكره الغزالي من رؤيته لأهل المقدس يصلونها ولا يسمحون بتركها، فلا شك أنهم صوفية تلك البلاد ممن هم كالغزالي، اشتغلوا بكل عبادة سمعوا بها، دون النظر في صحة نسبتها للشرع، وقد أجمع أهل العلم على أن العبادة توقيفية، ولا يسمح للأقيسة والآراء فيها.

والأغلب عندي أن واضعيها هم من أهل بيت المقدس، لأن الغزالي مع كثرة تعبده، ومعرفته بأحوال الصوفية وعباداتهم وصلواتهم، وانتقاله بين العراق والشام والحجاز ونيسابور فإنه لم يذكر أنه رأى أحداً منهم يصليها.

وأثبت لشعبان صلاة في الخامس عشر منه، تختلف عن التي في رجب، ثم يقول: روي عن الحسن قال: حدثني ثلاثون من أصحاب النبي ﷺ «أن من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة، نظر الله إليه سبعين نظرة، وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة، أدناها المغفرة»!!!.

قال الحافظ العراقي: «حديث باطل»[2].

وكلمة «باطل» في هذا الفن إنما يراد بها فساد المعنى الوارد في المتن كذلك بعد ضعف الإسناد أو عدم وجود الحديث بإسناد.

= نصفين...» ولكن أين هذا من الإستدلال على صحة المكاشفة في المغيبات وإلقاء الأسرار في قلب العبد؟!!!.

(١) «الإحياء» (ص٢٠٢/ج١).

(٢) «الأحياء» (ص٢٠٣/ج١).

وقائل قد يقول: «روى ابن ماجه من حديث عليّ: إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها».

أفليس في ذلك شاهد لما ذكر الغزالي؟

والجواب: لا، من وجهين:

أولهما: ضعف حديث عليّ المذكور[1].

وثانيهما: إن الحديث على فرض صحته. فالمراد به يكون، هو القيام الشرعي الوارد، بالصلاة ركعتين ركعتين، أو أربعاً أربعاً، وبالصِّفة والهيئة المقررة في الشرع، وقطعاً لا يكون المراد بذلك الصلاة التي ذكرها أبو حامد. وهذا في كتب الفقه مسطور مشهور.

ويثبت الغزالي لأيام الأسبوع ولياليه صلوات كذلك فيقول تحت باب: «ما يتكرر بتكرر الأسابيع» يقول[2]: أما الأيام فنبدأ فيها بيوم الأحد

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلى يوم الأحد أربع ركعات، يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب، وآمن الرسول مرة كتب الله بعدد كل نصراني ونصرانية حسنات، وأعطاه الله ثواب نبي، وكتب له حجة وعمرة، وكتب له كل ركعة ألف صلاة وأعطاه الله في الجنة بكل حرف مدينة من مسك واذفر». قال الحافظ العراقي في تخريجه: أخرجه أبو موسى المديني من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

قلت: وآثار الوضع ظاهرة عليه تلوح. وكتاب أبي موسى المذكور. هو «وظائف الليالي والأيام».

ثم ذكر الغزالي حديثاً آخر فقال: روى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد فإنه سبحانه واحد لا شريك له فمن صلى يوم الأحد بعد صلاة الظهر... الحديث».

---

(١) أنظر حاشية «الاحياء» (ص٢٠٣/ج١).

(٢) «الاحياء» (ص١٩٧/ج١).

فتعقبه الحافظ العراقي: «ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد».

وفي فضل الصلاة يوم الاثنين قال[1]:

«روى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وآية الكرسي مرة. وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة مرة، فإذا سلّم استغفر الله عشر مرات، وصلى على النبي ﷺ عشر مرات، غفر الله تعالى له ذنوبه كلها».

قال الحافظ العراقي: أخرجه أبو موسى المديني من حديث جابر عن عمر مرفوعاً، وهو حديث منكر، قلت: والنكارة في آخره ظاهرة، والحديث المنكر هو ما رواه الضعيف مخالفاً للثقة[2].

ثم قال الغزالي:

[وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: من صلى يوم الاثنين ثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة، فإذا فرغ قرأ قل هو الله أحد اثنتي عشرة مرة، واستغفر اثنتي عشرة مرة، ينادى بها يوم القيامة: أين فلان بن فلان ليقم فليأخذ ثوابه من الله عز وجل. فأول ما يعطى من الثواب ألف حلّة ويتوّج ويقال له: ادخل الجنة، فيستقبله مائة ألف ملك، مع كل ملك هدية، يشيعونه حتى يدور، على ألف قصر فيه نور يتلألأ].

وتعقبه الحافظ بقوله: «ذكره أبو موسى المديني بغير سند، وهو منكر».

ثم قال الغزالي: [وفي فضل الصلاة يوم الثلاثاء، روى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال ﷺ: من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار - وفي حديث آخر - عند ارتفاع النهار، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة، وقل هو الله أحد ثلاث مرات لم تكتب له خطيئة إلى سبعين يوماً، فإن مات إلى سبعين يوماً مات شهيداً، وغفر له ذنوب سبعين سنة].

---

(١) «الأحياء» (١/١٩٧).

(٢) أنظر «نزهة النظر ونخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر» وشرحها لابن حجر قسم الحديث الضعيف.

قال حافظ وقته: «أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف، ولم يقل عند انتصاف النهار، ولا عند ارتفاعه».

أما في يوم الأربعاء فقال: [روى أبو إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من صلى الأربعاء ثنتي عشرة ركعة عند ارتفاع النهار يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة، وقل هو الله أحد ثلاث مرات، والمعوذتين ثلاث مرات، نادى منادٍ عند العرش: يا عبد استأنف العمل فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك، ورفع الله سبحانه عنك عذاب القبر وضيقته وظلمته، ورفع عنك شدائد القيامة، ورفع له من يومه عمل نبي]!!!.

قال أبو الفضل العراقي: «أخرجه أبو موسى المديني وقال: رواته ثقات والحديث مُركّب، قلت: ـ والقائل هو العراقي ـ بل فيه غير مسمى وهو محمد بن حميد الرازي أحد الكذابين» انتهى قول الحافظ.

قلت: وآخر الحديث «ورفع له من يومه عمل نبي» قطع بأن الحديث من تأليف الزنادقة، من يرفعون الولي فوق النبي، وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

ثم قال الغزالي في فضل صلاة يوم الخميس: [عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: من صلى بين الظهر والعصر ركعتين، يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وآية الكرسي مائة مرة، وفي الثانية فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد مائة مرة، ويصلي على النبي مائة مرة، أعطاه الله ثواب من صام رجب وشعبان ورمضان، وكان له من الثواب مثل حاج البيت، وكتب له بعدد كل من آمن بالله سبحانه وتوكل عليه حسنة].

«أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف جداً»، كذا قال الإمام العراقي.

وتابع الغزالي في فضل صلاة يوم الجمعة:

[روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: يوم الجمعة صلاة كله، ما من عبد مؤمن قام إذا استقبل الشمس وارتفعت قدر

رمح أو أكثر من ذلك فتوضأ ثم أسبغ الوضوء، فصلى سبحة الضحى ركعتين إيماناً واحتساباً إلا كتب الله له مائتي حسنة، ومحا عنه مائتي سيئة، ومن صلى أربع ركعات رفع الله سبحانه له في الجنة أربعمائة درجة ومن صلى ثماني ركعات وضع الله تعالى له في الجنة ثمانمائة درجة، وغفر له ذنوبه كلها، ومن صلى ثنتي عشرة ركعة كتب الله له ألفين ومائتي حسنة، ومحا عدل ألفين ومائتي سيئة، ورفع له في الجنة ألفين ومائتي درجة].

قال فيه أبو الفضل العراقي: «لم أجد له أصلاً، وهو باطل».

قلت: ولا معنى لتخصيص صلاة الضحى بيوم الجمعة فقط، وهو خلاف ما جاء من سننها في سائر الأيام، كما هو ثابت[1]، ووقتها الوارد في هذا الحديث إنما هو قول الفقهاء كما حكاه النووي في «الروضة» و«المجموع» وغيره فإنهم قالوا: هذا أول وقتها الذي تصح به.

وأما وقتها الوارد في السنة فرواه زيد بن أرقم رضي الله عنه حيث قال: «خرج النبي ﷺ على أهل قباء وهم يصلون الضحى، فقال: صلاة الأوّابين إذا رمضت الفصال من الضحى» أخرجه مسلم وغيره.

ورمضت: أي احترقت من حر الرمضاء، وذلك لا يكون إلا عند ارتفاعها فوق ما ورد عند الغزالي.

ثم أورد أبو حامد في فضل الصلاة يوم الجمعة حديثاً آخر فقال:

[وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: من دخل الجامع يوم الجمعة فصلى أربع ركعات، قبل صلاة الجمعة يقرأ في كل ركعة الحمد لله، وقل هو الله أحد خمسين مرة، لم يمت حتى يرى مقعده في الجنة أو يرى له].

قال الشيخ العراقي الحافظ: «أخرجه الدارقطني في غرائب مالك وقال: لا يصح، وعبد الله بن وصيف ـ أحد رواته ـ مجهول وأخرجه الخطيب في الرواة

(١) عن أبي هريرة قال: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث، بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى كل يوم، وأن أوتر قبل أن أنام» أخرجه مسلم وأحمد، وأخرجه البخاري لكن دون قوله «كل يوم». وقد أجمع من استحبها على أنها كل يوم.

عن مالك وقال غريب جداً، ولا أعرف له وجهاً غير هذا».

وفي يوم السبت قال الغزالي:

[روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: من صلى يوم السبت أربع ركعات، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وقل هو الله أحد ثلاث مرات. فإذا فرغ قرأ آية الكرسي، كتب الله له بكل حرف حجة وعمرة، ورفع له بكل حرف أجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله عز وجل بكل حرف ثواب شهيد، وكان تحت ظل عرش الله مع النبيين والشهداء].

قال الحافظ في التخريج: «أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف جداً»(١).

وأما في فضل صلاة الليالي فقال:

[روى أنس بن مالك في ليلة الأحد أنه ﷺ قال: من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب، وقل هو الله أحد خمسين مرة، والمعوذتين مرة مرة، واستغفر الله عز وجل مائة مرة، واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة، وتبرّأ من حوله وقوته والتجأ إلى الله ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن آدم صفوة الله وفطرته، وإبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، وعيسى روح الله، ومحمد حبيب الله، كان له من الثواب بعدد من دعا لله ولداً ومن لم يدع لله ولداً وبعثه الله عز وجل مع الآمنين، وكان حقاً على الله تعالى أن يدخله الجنة مع النبيين].

قال العراقي: «ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد، وهو منكر».

قلت: وفي الحديث ركاكة ظاهرة كقوله: «بعدد من دعا لله ولداً، ومن لم يدع لله ولداً» عند من يقول بركاكة اللفظ والمعنى معاً.

وقال في ليلة الاثنين:

[روى الأعمش عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات، يقرأ في الركعة الأولى الحمد لله وقل هو الله أحد عشر

(١) «الاحياء» (ج١/ص١٩٩).

مرات، وفي الركعة الثانية الحمد لله وقل هو الله أحد عشرين مرة، وفي الثالثة الحمد لله وقل هو الله أحد ثلاثين مرة، وفي الرابعة الحمد لله وقل هو الله أحد أربعين مرة، ثم يسلم ويقرأ قل هو الله أحد خمساً وسبعين مرة واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمساً وسبعين مرة، ثم سأل الله حاجته، كان حقاً على الله أن يعطيه سؤله ما سأل» وهي صلاة الحاجة].

قال الحافظ في الحاشية عليه: «ذكره أبو موسى المديني هكذا عن الأعمش بغير إسناد ومن رواية يزيد الرّقاشي عن أنس حدث في صلاة ست ركعات فيها، وهو منكر»، قلت: والرقاشي ضعيف.

وقال الغزالي في ليلة الثلاثاء:

[روى عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلى ليلة الثلاثاء ركعتين، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وإنا أنزلنا وقل هو الله أحد سبع مرات، أعتق الله رقبته من النار ويكون يوم القيامة قائده ودليله إلى الجنة»]!!!.

«ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد، حكاية عن بعض المصنفين، وأسند من حديث ابن مسعود وجابر حديثاً في صلاة أربع ركعات فيها، وكلها منكرة» كذا قال الحافظ.

وقال الغزالي في ليلة الأربعاء:

[روت فاطمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: من صلى ليلة الأربعاء ركعتين، يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب، وقل أعوذ برب الفلق عشر مرات، وفي الثانية بعد الفاتحة، قل أعوذ برب الناس عشر مرات، ثم إذا سلّم استغفر له عشر مرات ثم يصلي على محمد ﷺ عشر مرات، نزل من كل سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة].

قال الحافظ: «لم أجد فيه إلا حديث جابر، وقد رواه أبو موسى المديني عنه».

وقد أورد الغزالي هنا حديثاً آخر عنها رضي الله عنها، قال فيه حافظ وقته: «أخرجه أبو موسى بسند ضعيف جداً».

ثم قال في ليلة الخميس.

[قال أبو هريرة رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي خمس مرات، وقل هو الله أحد خمس مرات، والمعوذتين خمس مرات، فإذا فرغ من صلاته استغفر الله خمس عشرة مرة، وجعل ثوابه لوالديه، فقد أدى حق والديه عليه، وإن كان عاقاً لهما، وأعطاه الله تعالى ما يعطي الصديقين والشهداء»]!!!.

قال العراقي: «أخرجه أبو موسى المديني، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف جداً، وهو منكر».

قلت: والنكارة الشديدة في قوله: «فقد أدى حق والديه عليه، وإن كان عاقاً لهما» إذ المعلوم من الشرع أن الولد لا يؤدي حق والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه. لما أخرج مسلم والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه - راوي الحديث المذكور عند الغزالي - أن النبي ﷺ قال: «لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه» هذا مع أنه ليس في الحديث إن كان الولد عاقاً أم براً.

وفي الحديث - الذي ذكره الغزالي - أيضاً الاستخفاف بعقوق الوالدين، مع أن الشرع جعله بعد الإشراك بالله كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا .. ﴾ وقال جل ذكره: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ... ﴾ الآية وقال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً؟ قلنا بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين... الحديث»[1].

وأما ليلة الجمعة:

فقد أورد فيها الغزالي ثلاثة أحاديث:

أولها: حديث عن جابر رضي الله عنه، قال فيه العراقي: «باطل لا أصل له».

---

(١) حديث «ألا أنبئكم...» متفق عليه من حديث الصديق أبي بكر رضي الله عنه.

وثانيها: حديث عن أنس رضي الله عنه، قال فيه الحافظ: «هو ضعيف، منكر».

وثالثها: حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال الحافظ: «وفي رواته عبد المنعم بن بشير ضعفه ابن معين وابن حبان.

ليلة السبت:

قال الغزالي: [قال أنس قال رسول الله ﷺ: من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة بني له قصر في الجنة، وكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة، وتبرأ من اليهود، وكان حقاً على الله أن يغفر له].

قال الحافظ العراقي: «لم أجد له أصلاً» وجاء في «أوراد المساء» نحو هذا عن الخضر، وذكر الغزالي صلاة يطول وصفها، وذكر أن من فوائدها رؤية الأنبياء، قال العراقي: «هذا حديث باطل لا أصل له».

فهذه أدلته قد سقتها بطولها لتعرف، ليس فيها حديث يقبل، كما صرح بذلك الحافظ بقوله: «ليس يصح في أيام الأسبوع ولياليه شيء»[1].

ومن أجل ذلك لا تجد أحداً من أصحاب السنن والمسانيد أخرجها، مع أنهم أخرجوا بعض الضعيف، وآثار الوضع لما كانت ظاهرة عليها، أغفلوها، ولم يذكرها سوى أبو موسى المتقدم ذكره، تارة بإسناد وتارة بدونه، وهذا صنيع من ليس من أهل الحديث.

ولذلك فإنك لا تجد بين أهل العلم من يعزو لأبي موسى، ولولا تفرده هنا بإيرادها، وسعة اطلاع الحافظ ما سمعنا به.

وأما مشاركة الديلمي له في مسنده ببعضها فحكم عليها بالضعف، كما حكى ذلك الإمام السيوطي رحمه الله حيث يقول في ديباجة كنز العمال «وكل ما عزي للحكيم الترمذي في نوادر الأصول، أو الحاكم في تاريخه أو لابن الجارود في تاريخه أو الديلمي في مسند الفردوس فهو ضعيف، فيستغني

(١) «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار» حاشية «الاحياء» (ص ٢٠٠ / ج ١).

العزو إليها أو إلى بعضها عن بيان ضعفه»[١].

قلت: والمراد بذلك ولا شك ما انفردوا به دون غيرهم.

وجاء في التوسل والوسيلة لابن تيمية رحمه الله: «وكتاب وسيلة المتعبدين لعمر الموصلي، وكتاب الفردوس لشهريار الديلمي هما بلا إسناد، وفيهما كثير من الكذب والوضع، وليسا بحجة»[٢].

ومن آثار الوضع الظاهرة الأفراط بالوعد العظيم على الفعل اليسير كما يحكي الإمام البقاعي ذلك في علامات الوضع[٣] من ذلك قوله في ركعتي ليلة الأربعاء أن «من صلاها نزل من السماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة». وقوله «رفع له من يومه عمل نبي» ونحو هذا، وجلّ ما ورد في هذا الفصل يصلح كمثال على ذلك.

وقريب من قول البقاعي قول ابن الجوزي[٣]: [وإني لأستحي من وضع أقوام وضعوا: «من صلى كذا فله سبعون داراً في كل دار سبعون ألف بيت، في كل بيت سبعون ألف سرير على كل سرير سبعون ألف جارية»، وإن كانت القدرة لا تعجز، ولكن هذا تخليط قبيح].

وهو يحاكي ما أورده الغزالي في فضل صلاة يوم الأحد والاثنين وغيرهما.

قاعدة هامة:

ولذلك فإنه لا يجوز أن يقال في هذا النوع من الحديث أنه مما تحل روايته أو العمل به، جرياً على قول من أجازوا رواية الحديث الضعيف، في فضائل الأعمال، وقبوله، لأنهم وإن أجازوا لكنهم اشترطوا لذلك شروطاً

---

(١) «منتخب كنز العمال» بحاشية مسند الإمام أحمد (ص٩) للمتقي الهندي نقلاً عن لسان السيوطي في «الديباجة».

(٢) «التوسل والوسيلة» (ص٨٩).

(٣) «منهج النقد» لنور الدين عتر (ص٣١٢).

ذكرها الحافظ ابن حجر وغيره[1] منها: أن يكون الضعف غير شديد، وقد تبين لك عدم توفره، ومنها أن يكون الحديث مندرجاً تحت أصل عام، فيخرج ما يخترع بحيث لا يكون له أصل أصلاً، وهذا شرط آخر غير موجود.

وبالجملة فإن الحديث إذا ظهرت عليه آثار الوضع حرمت روايته، لما أخرج مسلم في مقدمة صحيحه عن النبي ﷺ: «من حدّث عني حديثاً وهو يعلم أنه كذب فهو أحد الكذابين».

هذا وثمة أمر لا بد من التنبيه عليه، وهو المراد بقولهم: «يعمل في الحديث الضعيف في فضائل الأعمال».

[قال الشيخ تقي الدين ـ عن قول الإمام أحمد وعن قول العلماء في العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال ـ قال: العمل بمعنى أن النفس ترجو ذلك الثواب أو تخاف ذلك العقاب. ومثال ذلك الترغيب والترهيب بالإسرائيليات والمنامات وكلمات السلف والعلماء ووقائع العالم ونحو ذلك. مما لا يجوز إثبات حكم شرعي به لا استحباب ولا غيره لكن يجوز أن يذكر في الترغيب والترهيب فيما علم حسنه أو قبحه بأدلة الشرع، فإن ذلك ينفع ولا يضر، سواءً كان في نفس الأمر حقاً أو باطلاً ـ إلى أن قال ـ فالحاصل أن هذا الباب يروى ويعمل به في الترغيب والترهيب لا في الاستحباب، ثم اعتقاد موجبه وهو مقادير الثواب والعقاب يتوقف على الداخل الشرعي][2].

ويذكر الغزالي في باب الأوراد أن الخضر عليه السلام علم إبراهيم التيمي المسبعات العشر، وإن النبي ﷺ قد أعطاها للخضر وعلمه إياها[3].

---

(١) أنظر «نخبة الفكر ونزهة النظر» لابن حجر (ص٣٥)، و«خاتمة القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» للسخاوي (ص٢٥٨)، و«الأجوبة الفاضلة في الأسئلة العشرة الكاملة» للكنوي (ص٤٣)، و«المنهل اللطيف في أحكام الحديث الضعيف» لعلوي المالكي (٨/ ٩) (١٠).

(٢) «الآداب الشرعية» (٢/٣١٤).

(٣) انظر باب الأوراد من الاحياء ـ المجلد الأول.

قال الحافظ العراقي: «ليس له أصل، ولم يصح في حديث قط اجتماع الخضر بالنبي ﷺ ولا عدم اجتماعه ولا حياته ولا موته».

قلت: والحديث يحكم بوضعه أدنى من له نظرة في شرع الله من غير تردد، فرسول الله ﷺ لا يسرّ بأمور الشريعة في إذن إناس، ويكتم ذلك عن آخرين، وهو ﷺ لم يدع باباً من الخير إلا وبينه، ولا باباً من الشر إلا وحذر منه صلوات الله وسلامه عليه، وإن كانت المسبعات المذكورة، لها ما لها من الفضل ـ على ما ذكر الغزالي ـ فكيف لا يعلمها ﷺ جميع أمته، وهو الرؤوف الرحيم بهم، وقد أمره الله عز وجل بالبلاغ المبين، فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

ولذلك قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيما أخرجه البخاري وغيره: «ثلاث من حدثكهن فقد كذب ـ وذكرت منهن ـ ومن حدثك أن محمداً كتم شيئاً فقد كذب...» وفي رواية «فقد أعظم على الله الفرية» ثم قرأت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ ... ﴾ الآية.

ثم إن اجتماع الخضر بالنبي ﷺ، بل مجرد وجوده أمر أنكره الجهابذة المحققون من أهل العلم والمعرفة، وهو ما أدين الله عز وجل به، لأنه الحق الذي دلت عليه الأدلة، وبهذا جزم الإمام البخاري رحمه الله. وإبراهيم الحربي، وأبو جعفر المناوي، وأبو بكر ابن العربي، وأبو يعلي الفرّاء وأبو طاهر العبادي وطائفة(١).

وحجتهم في ذلك قوله تعالى ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد...﴾ وما رواه البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «لا يبقى على وجه الأرض بعد مائة سنة ممن هو عليها اليوم أحد».

(١) «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» ـ (ص٤٣٤/ج٦) وما بعدها.

وبـذلك يبطل ما ذكـره الغـزالي من اجتمـاع إليـاس بـالخضـر في كـل موسم[١]، وكذلك عشرات الحكايات التي يرويها عنه.

وقـد قـال ابن حجـر في الفتـح: «وأمـا أحـاديث اجتمـاعـه بـالنبي ﷺ فأسانيدها واهية ـ شديـدة الضعف ـ وكذلـك اجتماعـه بأحـد الصحابة، وكذا اجتماعه بالياس من كل عام، والأحاديث التي تفيد وجود الخضر كلها بأسـانيد واهية مع الغموض والانقطاع والجهالة والضعف»[٢].

ثم ساق ابن حجر جملة من ذلك مشيراً لمواطن الضعف فيها، إلا رواية واحدة فيها اجتماع الخضر بعمر بن عبد العزيز، فعقب عليها بقولـه: «ورجال الرواية لا بأس بهم».

قلت: وهذا كما هو معلوم من مصطلح الحـديث لا يفيد صحـة الروايـة البتة، لاحتمال وجود الانقطاع أو الشذوذ أو غير ذلك، فليتنبه.

ثم إن الحـافظ أبا الحسين ابن المنـادى، وابن الجوزي قـد ضعفا هـذه الطريق كما سيأتي:

وجاء في كتاب الموت من الاحياء في البـاب الرابـع منه عنـد ذكر وفـاة النبي ﷺ قول الغزالي:

[وعن ابن عمـر أنه لمـا دخل أبـو بكـر البيت وصلى وأثنى، عـج أهـل البيت عجيجـاً سمعـه أهـل المصلى، كلمـا ذكـر شيئاً ازدادوا، فمـا سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صَيِّتٌ جلد قـال: «السلام عليكم يـا أهل البيت ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ... ﴾ الآيـة إن في الله خلفـاً من كـل أحـد، ودركا لكل رغبة، ونجاة من كل مخافة، فالله تعالى فارجو، وبه فثقوا».

---

(١) حديث إجتماع الخضر بالياس في كل موسم جاء في «الأحياء» (١/٥٦٩) وقال العراقي فيه: «رواه ابن عدي وهـو بهـذا الإسنـاد منكـر» قلت: وأورده المتقي الهـندي في «المنتخب» (٥/٢٨٥) بحاشية المسند، ورمز للدارقطني في «الإفراد» وابي إسحاق الزكي في فوائده، والعقيلي في «الضعفاء»، وابن عدي في «الكامل»، وابن عساكر وضعّفه، وابن الجوزي في «الموضوعات»، وسيأتيك بعض كلامهم فيما بعد.

(٢) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٦/٤٣٤) وما بعدها.

فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء فقد صوته، فاطلع حدهم فلم ير أحداً، ثم عادوا فبكوا فناداهم منادٍ آخر لا يعرفون صوته: «يا هل البيت، اذكروا الله تعالى واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين، ن في الله عزاءً من كل مصيبة، وعوضاً من كل رغيبة، فالله أطيعوا، وأمره عملوا».

فقال أبو بكر: هو الخضر والمسيح عليهما السلام حضرا النبي ﷺ][1].

فتعقبه الحافظ العراقي بقوله: [لم أجد فيه ذكر اليسع، وأما ذكر الخضر ي التعزية، فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث، وقال: إنما ذكره أصحاب، قلت ـ والقائل الحافظ ـ: بلى قد رواه الحاكم في المستدرك من حيث أنس، ولم يصححه ولا يصح، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضاً قال:

(لما قبض رسول الله ﷺ ، اجتمع أصحابه حوله يبكون، فدخل عليهم جل، طويل شعر المنكبين في إزار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى أخذ بعضادتي باب البيت، فبكى على رسول الله ﷺ ثم أقبل على صحابه فقال: إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وعوضاً من كل فائت، وخلفاً ن كل هالك فإلى الله تعالى فأنيبوا، ثم ذهب الرجل.

فقال أبو بكر: علي الرجل.

فنظروا يميناً وشمالاً فلم يروا أحداً.

فقال أبو بكر: «لعل هذا الخضر، أخو نبينا عليه السلام جاء يعزينا»).

رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده ضعيف جداً، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لما قبض رسول الله ﷺ جاء تٍ نسمع حسّه ولا نرى شخصه، قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ن في الله عوضاً من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت،

---

١) «الإحياء» (ج١/ص٤٧٤).

فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإن المحروم من حرم الثواب، والسلام عليكم، فقال علي: أتدرون من هذا؟ هو الخضر).

وفيه عمر بن جعفر الصادق تكلم فيه، وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وجده عليّ، والمعروف عن علي بن الحسين مرسلاً، من غير ذكر علي، كما رواه الشافعي في الأم، وليس فيه ذكر الخضر]، انتهى قول الحافظ العراقي رحمه الله.

قلت: وعدم ذكر الإمام الشافعي للخضر في روايته قطع منه بضعفها، ولو ثبتت عنده ما تركها، كما أن رواية الشافعي نفسها لا تسلم، وثمة أمر آخر في هذه الروايات ـ لم ينبه عليه الحافظ ـ وهو الاختلاف والتعدد.

ففي رواية أنس وصف للخضر وقامته ولباسه وشعره وأخذه عضادتي الباب.

وفي حديث علي إنكار مجرد رؤيته أصلاً، ولا يقال هنا لعل بعضهم رآه دون البعض الآخر، لقوله «نسمع حسه ولا نرى شخصه» فالتحديث بصيغة الجمع، وجواب آخر أن مثل هذه الحادثة الواجب فيها الانتشار والاشتهار، فإن حصل أن لم يره بعض الصحابة بسبب الزحام، فلا بد من أن يخبروا بذلك فيما بعد.

ولا يمكن الجمع بين الروايتين بتعدد الوقائع إذ الوفاة واحدة، ولا باختلاف المجالس إذ المجلس واحد وخاصة في اقتراب أبي بكر وعلي رضي الله عنهما من النبي ﷺ وجلوسهم حوله، مما يقتضي الاختلاف في الحكاية على فرض صحتها، وليس لها من الصحة نصيب، وأزيد قول العراقي بياناً فأقول: إن حديث التعزية رواه البيهقي كذلك من طريق عباد بن عبد الصمد عن أنس، بنحو الرواية التي ساقها العراقي.

ثم قال البيهقي: «عباد بن عبد الصمد ضعيف، وهذا منكر بمرة» نقل ذلك الحافظ ابن كثير وزاد[1] [قلت: عباد بن عبد الصمد هذا هو ابن معمر

(١) «البداية» (ج١ص٣٣٢) وانظر «نيل الأوطار» (٤/١٤٦).

البصري، روى عن أنس نسخة ـ قال ابن حبان والعقيلي ـ أكثرها موضوع وقال البخاري منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث جداً، منكره، وقال ابن عدي: هو ضعيف].

ثم ساق ابن كثير رواية الشافعي في مسنده التي ساقها العراقي وقال: «شيخ الشافعي القاسم العمري متروك، قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يكذب، زاد أحمد ويضع الحديث، ثم هو مرسل ومثله لا يعتمد عليه ههنا، والله أعلم وقد روي من وجه آخر ضعيف عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن أبيه عن علي. ولا يصح»[١].

ثم ذكر ابن كثير صلاة الخضر خلف عمر رضي الله عنه وقد رواها ابن وهب ثم قال: «وهذا الأثر فيه مبهم وفيه انقطاع، ولا يصح مثله»[٢].

وذكر قصة علي رضي الله عنه مع الخضر وهو متعلق بأستار الكعبة، والقصة رواها ابن عساكر من طريق عبد الله بن محرز عن يزيد بن الأصم عن علي، وعبد الله متروك، ويزيد لم يدرك علياً، كذا قال ابن ؟ - وزاد[٣]: «ومثل هذا لا يصح، والله أعلم، وقد رواه أبو إسماعيل الترمذي ـ وساق طريقه ولفظه ـ وقال: وهذا أيضاً منقطع وفي إسناده من لا يعرف».

وتابع ابن كثير:

«وقد أورده ابن الجوزي ـ وذكر إسناده ـ ثم قال ـ ابن الجوزي ـ: وهذا إسناد مجهول منقطع، وليس فيه ما يدل على أن الرجل الخضر، قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر أنبأنا ـ وساق عنه حديث ابن عباس في التقاء الخضر وإلياس كل عام في الموسم ـ ثم قال: ابن كثير: قال الدارقطني في الإفراد هذا حديث غريب من حديث ابن جريج لم يحدث غير هذا الشيخ عنه يعني الحسن بن زريق، وقد روى عنه محمد بن كثير العبدي أيضاً ومع هذا قال فيه

(١) «البداية» (ج١/ص٣٣٣).

(٢) والقصة اخرجها ابن عساكر أيضاً من طريق ابن وهب فقال: عن أبي طاهر ثنا عبد الله بن وهب عمن حدثه عن ابن عجلان فذكره في الإسناد مبهم كما ترى، أعني شيخ عبد الله بن وهب. (أنظر منتخب كنز العمال) (٥/٢٨٦).

(٣) «البداية» (ج١/٣٣٣)

الحافظ أبو أحمد بن عدي ليس بالمعروف، وقال الحافظ العقيلي: مجهول وحديثه غير محفوظ، وقال أبو الحسين ابن المنادى هو حديث واهٍ بالحسن بن زريق»[١].

ثم ساق الحافظ ابن كثير قصة عبد الملك بن مروان لما أراد التعبد بجامع دمشق، من طريقين عند ابن عساكر وسكت عليهما، قلت: لكنه ذكرهما في فضل ما ورد في جامع دمشق من الأخبار. قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية[٢]:

[وقال أبو بكر الرامي: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك بن المغيرة المقري، حدثني أبي عن أبيه، أن الوليد بن عبد الملك تقدم إلى القوام ليلة من الليالي فقال:

إني أريد أن أصلي الليلة في المسجد فلا تتركوا أحداً يصلي الليلة.
فقال له بعضهم:
يا أمير المؤمنين هذا الخضر يصلي في المسجد كل ليلة.
وفي رواية أنه قال لهم:
لا تتركوا أحداً يدخله.

ثم إن الوليد أتى باب الساعات فاستفتح الباب ففتح له، فإذا رجل قائم بين الساعات وباب الخضراء الذي يلي المقصورة، يصلي، وهو أقرب إلى باب الخضراء منه إلى باب الساعات، فقال الوليد للقوّام ألم آمركم أن لا تتركوا أحداً الليلة يصلي في المسجد.

فقال له بعضهم:

يا أمير المؤمنين هذا الخضر يصلي كل ليلة في المسجد.

قال الحافظ ابن كثير: في إسناد هذه الحكاية وصحتها نظر، ولا يثبت بمثلها وجود الخضر بالكلية ولا صلاته في المكان المذكور، والله أعلم].

---

(١) والحديث ذكره في «منتخب كنز العمال» (٢٨٨/٥). و ذكره الإسناد «منتخب كنز العمال» (٢٨٦/٥).
(٢) «البداية» (ج٩/ص١٧٣).

ثم ذكر الحافظ ابن كثير قصة عمر بن عبد العزيز وهو يماشي الخضر عليه السلام، ـ وهي القصة التي قال ابن حجر في رجالها ثقات ـ وقال: «قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي: (الرملي مجروح عند العلماء). وقد قدح أبو الحسين ابن المنادي في حمزة والسري ورباح ـ وهم من رجال قصة عمر بن عبد العزيز ـ»[1].

قال ابن كثير[1]: «ثم أورد ـ ابن الجوزي ـ من طرق أخر عن عمر بن عبد العزيز أنه اجتمع بالخضر وضعفها كلها».

ثم قال[1]: «وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم، وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً، لا يقوم بمثلها حجة في الدين، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد».

قال[2]: «وقد تصدى الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله في كتابه (عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر) للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبين أنها موضوعات، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها وبيان أحوالها وجهالة رجالها، وقد أجاد في ذلك وأحسن الإنتقاد، ثم قال: وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات ومنهم البخاري وإبراهيم الحربي وأبو الحسين ابن المنادي، والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي فيحتج لهم بأشياء كثيرة منها قوله ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد . . .﴾»[3].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ . . .﴾ الآية.

إلى أن قال:

ثم لو كان باقياً بعده لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية وقتاله مع المسلمين في غزواتهم وشهوده

(١) «البداية» (ج١/ص٣٣٣).
(٢) «البداية» (ج١/ص٣٣٤).
(٣) أنظر «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (ج٣/ص١٧٨).

معهم وجماعاتهم ونفعه إياهم ودفع الضرر عنهم ممن سواهم وتسديده العلماء والحكام وتقريره الأدلة والأحكام أفضل مما يقال عنه من كنونه في الأمصار، وجوبه الفيافي والأقطار، واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم وجعل لهم كالنقيب المترجم عنهم، وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم أورد حديث البخاري ومسلم المتقدم «لا يبقى على وجه الأرض بعد مائة سنة ممن هو عليها اليوم أحد».

ثم قال[1]: قال ابن الجوزي: «فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر».

وقال ابن كثير[1]: «وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتابه «التعريف والإعلام» عن البخاري، وشيخه أبي بكر ابن العربي أنه أدرك حياة النبي ﷺ، ولكن مات بعده لهذا الحديث، قال ابن كثير: وفي كون البخاري يقول هذا، وأنه بقي إلى زمان النبي ﷺ نظر».

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[2]: «والسلف ما كانوا يكذبون، ولم يذكر عن أحد منهم أنه رأى الخضر عليه السلام، والذي يدعي ذلك من الناس إما أنه كاذب أو أن الذي أتاه جني في صورته لأن الخضر قد مات»[3].

وقد أطلت في هذه المسألة رجاء أن يقف عليها مشتاق فينتفع بها، والله الهادي.

وأما هل كان الخضر نبياً أم ولياً، فسيأتي إن شاء الله في موضعه من هذا الكتاب.

ومن عجيب الأحاديث التي رواها أبو حامد أن النبي ﷺ قال: «شكوت

---

(١) «البداية» (ج١/ص٣٣٦).

(٢) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» لابن تيمية (ص٧٨) بتصرُّف.

(٣) قد يقول قائل: جاء في مجموع الفتاوى (ج ٤/ ٣٣٨) لابن تيمية اعتراضه على الاستدلال بحديث البخاري، وقال: لا حجة فيه، وأنه ذكر ان الخضر قد اجتمع بالنبي ﷺ وقال روى ذلك في مسند الشافعي وغيره، فيكون قد نقل في ذلك عن ابن تيمية قولان،

وأقول: لكن جاء قبل الموضع المذكور بورقة واحدة: «وسئل شيخ الإسلام رحمه الله =

إلى جبريل ضعفي عن الوِقَاع فدلني على أكل الهريسة»(١).

قال الحافظ العراقي: «قال ابن عدي: موضوع، وقال العقيلي: باطل».

قلت: ووجه البطلان فيه أمور:

أولها: الركاكة، أو الرُّكَّة في اصطلاح المحدثين، وفي اللفظ والمعنى على حد سواء في هذا الحديث.

وثانيها: ما عرف عنه ﷺ «أنه كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة وله يومئذ تسع نسوة».

كما عند البخاري، ولفظ مسلم «كان يطوف على نسائه بغسل واحد».

وعند البخاري أيضاً أنه ﷺ كان له قوة ثلاثين رجلاً، وفي رواية الإسماعيلي أربعين.

ولذلك قال الأمير الصنعاني في «سبل السلام» بعد هذا الحديث: «وفي الحديث دلالة على أنه ﷺ أكمل الرجال في الرجولية حيث كان له هذه القوة»(٢).

عن الخضر والياس، هل هما معمران؟ فأجاب: انهما ليسا في الأحياء ولا معمران، وقد سأل ابراهيم الحربي أحمد بن حنبل عن تعمير الخضر والياس وأنهما باقيان يريان ويروى عنهما، فقال الإمام أحمد: من أحال على غائب لم ينصف منه، وما ألقى هذا إلا الشيطان.

وسئل البخاري عن الخضر وإلياس هل هما في الأحياء فقال: كيف يكون هذا وقد قال النبي ﷺ: لا يبقى على رأس مائة سنة مما هو عليها اليوم أحد.

وقال أبو الفرج ابن الجوزي: عند قوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) ليس هما في الأحياء والله أعلم»

مجموع الفتاوى (ج ٤/ ص ٣٣٧).

من أجل ذلك فإن الأشبه عندي أن ما ذكر عنه من الاعتراض على الاستدلال بحديث البخاري، والقول برواية الشافعي منسوب إليه، موضوع عليه،

وجامع الفتاوى كأنما شم رائحة الوضع فقال: «هكذا وجدت هذه الرسالة» (ج ٤/ ٣٣٨) والرسالة مقدارها ورقتان.

ويؤيد هذا أيضاً: اضطراب بعض ألفاظ الاعتراض وغموضها، والله أعلم،

(١) «الاحياء» (ج٣/ص١٠٠).

(٢) «سبل السلام» (ج٣/ص١٧٤).

ويروي الغزالي في كتاب الرضا من ربع المنجيات أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا فتقول لهم الملائكة هل رأيتم الحساب فيقولون: ما رأينا حساباً، فتقول لهم: هل جزتم الصراط، فيقولون: ما رأينا صراطاً، فتقول لهم: هل رأيتم جهنم، فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟. فيقولون: من أمة محمد ﷺ، فتقول: ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا، فيقولون: خصلتان كانتا فينا، فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله، فتقول: وما هما، فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا».

قال الحافظ العراقي معقباً: «رواه ابن حبان في الضعفاء، وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف، وفيه حميد بن علي القيسي ساقط هالك، والحديث منكر، مخالف للقرآن وللأحاديث الصحيحة في الورود وغيره».

قلت: أبو عبد الرحمن السلمي كذاب[1]

ويزداد عجبك عندما ترى الغزالي يذكر أن إحدى زوجات النبي ﷺ دفعته في صدره!!! فإذا ما زبرتها أُمُّها، قال النبي ﷺ: دعيها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك!!![2].

قال الحافظ العراقي: «لم أقف له على أصل».

وأكثر من ذلك فإنه يذكر في باب النكاح أن أم المؤمنين عائشة رضي

(١) قال فيه الذهبي في «ميزان الاعتدال» (ج٣/ص٤٦): «شيخ الصوفية، كان يضع الحديث للصوفية». أنظر «تلبيس إبليس» ص١٤ و«تاريخ بغداد» (ج٢/ ص٢٤٨) و«لسان الميزان» (ج٥/ ص١٤٠).
(٢) «الاحياء» (ج٢/ ص٤٣).

الله عنها قالت: «أيا من تزعم أنك نبي»[١].

فهذا وأيم الله من أعجب العجب، وأبين الكذب، وكيف يليق أن يورد أبو حامد مثل هذا في حق أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، فضلاً عن حق رسول الله ﷺ.

ومثل هذه المناكير قد ترفعت عنها كتب المسلمين.

وإذا كان عظيم الخلق، ورفيع الأدب هما سمة زوجات الأصحاب، فكيف الظن بأمهات المؤمنين رضي الله عنهن اللواتي هن خير الصحابيات، بل كيف الظن بأفضلهن وأعلمهن وأحبهن إلى قلب المصطفى ﷺ عائشة.

ومثل ذلك ما يذكر عنها أنها قالت للنبي ﷺ: اسكت، مرتين أو ثلاثاً[٢].

ورحم الله الحافظ القائل: لا أعرف لهذه اللفظة رواية.

وأين يذهب أبو حامد الغزالي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهو يذكر ما يزعم أنه حديث وليس كذلك «سوء الخلق ذنب لا يغفر».

قال الحافظ العراقي: «رواه الطبراني في الكبير، وهو ضعيف»[٣].

واسمع إليه وهو يذكر في البخل وذمه حديثاً لا تحتمله الجبال الصم الراسيات فيقول[٤]:

«روي أن رسول الله ﷺ كان يطوف بالبيت، فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي فقال ﷺ: وما ذنبك؟ صفه لي، فقال: هو أعظم من أن أصفه لك.

---

(١) «الاحياء» (ج٢/ ص٤٣) وقد يقول قائل: إنّ «زعم» في لغة الحجازيين تستعمل بمعنى قال، والجواب أن ذلك صحيح، ولكن يبقى في القول ما فيه.

(٢) «الاحياء» (ج٢/ ص٤٤).

(٣) «الاحياء» (باب سوء الخلق وحسن الخلق).

(٤) «الاحياء» (ص٢٥٥/ ص٣).

فقال: ويحك، ذنبك أعظم أم الأرضون؟
فقال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله
قال: فذنبك أعظم أم الجبال؟
قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله
قال: فذنبك أعظم أم البحار؟
قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله
قال: فذنبك أعظم أم السموات؟
قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله
قال: فذنبك أعظم أم العرش؟
قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله
قال: فذنبك أعظم أم الله؟!!!
قال: بل الله أعظم وأعلى،
قال: ويحك صف لي ذنبك

قال: يا رسول الله إني رجل ذو ثروة من المال، وإن السائل ليأتيني يسألني، فكأنما يستقبلني بشعلة من نار.

فقال ﷺ: عني لا تحرقني بنارك، فوالذي بعثني بالهداية والكرامة، لو قمت بين الركن والمقام، ثم صليت ألفي عام، ثم بكيت حتى تجري من دموعك الأنهار، وتسقي بها الأشجار، ثم مت وأنت لئيم لأكبك الله في النار ويحك، أما علمت أن البخل كفر، وأن الكفر في النار، ويحك أما علمت أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾... ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قال الحافظ العراقي: «هو بطوله باطل لا أصل له».
قلت: وجه البطلان فيه ظاهر من وجوه:
أولها: قوله «إليك عني لا تحرقني».
ثانيها: قوله «ولو صليت ألف عام... لأكبك الله في النار».
ثالثها: قوله «أما علمت أن البخل كفر».

فكل ذلك باطل مخالف لما جاء به الشرع.

من ذلك ما جاء في الحديث القدسي عن رب العزة والجلال: (لو أتيتني بقراب الدنيا خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً أتيتك بقرابها مغفرة»[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾.

ولكن أبا حامد عندما يستدل بالشواهد، تضمحل عنده الأسانيد، وتغرب عنه الأصول التي سطرها هو بقلمه في «المنخول» و «المستصفى» وغيرهما، وتغيب عنه كل الحقائق إلا كلاماً يعتضد به قوله، ويستند عليه، وتظهر به حجته، ولو لم يكن ذلك في الشرع بشاهد ولا دليل، واسمع إليه وهو يسوق أدلته وحكاياته في ترك الطعام وطول الجوع، ويروي في ذلك أحاديثاً يزعم أنها أحاديث النبي ﷺ، فإذا طلبتها عند التحقيق وجدتها أحاديث الصوفية[2].

منها: «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش».

قال الحافظ العراقي: «لا أصل له»[2].

ومنها: «لا يدخل ملكوت السموات من ملأبطنه».

قال الحافظ: «لا أصل له» [2].

ومنها: «إلبسوا وكلوا واشربوا في أنصاف البطون فإنه جزء من النبوة».

قال العراقي الحافظ: «لا أصل له»[2].

ومنها: «الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة».

قال الحافظ: «لا أصل له»[2].

قلت: وهو منكر.

ومنها: «أفضلكم عند الله أطولكم جوعاً وتفكراً».

قال الحافظ: «لا أصل له»[2].

ومنها: «لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب».

---

(١) رواه مسلم.

(٢) «الاحياء» (ص٣٥٠/ ج٤) وما بعدها، ولا تنس ما قدمت أن قول الحافظ في الحديث: «لا أصل له» يعني أنه بحكم الموضوع.

قال الحافظ: «ليس له أصل»(١).

ومنها: «أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه».

قال الحافظ: «رواه ابن الجوزي في الموضوعات وهو منقطع»(١).

ومنها: «أميتوا أكبادكم».

قال الحافظ: «ليس له أصل»(١).

ومنها: «أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تصفو وترق».

قال الحافظ: «لا أصل له»(١).

ومنها: «من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه».

قال الحافظ: «لا أصل له»(١).

ومنها: «كان النبي ﷺ إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد».

قال الحافظ: «لا أصل له»(١).

ومنها قوله لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إياك والإسراف فإن أكلتين في اليوم إسراف».

قال الحافظ: «رواه البيهقي من حديث عائشة رضي الله عنها، وهو ضعيف»(١).

ومنها: «أشرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة».

قال الحافظ: «ليس له أصل»(١).

ومنها: «إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء فعلى الدنيا وأهلها الدمار».

قال الحافظ: «رواه الديلمي، وهو ضعيف»(١).

قلت: هو بعيد عن هدي النبوة أعني قوله «فعلى الدنيا وأهلها الدمار» فلذلك هو منكر.

ومنها: كان ﷺ يجوع من غير عوز.

قال الحافظ: «معضل»(١).

إلى غير ما ذكرت من الأحاديث الموضوعة المختلقة.

وهو فيما بين ذلك يحكي ما لا يعتقده إلا من كان في عقله مسّ أو كان

---

(١) «الاحياء» (ص٣٥٠/ ج٤) وما بعدها.

مضطرب المزاج، كقوله عن أبي يزيد لما بقي سنة كاملة من غير أكل ولا شرب[١]!!!!.

أوكمن بقي أربعة أشهر ولم ينم[٢]!!!.

وليت شعري ماذا يقول أبو حامد إذا علم أن أهل الصفة رضي الله عنهم الذين كانوا أقل الصحابة طعاماً، وأطولهم جوعاً، كان أحدهم يأكل في اليوم الواحد نصف مدّ من تمر[٣].

فقد أخرج الحاكم وصححه من حديث طلحة البصري رضي الله عنه قال: «كان قوت أهل الصفة مداً من تمر بين اثنين في كل يوم».

ووقفت في مسند الإمام أحمد رحمه الله فيما وقفت في «مسند رجل بن سمى طلحة» على ما يشهد لذلك، ففيه:

قال طلحة: «أتيت المدينة وليس لي بها معرفة فنزلت في الصفة مع رجل، فكان بيني وبينه في كل يوم مد من تمر، فصلى رسول الله ﷺ ذات يوم فلما انصرف قال رجل من أصحاب الصفة:

يا رسول الله أحرق بطوننا التمر وتخرقت عنا الخنف.

فصعد رسول الله ﷺ فخطب ثم قال إليه: «لو وجدت خبزاً أو لحماً لأطعمتكموه... الحديث»[٤].

وقد اشتهر خبر النفر الثلاثة الذين أتوا إحدى أمهات المؤمنين رضي الله عنها، فسألوها عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبرتهم بذلك كأنهم تقالّوها.

فقال أحدهم: أما أنا فأقوم ولا أنام.

وقال الآخر: أما أنا فأصوم ولا أفطر.

وقال الثالث: أما أنا فلا آكل اللحم.

---

(١) «الإحياء» (٣٥٦/ ج٤).

(٢) «الإحياء» (٤١١/ ج٤).

(٣) المُدّ هو ما يحمل بين الكفين من الطعام.

(٤) «المسند» (ج٣/ ص٤٨٧).

ووقع في بعض الروايات أنه قال لا أتزوج النساء.

فلما عرف النبي ﷺ كلامهم قام خطيباً فقال: «أما أني أتقاكم لله وأخشاكم له، واني لأقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»، والحديث في الصحيحين من طرق، وبألفاظ مختلفة، هذا مؤداها.

ومن نظير هذا ما يذكره في أبواب الزهد والتواضع وترك الدنيا، وحب الفقر وأهله، وكراهة الغنى، فيذكر أن النبي ﷺ قال: «من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكِبْر»[1].

قال الحافظ العراقي: «رواه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، وفي إسناده القاسم اليعمري ضعيف جداً».

قلت: وقال فيه ابن كثير: «متروك»[2].

وقال الإمام أحمد، ويحيى بن معين: «يكذب» وزاد الإمام أحمد: «ويضع الحديث»[2].

ثم إن الواقع يكذب ذلك، فكم قد رأينا من أمثال هؤلاء، من شحن الكِبْر صدره، وملأ إهابه، بل أن المعروف عكس ما ذكر الغزالي، وهو ما جاء عند البخاري ومسلم من حديث عقبة بن عمرو أبي مسعود رضي الله عنه، قال: «أشار رسول الله ﷺ بيده نحو اليمن فقال:

«الإيمان يمان، ها هنا، إلا أن القسوة وغلظ القلوب، في الفدّادين عند أصول أذناب الأبل حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر»[3].

وأخرجاه كذلك من حديث أبي هريرة ولفظه: «رأس الكفر نحو المشرق، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدادين أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم»[4].

---

(١) «الاحياء» (١٩٨٦) ط القاهرة.
(٢) «البداية» (ج١/ ص٣٣٢).
(٣) «اللؤلؤ والمرجان» (ص٢١/ ج١).
(٤) «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» (ج١/ ص٢٢).

فتأمل!!!

وكذلك فإنه يزعم أن النبي ﷺ قال لبلال رضي الله عنه: «إلق الله فقيراً ولا تلقه غنياً».

قال الحافظ العراقي: «ضعيف»[1].

ويزعم أيضاً أنه قال: «خير الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعاً في الجنة ضعفاؤها».

قال الحافظ: «لم أجد له أصلاً»[2].

ويذكر كذلك «والفقر أزين بالمؤمن من العزار في خد الفرس».

قال حافظ وقته: «أخرجه الطبراني بسند ضعيف»[3].

والعجب كل العجب بعد ذلك كله من أن يورد أبو حامد زيادة بسند ضعيف عند ابن ماجه[3]، ويترك أول الحديث الذي هو عند الشيخين لأنه خالف مذهبه، وهو قوله ﷺ: «سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات» وترك قوله ﷺ: «ذهب أهل الدثور بالأجور».

فانظر!!!

ومن مروياته في هذا الباب أنه سئل ﷺ:

«أي أمتك شر»[4].

قال: «الأغنياء»!!! وهو ضعيف.

«أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي وما كنت أن تدخلها إلا حبواً».

قال الحافظ: «صححه الحاكم: قلت ـ العراقي ـ: بل ضعيف فيه خالدابن أبي مالك ضعفه الجمهور»[5].

ومنها: «الأغنياء يدخلون الجنة بشدة».

---

(١) «الاحياء» (٢٣٩٦) ط القاهرة.

(٢) «الاحياء» (٢٣٩٩) ط القاهرة.

(٣) «الاحياء» (٢٤٠٠) ط القاهرة.

(٤) «الاحياء» (١٧٧٠) ط القاهرة.

(٥) «الاحياء» (١٧٩٥) ط القاهرة.

صححه الحاكم.

وقال العراقي: «ضعيف فيه خالد بن أبي مالك ضعيف جداً»[1].

قلت: وقول الحافظ العراقي صحيح، وإياك الاغترار بكل ما صحح الحاكم وإن كان إماماً[2].

قال المتقي الهندي في المنتخب: «واعلم ان الشيخ

(١) «الاحياء» (٢٢٤٧) ط القاهرة.

(٢) نبهت على ذلك بشأنه خاصة ـ وليس العصمة لأحد بعد النبي ﷺ ـ لكثير ما وقع عنده من تصحيح الضعيف، وربما الموضوع فوق ما وقع لغيره مرات، ينبئك عن ذلك ما جاء في «لسان الميزان» للحافظ ابن حجر رحمه الله حيث يقول: [«ذكر بعضهم أن الحاكم حصل له تغير وغفلة في آخر عمره، ويدل على ذلك أنه ذكر جماعة في كتاب «الضعفاء» له وقطع بترك الرواية عنهم، ومنع من الإحتجاج بهم، ثم أخرج أحاديث بعضهم في مستدركه وصححها. ثم نقل ابن حجر قول الحاكم: «وهؤلاء الذين ذكرتهم ـ الضعفاء ـ في هذا الكتاب ثبت عندي جرحهم لأنني لا أستحل الجرح إلا مبيناً ولا أجيزه تقليداً، والذي أختاره لطالب العلم أن لا يكتب حديث هؤلاء»] «لسان الميزان» (ج٣/ ص٣٣).

وقال السيوطي في «تدريب الراوي» (ج١/ ص١٠٥): والحاكم متساهل في التصحيح ثم قال: [وقال أبو سعيد الماليني: «طالعت المستدرك الذي صنفه الحاكم من أوله إلى آخره، فلم أر فيه حديثاً على شرطهما». قال الذهبي: «وهذا إسراف وغلو من الماليني، وإلا ففيه جملة وافرة على شرطهما، وجملة كثيرة على شرط أحدهما، لعل مجموع ذلك نحو نصف الكتاب. وفيه نحو الربع مما صح سنده، وفيه بعض الشيء أو له علّة. وما بقي وهو نحو الربع فهو مناكير أو واهيات لا تصح، وفي بعض ذلك موضوعات»] وهذا إنما نقله السيوطي من تلخيص الذهبي للمستدرك، قلت: من ذلك قول الحاكم في حديث ختن النبي ﷺ أنه حديث متواتر. فتعقبه الذهبي بقوله: «ما أعلم صحة ذلك فكيف يكون متواتراً».

وكان الذهبي قد ذكر في ميزان الإعتدال (ج١/ ص٤١٢) أن الدارقطني قال في جعفر راوي حديث الختن «أنه يضع الحديث» وأن أبا زرعة قال فيه: «روى أحاديث لا أصل لها». وأن ابن عدي قال أيضاً: «إنه يسرق الحديث ويأتي بالمناكير عن الثقات، وساق له ـ ابن عدي ـ أحاديث وقال: كلها بواطل».

وقال الحافظ الذهبي في تلخيص المستدرك بعد حديث «لولا محمد ما خلقتك» [قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد» قال الذهبي: قلت: بل هو موضوع] وانظر «ميزان الاعتدال» (ج٢/ ص٥٠٤).

السيوطي رحمه الله قال في جمع الجوامع، وجميع ما في الكتب الخمسة (البخاري ومسلم وابن حبان والحاكم والضياء) صحيح فالعزو إليها مُعْلِمٌ بالصحة سوى ما في المستدرك من المتعقب فأنبه عليه...»[1].

وقال العراقي في شرح ألفيته[2]:

«ويؤخذ الصحيح أيضاً من المصنفات المختصة بجمع الصحيح فقط كصحيح أبي بكر ابن خزيمة وصحيح أبي حاتم البستي، وكتاب «المستدرك على الصحيحين» لأبي عبد الله الحاكم على تساهل في المستدرك».

وقال العماد ابن كثير في «اختصار علوم الحديث»[3]:

«قد التزم ابن خزيمة وابن حبان الصحة، وهما خير من «المستدرك» بكثير وانظف أسانيداً ومتوناً».

وقال الحازمي في «شروط الأئمة الخمسة»[4] نقلاً عن ابن الصلاح:

«الحاكم واسع الخطو في شرط الصحيح متساهل في القضاء به...».

وقال الزيلعي في «نصب الراية»:

«ومن أكثرهم تساهلاً الحاكم أبو عبد الله في كتابه المستدرك... حتى قال... ومن تأمل كتابه المستدرك تبين له ما ذكرناه»[5].

---

(١) حاشية مسند أحمد (ص٨ - ٩/ج١).

(٢) شرح «ألفية العراقي» للعراقي: (١/ ٢٩٠)

(٣) اختصار «علوم الحديث» لابن كثير: ص٢٦

(٤) «شروط الأئمة الخمسة» للحازمي (ص٤٤).

(٥) مقدمة «تحفة الأحوذي» (١٢٨)

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (ص٨٠) عند الحديث المتقدم:

[عن عمر مرفوعاً وموقوفاً عليه «لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، قال: وكيف عرفت محمداً. قال لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت مكتوباً على قوائم العرش «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فعلمت أنه لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، قال: صدقت يا آدم ولولا محمد ما خلقتك».

قال ابن تيمية: رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، وصححه، وهذا الحديث =

= يدور على عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ضعّفه أحمد بن حنبل وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي والدارقطني وغيرهم وأما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث وأمثاله، فهذا مما أنكره عليه أهل العلم بالحديث، وقالوا: إن الحاكم يصحح أحاديث وهي موضوعة مكذوبة عند أهل المعرفة بالحديث، ومنها ما يكون موقوفاً برفعه، ولهذا كان المحدثون لا يعتمدون على تصحيحه، وإن كان غالب ما يصححه صحيح، فهو بمنزلة الثقة الذي يكثر غلطه، وإن كان الصواب أغلب عليه، وليس فيمن يصحح الحديث أضعف من تصحيحه، بخلاف ابن حبان فإن تصحيحه فوق تصحيح الحاكم، وأجلّ قدراً، وكذلك الترمذي والدارقطني وابن خزيمة وابن منده لا يبلغ تصحيح الواحد منهم مبلغ تصحيح مسلم، ولا يبلغ تصحيح مسلم تصحيح البخاري، فهو أجل من صنف في هذا الباب].
ونحو هذا جاء في «الصارم المنكي في الرد على السبكي» (ص٦٠ ـ ٦٢) لابن عبد الهادي.

وأما سبب تصحيح الحاكم لبعض ما هو ضعيف فيحكيه ابن حجر العسقلاني، وينقله السيوطي في التدريب (١/١٠٦) فيقول [قال شيخ الإسلام ـ يعني بذلك ابن حجر ـ: إنما وقع للحاكم التساهل لأنه سوّد الكتاب لينقحه فأعجلته المنيّة»] ويقول: [«وقد وجدت في قريب نصف الجزء الثاني على تجزئة ستة مع المستدرك، إلى هنا انتهى إملاء الحاكم» قال ابن حجر: «والتساهل في القدر المملى قليل جداً بالنسبة لما بعده] («تدريب»٥٢).
مسألة:

إذاً فما الحكم على حديث يصححه الحاكم لأول وهلة؟
يقول ابن حجر: [فما صححه ولم نجد فيه لغيره من المعتمدين تصحيحاً ولا تضعيفاً حكمنا بأنه حسن إلا بأن تظهر فيه علّة توجب تضعيفه، ثم نقل في ذلك أقوال البدر بن جماعة والعراقي وابن الصلاح وغيرهم] «تدريب الراوي» (ج١/ ص١٠٦).

قلت: هذا أنقله عن ابن حجر ولا أستحسنه، وعندي أن التوقف في الحكم على الحديث ـ والحالة هذه ـ هو الصواب، حتى يعرض على أصول هذا الفن من عالم نحرير، وإلا صححنا ضعيفاً ولا بد، ولست أدري كيف يقول ابن حجر هذا وهو أستاذ الدنيا، وطبيب الحديث وعلومه، رحمه الله وأعلى درجته وكأنه تابع فيه ابن الصلاح،
وقد استعرض الحافظ المباركفوري المسألة في مقدمة «تحفة الأحوذي» (ص١٢٨) فقال: قال الجزائري: قد اختلف في حكم ما انفرد الحاكم بتصحيحه، فقال ابن الصلاح: الأولى أن نتوسط في أمره فنقول: ما حكم بتصحيحه ولم نجد ذلك فيه لغيره من الأئمة إن لم يكن من قبيل الصحيح فهو من قبيل الحسن يحتج به ويعمل به إلا أن تظهر فيه علة توجب ضعفه. ويقاربه في حكمه صحيح أبي حاتم البستي، انتهى، =

= قال المباركفوري: وظاهر هذا الكلام أن ما انفرد بتصحيحه ولم يكن فيه لغيره حكم أن يجعل دائراً بين الصحيح والحسن احتياطاً، وقد ظن بعضهم أن كلامه يدل على أنه يحكم عليه بالحسن فقط فنسب إليه التحكم في هذا الحكم،

وقال كثير من المحدثين: إن ما انفرد الحاكم بتصحيحه يبحث عنه ويحكم عليه بما يقضي به حاله من الصحة أو الحسن أو الضعف، والذي حمل ابن الصلاح على ما قال، هو ما ذهب إليه من أنّ أمر التصحيح قد انقطع ولم يبق له أهل، والصحيح أنه لم ينقطع، وأنه سائغ لمن كملت عنده أدواته وكان قادراً عليه،

قلت: فالخلاصة أنهم اتفقوا على تضعيف ما ظهرت علّة ضعفه، واختلفوا فيما لم يكن فيه كلام سواه، فحسَّنه قوم على الإطلاق، وتوقف الجمهور فيه إلى حين الخبر اليقين،

ويقول الخطيب البغدادي: [«حدثني أبو إسحق إبراهيم بن محمد الأرموني قال: جمع الحاكم أحاديث زعم أنها صحاح على شرط البخاري ومسلم يلزمهما إخراجها في الصحيح منها حديث الطير، وحديث «من كنت مولاه فعليّ مولاه». فأنكر عليه أصحاب الحديث ذلك ولم يلتفتوا إلى قوله ولاموه في فعله، قال الحاكم: حديث الطير لم يُخَرَّج في الصحيح وهو صحيح، قال ابن طاهر بل موضوع لا يروى إلا عن أسقاط أهل الكوفة من المجاهيل عن أنس، فإن كان الحاكم لا يعرف هذا فهو جاهل، وإلا فهو معاند كذاب] «البداية» (١١/٣٥٥).

قلت: وهذه مغالاة من ابن طاهر وتحامل ظاهرين، وكان الأولى حسن الظن بإمام كالحاكم، وعدم رميه بأشنع التُّهَم، هذا، وابن طاهر المذكور تكلموا فيه وذكروا عنه أشياء منكرة كإباحة السماع وجواز النظر إلى المردان وغير ذلك والله أعلم (البداية ١١/١٧٧).

فائدة:

وحديث الطير المذكور «كان عند النبي ﷺ طير فقال: «اللهم أئتني بأحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير فجاء عليّ فأكل معه» أخرجه الترمذي وقال غريب،

والحديث رواه أبو يعلي، وابن يعقوب، والخطيب، وابن عساكر وغيرهم، ورواه الحاكم من طريقين وصححه،

[وكان الحافظ الذهبي يقول: «لا والله ما صحّ شيء من ذلك» ثم جمع طرق الحديث وأفرد لها جزءً، أورد فيه بضعة وتسعين نفساً من الذين رووه وقال: ويروى هذا الحديث من وجوه باطلة أو مظلمة

وممن فعل ذلك الحافظ ابن مردويه، وابن جرير الطبري، وقد رد القاضي أبو بكر الباقلاني على كتاب ابن جرير وضعف الحديث سنداً ومتناً. =

ويقول ابن كثير: «وفي القلب من صحة هذا الحديث نظر وإن كثرت طرقه»] «البداية» (ج٧/ ص٣٨٧)

وأما حديث «من كنت مولاه فعليّ مولاه» وهو الذي يسمى حديث «غدير خم» بفتح الخاء وقيل بضمها وهو غدير بالجحفة فالصحيح أنه صحيح.

وقد أخرجه الإمام أحمد من طرق، والنسائي، وأبو بكر الشافعي، وأبو يعلى، والترمذي وحسّنه، وابن عساكر، وعبد الرزاق، والخطيب وضعفه، وابن ماجه، وغيرهم.

والحديث حسّنه ابن حجر العسقلاني في رسالة مختصرة، وبعض كتبه، وتحسين الترمذي له تقدم. وجملة ما قيل فيه أنه صالح(١١/ ٣٨٢)» البداية». وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وحديث (من كنت مولاه فعليّ مولاه) فهذا ليس في شيء من الأمهات: إلا في الترمذي ليس فيه إلا (من كنت مولاه فعليّ مولاه) وأما الزيادة - يعني اللهم وال من والاه... «فليست في الحديث» سئل عنها الإمام أحمد فقال: زيادة كوفية.

ثم قال: وهي باطلة من وجوه:

أحدها: أن الحق لا يدور إلا مع النبي ﷺ، لأنه لو كان كذلك لوجب اتباعه في كل ما قال، ومعلوم أن علياً نازعه الصحابة وأتباعه في مسائل وجد فيها نص يوافق من نازعه، كالمتوفى عنها وهي حامل.

وقوله (اللهم انصر من نصره...) خلاف الواقع، قاتل معه أقوام يوم صفين فما انتصروا وأقوام لم يقاتلوا معه فما خذلوا كسعد الذي فتح العراق لم يقاتل معه، وكذلك أصحاب معاوية فتحوا كثيراً من البلاد.

وكذلك قوله (اللهم وال من والاه...) مخالف لأصل الإسلام.

ثم قال: فمن أهل الحديث من طعن فيه كالبخاري وغيره، ومنهم من حسنه، إنتهى كلامه بتصرف «مجموع الفتاوى».

قلت: ويؤيد هذا عدم إتباع كثير من الصحابة له: في صفّين والجمل وقعودهم عن مناصرته، فلو صح ذلك لما وسعهم القعود.

والله أعلم

وقد جاء في «نصب الراية» للزيلعي (١/ ١٨٩) وكم من حديث كثرت رواياته وتعددت طرقه وهو حديث ضعيف كحديث «الطير» وحديث «الحاجم والمحجوم» وحديث «من كنت مولاه فعليّ مولاه»، انتهى.

فلا معنى لاعتراض الخطيب عليه، من أجل ذلك واتهامه بالتشيع، لذلك أنظر «السهم المصيب في كبد الخطيب». هذا مع الإشارة إلى أن أحاديث كثيرة في فضائل أهل البيت

وإتماماً للفائدة أشير إلى بضعة من الأحاديث التي صححها الحاكم وأوردها الغزالي في الاحياء ثم تعقبها العراقي بالتضعيف، وبذلك أحقق شاهدين:

أولهما: شاهد على صحة ما نسب للحاكم من التساهل.

وثانيهما: شاهد على صحة ما نسب للغزالي من إيراد الأحاديث الضعيفة.

حديث: «بينما رسول الله ﷺ جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه: فقال عمر: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما الذي أضحكك. فقال: رجلان من أمتي . . . الحديث».

قال العراقي: «صححه الحاكم وضعفه البخاري وابن حبان»[1].

حديث: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد . . . الحديث».

رضي الله عنهم أجمعين انفرد الحاكم بتصحيحها. وتُعُقّب بعضها في «منتخب كنز العمال» للمتقي الهندي (٥/٩٢ ـ ٩٣ ـ ٩٤)».

وجاء في مقدمة «تحفة الأحوذي» (ص١٢٤):

(قال الخطيب أبو بكر: أبو عبد الله الحاكم كان ثقة يميل إلى التشيّع، فحدثني إبراهيم به محمد الأرموي وكان صالحاً عالماً قال: جمع الحاكم أحاديث وزعم أنها صحاح على شرط البخاري ومسلم منها حديث الطير، ومن كنت مولاه فعلي مولاه.

فأنكرها عليه أصحاب الحديث فلم يلتفتوا إلى قوله،

قال الحسن بن أحمد السمرقندي الحافظ: سمعت أبا عبد الرحمن الشاذياضي صاحب الحاكم يقول: كنا في مجلس السيد أبي الحسن، فسئل أبو عبد الله الحاكم عن حديث الطير فقال: لا يصح، ولو صح لما كان أحد أفضل من عليّ رضي الله عنه بعد النبي ﷺ.

قال الذهبي: ثم تغير رأي الحاكم وأخرج حديث الطير في مستدركه، ولا ريب أن في المستدرك أحاديث كثيرة ليست على شرط الصحة، بل فيه أحاديث موضوعة شان المستدرك بإخراجها فيه، وأما حديث الطير فله طرق كثيرة جداً أفردتها بمصنف ومجموعها يوحي أن يكون الحديث له أصل. وأما حديث من كنت مولاه فله طرق جيدة، وقد أفردت ذلك أيضاً.

(إنتهى ما جاء في مقدمة تحفة الأحوذي).

(١) «الاحياء» (٩٩٨) ط القاهرة

صححه الحاكم، وقال العراقي: «بل هو منقطع وضعيف»[١].

حديث التعزية الذي فيه الخضر، وقد تقدم لك أن فيه عباد بن عبد الصمد وهو ضعيف جداً[٢].

حديث: «إن في جهنم وادياً يقال له هبهب، حق على الله أن يسكنه كل جبار».

صححه الحاكم، وقال العراقي: «فيه أزهر بن سنان، ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له في الضعفاء هذا الحديث»[٣].

حديث: «أربع لا يعطيهم الله إلا لمن يحب، الصمت وهو أول العبادة، والتوكل على الله، والتواضع، والزهد في الدنيا» صححه الحاكم بلفظ مختلف.

قال العراقي: «فيه العوام بن جويرية. قال ابن حبان يروي الموضوعات ثم روى له هذا الحديث»[٤].

حديث: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» صححه الحاكم.

وقال العراقي: «فيه ابن سعدة ضعفه البخاري»[٥].

قلت: ووثقه غيره، ولأجل هذا، أو لمتابعة ابن سعدة فيه قال الحافظ ابن حجر: «إسناده قوي»[٦] والحديث أخرجه الترمذي وابن ماجة عن أنس رضي الله عنه.

هذا، وفيما تقدم إشارة صالحة لما أردت، والتوسع في ذلك ليس هنا مكان بسطه، والحديث عنه، نسأل الله السداد.

---

(١) «الاحياء» (٦٤٠) ط القاهرة.
(٢) أنظر «نيل الأوطار» (٤/١٤٦).
(٣) «الاحياء» (١٩١٦) ط القاهرة.
(٤) «الاحياء» (١٩٤١) ط القاهرة.
(٥) «الاحياء» (٢١٤١) ط القاهرة.
(٦) «سبل السلام» (ج٤/ ص١٨٠).

ويزعم أبو حامد أن النبي ﷺ قال: «إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه وقال بأبي وجه من لا يفلح».

قال الحافظ العراقي: «لم أجد له أصلاً»[١].

والغزالي فيما يذكره قليل العزو نادره، ومع ذلك فإن في قليل عزوه غلط.

من ذلك قوله في حديث ابن عباس في الاكتحال ثلاثاً: وقد نقل ذلك في الصحيح. وهي في المصطلح يراد بها البخاري أو مسلم.

والحديث ليس كذلك، من أجل هذا قال العراقي: «بل هو عند الترمذي وابن ماجه»[٢].

وعزا حديثاً لعثمان بن أبي رشيد رضي الله عنه، قال الحافظ العراقي: «والصحيح أنه لعثمان بن طلحة رضي الله عنه»[٣].

إلى غير ذلك من هذه البواطل التي لا تسعها عجالتي، وبسطها يحتاج أطول من هذا المقام، فإن نصف أحاديث الأحياء تصلح كمثال على ما ذكرت، وبذلك يكون أبو حامد قد قامت عليه ثلاثة لا تدرء: بينة، وإقرار، وحكم[٤].

وإذا كانت هذه هي حالة أبي حامد في معرفة الحديث وسقيمه، ومقبوله ومردوده، فلا شك أن الأمر يكون قد اختلط عليه في كثير من المسائل، وفقد الدقة المحصّلة للضبط، وتطرق الاضطراب إلى موازين القبول والرد عنده في المفاهيم.

---

(١) «الاحياء» (١٣٨٨) ط القاهرة

(٢) «الاحياء» (ص٢٥٣ / ج١).

(٣) «الاحياء» (ص٢٩٤ / ج١).

(٤) أما البينة فما تقدم من الأمثلة، والإقرار قوله عن نفسه «وبضاعتي في علم الحديث مزجاة» وتقدم، والحكم، قول الأئمة فيه،

فاحتج بما ليس حجة، واعتقد ما ليس بمعتقد، وغدا مع كبير شهرته بين الفطاحل أعزل السلاح، قد ساخت أقدامه في ضحضاح.

وقبل الانتقال من هذا المقام فلا بد من تزييله بما ذكره شيخ الإسلام أبو العباس في ذلك.

يقول رحمه الله:

[فإن الناقل لا بد أن يكون عالماً عدلاً، فإن فرض أن أحداً نقل مذهب السلف كما يذكره - من الباطل - فلا بد أن يكون قليل المعرفة بآثار السلف، كأبي المعالي - الجويني شيخ الغزالي - وأبي حامد الغزالي، وابن الخطيب وأمثالهم ممن لم يكن لهم من المعرفة بالحديث ما يعدون به من عوام أهل الصناعة فضلاً عن خواصها، ولم يكن الواحد من هؤلاء يعرف البخاري ومسلماً بأحاديثهما إلا بالسماع كما يذكر ذلك العامة، ولا يميزون بين الحديث الصحيح المتواتر عند أهل العلم بالحديث، وبين الحديث المفترى المكذوب، وكتبهم أصدق شاهد بذلك ففيها عجائب][1].

ويقول:

[وقد اعترف الغزالي بأن طريق الصوفية هو الغاية لأنهم يطّهرون مما سوى الله... لكن الصوفي الذي ليس معه الآثار النبوية مفصّلة يستفيد بها إيماناً مجملاً بخلاف أصحاب الآثار فإن المعرفة عندهم مفصّلة... لكن الغزالي لم يعرف طريقة أهل السنة والحديث، فلهذا لم يذكرها - بين الفرق التي ذكرها في بداية المنقذ والتي وصفها بأن طريق الحق لا يخرج عنها - وهي الطريقة المحمدية المحضة الشاهدة على جميع الطرق][2].

ويقول:

[فهؤلاء - المتبعون لآثار السلف - هم أفضل الخلق من الأولين

---

(١) «نقض المنطق» (ص٦٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (ج٢ / ص٥٦ - ٥٧).

والآخرين، لم يذكرهم أبو حامد، وذلك لأن هؤلاء لا يعرف طريقهم إلا من كان خبيراً بمعاني القرآن خبيراً بسنة رسول الله ﷺ خبيراً بآثار الصحابة فقيهاً في ذلك عاملاً. . .

وأبو حامد لم ينشأ بين من كان يعرف طريقة هؤلاء، ولا تلقى عن هذه الطبقة، ولا كان خبيراً بطريقة الصحابة والتابعين. . . بل كان يقول «أنا مزجيّ البضاعة في الحديث»[1].

هذا وفي أبواب الكتاب أمثلة كثيرة.

(١) «شرح العقيدة الأصفهانية» (١٦٨).

ثقافة أبي حامد في الميزان

كنت قدمت القول في حياته رحمه الله عمن تلقى عنهم، وإنه ليس فيهم إمام بارع خلا الجويني إمام الحرمين[١] لكن كان عنده أيضاً نزعة في الكلام، فثقافة أبي حامد من أين مأتاها؟

لقد رأيت في ذلك أقوالاً لغير واحد ممن حلَّلوا ثقافة الغزالي ووثقوا مصادرها، وكثير منهم في ذلك متفقون، من أهل زمانه فمن بعدهم، وبين الإسلاميين الذين أتوا بالخبر اليقين في غاية الدقة يبرز فطحل، كعادته في شمول التحري ودقة البحث وسعة الاطلاع وبعد النظر، هو شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ولذلك سوف أسوق ما ذكره، ثم من وافقه على ذلك، ثم أقيم الأدلة والبراهين على صحة ذلك، وبالله المستعان.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: [الغزالي في الكلام طريقته طريقة شيخه ـ الجويني ـ دون القاضي أبي بكر الباقلاني، وشيخه في أصول الفقه يميل إلى مذهب الشافعي وطريقة الفقهاء التي هي أصوب من طريقة الواقفة.

ومادة أبي حامد في الفلسفة من كلام ابن سينا[٢]، ولهذا يقال: أبو

---

(١) أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني من أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي، كان غزير المادة متقنا في الأصول والفروع والأدب وغيره. تفقه على والده، حتى جلس مكانه مفتياً بالحرم وهو ابن عشرين سنة، قال ابن خلكان: «انتهت إليه رياسة الأصحاب، وفُوِّض إليه أمر الأوقاف، وبقي على ذلك قريباً من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع» توفي سنة أربعمائة وثمان وسبعين للهجرة أنظر «البداية» (١٢/ ١٨٢) ـ «طبقات الشافعية الكبرى» (ج٥/ ١٦٥ ـ ٢٢٢) ـ «الكامل في التاريخ» (ج ١٠/ ص٧٧) وغيره.

(٢) أبو علي الحسين بن عبد الله الفيلسوف، وَلِيَ الوزارة مرتين ثم سجن ثم اختبأ زمناً حتى فرّ إلى أصفهان سنة ٤١٤ هـ فصنّف بها أكثر كتبه، ولما عاد لهمذان مكان مولده مرض في الطريق ومات سنة ٤٢٨ هـ، «وقد حصر الغزالي كلامه في مقاصد الفلاسفة ورد عليه في تهافت الفلاسفة في عشرين مجلساً كفّره في ثلاث منها وهي قوله بقدم العالم. وإنكار المعاد الجثماني، وأن الله لا يعلم الجزئيات، وبدّعه في البواقي» كذا قال في «البداية» (١٢/ ٤٣) ثم قال: ويقال أنه تاب في آخر عمره، فالله أعلم، ويقول عنه تلميذه المحبّ ابن أبي أصيبعة وقد صحبه خمسة وعشرين عاماً: «كان يجتهد في تناول شهوات الدنيا، وكان =

حامد أمرضه الشفاء[1]، ومن كلام رسائل أصحاب أخوان الصفا، ورسائل أبي حيان التوحيدي ونحو ذلك، وأما في التصوف ـ وهو من أجل علومه وبه نبل ـ فأكثر مادته من كلام الشيخ أبي طالب المكي[2] الذي يذكره في المنجيات... فإن عامته مأخوذ من كلام أبي طالب، ولكن كان أبو طالب أشد وأعلى وما يذكره في ربع المهلكات فأخذ غالبه من كلام الحارث

مسرفاً في الجنس حتى تدهورت صحته، وكان يحضر الشراب وآلات الموسيقى ويستمر في الغناء واللهو لساعات «طبقات الأولياء» (٤٤١)، وانظر: «خزانة الأدب» للبغدادي (ج٤/ ٤٦٦) ـ و«وفيات الأعيان» (١/ ٤١٩ ـ ٤٢٤) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير سنة ٤٢٨ ـ «الرد على المنطقيين» (١٤١ ـ ١٤٤) ـ «المختصر في أخبار البشر» سنة ٤٢٨ ـ «عيون الأنباء» (ج٢/ ص٧) ـ «لسان الميزان» (ج٢/ ٢٩١) وغير ذلك.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وحدثني ابن الشيخ الخضيري عن أبيه ـ شيخ الحنفية في زمانه ـ قال: كان فقهاء بخاري يقولون في ابن سينا: «كان كافراً ذكياً» ـ أنظر «نقض المنطق» (١٨١).

وكان شيخ الإسلام قد وصفه قبل ذلك بقوله: «إنه من الذين لبسوا الحنيفية بالصابئة» «نقض المنطق» (١٦١).

(١) كتاب «الشفاء» لابن سينا.

(٢) قال ابن كثير في «البداية»(١١/ ٣١٩): «هو الواعظ المذكِّر الزاهد المتعبد الرجل الصالح، سمع الحديث وروى عن غير واحد، قال العتيقي: (كان رجلاً صالحاً مجتهداً في العبادة، وصنف كتاباً سماه «قوت القلوب» وذكر فيه أحاديث لا أصل لها) ثم قال: وحكى ابن الجوزي أن أصله من الجبل وأنه نشأ بمكة وأنه دخل البصرة بعد وفاة أبي الحسن بن سالم فانتمى إلى مقالته، ودخل بغداد فاجتمع عليه الناس، وعقد له مجلس الوعظ فغلط في كلام، وحفظ عنه أنه قال: «ليس على المخلوقين أضر من الخالق» فبدّعه الناس وهجروه، وقد كان أبو طالب هذا يبيح السماع فدعا عليه عبد الصمد بن علي ودخل عليه، فعاتبه في ذلك فانشد ابو طالب:

فيا ليل كم فيك من متعب ... ويا صبح ليتك لم تقرب

فخرج عبد الصمد مغضباً، أ. هـ. من البداية. وذكروا أنه اتهم بالإعتزال، وعن «قوت القلوب» يقول الخطيب البغدادي: «ذكر فيه أشياء منكره مستشنعة في الصفات» «تاريخ بغداد» (ج٣/ص٨٩).

وانظر «شذرات الذهب» (٣/ ١٢٠ ـ ١٢١) ـ «لسان الميزان» (ج٥/ ص٣٠٠) ـ «وفيات الأعيان» (ج٣/ ص٤٣٠).

المحاسبي[1] في الرعاية][2].

(١) أبو عبد الله بن أسد، زاهد مشهور، كان عالماً بالأصول والمعاملات واعظاً مُبكياً. صنّف في الزهد وأصول الديانات والرد على المعتزلة، والرافضة وغيرهما. قال الخطيب البغدادي: له كتب كثيرة الفوائد جمّة المنافع «تاريخ بغداد» (ج٨/ ص ٢١١، ٢١٦) - وقال الأصبهاني في «حلية الأولياء» (ج١٠/ ص٧٣ - ١١٠): «هو أستاذ أكثر البغداديين». ويقال أنه ورث عن أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئاً: قيل لأن أباه كان يقول بالقدر فتركها ورعاً. وقال أبو القاسم النصر آباذي: «بلغني أن الحارث المحاسبي تكلم في شيء من الكلام فهجره أحمد بن حنبل فاختفى في دارٍ ببغداد ومات فيها ولم يصلِّ عليه إلا أربعة نفر» انتهى. ولم أر الحافظ ابن كثير ترجم له في البداية، فلست أدري أوهل أم وَهَلْتُ، لكن ذكر عنه في ترجمة الإمام أحمد أنه مات وصلى عليه أربعة نفر فقط، وذكر كذلك أن إسماعيل بن إسحق السَّرَّاج قال له الإمام أحمد يوماً: هل تستطيع أن تريني الحارث المحاسبي إذا جاء منزلك فقال إسماعيل: نعم، ثم دعا الحارث لمنزله هو وأصحابه، فأتاه هو وأصحابه ما بين العشاءين، وكان الإمام أحمد قد سبقهم لدار اسماعيل وجلس بحيث يراهم ويسمع كلامهم ولا يرونه، حتى إذا كان قريباً من نصف الليل سأله رجل من أصحابه مسألة، فشرع الحارث يتكلم عليها وما يتعلق بها من الزهد والورع، فجعل هذا يبكي وهذا يئنّ وهذا يَزْعَقُ، قال إسماعيل: فصعدت إلى الإمام أحمد فإذا هو يبكي حتى كاد يغشى عليه، ثم لم يزالوا كذلك حتى الصَّباح، فلما أراد الإنصراف قلت: كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله، فقال ما رأيت أحداً يتكلم في الزهد مثل هذا الرجل، ما رأيت مثل هؤلاء ومع هذا فلا أرى لك أن تجتمع بهم.

يقول الحافظ ابن كثير: «قال البيهقي يحتمل أنه كره له صحبتهم لأن الحارث بن أسد وإن كان زاهداً فإنه كان عنده شيء من علم الكلام، وكان أحمد يكره ذلك، أو كره له صحبتهم من أجل أنه لا يطيق سلوك طريقتهم، وما هم عليه من الزهد والورع. قال ابن كثير: بل إنما كره ذلك لأن في كلامهم من التقشف وشدة السلوك التي لم يرد بها الشرع والتدقيق والمحاسبة الدقيقة البليغة ما لم يأت بها أمر، ولهذا لما وقف أبو زرعة الرازي على كتاب الحارث المحاسبي المسمى بالرعاية قال: هذا بدعة ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب، عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث ودع عنك هذا فإنه بدله» («البداية» ج١٠/ ٣٢٩).

قلت: وقول ابن كثير حق، وكذا شطر قول البيهقي الأول - يعني من أجل الكلام - وأما شطره الثاني فبعيد جداً لأمور: أولها: أن الإمام أحمد ما كان لينهي إسماعيل عن أمر حق لأنه هو لا يطيقه، وإلا كان آمراً بغير المعروف بل ناهياً عن المعروف، وهذا عليه مستبعد، رحمه الله. ﷺ

(٢) «مجموع الفتاوى الكبرى» (ج ٥/ص١٠٧)

ويقول في نقض المنطق: [وتجد أبا حامد الغزالي مع أن له من العلم بالفقه والتصوف والكلام والأصول وغير ذلك، مع الزهد والعبادة وحسن القصد، وتبحره في العلوم الإسلامية أكثر من أولئك ـ يعني الرازي وابن سينا وغيرهما ـ يذكر في «كتاب الأربعين» ونحوه كتاب «المضنون به على غير أهله» فإذا طلبت ذلك الكتاب واعتقدت فيه أسرار الحقائق، وغاية المطلب، وجدته قول الصابئة المتفلسفة بعينه، قد غيرت عباراتهم وترتيباتهم، ومن لم يعلم حقائق مقالات العباد، ومقالات أهل الملل يعتقد أن ذلك هو السر الذي كان بين النبي ﷺ وأبي بكر، وأنه هو السر الذي يطلع عليه المكاشفون الذين أدركوا الحقائق بنور إلهي، فإن أبا حامد كثيراً ما يحيل في كتبه على ذلك النور الإلهي أو على ما يعتقد أنه يوجد للصوفية والعبّاد برياضتهم وديانتهم من إدراك الحقائق وكشفها لهم، حتى يزنوا بذلك ما ورد به الشرع][1].

وقال فيه أيضاً: [وهو ـ الغزالي ـ يميل إلى الفلسفة، لكنه أظهرها في قالب التصوف، والعبارات الإسلامية][2].

وقال كذلك: [وقد ينصر المتكلمون أقوال السلف تارة وأقوال المتكلمين تارةً، كما يفعله غير واحد، مثل أبي المعالي الجويني، وأبي حامد الغزالي والرازي وغيرهم][3].

= ثانيها: ما عرف من زهد الإمام أحمد كبير كثير، فيفهم من ذلك أن النهي لا لأجل الطاقة، وإنما لأجل المخالفة والله أعلم.

[وقال أبو زرعة الرازي: وسئل ـ يعني أحمد بن حنبل ـ عن الحارث المحاسبي وكُتُبِهِ فقال للسائل: إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك. قيل له في هذه الكتب عِبْرة؟ فقال من لم يكن له في كتاب الله عِبْرة فليس له في هذه الكتب عبرة].

(الآداب الشرعية والمنح المرعية) (٢/٨٨).

(١) «نقض المنطق» (ص ٥٣ ـ ٥٤) وسوف يأتي الرد على معتقد أبي حامد في ذلك في أعظم فصل من هذا الكتاب.

(٢) «نقض المنطق» (ص٥٥) و(ص١٣٥) وانظر «الصفدية» (٢/٢٦٥).

(٣) «نقض المنطق» (ص١٢٩).

وقال: [وهذا أبو حامد الغزالي مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف، ينتهي في هذه المسائل - يعني الكلامية والفلسفية والصوفية - إلى الوقف والحيرة، ويميل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف][١].

ويتابع: [وهذا المسلك «الفلسفي» يراه عامة النفاة كإبن رشد الحفيد وغيره. وفي كلام أبي حامد الغزالي من هذا قطعة كبيرة][٢] وقال: [ولم يكن أحد من نظار المسلمين ليقف إلى طريقهم «المنطقيين» بل الأشعرية والمعتزلة والكرامية والشيعة وسائر الطوائف من أهل النظر كانوا يعيبونها ويبينون فسادها، وأول من خلط منطقهم بأصول المسلمين أبو حامد الغزالي][٣].

فهذه فتاوى أبي العباس في ثقافة أبي حامد ومعتقده، وذكر النزعة الفلسفية التي طغت على جل كلامه أكثر عقود حياته التي صنف فيها مصنفاته، ولذلك قلما يوجد له كتاب إلا وللفلسفة فيه أبواب ومداخل، يعرف ذلك أهل العلم بمذاهب الناس، كقوله في اكتساب النبوة، وعذاب القبر، ودرجات الاعتقاد، والعقل الأول، وغير ذلك، في مسائل كثيرة تبع فيها أهل الكلام والفلسفة حذوا القُذَّة بالقُذَّة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ولكن قبل الحديث عن ذلك فلا بد من ذكر من وافق شيخ الإسلام.

يقول أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: [إن الغزالي شبك كتابه الأحياء بمذاهب الفلاسفة ومعاني رسائل أخوان الصفا، ورموز الحلاّج وهم يرون النبوة مكتسبة][٤]

ويقول الإمام الذهبي: [وقد تأثر أبو حامد بالفلسفة وبرسائل أخوان الصفا] قلت: وفي المنقذ ما يشير لذلك[٥].

(١) «نقض المنطق» (ص٦٠).
(٢) «نقض المنطق» (ص١٣٤).
(٣) «مجموع الفتاوى» (ج٩/ ص٢٣١).
(٤) «سيرة الغزالي» (ص٧٥).
(٥) «المنقذ» (ص ٣١). وسيأتيك كلام الذهبي في السير بطوله.

وقال المازري مثل قول الذهبي وزاد: [إنه تأثر بكتب أبي حيان التوحيدي][(١)].

ويقول القاضي أبو بكر ابن العربي تلميذ الغزالي وصاحبه: [شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع].

وفي قول آخر: [شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر][(٢)].

وقال ابن الطفيل نحو هذا[(٣)] وابن الصلاح[(٤)].

كما أن الغزالي لم ينكر تعلم الكلام ولا الكتابة فيه فقال في المنقذ: [ثم أني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف][(٥)].

وكذا فإن الذين قرروا ذلك في زماننا هذا كثيرون ـ أعني متابعة أبي حامد لنهج الفلاسفة ـ وخاصة ابن سينا[(٦)].

وأما متابعته رحمه الله تعالى لأبي طالب المكي، والحارث المحاسبي، فحدثنا هو عنهما حيث قال في المنقذ[(٧)]: [فابتدأت بتحصيل علمهم من

---

(١) «سيرة الغزالي» (ص٨٠).

(٢) «نقض المنطق» (ص٥٦) و«سيرة الغزالي» (ص٧٠) وفي «البداية» (١٢/٢٢٩) قال ابن كثير عن القاضي أبي بكر: صحب الغزالي وأخذ عنه، وكان يتهمه برأي الفلاسفة.

(٣) «حيّ بن يقظان» (ص١٩ ـ ٢١).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٤/٦٥).

(٥) «المنقذ» (ص١٤٠).

(٦) منهم الدكتور سليمان دنيا في كتابه «الحقيقة في نظر الغزالي» (٩٣ ـ ٩٥) ـ والدكتور عثمان أمين في «مقالة في مهرجان الغزالي» (١٣٤ ـ ١٣٥) ـ هو والدكتور محمد ثابت الفندي ـ والدكتور محمد غلاب في «المعرفة عند مفكري المسلمين» (٣٢٧ ـ ٣٣٨) ـ والدكتور محمود قاسم في كتاب «النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام» (١٤١ ـ ٢٠٢ ـ ٢٠٩) ـ والدكتور محمد رشاد سالم في كتابه «مقارنة بين الغزالي وابن تيمية» (٥٠ ـ ٧٢) وغيرهم.

(٧) «المنقذ من الضلال» (ص ٤٣) تحقيق محمد محمد جابر.

مطالعة كتبهم، مثل قوت القلوب[١] لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عند الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم].

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: [وأما كتاب قوت القلوب، وكتاب الأحياء تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب مثل الصبر والشكر والحب والتوكل والتوحيد ونحو ذلك، فأبو طالب ـ صاحب قوت القلوب ـ أعلم بالحديث والأثر وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبي حامد الغزالي، وكلامه أسدّ، وأجود تحقيقاً، وأبعد عن البدعة، مع أن في قوت القلوب أحاديث ضعيفة وموضوعة وأشياء مردودة كثيرة.

وأما ما في الاحياء من المهلكات مثل الكلام على العُجْب والكِبْر والرياء والحسد ونحو ذلك، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية، ومنه ما هو مقبول، ومنه ما هو متنازع فيه.

والاحياء فيه فوائد كثيرة لكن فيه مواد مذمومة، فإن فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد[٣] والنبوة[٣] والمعاد[٣]، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدواً للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين، وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه، وقالوا أمرضه الشفاء، يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة، وفيه أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم، وفيه كذلك من كلام الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب، الموافقين للكتاب والسنة، وغير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة ما هو أكثر مما يرد منه. فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه].

أما العلامة ابن الجوزي فقال[٤]:

---

(١) انظر قول العنبقي المتقدم في «قوت القلوب» ـ ترجمة أبي طالب المكي.

(٢) «مجموع الفتاوى» (ج٢/ ص٢٣٠) مسألة ٣٥.

(٣) سيأتي البحث ذلك إن شاء الله كما كان في آخر الكتاب فانتظر،

(٤) «المنتظم» (ج٩/ ١٦٩) ط حيدر أباد الهند ١٣٥٩ هـ.

[ثم إنه نظر في كتاب أبي طالب المكي، وهو قوت القلوب، وكلام المتصوفة القدماء، فاجتذبه ذلك بمرة عما يوجبه الفقه][1].

ويصف الخطيب البغدادي قوت القلوب بقوله[2]: [ذكر فيه أشياء منكره مستشنعة في الصفات].

(١) «المنتظم» (ج ٩/١٦٩) ط حيدر اباد الهند ١٣٥٩ هـ.
(٢) «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (ج٣/ ص١٢٠ ـ ١٢١).

أبو حامد وردود العلماء عليه

جاء في فصول الكتاب السابقة صلة أبي حامد بالمنطق، وكذلك عند الحديث عن شيوخه وكتبه وثقافته ذكرت علاقته بالفلسفة، ومن ذكر ذلك من العلماء عنه، لأن أبا حامد لم يدع باباً ولا كتاباً وإلا وأقحم فيه الفلسفة وأدواتها، أو المنطق وعلومه، وإن كان ألبسه ثياب المسلمين، ثم هو بعد ذلك يلقي عليه رداء المكاشفة حيناً، والذوق أحياناً، أو الوجدان ثالثةً.

لكن أهل العلم والمعرفة والنقد، ومن نوّر الله بصائرهم بنور الشرع، وحتى من أدلوا بدلولهم في بئر التعلم، يعلمون أن كثيراً من تلويحاته، وبعض تصريحاته لا تخرج عن جنس قول الفلاسفة، كأرسطو، ثم ابن سينا والفارابي والرازي وغيرهم.

بل إنه في كثير منها يتابعهم متابعة تامة، وقد تقدم الحديث في ذلك[1].

هذا غير ما اشتهر به أبو حامد من التصوف الذي أخرجه عما يوجبه الفقه والشرع بمرة كما حكيت ذلك عن العلامة ابن الجوزي في المنتظم.

ولما كانت هذه حال أبي حامد، أنكر عليه ذلك كثير من العلماء، وأغلظوا فيه القول، وصنفوا المصنفات في الرد عليه.

وهذا ما حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال[2]:

[ولما وقع في كلام أبي حامد في «المضنون به على غير أهله» وغيره من كتبه، ما هو من جنس كلام هؤلاء ـ يعني الفلاسفة ـ في الشفاعة والنبوة وغير ذلك حتى جعل خواص النبي ثلاثة[3] كما تقدم ذكره وغير ذلك من كلامهم، اشتد نكير علماء الإسلام لهذا الكلام، وتكلموا في أبي حامد وأمثاله بكلام معروف].

---

(١) انظر ص ٩٤ من هذا الكتاب.

(٢) «الصفدية» (ج١/ ص٢١٩) وما بعدها تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم.

(٣) سيأتي تفصيل قول الغزالي في ذلك والردّ عليه.

هــذا قول شيـخ الإسـلام في فلسفـة الغزالي، وأمـا قـوله في تصـسوف الغزالي:

[فإذا ذكر معارف الصرفية، كان بمنزلة من أخـذ عدواً للمسلمين وألبسه ثيابهم][(١)].

ثم يسمي من رد عليه من العلماء فيقول[(٢)]:

[وتكلم فيـه أصحـاب أبي المعـالي - يعني الجـويني - كـأبي الحسن المرغيناني [(٣)] وغيره كما تكلم فيـه أهل بيت القشيـري وأتباعـه[(٤)] والشيخ أبـو

---

(١) «فتاوى ابن تيمية» (١٠/٥٥١) و(٦/٥٥).

٢) «الصفدية» (ج١/ ص٢٠٩).

(٣) برهان الدين علي ابن أبي بكر، من أكابر فقهاء الحنفية، كان حافظاً مفسراً مجتهداً، توفي سنة ٥٩٣، أنظر ترجمته في «الفـوائد البهية» (ص١٤١ - ١٤٤) - «الأعلام» (٥/٧٣)، وقال ابن تيمية: «رد على الغزالي كلامه في «مشكاة الأنوار» ونحوه في «نقض المنطق» (ص٥٦).

(٤) «أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، مؤلف «الـرسالـة القشيريـة» كـذا قـال الـدكتـور محمـد رشـاد سـالم محقق «الصفـديـة» ثم أشـار أنـه توفي سنة ٤٦٥ للهجرة، والصواب أنه ليس هو إذ الغزالي عند وفاة عبد الكريم هذا لم يكن جاوز الخامسة عشر من عمره ثم هو قـد سلك في رسالته مسلك أبي حامـد في الفلسفة والتصوف وإيراد الأحاديث الضعيفة والموضوعة، كما اشتهر في هذه الرسالة. وأنا الآن ليس عندي من المراجع ما يمكنني من الاستقصاء عنه، إنما وقفت على من اسمه عبد الرحيم بن عبد الكبير بن هوازن أبو نصر القشيري، فيحتمل أن يكون هو، إذ أنه من تلاميذ الجويني فقد يكون رأى أباحامد وسمع كلامه، وقد توفي سنة أربع عشرة وخمسـمـائـة للهجـرة، أنـظر «البـدايـة» (١٢/١٨٧)، ووقفت على عبـد المنعم بن عبد الكريم بن هـوازن أبو المـظفر القشيـري، ترجم لـه ابن كثير في وفيـات سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة، فلعله هو، أنظر «البداية» (١٢/٢١٣).

البيان[١] وأبو الحسن ابن شكر[٢] وأبو عمرو ابن الصلاح[٣] وأبو زكريا[٤]. وكما

(١) نبأ بن محمود بن محفوظ القرشي المعروف بابن الحوراني وبأبي البيان، شيخ الطائفة البيانية، وهم من متصوفة دمشق، كان شافعي المذهب، سلفي العقيدة!! راجع «طبقات الشافعية» للسبكي (٤/٣١٨ ـ ٣١٩) و«الأعلام» (٨/٣٢٠).

(٢) أبو العباس أحمد بن علي بن محمد بن علي بن شكر الأندلسي المقري، المتوفى سنة أربعين وستمائة للهجرة، جاءت هذه الترجمة في «نفح الطيب» (٢/٣٣٧) ونقلها الدكتور محمد في الحاشية وقال: لعله هو المقصود. قلت وجاء في «البداية» (١٢/١٧٤): «وقد زيف ابن شكر مواضع من «إحياء علوم الدين» وبين زيفها في مصنف مفيد».

(٣) تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن الكردي الشهرزوري، الفقيه، عالم التفسير والحديث، الشهير بابن الصلاح توفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة، أنظر «وفيات الأعيان» (٢/٤٠٨) «شذرات الذهب» (٥/٢٢١)، و«طبقات الشافعية» (٥/١٣٧). قال ابن الصلاح: «في تواليف أبي حامد أشياء لم يرتضها أهل مذهبه من الشذوذ، منها قوله في المنطق هو مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط به فلا ثقة له بمعلوم أصلاً. قال: فهذا مردود» «سيرة الغزالي» (ص٧٢) قلت: وقد قدمت الرد على ذلك ولله الحمد، ومما قاله ابن الصلاح في ذلك أيضاً: «أبو حامد كثر القول فيه ومنه، فأما هذه الكتب ـ يعني المخالفة للحق ـ فلا يلتفت إليها، وأما الرجل فيسكت عنه، ويفوّض أمره إلى الله» قال شيخ الإسلام ابن تيمية: رأيت ذلك بخط ابن الصلاح «مجموع الفتاوى» (٤/٦٥).

(٤) قال الدكتور محمد رشاد سالم معلقاً: «لعله قصد النووي» قلت: بل هو النووي جزماً. فقد صرح بذلك في «نقض المنطق» فقال: «ورد عليه أبو زكريا النواوي وحذّر من كلامه» (نقض المنطق) (ص٥٦)، والنووي هو محي الدين يحيى بن شرف الدين، صاحب «الأربعين النووية»، وشارح «صحيح مسلم»، ومصنّف «المجموع» وغيره من الكتب الجياد، وانظر: «طبقات الشافعية» (٥/١٦٥) ـ «النجوم الزاهرة» (٧/١٧٨) ـ «والأعلام» (٩/١٨٥).

تكلم فيه أبو بكر الطرطوشي[١]، وأبو عبد الله المازري[٢] وابن حمدين القرطبي[٣] وصنف في ذلك، وأبو بكر ابن العربي تلميذه حتى قال: «شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر»[٤] وكما

(١) أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري، من فقهاء المالكية، انظر «وفيات الأعيان» (٣/٣٩٣)، «نفح الطيب» (٢/٢٩٠)، «الأعلام» (٧/٣٥٩)، والشيخ توفي سنة عشرين وخمسمائة، وهو ممن لقي الغزالي وكلّمه، حيث حكى في رسالته إلى ابن مظفر ذلك فقال: «فأما ما ذكرت من أبي حامد فقد رأيته، وكلمته فرأيته جليلاً من أهل العلم، واجتمع فيه العقل والفهم، ومارس العلوم طول عمره. وفاق على ذلك معظم زمانه، ثم بدا له العدول عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمال، ثم تصوف وهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان، ثم شابها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد ينسلخ من الدين، فلما عمل الاحياء، عمد يتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات»، «طبقات السبكي» (٤/٧٢٤) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٣٣٩).

(٢) محمد بن علي بن عمر التميمي المازري، محدث، ومن فقهاء المالكية. وكتابه هو «الكشف والإنباء في الرد على الإحياء» أنظر «وفيات الأعيان» (٣/٤١٣) - «شذرات الذهب» (٤/١١٤) - و«أزهار الرياض» (٣/١٦٥) - و«الأعلام» (٧/٣٥٩)، كان من أقران الغزالي وتوفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة، ومما قاله: ما جاء في «شرح العقيدة الأصفهانية» (ص١٣٤): «قال المازري: فحقيق أن لا يوثق بكل ما ينقل، وأن يُظن به التساهل في رواية ما لم يثبت عنده صحته... ومن لم يكن عنده من البسطة في العلم ما يعتصم به من غوائل هذا الكتاب، فإن قراءته لا تجوز. وإن كان فيه ما يُنتفع به». قلت: وسيأتي تفصيل كلامه بعد صفحات.

(٣) ذكر ابن تيمية اسمه كاملا (ص٢٥٠) من «الصفدية»، وهو أبو عبد الله محمد بن حمدين القرطبي، وأطلت البحث عنه فيما بين يدي من مراجع لكني لم أعثر عليه. إلا أني وجدت في كتاب «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» لمحمد بن محمد مخلوف (١/١٤٢) قاضي الجماعة بقرطبة أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي القرطبي، كان من أعلام الأئمة الفضلاء. أخذ عن والده وغيره، وتوفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة. فعله هو والد العالم الذي ذكره ابن تيمية. كذا قال محقق «الصفدية» (ج١/٢١١) قلت: سيأتي كلامه بتمامه في «سير أعلام النبلاء»، وقول الحافظ الذهبي فيه.

(٤) محمد بن عبد الله بن محمدابن العربي، القاضي الأشبيلي المالكي، عمدة في المذهب، توفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، انظر «قضاة الأندلس» (١٠٥) -

تكلم فيه أبو الوفاء ابن عقيل [١] وأبو الفرج ابن الجوزي [٢] وأبو محمد المقدسي [٣] وغيرهم وكما تكلم فيه الكردي [٤] وغيره من أصحاب أبي حنيفة،

= «التكملة» (ترجمة رقم ٤٢٨) - «الديباج» (ص٢٨١) - «المغرب في حلى المغرب» (١/٢٤٠) «جذوة الاقتباس» (ص١٦٠) - «وفيات الأعيان» (٣/٤٢٣) - و«الشذرات» (٤/١٤١) وتقدم بعض كلامه فيما مضى.

ومما لم يتقدم قوله: «كان أبو حامد تاجاً في قمة الليالي، وعقداً في لبة المعالي حتى أوغل في التصوف وأكثر معهم التصرف، فخرج على الحقيقة، وخرج في أكثر أحواله عن الطريقة. وجاء بألفاظ لا تطاق، ومعانٍ ليس لها مع الشرعية انتظام ولا اتساق، فكان علماء بغداد يقولون: لقد أصابت الإسلام فيه عين». انتهى كلام ابن العربي «العواصم من القواصم» (ص٨١ - ٨٢).

(١) علي بن عقيل بن محمد بن أحمد البغدادي، توفي سنة اثني عشر وخمسمائة، وهو ممن حضروا دروس أبي حامد في النظامية، وعرف مقاصد كلماته، وقد مرّ.

أنظر: «طبقات الحنابلة» (٢/٢٥٩) - «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٥٢٦) - «جلاء العينين» الآلوسي (١٦٠ - ١٦١).

(٢) جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، الإمام العلامة شيخ العراق، أنظر: «دائرة المعارف الإسلامية» (١/١٠٠) مما بها من مراجع. «الكامل في التاريخ» (١٠/٦٤٠) و«مفتاح السعادة» (١/٢٠٧) «مرآة الزمان» (٨/٤٨١) «ذيل الروضتين» (ص٢١)، و«البداية» (١٣/٢٨) و«الشذرات» (٤/٣٣٢)، و«الأعلام» (٤/٨٩)، وقد توفي رحمه الله سنة تسع وتسعين وخمسمائة. وقال في تاريخه «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (٩/١٦٩)، وهو من أعظم تواريخ الإسلام، والبداية عيال عليه قال: [«وأخذ الغزالي - في تصنيف كتاب الإحياء بالقدس ثم أتمه بدمشق، إلا أنه وضعه على مذهب الصوفية، وترك فيه قانون الفقه... ثم ذكر أمثلة من ذلك... وقال: وقد جمعت أغلاط الكتاب وسميته «اعلام الاحياء بأغلاط الاحياء» وأشرت إلى بعض ذلك في كتابي المسمى بـ «تلبيس إبليس»] ثم تابع: [وإنما كان سبب إعراضه - فيما وضعه - عن مقتضى الفقه، أنه صحب الصوفية فرأى حالتهم الغاية، وقال إني أخذت الطريقة على أبي علي الفارمذي، وامتثلت ما كان يشير به].

(٣) أبو محمد تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن مسرور المقدسي الدمشقي الحنبلي. العلامة المحدث ولد سنة ٥٤١ وتوفي سنة ٦٠٠ انظر «شذرات الذهب» (٤/٣٤٥) و«الاعلام» (٤/١٦٠).

(٤) محمد بن عبد الستار شمس الأئمة الكردي ولد سنة ٥٩٩ وتوفي ببخارى سنة ٦٤٢ قال الكنوي في «الجامع»: «رأيت له رسالة في الرد على منخول الإمام الغزالي المشتمل على =

ومن أعظم ما تكلم فيه أئمة المحققين لأجله ما وافق فيه هؤلاء الصابئة المتفلسفين، مع أنه رد على المتكلمين، ورجح طريق الرياضة والتصوف، ثم لما لم يحصل المطلوب من هذه الطرق بقي من أهل الوقف، ومال إلى طريقة أهل الحديث، فمات وهو يشتغل بالبخاري ومسلم].

انتهى قول شيخ الإسلام، وقد قاله في غير موضع من الصفدية[١]، وذكر نحوه في نقض المنطق[٢].

والحافظ ابن كثير في البداية[٣] نص على بعض من رد على أبي حامد فقال: [وقد شنع عليه أبو الفرج ابن الجوزي، ثم ابن الصلاح في ذلك تشنيعاً كثيراً، وأراد المازري أن يحرق كتابه[٤] احياء علوم الدين وكذلك غيره من المغاربة وقالوا: هذا احياء علوم دينه. وأما ديننا فاحياء علومه كتاب الله وسنة رسوله كما قد حكيت ذلك في ترجمته في الطبقات، وقد زيف ابن شكر مواضع احياء علوم الدين وبين زيفها في مصنف مفيد» ثم قال: «وقد صنف ابن الجوزي كتاباً على الاحياء، وسماه «علوم الاحياء بأغاليط الأحياء»].

ويذكر صاحب كتاب «تعريف الأحياء بفضائل الأحياء»[٥] فيه على لسان الشيخ عبد الله بن سعد اليافعي أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن علي الفقيه المشهور المغربي كان قد بالغ في الإنكار على كتاب الأحياء وهم بجمع نسخه وحرقها في الجامع يوم الجمعة.

قلت: هو ابن شكر المتقدم ذكره.

وأما الحافظ الذهبي فيقول في «سير أعلام النبلاء»[٦].

= التشنيع القبيح على الإمام أبي حنيفة... وتعقب فيها على الغزالي قولاً قولاً...» انظر «الفوائد البهية» للكنوي (ص١٧٦ - ١٧٧).

(١) «الصفدية» (١/٢٠٩) (١/٢٥٠).

(٢) «نقض المنطق» (٥٦).

(٣) «البداية» (١٣/١٧٤).

(٤) قلت: بل قد تقدم أنها أحرقت، أنظر تعليقنا على رد المازري قبل صفحات، لكن ليس هناك أن المازري هو الذي أحرق أو أمر بذلك.

(٥) ملحق بالاحياء (ج٥/ ص٣) ثم ساق قصة حشوها الباطل.

(٦) «سير أعلام النبلاء» (ج١٩/ ص٣٤٠) وما بعدها.

قال عبد الغافر ـ تلميذ الغزالي ـ : ومما نقم عليه، ما ذكر من الألفاظ المستبشعة بالفارسية في كتاب «كيمياء السعادة والعلوم» وشرح بعض الصور والمسائل[1] بحيث لا توافق مراسم الشرع، وظواهر ما عليه قواعد الملة، وكان الأولى به ـ والحق أحق ما يقال ـ ترك ذلك التصنيف والإعراض عن الشرح له. . .

قال الذهبي: قلت: ما نقمه عبد الغافر على أبي حامد في الكيمياء، فله أمثاله في غضون تواليفه، حتى قال أبو بكر ابن العربي: «شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة، ولما أراد أن يتقيأهم ما استطاع».

قال الذهبي: وفي معجم أبي علي الصدفي تأليف القاضي عياض له قال: والشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة، والتصانيف العظيمة، غلا في طريقة التصوف، وتجرد لنصر مذهبهم، وصار داعية في ذلك، وألّف فيه تواليفه المشهورة، أخذ عليه فيها مواضع، وساءت به ظنون أمّة، والله أعلم بسره ونفذ أمر السلطان عندنا بالمغرب، وفتوى الفقهاء بإحراقها والبعد عنها[2].

قال الذهبي: ولأبي المظفر يوسف سبط ابن الجوزي في كتاب «رياض الأفهام» في مناقب أهل البيت قال: ذكر أبو حامد في كتابه «سرّ العالمين وكشف ما في الدارين» فقال في حديث «من كنت مولاه فعليّ مولاه»[3] إن عمر قال لعليّ: بخ بخ أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة، قال أبو حامد: «وهذا تسليم ورضى، ثم بعد هذا غلب عليه الهوى حباً للرياسة وعقد البنود وأمر الخلافة ونهيها، فحملهم على الخلاف فنبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، فبئس ما يشترون». . . وسرد كثيراً من هذا الكلام الفَسْل الذي تزعمه الإمامية، وما أدري ما عذره في هذا.

والظاهر أنه رجع عنه وتبع الحق فإن الرجل من بحور العلم، والله أعلم.

---

(١) قلت: كأنه يعني أقواله في المشاهدات العالية على حد زعم المتصوفة، وما يذكره من علم المكاشفة.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٣٢٧).

(٣) تقدم فيه الكلام موسعاً في ورقات «تساهل الحاكم» من هذا المصنف.

هذا، إن لم يكن هذا وضع هذا، وما ذاك ببعيد، ففي هذا التأليف بلايا لا تتطبب.

قال الذهبي، قد ألّف الرجل - يعني الغزالي - في ذم الفلاسفة كتاب «التهافت» وكشف عوارهم ووافقهم في مواضع ظناً منه أن ذلك حق، أو موافق للملّة[١]. ولم يكن له علم بالآثار ولا خبرة بالسنن القاضية على العقل. «حبّب إليه إدمان النظر في كتاب «رسائل أخوان الصفا» وهو داء عضال، وجَرَبٌ مُرْدٍ، وسمٌ قتّال، ولولا أنّ أبا حامد من كبار الأذكياء وخيار المخلصين لتَلِفَ، فالحذار الحذار من هذه الكتب، واهربوا بدينكم من شُبَه الأوائل، وإلا وقعتم في الحيرة. . .

قال الذهبي: وقال أبو عمر ابن الصلاح: فصل لبيان أشياء مهمة أنكرت على أبي حامد، ففي تواليفه أشياء لم يرتضها أهل مذهبه من الشذوذ، منها قوله في المنطق: «هو مقدمة العلوم ومن لا يحيط به فلا ثقة بمعلوم أصلاً»[٢] فهذا مردود إذ كل صحيح الذهن منطقي بالطبع وكم من إمام ما رفع بالمنطق رأساً. . .

قال الذهبي: قال أحمد بن صالح الجيلي في «تاريخه»: «أبو حامد

---

(١) وهذا ما قاله ابن طفيل في كتابه «حي بن يقظان» (ص٦٣، تحقيق د. أحمد أمين ط. ١٩٥٩). فإنه قال: «وأما كتب الشيخ أبي حامد، فهي بحسب مخاطبته للجمهور، يربط في موضع، ويحل في آخر، ويكفر بأشياء ثم ينتحلها، ثم أنه من جملة ما كفّر به الفلاسفة في كتابه التهافت إنكارهم لحشر الأجساد، وإثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة، ثم قال في أول كتابه «ميزان العمل» (ص ١٣): إن هذا الاعتقاد وهو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع. ثم قال في كتابه «المنقذ» إن اعتقاده هو كاعتقاد الصوفية. وإن أمره إنما وقف على ذلك بعد طول البحث.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (ج٥/ ص٤٢): «وصاحب الجواهر» - يعني جواهر القرآن، للغزالي - لكثرة نظره في كلامهم، واستمراره فيهم حرج في كلامه كثيراً من كلامهم، وإن كان يكفّرهم في كثير مما يوافقهم عليه في موضع آخر».

وانظر «المنتظم» لابن الجوزي (٩/ ١٧٠)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٦/ ٢١٠).

(٢) أنظر مقدمة «المستصفى» (ص٥)، وغيره.

لقب بالغزالي، برع في الفقه... إلى أن قال: وغلب عليه استعمال عباراتهم ـ الصوفية والفلاسفة ـ في كتبه.

وقال الذهبي: وقد «رأيت كتاب «الكشف والانباء عن كتاب الاحياء» للمازري، أوله: الحمد لله الذي أنار الحق وأداله، وأبار الباطل وأزاله، ... ثم أورد المازري أشياء مما نقده على أبي حامد، يقول: ـ يعني المازري ـ ولقد أعجب من قوم مالكية يرون مالكاً يهرب من التحديد، ويجانب أن يرسم رسماً، وإن كان فيه أثر أو قياس، تورعاً وتحفظاً من الفتوى فيما يحمل الناس عليه، ثم يستحسنون من رجل ـ يعني الغزالي ـ فتاوى مبناها على ما لا حقيقة له، وفيه ـ الأحياء ـ كثير من الآثار عن النبي ﷺ، لفّق به فيه الثابت بغير الثابت، وكذا ما أورد عن السلف لا يمكن ثبوته كله.

وأورد من نزعات الأولياء ونفثات الأصفياء ما يجلّ موقعه، لكنه مزج فيه النافع بالضار، كاطلاقات يحكيها عن بعضهم لا يجوز إطلاقها لشناعتها[1]، وإن أخذت معانيها على ظواهرها كانت كالرموز إلى مدح الملحدين ولا تتصرف معانيها إلى الحق إلا بتعسف على اللفظ، مما لا يتكلف العلماء مثله...

وقال الذهبي: وقال قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن حمدين القرطبي: إن بعض من يعظ، ممن كان ينتحل رسم الفقه ثم تبرأ منه شغفاً بالشرعة الغزالية، والنحلة الصوفية أنشأ كراسة تشتمل على معنى التعصب لكتاب أبي حامد إمام بدعتهم، فأين هو من شنيع مناكيره، ومضاليل أساطيره المباينة للدين.

وزعم ـ الغزالي ـ أن هذا من علم المعاملة، المفضي إلى علم المكاشفة، الواقع بهم على سرّ الربوبية الذي لا يسفر عن قناعه، ولا يفوز باطلاعه إلا من تمطى إليه شبح ضلالته التي رفع لهم أعلامها، وشرع أحكامها.

---

(١) سيأتيك الكثير من ذلك في طيّات الكتاب.

قال أبو حامد: «وأدنى النصيب من هذا العلم التصديق به، وأقل عقوبته أن لا يرزق المنكر منه شيئاً».

ـ يقول القاضي ـ: فاعرض قوله على قوله «ولا يشتغل بقراءة قرآن ولا بكتب حديث»[1] لأن ذلك يقطعه عن الوصول إلى إدخاله رأسه في كم جبته، والتدثر بكسائه فيسمع نداء الحق».

ـ قال القاضي ـ: فهو يقول: ذروا ما كان السلف عليه، وبادروا ما آمركم به.

قال الذهبي: ثم أن هذا القاضي أقذع وسبّ، وكفّر، وأسرف، نعوذ بالله من الهوى[2].

وقال أبو حامد: صدور الأحرار قبور الأسرار، ومن أفشى سر الربوبية كَفَر[3]، ورأى قتل مثل الحلاج خيراً من احياء عشرة[4] لإطلاقة ألفاظاً، ونقل عن بعضهم قال: للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلم سر لو كشف لبطلت الأحكام[5].

قال الذهبي: قلت: سر العلم قد كشف لصوفة أشقياء، فحلّوا النظام، وبطل لديهم الحلال والحرام. قال ابن حمدين: ثم قال الغزالي: «والقائل بهذا إن لم يُرِدْ إبطال النبوة في حق الضعفاء فما قال ليس بحق، فالصحيح لا يتناقض، وإن الكامل من لا يطفىء نور معرفته نور ورعة»[6].

---

(١) أنظر «الاحياء» (٣/ ١٩)، و«الأربعين» (ص٤٦).

(٢) وصدق الإمام الذهبي فيما قال، وهو صنيعه في كتبه التي تنطق بذلك، فإن هذا ليس من عادة أهل العلم والواجب حضور السكينة، على كل حال.

(٣) الأحياء (١/ ١٠٠).

(٤) حكم الغزالي بقتل أصحاب الدعاوي الطويلة العريضة ـ كما يسمّيهم ـ وقال: «إن قتله في دين الله أفضل من إحياء عشرة»، ولكنه لم يجعل الحلاّج من بين هؤلاء وصرّف ما نقل عنه في ذلك وجعل له مخرجاً، «الاحياء» (١/ ٣٦). قلت: وهو مخرج بعيد يخالف ما اشتهر عنه..

(٥) «الاحياء» (١/ ١٠٠)، و«الإملاء على إشكالات الأحياء» (٥/ ٣٩)، ملحق بالأحياء.

(٦) «الإملاء على إشكالات «الاحياء» للغزالي (ص٣٩/ ٥)، ملحق بالأحياء، وكذلك «الاحياء».

وقال الغزالي في المعارف: فتتجلى له أنوار الحق، وتنكشف له العلوم المرموزة المحجوبة عن الخلق فيعرف معنى النبوة وجميع ما وردت به ألفاظ الشريعة التي نحن منها على ظاهر لا على حقيقة[1] وقال ـ الغزالي ـ عن بعضهم: «إذا رأيته في البداية قلت صديقاً، وإذا رأيته في النهاية قلت: زنديقاً»[2].

ثم فسره الغزالي: فقال: إذا اسم الزنديق لا يلصق إلا بمعطل الفرائض لا بمعطل النوافل[3].

وقال الغزالي ـ : وذهبت الصوفية إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية[4] فيجلس فارغ القلب مجموع الهمّ، يقول الله الله الله على الدوام[5]، فليفرغ قلبه ولا يشتغل بتلاوة ولا كتب حديث[6]. قال: فإذا بلغ هذا الحد التزم الخلوة في بيت مظلم، وتدثر بكسائه، فحينئذ يسمع نداء الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾[7].

قال الذهبي: قلت: سيد الخلق إنما سمع ﴿يا أيها المدثر﴾ من جبريل عن الله، وهذا لم يسمع نداء الحق أبداً، بل سمع شيطاناً، أو سمع شيئاً لا

---

(١) أنظر فصل «معرفة الغيب» من هذا الكتاب لتقف على نصوص الغزالي الكثيرة في ذلك والتي حشا بها إحياءه ومنقذه وكيمياءه.

(٢) «ميزان العمل» (ص٩٨)، و«الأنوار القدسية» (١/ ١٣٤)، على هامش «طبقات الأخيار» للشعراني.

(٣) يريد أنه عطّل الفرائض لكون الأحكام بطلت عنده لأنه كشف سرّ العلم، كما في القول السالف.

(٤) وعقد لذلك فصلاً طويلاً من إحيائه، وأطلت النفس في ردّ أدلته من هذا المصنّف، انظر فصل «ترك الإشتغال بالعلم».

(٥) كيمياء السعادة (ص٨٨) ضمن مجموعة «المنقذ»، و«القواعد»، و«الأدب»، تحقيق محمد محمد جابر.

(٦) «الاحياء» (٣/ ١٩)، و«الأربعين» (٤٦).

(٧) لم أقف على هذا اللفظ بالذات، ولكن جاء في معناه عبارات كثيرة، أنظر «كيمياء السعادة» (ص٨٩ ـ ٩٠) و«القواعد العشرة» (ص٩٧) ـ ضمن المجموعة ـ و«الاحياء» (٢/ ٢٩١).

حقيقة له من طيش دماغه، والتوفيق في الاعتصام بالسنة والاجماع.

قال الذهبي: قال أبو بكر الطرطوشي: شحن أبو حامد «الأحياء»، بالكذب على رسول الله ﷺ[1]...

---

(١) ذكر في هذا الموضع بعض كلام الطرطوشي، ولكنه ذكره بتمامه في ترجمة الطرطوشي من كتابه فقال: «أنبأنا إبن عسلان عن الخشوعي عن الطرطوشي أنه كتب هذه الرسالة جواباً عن سائل من الأندلس عن حقيقة أمر مؤلف «الاحياء»، فكتب: «إلى عبد الله بن مظفر، سلام عليك، فإني رأيت أبا حامد وكلمته، فوجدته أمرءاً وافر الفهم والعقل، وممارسة للعلوم، وكان ذلك معظم زمانه، ثم خالف عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمّال، ثم تصوف، فهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان، ثم سابها، وجعل يطعن على الفقهاء بمذاهب الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل ينتحي عن الفقهاء المتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ عن الدين».

قال الذهبي: قال الحافظ أبو محمد: أن محمد بن الوليد هذا ـ يعني الطرطوشي ـ ذكر في غير هذه الرسالة كتاب «الاحياء» وقال: «هو ـ لعمرو الله ـ أشبه بإماتة علوم الدين».

قال الذهبي: ثم رجعنا: إلى تمام الرسالة ـ يعني رسالة الطرطوشي بالإسناد السابق ـ: قال الطرطوشي: فلما عمل كتابه «الأحياء» عمد فتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها فسقط على أم رأسه، فلا في علماء المسلمين قرّ، ولا في أحوال الزاهدين استقر، ثم شحن كتابه بالكذب على رسول الله ﷺ فلا أعلم كتاباً على وجه بسيط الأرض أكثر كذباً على الرسول منه، ثم شبكه بمذاهب الفلاسفة، ورموز الحلاج، ومعاني رسائل إخوان الصفا، وهم يرون النبوة اكتساباً فليس النبي عندهم أكثر من شخص فاضل. تخلّق بمحاسن الأخلاق، وجانب سفسافها، وساس نفسه حتى لا تغلبه شهوة، ثم ساق الخلق بتلك الأخلاق وأنكروا أن يكون الله يبعث إلى الخلق رسولاً، وزعموا أن المعجزات حِيلٌ ومخاريق، ولقد شرف الله الإسلام وأوضح حججه وقطع العذر بالأدلة.

وما مثل من نصر الإسلام بمذاهب الفلاسفة والآراء المنطقية، إلا كمن يغسل الثوب بالبول، ثم ـ يعني الغزالي ـ يسوق الكلام سوقاً يُرْعِدُ فيه ويُبْرِق، ويمنّي ويشوّق، حتى إذا تشوّفت إليه النفوس قال: هذا من علم المعاملة وما وراءه من علم المكاشفة لا يجوز تسطيره في الكتب ويقول: هذا من سرّ الصدر الذي نهينا عن إفشائه وهذا فعل الباطنية وأهل الدّغل، والدخل في الدين، يستقل الموجود ويعلق النفوس بالمفقود وهو تشويش لعقائد القلوب وتوهين لما عليه كلمة الجماعة.

فلئن كان الرجل ـ يعني الغزالي ـ يعتقد ما سطّره لم يبعد تكفيره، وإن كان لا يعتقده فما =

قال الذهبي: قال أبو بكر ابن العربي في «شرح الأسماء الحسنى» قال شيخنا أبو حامد قولاً عظيماً انتقده عليه العلماء. . . ثم ساق أبو بكر مقالة الغزالي . . .

ثم قال ـ ابن العربي ـ : وأجمعت الأمة على خلاف هذا الاعتقاد. . .

ثم قال: وهذه علة لا لعاً لها[1] ومزلة لا تماسك فيها، ونحن وإن كنا نقطة في بحره فإنما لا نرد عليه إلا بقوله.

قال الذهبي: قلت: كذا فليكن الرد بأدب وسكينة. ومما أخذ عليه قال: إن للقدر سراً نهينا عن إفشائه[2] فأي سر للقدر؟!!.

فإن كان مدركاً بالنظر وصل إليه ولا بد وإن كان مدركاً بالخبر فما ثبت فيه شيء. وإن كان يدرك بالحال والعرفان فهذه دعوة محضة فلعله عني بإفشائه أن نعمق في القدر ونبحث فيه.

قال الذهبي: قلت: أما «الأحياء» ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ـ الفلاسفة ـ ومنحرفي الصوفية، نسأل الله علماً نافعاً، تدري ما العلم النافع؟ هو ما أنزل به القرآن وفسره الرسول قولاً وفعلاً. . .

وإياك وآراء عبّاد الفلاسفة ووظائف أهل الرياضات، وجوع الرهبان، وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات. . .

ثم قال الذهبي: نعم، وللإمام محمد بن علي المازري الصقلي كلام

= أقرب تضليله وأما ما ذكرت ـ يخاطب السائل ـ من إحراق الكتاب. فلعمري إذا انتشر بين من لا معرفة له بسمومه القاتلة خيف عليهم أن يعتقدوا صحة ما فيه، فكان تحريقه في معنى ما حرقته الصحابة من صحف المصاحف التي تخالف المصحف العثماني.

قال الذهبي: وذكر ـ الطرطوشي ـ تمام الرسالة، «سير أعلام النبلاء» (١٩/٤٩٤).

قلت: وقال الضَّبي بعد أن ذكر الكتاب الذي رد فيه الطرطوشي على الغزالي: «رأيت منه قطعة يسيرة». أنظر «بغية الملتمس» (ص١٣٨).

(١) لعاً لك: دعاء يقال لمن عثر.

(٢) الأحياء (٩٦ ـ ٤/٩٧).

على «الأحياء» يدل على إمامته ـ أي إمامة المازري ـ يقول: وقد تكررت مكاتبتكم في استعلام مذهبنا في الكتاب المترجم بـ «احياء علوم الدين» وذكرتم أن آراء الناس فيه قد اختلفت، فطائفة انتصرت وتعصبت لإشهاره، وطائفة حذّرت منه ونفّرت، وطائفة لكتبه أحرقت.

وكاتبني أهل المشرق يسألونني، ولم يتقدم لي قراءة هذا الكتاب سوى نبذ منه فإن نفّس الله في العمر مددت فيه الأنفاس، وأزلت عن القلوب الالتباس اعلموا أن هذا رأيت تلامذته فكل منهم حكى لي نوعاً من حاله، ما قام مقام العيان فأنا أقتصر على ذكر حاله، وحال كتابه ففيه ذكر جمل من مذاهب الموحدين والمتصوفة أصحاب الإشارات والفلاسفة فإن كتابه متردد بين هذه الطرائق.

قال الذهبي: ثم أن المازري أثنى على أبي حامد في الفقه وقال: هو بالفقه أعرف منه بأصوله وأما علم الكلام الذي هو أصل الدين[1] فإنه صنف فيه وليس بالمتبحر ولقد فطنت لعدم استبحاره وذلك أنه قرأ علوم الفلسفة قبل استبحاره في فن الأصول فأكسبته الفلسفة جرأة على المعاني وتسهلاً للهجوم على الحقائق لأن الفلسفة تمر مع خواطرها ولا يزعجها شرع.

وعرفني صاحب له أنه كان له عكوف على رسائل إخوان الصفا، وهي إحدى وخمسون رسالة ألفها من قد خاض في علم الشرع والنقل وفي الحكمة فخرج بين العلمين، وقد كان رجل يعرف بابن سينا ملأ الدنيا تصانيف، أمرته قوته في الفلسفة إلى أن حاول رد أصول العقائد إلى علم الفلسفة وتلطف جهده حتى تم له ما لم يتم لغيره، ولقد رأيت جملاً من دواوينه ووجدت أبا حامد يعوّل عليه في أكثر ما يشير إليه من علوم الفلسفة. وأما مذاهب الصوفية فلا أدري على من عوّل فيها. لكني رأيت فيما علّق بعض أصحابه أنه ذكر كتب ابن سينا وما فيها وذكر بعد ذلك كتب أبي حيان التوحيدي، وعندي أنه عوّل عليه في مذهب التصوف، وأخبرت أن أبا حيّان ألّف ديواناً عظيماً في هذا الفن وفي الأحياء من الواهيات كثير. وعادة المتورعين أن لا يقولوا: قال

(١) علم الكلام ليس من الدين، فكيف يكون أصله!!

مالك وقال الشافعي فيما لم يثبت عنهم. ويستحسن أشياء مبناها على ما لا حقيقة له، كقص الأظفار أن يبدأ بالسبابة، لأن لها الفضل على باقي الأصابع لأنها المسبّحة، ثم قص ما يليها من الوسطى لأنها ناحية اليمين[١]، ويختتم بإبهام اليمنى، وروى في ذلك أثراً.

قال الذهبي: قلت: هو أثر موضوع.

ثم قال - المازري - : وقال - الغزالي - : «من مات بعد بلوغه ولم يعلم أن الباري قديم مات مسلماً». قال - المازري - : فمن تساهل في حكاية الإجماع - في مثل هذا الأقرب أن يكون الإجماع في خلافة - فحقيق أن لا يوثق بما روى.

ورأيت له في الجزء الأول يقول: أن في علومه ما لا يسوغ أن يودع في كتاب[٢]...

قال الذهبي: قال أبو الفرج ابن الجوزي: صنف أبو حامد «الاحياء» وملأه بالأحاديث الباطلة، ولم يعلم بطلانها، وتكلم عن الكشف، وخرج عن قانون الفقه، وقال: إن المراد بالكوكب والقمر والشمس اللواتي رآهنّ إبراهيم أنوار هي حجب الله عز وجل[٣]، ولم يُرِدْ هذه المعروفات، وهذا من جنس كلام الباطنية. وقد رد ابن الجوزي على أبي حامد كتاب «الاحياء» وبين خطأه في مجلدات.

قال الذهبي: ولأبي الحسن ابن سكّر[٤] ردٌّ على الغزالي في مجلد سماه «إحياء ميت الأحياء في الرد على كتاب الأحياء».

قال الذهبي: ما زال الأئمة يخالف بعضهم بعضاً، ويرد هذا على هذا،

---

(١) قلت: وما يدري أبا حامد أن يكون «الإبهام» بدل «الوسطى»، فإنه من الجهة اليمنى لمن نظر من جهة باطن الكف.

(٢) يعني ما يسميه الغزالي - علم المكاشفة - ويقول إنه لا رخصة في ذكره، حكى ذلك في جلّ كتبه وأودعت كتابي هذا نقولاً عنه في ذلك كثيرة كما سيأتي.

(٣) أنظر كتاب «الشوق والمحبة والأنس والإنبساط» من «الاحياء».

(٤) قد يكون هو ابن شكر الذي تقدم فتصحّفت، هذا وفي اختلاف الكنى تأمُّل، فالله أعلم.

ولسنا ممن يذم العالم بالهوى والجهل(١).

قال الذهبي: وفي أواخر المنخول للغزالي كلام فج في إمام لا أرى نقله هنا(٢).

قال الذهبي: ومن عقيدة أبي حامد. . . ثم ذكر قول الغزالي. . .

وقال: وهذا المعتقد غالبه صحيح، وفيه ما لم أفهمه(٣) وبعضه فيه نزاع بين المذاهب.

ثم قال الذهبي: فرحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله(٤) ولكن لا ندعي عصمته من الغلط والخطأ ولا تقليد في الأصول.

انتهى آخر ما جاء في ترجمة أبي حامد في «سير أعلام النبلاء».

والحاصل أن ما تقدم فيه جملة وافية في بيان إنكار أهل العلم على أبي حامد ما جاء في الأحياء وغيره، وبيان أن جل الذين أنكروا عليه هم من أقرانه

---

(١) صدق والله، وإنه لقول رصين متين، وفي السنن «كل بني آدم خطّاؤن، وخير الخطّائين التوابون» وخرّج الترمذي وغرّب «من عيّر أخاه بذنب، لم يمت حتى يعمله» فالله الله في عباد الله، وإنما هي كلمة حق في رد باطل، وقد صح عند الشيخين: «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ كان له أجر». فقد يسبقك المخطيء بأجر وتوبة، وتتأخر عنه بتمد وحوبة.

(٢) يقصد رحمه الله أنه لا يليق، والإمام هو أبو حنيفة رحمه الله، «المنخول في علم الأصول» (٤٩٥ ـ ٥٠٤).

(٣) قلت: كلام في العقيدة لا يفهمه إمام كالذهبي، فالأجدر أن لا يكون من المعتقد.

(٤) رحم الله الإمام الذهبي ـ إمام أهل الجرح والتعديل ـ وحق له من كانت هذه أخلاقه، فإنه كان لا يبخس الناس أشياءهم، لذلك لم يبخسه الناس من بعده أشياءه، وصار اسمه مع نظافة الصِّيت، التي قل من حظي بها من أمثاله، و﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾. فإنه هو القائل في «ابن تومرت»: «الشيخ الإمام الفقيه الأصولي الزاهد» (١٩/٥٣٩). مع قوله فيه: «المدعي أنه علوي حسني وأنه المهدي المعصوم» (١٩/٥٣٩). ومع قوله: «وكان لهجاً بعلم الكلام خائضاً في مزلة الأقدام، ألف عقيدة لقبها بالمرشدة، وفيها توحيد وخير بانحراف» (١٩/٥٤٠). ومع قوله: «لكنه دخل ـ والله ـ في الدماء لنيل الرئاسة المردية» (١٩/٥٤١). ومع قوله: «وقد بلغني فيما يقال: أن ابن تومرت أخفى رجالاً في قبور دوارس وجاء في جماعة ليريهم آية، يعني فصاح: أيها الموتى أجيبوا، فأجابوه: أنت المهدي المعصوم وأنت أنت، ثم أنه خاف من انتشار الحيلة فخسف فوقهم القبور فماتوا» (١٩/٥٥١).

أو تلامذته الذين رأوه وسمعوه، كما أثبت ذلك في تراجمهم، وثمة كثيرون آخرون ممن لم أقف على ردودهم، كالذين ردوا عليه في حياته عندما صنف الأحياء، وربما قبله أو بعده، ويظهر ذلك جلياً من كتابه المسمى «الإملاء في إشكالات الأحياء» الذي يقول في مقدمته(١):

[سألت يسرك الله لمراتب العلم، تصعد مراقيها. وقرب لك مقامات الولاية تحل معاليها، عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء، مما أشكل على من حجب فهمه، وقصر علمه، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه، وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطغام، وأمثال الأنعام، وأجماع العوام وسفهاء الأحلام، ودغار أهل الإسلام، حتى طعنوا عليه، ونهوا عن قراءته ومطالعته، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة، بإطراحه ومنابذته ونسبوا ممليه إلى ضلال وإضلال، ونبذوا قرّاءه ومنتحليه بزيغ من الشريعة واختلال].

ثم إنه دعا عليهم ورماهم بأوصاف قبيحة.

وفي نهاية هذه المقدمة ينتهي إلى القول:

[ونحن نستعيذ بالله من الشيطان، و... م به من جراءة فقهاء الزمان].

والحق أن الجراءة كلها فيما قال أبو حامد، لا أقول على فقهاء الزمان، ولكن على الدين وعلمائه، وما كان يجوز لأبي حامد ولا يليق، أن ينسب إليهم ما نسب من قلة الفهم وقصر العلم، وتشبيههم بالأنعام، وسفهاء الأحلام، فليس هذا من شيمة أهل العلم وأدبهم في المناظرة والردود، والشرع نهى عنه.

وأما الذين ذكرتهم ممن رد عليه بعد وفاته فإنهم فوقه في العلم والمعرفة، جهابذة نحارير أوعية للعلم، والشاهد مما تقدم وجود من أفتى بإضلاله، وتحريم مطالعة كتابه ونبذه، ومنتحليه.

ومن الشواهد كذلك ما جاء على لسان أبي حامد في «المنقذ من

---

(١) أول كتاب الإملاء ملحق «بالاحياء» (ج٥/ ص١٣).

الضلال»، حيث يذكر فيه من رماه بالفلسفة وتتبع كلام أخوان الصفا في الاحياء فيقول:

[ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا في أسرار علوم الدين. طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم، ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الأوائل، مع أن بعضها من مولدات الخواطر، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر، وبعضها يوجد في الكتب الشرعية وأكثرها موجود معناها في كتب الصوفية، وهب أنها لا توجد إلا في كتبهم، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه مؤيداً بالبرهان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلا ينبغي أن يهجر ويترك، فلو فتحنا هذا الباب، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل، للزمنا أن نهجر كثيراً من الحق، وللزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن الكريم، وأخبار الرسول وحكايات السلف، وكلمات الحكماء والصوفية، لأن صاحب كتاب أخوان الصفا، أوردها في كتابه مستشهداً بها ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا بإيداعهم إياه في كتبهم.

وأقل درجات العالم أن يتميز عن العامي الغمر، فلا يعاف العسل وإن وجده في محجمة الحجام][1].

قلت: وأنا الآن لست بصدد الرد على أبي حامد، والكشف عما وقع عنده من مخالفة الكتاب والسنة فلهذا مواطن أخرى من هذا المصنف، وما أكثرها.

إلا أنني أشير بكلامه إلى من أفتى من أقرانه بهجر كتبه، واعتراضهم عليها.

وإذا عرفت هذا علمت أنني لست مبتدعاً فيما قررت وعقدت عليه العزم من القيام بالرد على الاحياء وغيره وكيف لا يرد صاحب الدليل، أباطيل أصحاب التخييل.

(١) «المنقذ من الضلال» (ص٣١).

ولا يجوز إلا أن تقوم الحجة، وينصب البرهان، ويقذف بالحق على الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق، ومما تقدم يعرف السبب ويبطل العجب في عدم تصنيف كثير من المتأخرين في الرد على أبي حامد ـ وإن كانوا ردوا عليه في المناسبات كعادة أهل العلم في ردودهم ـ وذلك لكثرة من سبقهم في ذلك فلم تعد لهم بذلك حاجة وقد كفوا المؤونة.

اعلام الأحياء بأغاليط الاحياء

اللهم أعن يا كريم.

اللهم أعني ولا تعن علي، واهدني ويسر لي الهدى.

رب اجعلني لك شاكراً، وعلى حكمك صابراً، وإياك ذاكراً، راهباً لك مطاوعاً، مخبتاً إليك.

اللهم أجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة صدري آمين.

اعلم رحمك الله وإياي، ان هذا الإعلام يتطلب تتبعاً دقيقاً، للكتاب من أوله لآخره، ثم تبيين وجه الاعتراض والمخالفة، ومصنفي هذا ما وضعته لأجل ذلك تماماً.

سيما وأن كثيراً مما يعترض به على أبي حامد في مسائل الفقه ونحوها من مسائل الخلاف ليس من مقصدي.

وإنما أردت التصدي لما جاء به من الكلام أو الفلسفة أو التصوف، وخالف فيه جماعة المسلمين وأدخله بوتقة الإسلام فيما يعد من رؤوس المسائل عند المتصوفة، في معنى العبادة وأصلها وأثرها.

وإنني في ذلك جنحت إلى قاعدة ضرب المثال لمعرفة الحال، فأنبه على بعض أغاليط الكتاب وما فيه من تشويش باحداثه مسائل العامة، ويضل مسلكهم.

وها أنذا أورد جملة وافيه من تلك الأغاليط التي عناها من ذكرت من الأئمة السالفي الذكر، وإن لم أقف على أي من كتبهم.

وأما سبب ابتدائي بالاحياء في ذلك، فلكونه لا يختلف اثنان في نسبته للغزالي هذا من وجه، وأما الوجه الآخر هو شهرة الكتاب وانتشاره. وكان لا بد من التنبيه على ما فيه لعموم البلوى، وإن كان فيه خير كثير كذلك.

لكن إذا اختلط صحيح القول بسقيمة فليس كل الناس يميزونه. وإنما

يتوقف فيه على أهل الخبرة بهذا الشأن، وحتى لا يترك العامي قليل المعرفة على جرف هار.

هذا مع أن بعض ما فيه من الباطل واضح بين يدركه كل صاحب فطرة لم تعبث بها الأهواء من العامة وغيرهم، ولا يلتبس عليهم، كقوله وهو يذكر عن أحدهم: «لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة، كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة»(١).

فأبو حامد يسوق هذا القول من غير تعقيب أو اعتراض أو تذمر، مع أن نتن الكفر يطير منه، وجلود مؤمني أمة محمد ﷺ تقشعر لهذه الزندقة وهذا الإلحاد في آن.

﴿... تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ...﴾.

ويقف المرء موقف المتعجب المذهول الذي أخذ بشغف هذا العالم العملاق وقد ساخت أقدامه في ضحل، وتراه وقد انسلخ عن قانون الشرع، ألغى علومه، وعقّ أصوله، ومحى رسومه، ينأى بالعقل عن جادة النقل، فلا تحتمل ذلك الحقيقة ولا المجاز، مهما تأول المتأولون، وحرف المحرفون، ولأجل ذلك فإنني لا أجد حاجة للسرد والرد في هذه المسألة، هذا مع كونه حكى في أول كتابه عن شطحات الصوفية. وإن مثل هذه الحكايات والأقوال قد استطار في البلاد شررها وعظم في العوام ضررها، ثم يفتي بنحو هذه الكلمات بقوله:

[حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من احياء عشرة](٢).

ومعلوم أنه هذه الفتوى فيها تكفير القائل، إذ «لا يحل قتل امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(٣).

---

(١) «الاحياء» (ج٤/ ص٣٥٦).
(٢) «الاحياء» (١/ ٣٦).
(٣) متفق عليه.

فيكون قد جعله فيمن ترك دينه وفارق الجماعة وإلا لما استباح قتله.

وإذا كان الغزالي يذكر في القسم الثاني شطحات الصوفية نوعاً هو أدنى مما قبله بكثير فيقول : [ومن الشطح كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل، إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله أو تشويش في خياله، لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر، وإما أن تكون مفهومة له، لكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته العلم، وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام، إلا أنه يشوّش القلوب ويدهش العقول، ويحير الأذهان، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه، وقد قال ﷺ : «ما حدث أحدكم قوماً بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم»[١].

وقال ﷺ : «كلموا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله»[٢] وهذا فيما يفهمه صاحبه، ولا يبلغ عقل المستمع، فكيف فيما لا يفهمه قائله: فإن كان يفهمه القائل دون المستمع، فلا يحل ذكره].

أفلا ترى أنه وقع فيما حذر منه، حيث يذكر في قواعد العقائد من الاحياء[٣]:

[وقال بعض العارفين: «إفشاء سر البوبية كفر»، وقال بعضهم: للربوبية سرّ لو أظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام].

---

(١) قال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار...» رواه العقيلي في الضعفاء، وابن السُّنِّيّ، وأبو نعيم في «الرياء» من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولمسلم نحوه في مقدمة صحيحه موقوفاً على ابن مسعود.

(٢) رواه البخاري موقوفا على عليّ، كذا قال العراقي.

(٣) الأحياء (١/ ١٠٠).

قلت: وهذا قول العازفين عن الحق، الغارقين في الضلال، لاقول العارفين، وقبل الرد على هذه البدعة ظاهرة البطلان أشير إلى أنه قد حاول الإجابة عن هذا الموضوع في كتابه المسمى بـ «الاملاء عن اشكالات الاحياء»(١) ولفظه فيه:

[فإن قيل فما معنى قول سهل رحمه الله تعالى فيما نسب إليه: «للإلهية سر لو انكشف لبطلت النبوات وللنبوات سر لو انكشف لبطل العلم، وللعلم سر لو انكشف لبطلت الأحكام، وقد جاء في الأحياء على أثر هذا القول «وقائل هذا القول إن لم يرد به إبطال النبوة في حق الضعفاء، فما قالوا ليس بحق، فإن الصحيح لا يتناقض، والكامل من لا يطفيء نور معرفته نور ورعه» ثم يتابع أبو حامد:

فالجواب إن الذي قاله رحمه الله وإن كان مستعجماً في الظاهر، فهو قريب المسلك، باد للمتأمل الذي يعرف مصادر أغراضهم، ومسلك أقوالهم بالإلهية، ومن وصل إليه اليقين الذي لولاه لم يكن نبياً، لا يخلو أن يكون انكشافه من الله مما يطلع على القلوب من أنوار الشمس التي هي غائبة عنها، فإن كانت القلوب ضعيفة طرأ عليها من الدهش والاصطلام(٢) والحيرة والتيه ما يبهر العقول، ويفقد الحس ويقطع عن الدنيا وما فيها، وذلك لضعفه، ومن انتهى إلى هذه الحالة فتبطل النبوة في حقه أن يعرفها أو يعقل ما جاء من قبلها، إذ قد شغله عنها ما هو أعظم لديه منها، وربما كان سبب موته لعجزه عن حمل ما يطرأ عليه كما حكي أن شاباً من سالكي طريق الآخرة عرض عليه أبو يزيد ولم يره من قبل، فلما رآه انكشف له ذلك، وكان في مقام الضعفاء من المريدين فلم يطق حمله فمات به](٣).

والرد على جوابه أنه باطل من وجوه:

أولها: أن الانكشاف الذي يطلع على القلوب لا حقيقة له، بل هو

---

(١) الأحياء (٥/ ٣٩).

(٢) الاصطلام كما يعرِّفه الغزالي: «ولَهٌ يَرِدُ على القلوب بقوة سلطان فيستكنها» (١/ ١٠٠).

(٣) وهي القصة التي يذكر فيها القول المتقدم: «لو رأيت أبا يزيد...».

مجرد باطل وخيال، وقد أفردت في ذلك فصلاً من هذا الكتاب يأتي في موضعه، وبيان ما عنى الغزالي من أنوار الشمس التي هي غائبة، وفساد مزاعمه.

وثانيها: إن ما ذكر من حالات الدهش والاصطلام والحيرة والتيه، ليست من صفات الموحدين فضلاً عن أفاضل المؤمنين، وإنما هي من صفات الضالين والمنافقين. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

وأما حال أصحاب كلمة لا إله إلا الله فالسكينة والطمأنينة قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ والظلم الشرك وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ وهذا معلوم، والنصوص فيه كثيرة.

وثالثها: إنه لا يجوز أن يقال «شغل بالألوهية عن النبوة» ولا بحب الله عن حب رسوله، فإن من يحب الله عز وجل وهو سبحانه أحق من يحب، يجب أن يحب من يحبه الله، بل ويحب كل من يحب الله عز وجل، وكذلك من يحب رسول الله ﷺ يجب عليه أن يحب من أحب رسول الله ﷺ، فلا يبقى له هوى أو حب، إلا ما يحب المحبوب، وهذا معنى قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[١] وقوله: «حب الأنصار من الإيمان»[١] والنبي ﷺ لما أرشد أمته لحب الله تعالى أرشدهم لمحبته هو كذلك، فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما...»[١].

والله عز وجل قد أخبر عباده كيف يحبهم فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فإذا كان حب الله تعالى لا يكون إلا عن طريق النبي ﷺ، ومتابعته: فيكون الجزاء على فعله ﷺ هو نسيان حبه، وهو حبيب الخلاق، وفي الحديث: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»[٢].

---

(١) رواه البخاري وغيره.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» وغيره وسنده جيد.

ورابعها: اعلم رحمك الله أن أولى الناس بما ذكر أبو حامد هو رسولنا ﷺ أعرف الخلق بربه وأتقاهم وأخشاهم له، ولم يذكر أن أحداً من أصحابه ضعف أمامه مع كثرة من لقيه من الأصحاب، ولا من ضعف أمام الصديق أو عمر وإن أحدهما لأولى بذلك من أبي يزيد ألف مرة.

واعلم كذلك أن من فهم الأعلى لم يفته الأدنى، وإن من أدرك من أسرار العلوم طرفاً ازداد يقينه بالأحكام والتمسك بها، وكذا في النبوة والتوحيد، ولم يشغل بشيء عن آخر، إذ الإيمان لا يكمل إلا بهم جميعاً، ويكون ازدياده بالطاعة ونقصانه بالمعاصي.

ثم اعلم أنه لا يجوز التماس التأويل لكل صارخ، واكتفي بما صدر عن صدور الملة وبدور الإسلام واعضض عليه، وإلا تجاذبتك الأهواء وأبعدتك عن سواء السبيل كثرة الترهات.

ثم يتابع أبو حامد:

[وأما أن يكون انكشافه من عالم به على وجه المخبر عنه، فتبطل النبوة في حق المخبر حين نهى أن لا يفشي فأفشى، أو أراد أن لا يتحدث فلم يفعل، فخرج بهذه المعصية عن طاعة النبي ﷺ فيها فلهذا قيل في ذلك: بطلت النبوة في حقه].

فتأمل هذه البدعة.

كلما عصى عاص الرسول ﷺ قيل: بطلت النبوة في حقه!!!!

فهذا من أعجب العجب، وقوله تحطيب ليل.

ورحم الله الإمام الذهبي القائل وهو يعقب على قول الغزالي «العلم سر لو كشف لبطلت الأحكام» قال: سر العلم كشف لصوفة أشقياء، فحلوا النظام، وبطل لديهم الحلال والحرام»[1].

---

(١) «سير أعلام النبلاء»(١٩/٣٢٩).

الغزالي ورؤية الله عز وجل في الدنيا

الحمد لله الذي نوّر البصائر بنور الشرع، وأقام البرهان بدليل السمع، وضرب الأمثال للأصل والفرع، فعلم المؤمنون عظم المنال، وفنوا الأعمار بصالح الأعمال، ولم يضربوا لله الأمثال، فهم وقفوا حيث وقف الأوائل، وألجموا اللسان عن خوض المسائل، وقالوا: إن ما سواه باطل، وإن بحبه نيل المنازل، وإن بذكره تعطى المكارم، وإن نفحات دهره خير المواسم، وإن التقى للحب لازم.

واللبيب من لم يشتغل بلسانه عن قلبه، والمصيب من أعمل الجوارح بفعل القربات، وقليل ما هم، والخوض كل الخوض أن يتكلم المرء فيما لا عام له به، ويتجاوز قدره، وهو المخلوق المحدث إذا كان الحديث عن الخالق القديم.

ولكن أبا حامد أبى إلا وأن يخوض مع الخائضين، وهو ما اخترته في هذا الفصل من تبين وجه الغلط فيه، فيما ذكره من رؤية العبد لربه في الدنيا وصفة ذلك.

يقول الغزالي في فواتح الكتاب السادس من ربع المنجيات[1]:

[الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرته، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته، ثم استخلفها للعكوف على بساط عزته، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته، فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما أغبر في وجه العقل وبصيرته..].

وهذا النداء الأول الذي يطلقه أبو حامد في هذا الميدان الذي لا بطل فيه إلا رجل شاكي السلاح في غير هذا الساح، والذي من حلّ فيه فهو مهزوم، وتلك العرصات كل الناس منها مطرود محروم، قانونها: «حجابه النور

---

(١) «الاحياء» (٤/ ٢٩٣).

لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[١].

فافهم هذا الأصل واعضض عليه تفلح.

ثم يعود الغزالي ليتحدث عن مقدار هذا الكشف المزعوم الذي قد تبين لك فساده، وحقيقته فيقول:

[فقدر عاشقاً ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه، فلو طرأت على الفجأة حال، انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء، واندفع عنه المؤذيات وبقي سليماً وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط. حتى بلغ أقصى الغايات. فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبه يعتد بها.

فكذلك فافهم لذة النظر إلى لذة المعرفة.

فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به، والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن. وضعف الشهوة، والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى والتفاتها إلى أسفل سافلين، وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته إلى اللعب بالعصفور.

والعارف إن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات، ولا يتصور أن يخلو عنها البتة. نعم قد تضعفه هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهر العقل، وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته، ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلما يدوم. بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينغصه، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية. فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت][٢].

---

(١) رواه مسلم والبخاري من حديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً.

(٢) «الاحياء» (٤/٣١٥).

(٣) «الاحياء» (٤/٣٢٣).

في إفهام معنى الشوق فيقول:

[فنقول مثلاً: من غاب عنه معشوقه، وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق إليه، ولو رآه لم يتصور أن يشتاق إليه في وقت الرؤية، فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله، فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال صورته، وتمام الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه.

(والثاني) أن يرى وجه محبوبه، ولا يرى شعره مثلاً، ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته وإن لم يرها قط، ولم يثبت في نفسه خيال صادق عن الرؤية، ولكنه يعلم أن له عضواً وأعضاءً جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط].

قلت: وفات أبو حامد أن مجرد الخيال القائم في نفس المحب ـ ولا بد منه ـ سواء كان ثابتاً أو غير ثابت صادقاً أو غير صادق. ولا يصدق، فإنه خيال باطل لا يجوز مثله على الله تعالى ﴿. . . فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

وكذلك فإن إدراك بعض المحاسن دون سائرها أبطل وأعظم فساداً، وادعاء ذلك في حق الله تعالى افتراء عظيم، كمن يدعي أنه رأى أصابعه دون يده، أو قدمه دون ساقه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فإن قلت: أراد بالمحاسن ما يعلمه العارفون بالله من عظيم صفاته، كالرحمة والرضى والمغفرة والكبرياء والعظمة وغير ذلك.

قلنا: فلا معنى لإقحامه في هذا الباب وخلط الحقيقة بالمجاز، فذلك مدخل الشبهات واضلال الأمم.

ثم يتابع أبو حامد:

[والوجهان جميعاً متصوران في حق الله تعالى، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين، فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان في غاية الوضوح!!!

فإنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح!!!!

بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات، فإن الخيالات لا تفتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات، وهي مكدرات للمعارف ومنغصات.

وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا، فإنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلي، ولا يكون ذلك إلا في الآخرة][1] فتأمل!!!

وأنت يا أخي قد لا تعرف مراده بكلمة العارفين والمعرفة فأنا أخبرك بحقيقتها عنده، إنها: [مشاهدة الحق بلا واسطة ولا كيف ولا شبهة][2].

وفي خبر طويل يذكره عن داوود عليه السلام وحكايته مع بعض المحبين لله يذكر في آخره[3]:

[فأوحى الله إلى داوود عليه السلام: قل لهم قد سمعت كلامكم، وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سَرَباً فإني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري وجلالي.

فقال داوود: يا رب بما نالوا هذا منك.

قال: بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها، والخلوات بي، ومناجاتهم لي، وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها، ولم يشتغل بشيء من ذكرها، وفرغ قلبه لي، واختارني على جميع خلقي، فعند ذلك أعطف عليه وافرغ نفسه، واكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظر إلي. نظر الناظر بعينه إلى الشيء[4]!!!! وأريه كرامتي في كل ساعة، وأقربه من نور وجهي.

إن مرض مرّضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكري، فإذا ما فعلت ذلك به يا داوود، عمّيت نفسه عن الدنيا

(١) «الاحياء» (٤/٢٣٣).

(٢) أنظر «روضة الطالبين» للغزالي (ص٤٥) (مجموعة القصور العوالي).

(٣) «الاحياء» (٤/٣٢٦).

(٤) تأمل ما يريده الغزالي من سوق هذه القصة والتلفظ بهذه العبارات.

وأهلها، ولم أحببها إليـه، لا يفتر عن الاشتغـال بي[1] يستعجلني القدوم وأنـا أكـره أن أميته لأنـه موضـع نـظري من بين خلقي، ولا يـرى غيـري، ولا أرى غيره]!!!.

سبحان الله!!

وأمـا قولـه بعد هـذه الحكاية: [وفي أخبار داوود أيضـاً: قـل لعبـادي المتـوجهين إلى محبتي، ما ضـركم إذا احتجبت عن خلقي ورفعت الحجـاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلي بعيون قلوبكم][2].

فتخصيص النـظر هنا بعيـون القلوب، مخالف لمـا ذكر من رؤيـة العين الباصرة للشيء.

وأبو حامد يقر كلا الأمرين، لاختـلاف الحالة في كل مرة.

إذا الأولـون المشاهـدون بعين الباصرة أعلى مقاماً وأشد مراساً، حيث فـرغوا قلوبهم إلا من الله، وأمـا الآخرون المشـاهدون بعيـون القلوب فاقتصـر حالهم على التوجه لمحبته، دون تحقق المحبـة على الوجـه المراد القـائم في نفوس الأوائل.

- فلا تعجل في فهم مقصده، وسيأتيك من ذلك أشياء فانتظر.

هـذا، ولا تحسبن أن رؤية العبـد لـربـه بعين قلبـه كـذلـك ممـا يجـوز إطلاقه، فتنبه.

ومن الأشعار التي أوردها في هذا المقام[3]:

---

(١) تأمل ما في هذه الحكاية من التناقض ففيها أن الله إنما قبل هؤلاء المحبين لأنهم رفضوا الدنيا وأهلها ولم يشتغلوا بشيء من ذكره وفرغوا قلوبهم لله، ثم في آخرها أن الله كافأهم على ذلك بأن عمى نفوسهم عن الدنيا وأهلها ولم يحببها لهم، ولم يفتروا عن ذكـر الله سبحانه: فأي شيء هذا الذي كوفئوا به!!!!. وقائل قد يقول: إن هناك فارق بين الرفض والتعمية، لأن المرء قد يرفض وفي قلبه تعلق، فيكون مزيد الإنعام بقطع هذه العلائق. والجواب: أن ذلك صحيح لو لم يقل مع الرفض: «وفرغ قلبه لي» فـدل على أن القلب كذلك خال من تلك العلائق منذ الحال الأولى.

(٢) «الاحياء» (٤/٣٢٦).

(٣) «الاحياء» (٤/٣٤١).

قوم تخالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقادر مولاه
تاهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ويقول في كيمياء السعادة[1]:

[وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق، فإن كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك، حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية، وتبلغ مشاهدة الجلال والجمال].

ويقول في «القواعد العشرة»[2]:

[وكشف لهم الحجاب عن جماله].

ويذكر عن رابعة أنها قالت[3]:

[أحبك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغل بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا]

وأن غيرها أنشد[4]:

[كانت لقلبي أهواء مفرقة
فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده
وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي]

وكان قد قال في باب المجاهدة[5]:

[إن صاحب الخلوة إذا حضر قلبه مع الله تعالى، انكشف له جلال الحضرة الربوبية ويتجلى له الحق. وظهر له من ألطاف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف، بل لا يحيط الوصف به أصلاً].

---

(١) «كيمياء السعادة» (ص٧٥) ملحق «بالمنقذ» و«الأدب» و«القواعد»، تحقيق محمد محمد جابر.

(٢) «القواعد العشرة» (ص٩٧).

(٣) «الاحياء» (٤/٣١٠).

(٤) «الاحياء» (٤/١٠).

(٥) «الاحياء» (٣/٧٨).

وأما دليله على هذا الكشف فيحكيه في بيان معنى المحبة[1] فيقول:

[وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤوَّل، ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وإلى تمكينه إياه من القرب منه، وإلى إرادته ذلك به في الأزل. فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف ألى الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا الضرب.

وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده، فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضي له، كما قال تعالى: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»[2]

فيكون تقربه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه، وارتفاع الحجاب عن قلبه، وحصوله في درجة القرب من ربه، فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به، فهو معنى حبه].

وأما في كتاب التفكر فيقول[3]:

[الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاء عزّته نحواً ولا قطراً، ولم يجعل لمراقي أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام الى حمى عظمته مجرى، بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهةً حيرى، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبَحات الجلال قسراً، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً صبراً].

فهو في هذا الموضع ينفي انكشاف سبَحات الوجه، بل يجعلها حجاباً، خلافاً لما ذكره في كتاب المحبة.

فإذا هو يحل في موضع ويربط في آخر، وقد يبدو للوهلة الأولى أن في المسألة تعارضاً بيناً لا يمكن تجاهله أو صرفه.

والحق ما قدمته من اختلاف الأحوال والمقامات.

---

(١) «الاحياء» (٤/٣٢٨).

(٢) رواه البخاري وغيره.

(٣) «الاحياء» (٤/٤٢٣).

فإن أصحاب هذا المقام مجرد طالبين، فردوا، ولكن إن هم داوموا على قرع الباب، وتفريغ اللباب من غير ذلك، ولم ينشغلوا بغيره عنه، ثم صبروا على ذلك، اجيبوا ولبوا.

تفهم ذلك من قوله:

«وإذا هممت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً صبراً».

واعلم أن أبا حامد وسائر الصوفية، تختلف عندهم الأحكام باختلاف المقامات، بل قد تلغى، وقد تقدم لك قول بعضهم «وللعلم سر لو كشف لبطلت الأحكام».

والغزالي يحكي من ذلك أشياء يطول تتبعها من كتبه، فيذكر في أحوال المتوكلين مثلاً: [عن الحسن المغازلي أنه كان يوماً عند بِشْر في ضحوة من النهار، فدخل عليهما رجل كهل أسمر خفيف العارضين قام إليه بشر، قال: وما رأيته قام لأحد غيره، قال: ودفع لي كفاً من دراهم وقال: اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب، وما قال لي قط مثل ذلك، قال: فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه، وما رأيته أكل مع غيره. قال: فأكلنا حاجتنا وبقي من الطعام شيء كثير، فأخذه الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف، فعجبت من ذلك وكرهته له، فقال لي بشر: لعلك أنكرت فعله، قلت: نعم، فقال: ذاك أخونا فَتْحُ الموصلي زارنا اليوم من الموصل، فإنما أراد أن يعلمنا أن التوكل أذا صح لم يضر معه الإدخار][1].

قلت: والذي ذكره بشر مفارقة في حكم وحال واحد، وفي القصة مفارقة في أحوال كذلك.

منها: اختباء الدراهم، والإسراف على الطعام، وليس ذلك من مذهب الصوفية، بل هو مخالف له. ولكن لما تفاوتت مقاماتهم، تفاوتت الأحكام في حقهم كما يزعمون.

---

(١) «الاحياء» (٤/٢٧٩).

(٢) أنظر «الاحياء» (٤/٢٩٤).

وهذا التعارض الذي نحن بصدده من هذا القبيل ولا يخرج عنه، وذلك أن كلامه عن كشف سبحات الوجه قد ذكره في مقدمة كتاب المحبة، التي هي غاية المقامات، وأرفع الأحوال كما صرح بذلك في الأحياء وأصحاب هذه المقامات يرون ما لا يراه غيرهم، ويسمعون ما لا يسمع سواهم على زعمهم.

وأما إنكاره لهذا الكشف وجعل المكشوف حجاباً فحكاه في مطلع كتاب التفكر «الذي هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها»[1].

والتفكر عنده مقامات:

الأول: تفكر العبد في نفسه وأفعاله وما فيه من المهلكات والمنجيات، وهذه بداية الطريق فلا يصلح فيها ذكر شيء من ذلك ـ أعني حالات الكشف ـ فلذلك أنكره.

أما المقام الثاني وهو التفكر في الله وأفعاله، هو مقام أعلى فيناسب أن يشير فيه لذلك ففصل حيث قال:

[فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة ـ الحلال والحرام ـ وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة.

والمبتدىء ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة. والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو غاية المطلب، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصِّدِّيقين][2].

ثم يتابع: [فأما ما ذكرناه فهو تفكر في عمار الباطن ليصلح للقرب والوصال، فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب][3].

فهذا هو المقام الآخر المقصود الذي تحدثت عنه.

ثم يحكي: [كان الخَوّاص يدور في البوادي فلقيه الحسين بن

---

(١) «الاحياء» (٤/٤٢٦).

(٢) «الاحياء» (٤/٢٣١).

(٣) «الاحياء» (٤/٤٣١).

منصور[١]، وقال فيم أنت؟ قال أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل، فقال الحسين: أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد]

قال الغزالي: «فطالبه بالمقام الأعلى».

ثم قال في نفس الكتاب: [فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكير في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب، ولا يتم ذلك إلا بالإنفكاك عن جميع المهلكات، والاتصاف بجميع المنجيات، وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدّراً مقطوعاً. وكان ضعيفاً، كالبرق لا يثبت ولا يدوم، ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه، ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى، فتنغّص عليه لذة المشاهدة.

ولا طريق له في كمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه. وهذه الصفات المذمومة هي عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوّشات.

وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات[٢].

فهذا القدر كافٍ في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى.

(القسم الثاني) الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه، وفيه مقامان:

المقام الأعلى الفكر في ذات الله وصفاته ومعاني أسمائه، وهذا منع منه حيث قيل «تفكّروا في خلق الله تعالى، ولا تفكروا في ذات الله»[٣].

وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا تطيق، مد البصر إليه، إلا الصِّدِّيقون، ثم لا يطيقون دوام النظر. بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش إلى نور الشمس. فإنه لا يطيقه البتّة، بل

(١) هو الحلاّج المتهم بالشرك والزندقة، وستأتيك عنه ترجمة حافلة فانتظرها

(٢) سيأتي الحديث على ذلك في بيان حقيقة عذاب القبر عند الغزالي وتفسيره الباطني في آخر الكتاب.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «التفكر» بنحو هذا اللفظ، إسناده ضعيف، هذا ما أحفظه منذ سنوات عشر، ولم أقف عليه الآن.

يختفي نهاراً، وإنما يتردد ليلاً ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض.

وأحوال الصّدّيقين كحال الإنسان بالنظر إلى الشمس، فإنه يقدر على النظر إليها، ولا يطيق دوامه، ويخشى على بصره لو أدام النظر. ونظره المتخطّف إليها يورث العمش، ويفرّق البصر. وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل، فالصواب إذاً أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته، فإن أكثر العقول لا تحتمله][(١)].

قلت: وعليه، فهناك عقول تحتمل ذلك، وهم الصديقون كما ذكر آنفاً، ولكنهم لا يطيقون دوام النظر. وكيف يتجرأ العبد الذليل على قول ذلك، والتصريح بالمشاهدة تارة بالعين الجارحة كما في خبر داوود، وتارة بعين القلب، على قدر المقامات، وطوراً من وراء ستر رقيق.

وهذه الرؤية جعلوها من مطالب الدنيا، فاستعجلوا أمراً قد كان لهم فيه أناة، وذموا المشتغل بعيوب نفسه وبإصلاحها كما في خبر الحسين بن منصور، مع أن الله عز وجل إنما وعد عباده وأولياءه بذلك في الآخرة لا في الدنيا فقال:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[(٢)].

وقال: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. ﴾ فقال كثير من السلف: الزيادة النظر إليه[(٣)] وذلك في الجنة وأخرج مسلم في صحيحه وأحمد رحمهما الله من حديث حماد بن سلمة قال:

«إذا دخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النّار النّار، نادى منادٍ يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ألم يبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة ويجيرنا من النار، قال: فيكشف لهم

(١) «الاحياء» (٤/٤٣٣).

(٢) والغزالي يقرّ بذلك في احياءه (١/١٠٨).

(٣) أنظر تفسير ابن كثير (٢/٤١٤) ووقع عند أحمد والترمذي من غير طريق عن ابن عمر رضي الله عنهم «إن أفضل أهل الجنة منزله ينظر في وجه الله كل يوم مرتين» وفي رواية عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال فذكره.

الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم».

فأي معنى لكشف الحجاب في الآخرة، إذا كان حصل الكشف في الدنيا، فلا تحسبن من استعجل كشف الحجاب قبل موعده بمفازة، لأن من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

ثم هو أمر لا مطمع فيه لأهل الدنيا، إذ صح في الخبر أن النبي ﷺ قال: «تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت» وفي آخر: «اعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا».

أخرجه مسلم وغيره[١]، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا - يعني القمر - لا تضامون في رؤيته» أخرجه البخاري من حديث عبادة.

وأخرجاه كذلك - أعني البخاري ومسلماً - من حديث جرير بن عبد الله: لكن ليس فيه «يوم القيامة» وسياقه أطول. وفي حديث أبي موسى: «وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» أخرجاه وفي الحديث التصريح أن ذلك في الجنة.

ولكن لهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة: قال: هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونها سحاب قالوا لا يا رسول الله. قال: فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟. قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة... وساق الحديث بطوله، وفي أفراد مسلم «إن الله يتجلى للمؤمنين يضحك» أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه.

ولهما أيضاً من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: قال: قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كان

---

(١) وأخرج الطبراني في الكبير عن ابن عمر وسهل بن سعد رضي الله عنهم: «إن دون الله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة وما تسمع نفس شيئاً من حس تلك الحجب إلا زهقت» منتخب الكنز (٤/٧٧) بحاشية المسند.

صحواً؟، قلنا: لا. قال فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذٍ إلا كما تضارون في رؤيتهما... وساق الحديث.

وفي الحديث شوق المؤمنين لرؤية الله عز وجل يوم القيامة، وهذا أمر يجده كل موحّد.

وهذه الرؤية غير الأولى التي تقدمت في حديث حماد بن سلمة وأبي موسى[1]، يدل على ذلك سياق الحديث ففيه «فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه. فمنهم من يتبع الشمس...» هذا في رواية أبي هريرة.

أما في رواية أبي سعيد قال: فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرّة، فيقول: أنا ربكم فيقولون أأنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه، فيقولون الساق فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعة، فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً، ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم...» ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنه يرفعه «يوم القيامة أول يوم نظرت فيه عين إلى الله عز وجل»[2].

ففي هذا بيان أن جميع أمة النبي ﷺ برهم وفاجرهم مؤمنهم ومنافقهم يرون الله عز وجل يوم القيامة يراه بعضهم رؤية امتحان، لا رؤرية سرور وفرح وتلذذ بالنظر في وجه ربهم عزّ وجل.

وهذه الرؤية قبل أن يوضع الجسر بين ظهري جهنم، ويخص الله عز وجل المؤمنين من عباده بالنظر إلى وجهه نظر فرح وسرور وتلذذ[3].

---

(١) أما حديث جرير فالأشبه أنه كحديث أبي هريرة وأبي سعيد، وعند أبي داوود من حديث أبي رزين ما يقوي ذلك فالله أعلم.

(٢) رواه الدارقطني كما في «الدر المنثور» (١٩١/٦) وله شاهد مرسل رواه الدارامي في «الرد على الجهمة» (ص٢٧).

(٣) أنظر كتاب «التوحيد» لابن خزيمة رحمه الله عليه وترجمته لما تقدم (ص١٧٢) ومناقشة الأدلة في ذلك.

فخذها فائدة عظيمة جليلة، واسأله عز وجل أن يجعلني وإياك من أصحاب نظرة التلذذ، كما كان ﷺ يسأل ذلك[1].

وأما استدلاله على ذلك بأن المقصود بالمحبة رفع الحجاب، فتأويل من غير قرائن، واستدلال بغير دليل، لا تسعفه لغة محكية ولا قول مأثور.

بل المعنى الظاهر الصريح في محبة الله عز وجل لعباده ذكره النبي ﷺ حيث قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبَّه، قال فيحبه جبريل قال: ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه. قال فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض، وإنّ الله إذا أبغض عبداً . . . الحديث» وهو مخرج في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي إمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن المقة من الله - قال شريك يعني المحبة - والصيت من السماء، فإذا أحب الله عبداً قال لجبريل عليه السلام إني أحب فلاناً. فينادي جبريل: إن ربكم يمق - يعني يحب - فلاناً فأحبوه قال: فتنزل له المحبة في الأرض».

وروى ابن أبي حاتم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحبه. فينادي في السماء ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله عز وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾

ورواه الإمامان مسلم والترمذي كذلك.

وذكره ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية قال[2]: [قال: علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿. . . سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ قال: حباً.

(١) والحديث عند النسائي.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/١٤٠).

وقال مجاهد عنه: ﴿... سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ محبة في الناس في الدنيا.

وقال سعيد بن جبير عنه: «يحبهم ويحببهم إلى خلقه المؤمنين»...

وقال العوفي عن ابن عباس أيضاً: الود من المسلمين في الدنيا والرزق الحسن واللسان الصادق.

وقال قتادة: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ أي والله في قلوب أهل الإيمان].

فهذه أقوال السلف في معنى محبة الله عز وجل، وهذه عباراتهم، ليس فيها من تأويل أبي حامد حرف واحد.

وأما إيراده حديث البخاري «ما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه...» واستدلاله منه على مراده، فإنه لا يسلم، بل هو حجة عليه.

إذ فيه: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها... الحديث».

وليس فيه فإذا أحببته كشفت الحجاب بيني وبينه، فحكاية أبي حامد ذلك غريبة جداً وليس بين شراح الحديث من ذكرها ولا أومأ إليها.

وابن حجر في «الفتح» والقسطلاني في «الإرشاد» وغيرهما ذكروا في معنى الحديث أقوالاً ثمانية بعضها عن مشايخ الصوفية، وبعضها عن غيرهم، لكن لم يذكروا قول أبي حامد من بينها.

والقول الفصل في معنى الحديث والمراد به، أن الله عز وجل يسخر جوارح عبده إذا أحبه في طاعته، فلا يسمع ولا يبصر إلا ما يرضى الله عز وجل، ولا يسعى ويعمل إلا بطاعته، فَيُوَفّق لفعل الطاعات وترك المنكرات هذا محصل ما قاله أهل العلم في ذلك.

واعلم يا أخي رحمني الله وإياك أن مجرد المشاهدة في الدنيا أمر تظاهرت النصوص على إبطاله ورده كما قدمت وأن القول بذلك أمر مخترع مبتدع. على أي وجه كان.

ومبتغي ذلك، كمن يبسط كفه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، ويقضي عمره ينتظر ما لا حقيقة له في الدنيا، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ قال ابن عباس في الدنيا[١].

وما المشوشات والمكدرات التي تذكر مع هذه الرؤية لتقريبها من ذهن السامعين إلا مشوشات ومكدرات في ذهن القائل.

فإنه باب عظيم لا قبل للنفوس بقرعه، أو ولوج عتبته.

وسوف أضرب لك في ذلك مثالاً تتدبره.

إن النبي ﷺ الذي هو أعرف الخلق بالله تعالى وأتقاهم وأخشاهم له، وأكثرهم حباً. والله عز وجل قد اجتباه وقربه، وأكرمه بالإسراء والمعراج، وأدناه حتى أسمعه صريف الأقلام، ولا نعلم بين الخلق من بلغ ذلك المقام.

ومع ذلك فإن أنساً رضي الله عنه، لما سأل النبي ﷺ هل رأيت ربك؟ قال له النبي ﷺ: «نور أنى أراه» وفي رواية «رأيت نوراً» أخرجهما مسلم في صحيحه.

قال ابن أبي العز الحنفي بعد إيراده الروايتين للحديث: «فيكون والله أعلم معنى قوله لأبي ذر «رأيت نوراً» أي رأى الحجاب. ومعنى قوله «نور أني أراه» النور الذي هو الحجاب يمنع من رؤيته فأنى أراه. أي فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته فهذا صريح في نفي الرؤية والله أعلم»[٢].

وقال الإمام أبو عبد الله المازري رحمه الله: «الضمير في أراه (أنى أراه) عائد على الله سبحانه وتعالى ومعناه أن النور منعني من الرؤية كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حالت بين الرائي وبينه»[٣].

وقال النووي: «رأيت نوراً» رأيت النور ولم أر غيره[٣]

---

(١) « "التوحيد /٢٠٦

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (١٩٧). وهو قول ابن حجر كذلك «الفتح» (١٣/٤٣١)

(٣) شرح النووي على صحيح الإمام مسلم (ج٣/ ص١٢).

وقال القرطبي: «نور أني أراه» المعنى غلبني من النور وبهرني منه ما منعني من رؤيته، ودلّ على هذا الرواية الأخرى «رأيت نوراً»[١].

وقال الإمام الحافظ ابن حبان في صحيحه بعد أن أخرج قوله ﷺ: «رأيت نوراً».

قال[٢]: «معناه أنه لم ير ربه، ولكن رأى نوراً علوياً من الأنوار المخلوقة».

قلت: وقد صدقوا فيما قالوا وأجادوا، تشهد لذلك رواية همام قال: حدثنا قتادة عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، قال: وما كنت تسأله؟، قال: كنت أسأله هل رأى ربه عز وجل؟ فقال: إني قد سألته فقال: «قد رأيته نوراً أنى أراه» وقد أخرجها الإمام أحمد في المسند، فقال حدثنا عفان حدثنا همّام حدثنا قتادة فذكره، قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

ففي هذه الرواية الجمع بين روايتي مسلم:

«نور أني أراه» وهي من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر.

و «رأيت نوراً» وهي من طريق هشام عن قتادة عن عبد الله بن شَقيق عن أبي ذر. ومن طريق حجاج عن عفان عن همام عن قتادة.

وبذلك ينتفي ما ظنه البعض من تعارض الروايتين عند مسلم، كابن خزيمة[٣] ومن حكى عنهم ذلك من مشايخه، ولله الحمد[٤].

---

(١) «الجامع لإحكام القرآن» (ج١٧/ ص٦٢).

(٢) «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (١/ ٢٥٥).

(٣) «زاد المعاد في هدى خير العباد» (ج٢/ ص٤٨).

(٤) قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (ج١١/ ص٦٧) في ترجمة همّام:
عن ابن معين قال: ثقة صالح وهو أحب إليّ في قتادة من حماد بن سلمة...
قال ابن أبي خيثمة عن ابن معين همّام في قتادة أحب إليّ من أبي عوانة، وقال عثمان الدارمي عن ابن معين مثله...
وقال ابن المديني لما ذكر أصحاب قتادة: كان هشام أرواهم عنه، وسعيد أعلمهم به

= وشعبة أعلمهم بما سمع عن قتادة مما لم يسمع ولم يكن همام عندي بدون القوم. قلت: ولما ذكر ابن كثير أكابر من روى عن قتادة ذكر همـاماً دون هشـام ولا إبراهيم (البداية٣٥٢/٩) ثم قال وقال ابن عدي: همام أشهر وأصدق من أن يذكر له حديث، وأحاديثه مستقيمة عن قتادة. ووثقه ابن حبان والعجلي وقال الحاكم: ثقة حافظ. ثم قال ابن حجر: وحديث همام بآخره أصح ممن سمع منه قديماً، وقد نص على ذلك أحمد بن حنبل. قلت: والسبب في ذلك ما ذكره الحلواني من قول همام لعفّان أنه قد يقع له الخطأ في اللفظ حتى إذا رجع لكتبه وجده، وابن حجر ذكر هذا في الترجمة،
لكنني أقول: إن صح ما ذكره الحلواني فإن عفّان لا يكون ممن سمع منه قديماً قبل أن يرجع لكتبه وذلك لسببين:
أولهما: تصريح همّام لعفّان بأنه لما رجع لكتبه عرف ما كان أخطأ فيه فصححه، فإن كان عفّان حصل له شيء من الخطأ في روايته عن همّام فيكون صححه، إذ لا يمكن بعد معرفة عفّان بذلك - إن صح - أن لا يراجعه فيما حدث به عنه.
ثانيهما: قول عفان: «ما سمعت من أحد حديثاً إلا عرضته عليه غير شعبة». فمن كان متحرياً كعفّان بعيد أن يفوته ذلك، إذ أن المعرفة بحال عفّان تقتضي ذلك والله أعلم،
فهو - عفّان - شيخ البخاري كذلك، وشيخ إسحٰق بن راهوية وعلي بن المديـني وقتيبة بن سعيد وأبو زرعة وأبو حاتم وخلق كثير من الأكابر،
حتى حكى ابن حجر في ترجمته عن ثقته وضبطه الحكايات الجياد
ومما حكاه (التهذيب ج٧/ ص٢٣٤):
وذكر عند ابن المديني عفان فقال: كيف أذكر رجلاً شك في حرف فضرب على خمسة أسطر، أي محى الحديث كله، والضرب: المحي، وذكر أن الحسن الزعفراني قال: قلت لأحمد من تابع عفّان على كذا وكذا فقال: وعفان يحتاج إلى متابعة أحد!!
وأن ابن معين قال: أصحاب الحديث خمسة مالك وابن جريج، والثوري وشعبة وعفّان.
- فتدبر -
وأن الزعفراني قال: رأيت يحيى بن معين يعرض على عفّان ما سمعه من يحيى القطان.
ومن هنا أقول:
عندي أن لفظ همّام «قد رأيته نوراً أنى أراه» - مقدم على لفظ هشام - «رأيت نوراً» - وعلى لفظ يزيد - «نور أنى أراه» لأوجه منها: اشتمال لفظ همّام على اللفظتين، وهما ثابتتان.
ومنها: أن سؤال أبي ذر للنبي ﷺ كان مرة واحدة، - ولو كان أكثر لما تردد في ذكر ذلك كما لا يخفى، وعليه فلا يمكن أن يكون النبي ﷺ أجابه بجوابين منفصلين.

وأما تأويل من تأول ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ إن المراد بذلك رؤية النبي ﷺ لربه، فبعيد ولا يصح.

والصحيح الثابت عن السلف أن المراد بذلك هو جبريل عليه السلام. صح ذلك في البخاري وغيره، وسياق الآيات يدل عليه.

وقد أطال النفس في ذلك الشيخ العلاّمة ابن القيم في «مدارج السالكين ومنازل السائرين»، وأيد ذلك بخمسة عشر وجهاً. صحيحاً، في مطالع الكتاب.

وذكر نحوه في «الزاد»[١]، ومما قاله:

[واختلف الصحابة هل رأى ربه تلك الليلة أم لا فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه، وصح عنه أنه قال رآه بفؤاده].

قلت: قول ابن عباس إن محمداً رأى ربه، هكذا مطلقة بغير تقييد، أخرجه الترمذي وغيره ولفظه فيه: «عن عكرمة عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه، قلت: ـ عكرمة ـ أليس الله يقول ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ قال ـ ابن عباس ـ: ويحك، ذاك إذا تجلى بنوره، وقد رأى ربه مرتين» قال الترمذي: حسن غريب.

ولفظه عند ابن خزيمة في التوحيد[٢] وابن حبان في الصحيح[٣] «قد رأى محمد ربه».

ومنها: قول الإمام أحمد في المسند بعد رواية همّام: «وقال عفان: بلغني عن هشام يعني معاذاً ـ هو معاذ بن هشام ـ أنه رواه عن أبيه كما قال همّام قد رأيته» المسند (٥/١٤٧).

فيكون هشام قد تابع همّام في روايته، إن صح البلاغ لعفّان.

ومنها: أن رواية الإمام أحمد عن عفّان عن همّام أعلى من رواية مسلم بطبقة، فمسلم لا يحدث عن عفان إلا بواسطة

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (ج ٢/ص٤٨).

(٢) أنظر كتاب «التوحيد» لابن خزيمة (٢٠٠) وما بعدها.

(٣) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١/٢٥٤) تحقيق شعيب الأرناؤوط.

وأما قوله أن النبي ﷺ رأى ربه بفؤاده.

فأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ: «﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ قال - ابن عباس - رآه بفؤاده مرتين».

والمتفق عليه عند أهل العلم والمَجْمَع، أن **الإطلاق يحمل على التقييد**، وهذا محله، فيكون قول ابن عباس قولاً واحداً، وهو أن النبي ﷺ رأى ربه بفؤاده مرتين.

ولذلك قال ابن كثير بعد أن ذكر قول ابن عباس: «**رآه بفؤاده مرتين**» قال[1]: [وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية وهي **محمولة على المقيَّدة بالفؤاد**].

ثم يتابع ابن القيم في الزاد فيقول:

[وصح عن عائشة، وابن مسعود إنكار ذلك وقالا: إن قوله ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ عند سدرة المنتهى، إنما هو جبريل].

قلت: أما حديث عائشة فأخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، ولفظ الشيخين وأحمد: «عن مسروق قال: «**كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول** ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ **فقالت أنا أول هذه الأمة** سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «**إنما ذاك جبريل**» **لم يره في صورته**

= (فائدة)

حكى الخلال في علله عن الإمام أحمد أنه سئل عن هذا الحديث فقال: «ما زلت منكراً له، وما أدري ما وجهه» «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٥٢). قلت: لعله عنى بذلك تفرق الروايات ويدل على ذلك صنيع ابن كثير في التفسير، وصنيع الإمام أحمد في المسند حيث ذكر طريق همّام دون طريق يزيد بن إبراهيم مع أنه أخرج له، - هذا إن وقعت له الرواية - وذلك لكون لفظ روايته «نور أنى أراه» فهي بمفردها قد يفهم منها منع الرؤية، حتى رؤية النور، وهذا خلاف مذهب الإمام أحمد، وما ثبت عنه من الروايات في افتائه بقول ابن عباس في الرؤية، بل قد وقع في رواية عنه أنه رآه بعينه كقول ابن عباس، ورواية أنه رآه بفؤاده «الجامع لأحكام القرآن» (ج ٣٧/٧) لكنه لم يحك عنه في منع الرؤية شيء فكأنه أعلّ هذه الرواية دون غيرها والله أعلم.

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٥٠).

التي خلق عليها إلا مرتين. رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض».

وفي الحديث إبطال لاستدلال ابن عباس، وإنما قلت ذلك لكون عائشة رضي الله عنها نسبت تفسير الآيتين للنبي ﷺ، بخلاف تفسير الحبر ابن عباس رضي الله عنهما.

وأما حديث ابن مسعود فرواه البخاري وأحمد من طرق كثيرة وفي لفظ لأحمد: «عن ابن مسعود في هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاويل من الدر والياقوت».

قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي[1].

قلت: وأخرج مسلم «عن أبي هريرة أنه قال في قوله تعالى ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ قال: رأى جبريل عليه السلام».

ثمَّ قال ابن القيم رحمه الله: [وصح عن أبي ذر أنه سأله هل رأيت ربك فقال: «نور أنى أراه» أي حال بيني وبين رؤيته النور، كما قال في لفظ آخر «رأيت نوراً»].

قلت: وقد تقدمت لك الروايتان من قبل، وأنهما عند مسلم، ورواية الإمام أحمد الجامعة لهما.

وأما محاولة ابن خزيمة تضعيف الحديث[2] وقوله: «وفي القلب من صحة سند هذا الخبر شيء لم أر أحداً من أصحابنا من علماء أهل الآثار فطن لعلة في إسناد هذا الخبر فإن عبد الله بن شقيق كأنه لم يثبت أبا ذر ولا يعرفه بعينه واسمه ونسبه» ثم ساق ابن خزيمة قصة فيها أن عبد الله بن شقيق قال: أتيت المدينة فإذا رجل قائم على غرائر سود يقول: ألا ليتني أضرب الكنوز بكرة في الحساء والجُنوب. فقالوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٥١).

(٢) أنظر كتابه «التوحيد» (٢٠٦).

قال ابن خزيمة: «فعبد الله بن شقيق يذكر بعد موت أبي ذر أنه رأى رجلاً يقول هذه المقالة وهو قائم على غرائر سود أخبر أنه أبو ذر، كأنه لا يثبته، ولا يعلم أنه أبو ذر».

قلت:

فهذا تضعيف ضعيف، وليس فيما قال الإمام ابن خزيمة حجة كما هو ظاهر، وكنت قد رددت على ابن خزيمة قوله منذ سنوات، وكتبت على حاشية الكتاب أوجهاً منها: «أنهم أرادوا بذلك قول[1] أبي ذر، وهذا جائز في لغة العرب» وهذا ولا شك إن سلمنا بأن القصة وقعت بعد موت أبي ذر وفي ذلك قال ابن كثير: «وحاول ابن خزيمة أن يدعي انقطاعاً بين عبد الله بن شقيق وبين أبي ذر»[2]. أي ولكنه لم يستطع.

ثم تابع ابن القيم: [وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره].

قلت: حكى ذلك في كتابه «الرد على الجهمية»[3] إلا أن الخلاف واقع.

ثم تابع: [قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا ولا قوله رآه بفؤاده، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «رأيت ربي تبارك وتعالى» ولكن لم يكن هذا في الإسراء. ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح ثم أخبرهم عن رؤية ربهم تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه، وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمة الله تعالى وقال: نعم رآه حقاً فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد]

قلت: فكأن مراد شيخ الإسلام والله أعلم، أن من نفى الرؤية كعائشة وابن مسعود وأبي هريرة يحمل قولهم على رواية أبي ذر أنه رأى النور الذي هو

---

(١) أي مقالته هذه مقالة أبي ذر، كما هو مشهور عنه رضي الله عنه في إفتائه بعدم جواز كنز المال الذي أديت زكاته، وانفرد بذلك عن الصحابة جميعهم، فأصبحت هذه الفتوى تنسب إليه رضي الله عنه وأرضاه.

(٢) أنظر «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٢٥٢).

(٣) «الرد على الجهمية» (ص٥٠) وما بعدها.

الحجاب، ولم ير ربه، ويحمل قول ابن عباس على الرؤية الواردة في الحديث[1].

وهذا الجمع لم أر أحداً من أهل العلم نبه عليه ولا ألمح، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمن نفسي، ويبقى أن يقال: فلم اعترضت عائشة رضي الله عنها على ابن عباس في قوله بالرؤية كما جاء في بعض روايات الحديث، والجواب: أن اعتراضها كان من أجل استدلاله بالآية، وأما الرؤية الواردة في الحديث فلا لأنها من قوله ﷺ.

وأما الحديث المذكور فقد أخرجه الإمام أحمد والترمذي عن معاذ وقال: حديث حسن صحيح ولفظه: «احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس فخرج ﷺ سريعاً فثوب بالصلاة فصلى وتجوز في صلاته فلما سلم قال: «كما أنتم»، ثم أقبل علينا فقال: «إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استيقظت، فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة، فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى... الحديث»[2].

(١) وهذا الحمل لقول إبن عباس ليس على مراده لأنه استدل بآية النجم لا بالحديث، ولكننا إن حملنا استدلاله على الحديث إنتفى للتعارض. جاء في رواية ابن عباس عند ابن جرير: «قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة، فقال لي يا محمد هل تدري فيما يختصم الملأ الأعلى فقلت لا يا رب، فوضع يده بين كتفيّ، فوجدت بردها بين ثدييّ فعلمت ما في السموات والأرض، فقلت يا رب في الدرجات والكفارات ونقل الأقدام إلى الجمعات وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فقلت يا رب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وكلّمت موسى تكليماً، وفعلت وفعلت، فقال: ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وزرك، ألم أفعل لك، ألم أفعل بك؟ قال فأفضى إلي بأشياء لم يؤذن لي أن أحدثكموها. قال فذاك قوله في كتابه ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ .....﴾ فجعل نور بصري في فؤادي، فنظرت إليه بفؤادي».

لكن إسناد الحديث ضعيف، وهذه الزيادة في آخره غريبة كما قال الحافظ ابن كثير في التفسير (٤/٢٥١) فلو صح، لاقتبسنا منه فوائد، وإنما أحببت التنبيه عليه، حتى لا يغتر به.

(٢) «المسند»: (ج٥/٢٤٣) وجاء في «منتخب كنز العمال» (٦/٣٦١) أخرجه عبد الرزاق وأحمد بن حنبل وعبد بن حميد والترمذي عن ابن عباس، والترمذي والحاكم عن معاذ.

والحديث صححه الترمذي كما مر، وابن كثير وقال: «إسناده على شرط الصحيح، قال ذلك في رواية مختصرة»(١).

وقال ابن حجر في «تهذيب التهذيب»(٢): «قال ابن عدي: الحديث له طرق، وقد صحح أحمد طرق يحيى بن أبي كثير. والحافظ ابن رجب الحنبلي أفرد فيه تأليفاً سماه «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» وذكر في مطلعه جمعاً من الحفاظ صححوه».قلت:

وله في مسند الإمام أحمد رواية عن ابن عباس، فلذلك أيدت حمل دليل ابن عباس عليه، وأما حمل الرؤية على أنها في المعراج فقد يجمع بينها وبين رواية أبي ذر بأن رؤية النور الواردة في حديث أبي ذر حصلت بالفؤاد كما في رواية ابن عباس والله أعلم. إذ أنّ رؤية ما هو فوق النور باطلة بنص حديث أبي ذر. والله الهادي.

ثم قال ابن القيم: [قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولكن لم يقل أحمد رحمه الله تعالى أنه رآه بعيني رأسه يقظةً ومن حكى ذلك عنه فقد وهم عليه، ولكن قال مرة رآه، وقال: «رآه بفؤاده» فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرّف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه. وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك)(٣).

قلت: كذلك فإن من ينسب لابن عباس أنه ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، قد غلط ووهم وأغرب، كما قال ابن كثير:

«ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم»(٤).

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٥٠).

(٢) نقل كلام التهذيب واستوفى الكلام على الحديث في «الإصابة»، ترجمة عبد الرحمن بن عائش.

(٣) نقل ذلك ابن حجر في الفتح، لكنه نسبه لابن القيم (الفتح٨/٣٦٨).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٥١).

وأما ما جاء في «الشفاء» للقاضي عياض، ونقله عنه شارح الطحاوية[١]: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه ﷺ رآه بعينه». وقول غير واحد ممن خرج شرح الطحاوية: «أخرجه ابن خزيمة في التوحيد».

فأقول: نعم قد أورده ابن خزيمة ولكن ليس في الحديث ما يدل على أنه رآه بعينه، فقال: بعد أن ساق الأحاديث في ذلك.

«وليس الخبر بالبين أيضاً أن ابن عباس أراد بقوله رؤيا عين رؤية النبي ﷺ ربه بعينه لست أستحل أن أحتج بالتمويه ولا أستجيز أنْ أمَوِّهَ على مقتبسي العلم»[٢].

قلت: وهذا الذي قاله الإمام ابن خزيمة صحيح إذ لفظ الحديث: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك) قال — ابن عباس — رؤيا عين أريها النبي ﷺ ليلة أسرى به». وله ألفاظ أخرى متقاربة وليس في الحديث التصريح بأنه رأى ربه بعينه.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لم يره بعينه، إنما رآه بقلبه. قال ابن حجر بعد أن ساقه، ولابن خزيمة أنه رآه بقلبه ولم يره بعينه[٣] لكنه لم يصرح أين أخرجه.

قلت: وقال الذهبي: «لم يأتنا نص جلي بأن النبي ﷺ رأى الله تعالى بعينيه[٤] لذلك أقول: من الخطأ أن ينسب القول بعيني الرأس إلى كتاب التوحيد لابن خزيمة، فإنه تقوّل عليه. بل إن ابن خزيمة لما ترجم لروايات ابن عباس قال[٥]

---

(١) الطحاوية وشرحها (١٩٧) ط الثامنة.
(٢) التوحيد (٢٠٢).
(٣) والحديث أخرجه البخاري وغيره، وقال ابن حجر في الشرح: «وجاء عند سعيد بن منصور عن أبي مالك قال: هو ما رأى في طريقه إلى بيت المقدس» (٨/٣٩٨).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢/١٦٧).
(٥) التوحيد (١٩٧).

«باب ذكر الأخبار المأثورة في إثبات رؤية النبي ﷺ خالقه العزيز العليم المحتجب عن أبصار بريته قبل اليوم الذي تجزي فيه كل نفس بما كسبت، يوم الحسرة والندامة» ولم يقل بعينه. أما نسبة رؤية العين لابن عباس فمشهورة.

ثم قال — ابن خزيمة — : «فأما خبر قتادة، والحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما بيّن واضح أن ابن عباس كان يثبت أن النبي ﷺ قد رأى ربه».

قلت: فأما خبر قتادة عن عكرمة عن ابن عباس فلفظه عن ابن عباس: «أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ» وله ألفاظ أخرى.

وأما خبر الحكم عن عكرمة عن ابن عباس ففيه «أن ابن عباس سئل: هل رأى محمد ﷺ ربه؟ قال: نعم...».

ففي الروايتين أنه رأى ربه، لكن على الاطلاق دون تقييد بعين الرأس أو القلب، فهو كما قال ابن خزيمة كان يثبت أن النبي ﷺ قد رأى ربه

وابن خزيمة قد أخرج في هذا الموضع عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «قد رأى محمد ربه».

وهذا الحديث بالإسناد ذاته أخرجه تلميذ ابن خزيمه، بل أجل تلامذته ابن حبان في صحيحه وقال بعد إخراجه: «معنى قول ابن عباس: «قد رأى محمد ﷺ ربه» أراد به بقلبه في الموضع الذي لم يصعده أحد من البشر ارتفاعاً في الشرف»[1]

ويتابع ابن القيم: [— قال ابن تيمية — : وأما قول ابن عباس أنه رآه بفؤاده مرتين فإن كان استناده ألى قوله تعالى ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى﴾ والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريل

---

(١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١/٢٥٤) تحقيق شعيب الأرناؤوط.

عليه السلام رآه مرتين في صورته التي خلق عليها[1]، وقول ابن عباس هذا هو مستند الإمام أحمد في قوله رآه بفؤاده، والله أعلم].

أي فلا يسلم استدلال ابن عباس له، إلا أن يكون قد استدل بحديث: «رأيت ربي في أحسن صورة».

قلت: وعندي أن ابن عباس قد استدل بالحديث، وكيف لا يستدل به، وهو قد رواه عن النبي ﷺ رواه الإمام أحمد في مسند ابن عباس من طرق، ورواه أيضاً عن معاذ وغيره كما تقدم.

إلى هنا انتهى ما أردت قوله في هذه المسألة مختصراً، فأمعن النظر فيه، ففيه فوائد قد لا تقف عليها في غير هذا الكتاب.

والشاهد منها، أنه صلوات ربي وتسليماته عليه، الذي هو أفضل الخلق، وقد وصل لأرفع المقامات وأشرف الرتب، ومع ذلك فإنه لم ير ربه، وإنما شاهد الحجاب الذي هو النور، وفي قوله تعالى ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ دليل على ذلك، فلو أنه رأى ربه، لما عدل تبارك وتعالى عن ترك ذلك إلى ما هو دونه من الآيات. فكيف يتجاوز العبد قدره. ويدعي ما لا طاقة له به، وهو صاحب الآثام والمعاصي ونبيه قال فيه «ما منكم من أحد يدخل الجنة بعمله».

وأئمة أهل السنة العاملون، يعرفون أن لا مطمع لأحد من أهل الدنيا برؤية ربه، فنقل غير واحد منهم الإجماع في ذلك.

يقول ابن أبي العزّ الحنفي: «واتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه»[2].

---

(١) هذا الترجيح لتفسير عائشة وابن مسعود وأبي هريرة على تفسير ابن عباس ترجيح ظاهر بانت أدواته كما ذكرت، وهو الذي قاله ابن كثير تبعاً للبيهقي رحمهما الله تعالى حيث ذكر أنه لا يعرف بين الصحابة من خالف عائشة ومن معها في هذا التفسير. انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣).

(٢) الطحاوية بشرحه ط الثامنة (ص١٩٦).

وقال ابن حجر: «تنبيه، دل سياق الحديث ـ حديث جبريل ـ على أن رؤية الله في الدنيا بالأبصار غير واقعة وأما رؤية النبي ﷺ فذاك لدليل آخر ـ يعني لم يره ـ وقد صرح مسلم في روايته من حديث أبي أمامة بقوله ﷺ: «اعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»، وأقدم بعض غلاة الصوفية على تأويل الحديث بغير علم فقال: فيه إشارة إلى مقام المحو والفناء»[1].

وقال في موضع آخر: «وقد ذكر الحجاب في عدة أحاديث صحيحة، والله سبحانه وتعالى منزه عما يحجبه إذ الحجاب إنما يحيط بمقدر محسوس، ولكن المراد بحجابه منعه أبصار خلقه وبصائرهم بما شاء متى شاء،كيف شاء وإذا شاء كشف ذلك عنم ـ يعني في الآخرة ـ ويؤيده قوله في الحديث «ما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ألا رداء الكبرياء على وجهه ـ أخرجه البخاري ـ فإن ظاهره ليس مراداً قطعاً فهي استعارة جزماً وقد يكون المراد بالحجاب في بعض الأحاديث الحجاب الحسي لكنه بالنسبة للمخلوقين والعلم عند الله تعالى، ونقل الطيبي في شرح حديث أبي موسى عند مسلم«حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره» أن فيه إشارة إلى أن حجابه خلاف الحجب المعهودة فهو محتجب عن الخلق بأنوار عزه وجلاله وأشعة عظمته وكبريائه وذلك هو الحجاب الذي تدهش دونه العقول وتبهت الأبصار وتتحير البصائر، فلو كشفه فتجلى لما وراءه بحقائق الصفات وعظمة الذات لم يبق مخلوق إلا احترق، ولا منظور إلا اضمحل، وأصل الحجاب الستر الحائل بين الرائي والمرئي، والمراد به هنا منع الأبصار من الرؤية له بما ذكر فقام ذلك المنع مقام الستر الحائل فعبر به عنه، وقد ظهر من نصوص الكتاب والسنة أن الحالة المشار إليها في هذا الحديث هي دار الدنيا المعدة للفناء دون دار الآخرة المعدة للبقاء، والحجاب في هذا الحديث وغيره يرجع إلى الخلق فإنهم هم المحجوبون عنه، وقال النووي: أصل الحجاب المنع من الرؤية، والحجاب في حقيقة اللغة الستر. إنما يكون في الأجسام والله منزه عن ذلك، فعرف أن المراد المنع من رؤيته، وذكر النور لأنه يمنع من الإدراك في العادة لشعاعه. . .»[2].

---

(١) «فتح الباري» (١/١٢٠).

(٢) «فتح الباري» (١٣/٤٣١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

وقد اتفق أئمة السنة والجماعة علي أن الله لا يراه أحد بعينه في الدنيا، وهذا الغلط أدى إلى الإلحاد، كما حصل لابن عربي وابن سبعين، وكذلك لما سئل الجنيد وكان سيد الطائفة، وإمام الهدى، فكان قد عرف ما يعرض لبعض السالكين، فلما سئل عند التوحيد قال: «التوحيد إفراد الحدوث عن القِدَم»[1].

ومن هنا أقول: إن أبا حامد في هذه المسألة، قد ألبس عقول الواهين من غير أهل العلم ثياب التخليط، وجرعهم كؤوس اللبس، ونأى بهم عن الجادة، وتركهم في حيرة.

«ويلوح أن مثل هذا التفسير في مثل هذا الموضوع على شيء من الفتور، ونجد الغزالي وقد دعا إلى مفهوم قرآني في هذا الإله الذي يبتغيه مما أوتي من قوة الصورة الجافية لذلك المليك الذي يأذن لعبده في كشف الحجاب عن عرشه، والاقتراب منه قليلاً.

وما عدم اتباعه دعوة النصرانية حتى النهاية؟؟.

لا أدري أي حجاب كان يبقى قائماً أمام عينيه لو نهض فكشف ذلك المشهد الرفيع للكَلِف الإلهي الذي تسمى أفعاله تجسداً ونداءً»[2].

هكذا قال أحد المعتقدين ألوهية المسيح، بعد أن ساق بعض أقواله في الحب والشوق التي ذكرت لك منها طرفاً لا بأس به.

وبعبارة أخرى أراد أن يقول: أن الغزالي تبع المسيحية بفتور، فلم يصل لآخرها، حتى عاد الفارق ضئيلاً، حيث أبقى بعض هذا الستر. ولم يجعل أفعال الإله تجسداً وفداءً، كما يقول المسيحيون بعني أنه تجسد بجسد، فدى به الناس ليخلصهم.

فرحم الله أبا حامد ما كان ضره لو أنه وقف حيث وقف السلف الصالحون الأوائل. ولو أنه تدبر قوله تعالى:

(١) «شرح حديث النزول» (ص٨٠).

(٢) «الغزالي» للبارون كارادوفو (ص١٩٩ ـ ٢٠٠) نقله إلى العربية عادل زعيتر.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في قوله: «فلما تجلى ربه للجبل» قال هكذا يعني أنه أخرج طرف الخنصر.

هكذا رواه الإمام أحمد والترمذي.

ورواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الخلال وقال: هذا إسناد صحيح لا علَّة فيه.

وكذلك أخرجه الحاكم من حديث ابن عمر مرفوعاً والترمذي، وصححاه.

ورواه الطبراني وابن مردويه من طريقين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس مرفوعاً.

ونحوه مروي عن ابن عباس قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر.

كذا قال الحافظ ابن كثير في التفسير[1].

فصل

وأما رؤية الله عز وجل في المنام فأجازها كثير من العلماء، وحكى ابن حجر العسقلاني عن أهل التعبير جواز وقوعها مطلقاً ثم ذكر قول أبي القاسم القشيري أن رؤياه على غير صفته لا تستلزم إلا أن يكون هو، فإنه لو رأى الله عز جل على وصف يتعالى عنه وهو يعتقد أنه منزه عن ذلك، لا يقدح في رؤيته بل يكون لتلك الرؤيا ضرب من التأمل كما ذكر الواسطي: من رأى ربه على صورة شيخ كان إشارة إلى وقار الرائي وغير ذلك[2].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٤٤).

(٢) «فتح الباري» (١٢/٣٨٧) وما بعدها.

وذكر الحافظ ابن كثير في البداية في غير موضع من رأى الله عز وجل في المنام كأحمد بن خرّزاد الأنطاكي[1] والأوزاعي[2] وغيرهما، فكأنه أجازه.

لكن: في النفس شيء من كلام القشيري والواسطي، والله أعلم.

(١) أنظر «البداية» (١٠/٣٤٣).
(٢) أنظر «البداية» (١٠/١١٧).

رؤيا المنام ليست بشرع ولا علم

﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعلمون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ .

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

لقد أخبر سبحانه وتعالى أنه المتصرف في الوجود بما يشاء جلت قدرته، وأنه جعل الوفاة على ضربين:

كبرى وهي عند خروج الروح، وصغرى وهي عند النوم.

وأنه جعل مناط التكليف في غير هاتين الوفاتين، ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ .

ولأجل ذلك رفع القلم عن النائم حتى يستيقظ كما في الحديث[1]، وجعل حكمه كالمجنون حتى يفيق، والصبي حتى يبلغ.

والصبي قد يخبر بأمور صحيحة، وكذا المجنون، ولكن الغالب على كلامهما عدم الضبط والدقة في النقل بل وقد يخرج من حديثهم ما ليس بواقع، وهذا متصور عند المجنون فوق ما عند الصبي. من أجل ذلك اختلط أمرهما علينا وأشكل، ولم يعد في حديثهما حجة، ولم تعد تقبل لهما شهادة.

---

(١) الحديث أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وأبو داوود وابن ماجه والحاكم وابن حبان من حديث عائشة وصححوه.

كذلك حال النائم[1] فإنه يرى من الرؤى ما يصدق ويكذب، وما يكون وما لا يكون، ولكنه لا يستطيع الجزم بذلك إلا بعد فترة قد تطول وقد تقصر، وذلك لاختلاط ما يصدق بسواه مما هو من جنس حديث النفس أو تخويف الشيطان[2].

---

(١) قال النووي في «شرح مسلم» (١ / ١٥٥) بعدما رواه مسلم حدثنا سويد بن سعيد حدثنا عليّ بن مسهر قال سمعت أنا وحمزة الزيّات من أبان بن أبي عياش نحواً من ألف حديث، قال عليّ فلقيت حمزة فأخبرني أنه رأى النبي ﷺ في المنام فعرض عليه ما سمع من أبان فما عرف منها إلا شيئاً يسيراً خمسة أو ستة.

قال النووي في شرحه: [قال القاضي عياض رحمه الله: «هذا ومثله استئناس واستظهار على ما تقرر من ضعف أبان، لا أنه يقطع بأمر المنام، ولا أنه تبطل بسببه سنّة ثبتت، ولا تثبت به سنّة لم تثبت، وهذا إجماع العلماء»].

وذكر نحو هذا في «تهذيب الأسماء اللغات» (١ / ٤٣).

وقال ابن الحاج في «المدخل» (٤٠٣) بعد أن ذكر الرواية السابقة: [«قد علم من القواعد المقررة في الشرع أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ويوسوس له في جميع أحواله في اليقظة والمنام» وقال الإمام الشاطبي في «الاعتصام» (١ / ٢٠٩): سئل ابن رشد عن حاكم شهد عنده اثنان مشهوران بالعدالة في قضية فلما نام الحاكم ذكر أنه رأى النبي ﷺ فقال له: «لا تحكم بهذه الشهادة فإنها باطلة»، فأجاب: لا يحل له أن يترك العمل بتلك الشهادة].

وقال الحافظ العراقي في «الباعث على الإخلاص من حوادث القصاص»: فذكر عن القاضي حسين من كبار الشافعية نحو قصة ابن رشد.

ثم ساق عن العلامة أبي حيان الأندلسي صاحب «البحر المحيط» كلاماً طويلاً قاله عند «سورة الأعراف» «وقد ظهر في هذا الزمان العجيب ناس يتسمون بالمشايخ... يجمعون لهم خداماً يجلبون الناس إليهم لاستخدامهم ونتش أموالهم ويذيعون عنهم كرامات ويروون لهم منامات... ويحضون على ترك العلم... وينصبون أيديهم للتقبيل... فالعجب لمثل هؤلاء!!

وانظر «فتح المغيث شرح ألفية العراقي في مصطلح الحديث» و«مرقاه المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (١٨٤) و«الآداب الشرعية» (٢ / ٤٥٤) و«البداية» (١ / ٩٤).

(٢) حديث: «الأحلام حديث النفس وتخويف الشيطان وبشرى من الله» أخرجه البخاري في كتاب التعبير.

وما يهم به الرجل في يقظته فيراه في منامه[1]. ومن الرؤى تلاعب الشيطان[2] والأضغاث[3].

وقد علمنا ﷺ كيف نصرف هذه الأنواع، بل وغيرها مما قد يصدق، إذا رأينا ما نكره فقال: «الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم الشيء يكرهه، فلينفث عن يساره ثلاث مرات إذا استيقظ وَلْيَتَعَوَّذْ بالله من شرها فإنها لن تضره إن شاء الله، فقال أبو سلمة: إن كنت لأرى الرؤيا هي أثقل علي من الجبل، فلما سمعت هذا الحديث فما كنت أباليها»[4] والحديث مخرج أصله عند البخاري ومسلم، وهو في المسند وسنن الترمذي عن أبي سعيد كذلك، وفي رواية: «ولا يُحَدِّث بها أحداً فإنها لا تضره».

ووقع عند أحمد ومسلم وأبي داوود والترمذي عن أبي هريرة «فليقم وَلْيُصَلِّ ولا يحدِّث بها».

وعند مسلم في رواية جابر رضي الله عنه الأمر بصلاة ركعتين والتَّحَوُّل عن جنبه الذي كان عليه، وأخرجه كذلك أبو داوود وابن ماجه.

وأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح[5]: في صفة التَعَوُّذ المذكور عن النخعي: «أعوذ بما عاذت به ملائكة الله ورسله من شر رؤياي هذه أن يصيبني منها ما أكره في ديني ودنياي».

---

(١) هذا النوع من الرؤى رواه ابن ماجه من حديث عوف بن مالك رفعه؛ وإسناده حسن.

(٢) عن جابر رضي الله عنه قال: جاء أعرابي فقال: يا رسول الله رأيت في المنام كأن راسي قطع فأنا اتبعه فقال: «لا تخبر بتلاعب الشيطان بك في المنام»، رواه مسلم.

(٣) كما ورد في سورة يوسف عليه السلام ﴿أضغاث أحلام﴾ وهي الرؤى إذا استُعْجمت وما أمكن تعبيرها.

(٤) أنظر «تنوير الحوالك على موطأ مالك» للسيوطي (٣/١٣١).

(٥) صرح بذلك الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٢/٣٧١) وأخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق كذلك.

وفي الموطأ عند الامام مالك عن خالد بن الوليد أنه قال: يا رسول الله إني أُرَوَّعُ في المنام، فقال: «قل أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعذابه، وشر عباده، ومن همزات الشيطان وإن يحضرون»[١]. والأمر بالتعوذ أخرجه غير من تقدم الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة والنسائي بنحو حديثهما، ففي هذه الأحاديث إشارة عظيمة إلى أن عالم اليقظة أبلغ من عالم النوم في حق العبد بحيث جعل التعوذ ناسخاً، والنسخ لا يكون إلا بالأبلغ والأقوى، وكل ذلك بقدر الله.

فلو كانت الرؤى من باب الأخبار وما يفيد علماً لما جاز عليها النسخ، فإن الأخبار لا تنسخ، والتعوذ نعم الناسخ.

وأما ما يقع منها مما هو صادق، يعلم ذلك بمرور الزمن، فليس العلم في ذات الرؤيا، وإنما العلم بالوقائع والمشاهدات، كما لو مر شيء بالخاطر ثم حصل، وهذا بيِّنٌ لمن تأمَّل.

لكن المستتب عند أبي حامد والمتصوفة ـ جمهورهم ـ أن الرؤيا تفيد علماً، وأنها بمثابة كُوَّة تفتح للعبد من عالم الشهادة إلى عالم الغيب والملكوت لا يكذب منها شيء، عند الصالحين، بل وقد يدرك من خلالها بعض أمور الشرع وأوامره، ويستدل بها ويعتمد عليها. وجلهم يجعلها من علم المكاشفة الذي يعرفون به المراد الذي هو على غير ظاهر النص، ويخرجون النصوص من مؤداها بحجة الكشف، وكثير منهم يثبت أموراً بها وينفي، كما هو في كتبهم مسطور، وعن كثير من أشياخهم مشهور.

يقول الغزالي تحت عنوان: ما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام[٢]:

---

(١) وأخرجه الترمذي عن ابن عمر لكنه قال: «عقابه» بدل «عذابه» والنسائي عن خالد وإسنادهما جيد وزاد «إذا اضطجعت فقل باسم الله أعوذ فذكره.. وهو عند أبي داوود والحاكم وصححه.

(٢) «الاحياء» (٤/٥٠٤).

«أعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومن مناهج الاعتبار، تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء، ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف أصلاً(١)، فإنا إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له، وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب، وهو غامض يخفى على صاحب التقوى، فكيف على غيره؟..

فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه، وإذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت، فلا يرى بالعين الظاهرة وإنما يرى بعين إخرى.

خلقت تلك العين في قلب كل إنسان، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها، ولا يتصور بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه، ولما كانت تلك الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام، فلا جرم نظروا إلى عالم الملكوت وشاهدوا عجائبه، والموتى في عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا، ولذلك رأى رسول الله ﷺ ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ(٢)، وفي حق زينب ابنته(٣)، وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعده بين

---

(١) يعني فلا ينكشف بالكتاب والسنة ومناهج الإعتبار، كما تقدم.

(٢) أخرج الإمام أحمد من طريقين والحاكم وصحح أن النبي ﷺ قال لما دفن سعد بن معاذ: «لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره، حتى فرجه الله عز وجل عنه» وله طرق أخرى وسياقات، وفي جميع طرقه معاذ بن رفاعة الأنصاري الأزرقي وهو وإن أخرج له البخاري لكن ضعّفه ابن معين، وقال الأسدي: «لا يحتج بحديثه» وأما سند القصة عند النسائي فصحيح وكذا قول عائشة رضي الله عنها: «لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا منها سعد» أخرجه أحمد وغيره.

(٣) عن أنس: «لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين» أخرجه ابن أبي الدنيا في «الموت» من رواية الأعمش عن أنس وبين الأعمش وأنس انقطاع، فالله أعلم.

يديه ليس بينهما ستر[1] ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم، إنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة، إلا أنها مشاهدة نبوية، وأعني بها المشاهدة في المنام وهي من أنوار النبوة، قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة»[2]. وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق، ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه. . . . . . ».

وهذا الذي ذكره نختلف فيه معه من أوجه:

أولها: أن التعرف على حال زيد وعمرو من الناس مما لم نؤمر به، والجزم بحال من الأحوال في ذلك محرم، كما جاء في قصة عثمان بن مظعون رضي الله عنه، فإنه لما توفي قالت أم العلاء وكانت من المبايعات: «أكرمك الله»، فقال رسول الله ﷺ وما يدريك؟ قالت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن؟ قال: أما هو فقد جاءه اليقين، والله اني لأرجو له الخير وإني لرسول الله وما أدري ما يفعل بي، قالت فوالله لا أزكي بعده أحداً، الحديث[3]. .

وعن جابر رضي الله عنه قال: «لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو وهاجر معه رجل من قومه، فاجْتَوَوا المدينة فمرض فجزع فأخذ مَشَاقِصْ فقطع بها بَرَاجِمَه، فشخبت يداه حتى مات فرآه الطفيل بن عمرو في منامه وهيئته حسنة، ورآه مغطياً يديه فقال له: «ما صنع الله بك؟» قال غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ، فقال «مالي أراك مغطّياً يديك»؟ قال: «قيل لي لن أصلح منك ما أفسدت» فقصّها الطفيل على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ «وليديه فاغفر» رواه أحمد ومسلم في صحيحه.

---

(١) رواه الترمذي وحسّنه وابن ماجه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري وغيره، وعند الحاكم إن التي قالت هي إمرأة عثمان، وفي الإسناد علي بن زيد، ضعيف. هذا، وفي تمام القصة رؤيا وتفسيرها.

فإن الرجل قد يصيبه بعض العذاب ثم يخفف عنه، ولذلك لا يجوز إطلاق معنى ما رؤى على الميت، لأن من مات ما انقطع عمله بالكلية، ويجري عليه ثواب ما ترك من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له كما في صحيح مسلم، وفي غير مسلم خصال كثيرة لا ينقطع ثوابها، وقد أحصاها السيوطي وابن حجر فبلغت ثلاث عشرة خصلة[1]. وهذا كله إن صدقت الرؤيا، كما في الحديث المتقدم.

وكذا كل ما يروى عن أهل العلم في تراجمهم أنه رؤي في المنام على كذا، فإنه ليس من باب معرفة حاله على القطع، ولكنهم إنما يذكرون ذلك على سبيل الاستئناس، وحسن الظن بالله رجاء أن يغفر لعبده ويعامله بمزيد لطفه وكرمه، فنسأله تعالى أن يعاملنا بهما.

قال الإمام المروزي: أدخلت إبراهيم الحميدي على أبي عبد الله، وكان رجلاً صالحاً، فقال: أن أمي رأت لك كذا وكذا، وذكرت الجنة، فقال: يا أخي، إن سهل بن سلامة كان الناس يخبرونه بمثل هذا وخرج سهل إلى سفك الدماء!!! وقال: «الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره»[2].

ثانيها: جعل الأولياء في ذلك كالأنبياء في الاطلاع ومشاهدة أحوال الموتى، ومعْلوم أن معرفة ذلك والقطع به هو من خصائصه ﷺ، حيث كان الوحي يأتيه بذلك، وصريح في قصة سعد وزينب وعبد الله رضي الله عنهم، وقد حصل ذلك يقظة لا مناماً، جاء ذلك عند كل من روى القصة، وبالتحديد أنه قال ذلك عند دفنه، ولفظ الإمام أحمد: (عن جابر: جلس النبي ﷺ على

---

(١) نظم ذلك السيوطي في أبيات مطلعها:

إذا مات ابن آدم ليس يجري ... له عمل بغير ثلاث عشر

علوم بثها ودعاء نجل ... وحفر بئر أو إجراء نهر

وفي آخرها:

كذا من سنَّ صالحة ليُقْفى ... فخذها من أحاديث بشعر.

(٢) «الآداب الشرعية» (٣/٤٦١).

قبر سعد وهو يدفن فقال سبحان الله، ثم قال: الله أكبر وذكر القصة...) وثمة ألفاظ أخرى له في المسند متقاربة(١).

وحديث عائشة في سعد رضي الله عنهما، صريح في أن ضمة القبر تنال كل ميت ولا ينجو منها أحد وهذا ليس من باب الاطلاع على حالة واحدة، بل أنه لا يقال إلا من باب الوحي، ومن يدعي من الناس معرفة أحوال كل الموتى وعدم نجاة أحد منهم من ضمة القبر، دون الرجوع إلى الوحي، كاذب مُفْتَر، فثبوت ذلك لا يكون إلا بالشرع، وأما حديث زينب إن صح، فإن لفظ النبي ﷺ فيه: «ذكرت ضغطة ابنتي، وشدة عذاب القبر، فأتيت فأُخبرت أن الله قد خفف عنها وقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين» فقوله ﷺ «فأتيت فأُخبرت» نص بأن ذلك حصل بالوحي.

وأما قصة عبد الله والد جابر رضي الله عنهما فلفظها في الصحيحين عن جابر أنه لما قتل أبوه جعل يكشف عنه الثوب ويبكي، فنهاه الناس، فقال رسول الله ﷺ: «تبكيه أو لا تبكيه لم تزل الملائكة تظله حتى رفعتموه» ليس فيهما أنه كلمه ليس دونه ستر.

نعم جاء في رواية البيهقي قوله ﷺ: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وأنه كلم أباك كفاحاً وقال له: يا عبدي سلني أعطك، فقال أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال: إنه قد سبق مني القول أنهم إلينا لا يرجعون، قال يا رب فابلغ من ورائي، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾(٢).

وفي رواية أخرى عنده «أُشْعِرْتُ أن الله أحيا أباك فقال....»(٢).

وفي رواية ابن إسحاق «أن أباك حيث أصيب بأحد أحياه الله ثم قال له...»(٢).

---

(١) «المسند» (٣/٣٦٠)، (٣/٣٧٧)، (٣/٣٢٧)...

(٢) «البداية والنهاية» (٤/٤٤).

فالقصة حصلت نهاراً على مشهد من الناس كما في الصحيحين،ونزل فيها قرآن على رواية البيهقي، والشاهد من كل ما تقدم أن الأحوال عرفت بطريق الوحي يقظة لا مناماً، ولذلك قلنا إن جعل الأنبياء والأولياء في ذلك سواء قول قبيح، بل النبي ﷺ لما سئل عن رجلين أُخْبِرَ أنهما يعذبان، وحتى متى يعذبان؟ قال: «غيب لا يعلمه إلا الله»(١).

وإننا لو سلمنا أن أخباره ﷺ عن ذلك كان عن طريق الرؤيا والمنام، لما صح الاستدلال بذلك، لأن رؤياه ﷺ وحي بخلاف غيره، حتى ولو كان من الصِّدِّيقين، وإخراج الواحد من بين ست وأربعين يحتاج إلى تأمل.

وهذا السر لا بد أن تعقله، إذ أن الوحي قد انقطع بموته ﷺ، فجعلك كل هذه الرؤى بمنزلة الصدق، والجزم بها، استمرار لنزول الوحي.

من أجل ذلك لبسها الله عز وجل ـ أعني الرؤى الصادقة ـ بغيرها من وساوس الشيطان وحديث النفس وغير ذلك، حتى لا يلتبس أمر النبوة على الخلق، فيخرج من بين الناس من يحدث بالمغيبات وما لا يعرف، وهذا كله في ذات المنام، وأما ما يتعلق به من التعبير، فأمر آخر لم نتطرق له، فإن الرجل قد يرى الرؤيا وقد تكون من جنس ما هو بشرى من الله، وما يصدق، ولكن لا يحسن تعبيرها، فتقع على غير ما فُسِّرت به، وعُبِّرت، وإذا كان الخطأ في التعبير قد ورد في حق الصديق رضي الله عنه كما صح في الخبر المخرج عند البخاري ومسلم، حيث قال له النبي ﷺ: «أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً» فإن التعبير في حق غيره أوقع وأورد ولا شك، هذا مع قول الإمام ابن سيرين: «أعبر هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر»(٢).

وأمر آخر أنبئك به، فقد أخرج الحفاظ أبو داوود وابن ماجه بسند حسن(٣) والحاكم وصححه قول النبي ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر فإذا عبرت

(١) «المسند» (٥/٢٦٦).

(٢) أخرج ذلك ابن سعد، أنظر «منتخب كنز العمال»، للمتقي الهندي (٦/٢٢٦) بحاشية «المسند».

(٣) قال ذلك ابن حجر في «الفتح» (ج١٢/ ص٤٤٩).

وقعتْ»، وفي لفظ الترمذي: «الرؤيا معلقة برجل طائر حتى يحدث بها صاحبها فإذا حَدَّث وقعت، فلا يحدث إلا عاقلاً أو محباً أو ناصحاً» قال الترمذي: حديث حسن صحيح. ففي ذلك ظهرت منزلة الرؤيا من التعبير، وأنها ناقصة من دونه، وعليه فصدق الرؤيا متعلق بالرائي والمُعَبِّر، على حد سواء، وقد ترجم البخاري رحمه الله: «باب من لم ير الرؤيا لأول عابر إذا لم يُصِبْ»[1].

وأما حديث «الرؤيا لأول عابر» فضعيف[2] ولذلك لما سئل الإمام مالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ قال: «أبالنبوَّةِ يُلعب!!»[3].

(فائدة):

أعلم أن التعبير لا قاعدة له من حيث الأصل، كما ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله، في كتابه الفَذِّ الموسوم (أعلام الموقعين عن رب العالمين)، فإنه أفرد فيه فصلاً في الموضوع. وقد تكون العمدة في التفسير الرجوع إلى آيات القرآن الكريم، وما يقع منها في نفس المعبر ويسبق إليها خاطره، ينبئك بذلك توخي الصالحين من أهل التعبير، فلو أن المسألة كانت منصوصة معلومة لما كان في توخيهم حكمة[3]، إلا أن خاطر الصالح أسبق للخير، والله أعلم.

فإطلاق القول أن من رأى كذا يعبر بكذا، غير صحيح والله أعلم، على نحو ما يفعل صاحب «الناماج»[4] وما ورد في كتاب التعبير المنسوب إلى ابن سيرين رحمه الله، والأشبه أنه لا يصح عنه ولا كتبه ولكن قد يكون جمعه

(١) «فتح الباري» (١٢/٤٢٨) وما بعدها، وانظر تضعيف ابن حجر حديث «الرؤيا لأوَّل عَابِر».

(٢) «فتح الباري» (١٢/٣٦٣) وانظر تفسير القرطبي عند قوله تعالى ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً﴾.

(٣) وهي حكمة لها شاهدها في القرآن، حيث قصَّ يوسف رؤياه على أبيه عليهما السلام، وقال فتيا السجن ليوسف ﴿إنا لنراك من المحسنين﴾، وتقدم في السُّنة «فلا يُحَدِّث بها إلا ناصحاً...». أخرجه الترمذي وغيره.

(٤) «الناماج في تعبير الرؤيا» للكرماني الإمام، وهو مخطوط، وقفت عليه وقرأت بعضه.

بعض تلامذته مما سمعوه منه في حياته فنسبوه إليه، رأيت غير واحد نبه على ذلك.

هذا مع أن صاحب الناماج يذكر الأحاديث التي اعتمدها في التأويل والتعبير، كتعبير العين الجارية بالعمل كما في حديث أم العلاء الأنصارية لما ذكرت رؤياها للنبي ﷺ في عثمان بن مظعون لما توفي، والقصة في البخاري وغيره، وقد تقدمت، وكتعبير اللبن بالعلم، أو القميص بالدين كما في حديث عمر رضي الله عنه عند البخاري، وطوله ببقاء آثار صاحبه من بعده، كما في حديث أحمد والترمذي وابن ماجه في قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهذا التعبير الأخير في ظاهره مخالف للشرع، إذ أن طول القميص في الشرع مذموم، ولذلك قال أهل العلم: «ما يذم في اليقظة قد يمدح في المنام، وما يمدح في اليقظة قد يذم في المنام» قلت وإذا كان القميص يعبر بالدين، فما هو القول فيمن يرى عرياناً، أيقال ليس عنده دين؟.

أسمع لإمام المعبرين لما قيل له: رأيت رجلاً عرياناً واقفاً على مِزْبَلَةٍ وبيده طُنْبور يضرب به، قال ابن سيرين: لا تصلح هذه الرؤيا في زماننا هذا إلا للحسن البصري، فقال الرجل هو الحسن والله الذي رأيت، فقال: نعم إن المزبلة الدنيا، وقد جعلها تحت رجليه، وعريه تجرده عنها والطنبور يضرب به، هي المواعظ يقرع بها آذان الناس!!![1].

والشاهد هنا أن التعبير ليس بالأمر الهين فيحفظ، وإنما هو محض توفيق من الله، ومن أجل هذا فإنك تجد أصحاب الأمهات لم يخرجوا أحاديث من رأى كذا فتعبيره كذا، مع أنهم أخرجوا بعض الضعيف، وإنما يروي هذه الأحاديث من غلب على إخراجه الضعف والغرابه، كحديث: «شرب اللبن محض الإيمان، من شربه في منامه فهو على الإسلام والفطرة، ومن تناول اللبن بيده فهو يعمل بشرائع الإسلام» أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة[2]، فهو ضعيف.

---

(١) نقلت في «البداية والنهاية» (٩/٣٠٩) عن «التكميل» وكلاهما للحافظ ابن كثير.
(٢) انظر «منتخب كنز العمال» (٦/٢٢٣) وما بعدها بحاشية مسند الإمام أحمد بن حنبل.

وكحديث: «الخضرة في النوم الجنة، والتمر الرزق، واللبن الفطرة، والسفينة نجاة، والجمل حرب، والمرأة خير، والقيد ثبات في الدين...» أخرجه الحسن بن سفيان[١].

ونحوه جاء في معجم أبي يعلى[١].

وقد أعجبني ما جاء في «الإبريز»، لأحمد بن المبارك أنه سأل شيخه عبد العزيز الدباغ — وهو وشيخه من غلاة المتصوفة، لكني وجدت قولهما من الحق فأحببت نقله ـ عن الرؤيا، فقال: (لي سنين عديدة وأنا أسأل الشيخ رحمه الله عن تعبير ما نرى في المنام فيقول: سلني عن كل شيء واذكر لك ما عندي فيه إلا عن هذا فلا تسألني عنه، فإنه من الأشياء المستورة، وكم طلبته في هذا الباب وأعدت عليه السؤال مرة بعد مرة، فيعيد علي الجواب بحاله إلى أن منَّ الله تعالى بأجوبة سمعتها منه فَقَيَّدْتُها، وهي التي سبقت في رؤيا أبي بكر رضي الله عنه فرد عليه النبي ﷺ، وما تكلم معي في هذه المسألة إلا على كره، قال: إن تمام تحقيق ما تسأل عنه موقوف على معرفة علم التعبير لأنه موقوف على معرفة أحوال الرائي الخارجة عن ذاته ككونه من أهل الحاضرة أو من أهل البادية، وككونه من أهل العلم أو من العوام، وما حرفته ككونه بقالاً أو تاجراً أو صانعاً، وهل هو من الأغنياء أو من الفقراء، إلى غير ذلك من الأحوال التي لا تكاد تنحصر.... حتى لو فرضنا مائة رجل جاءوا إلى المعبر العالم وقال كل واحد منهم إني رأيت في المنام أني شربت عسلاً، فإنه يعبر لكل واحد تعبيراً لا يلاقي تعبير الآخر، لأن التعبير موقوف على ما سبق من الأحوال... فهذه غاية الفائدة والسلام)[٢].

قلت: ويؤيد هذا ما أخرجه الدارامي، «جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، فقالت رأيت كأنَّ سارية بيتي سقطت، وولدت ولداً أحور، وكان زوجها غائباً في تجارة وقت الرؤيا، فقال لها النبي ﷺ، يرجع زوجك سالماً إن شاء الله، وتلدين ولداً صالحاً، ثم رجعت المرأة مرة ثانية فلم تجده عليه الصلاة

(١) «المنتخب» (٦/٢٢٣) بحاشية «المسند».

(٢) «الإبريز» لأحمد بن المبارك، عن شيخه عبد العزيز الدَّبَّاغ. (ص٨٨).

والسلام، فقصت رؤياها على عائشة رضي الله عنها فقالت لها عائشة: إن صدقت رؤياك ليموتنَّ زوجك الغائب، وتلدين ولداً فاجراً. فلما دخل عليه الصلاة والسلام وأعلمته عائشة بالرؤيا والتعبير كره ذلك، وقال يا عائشة، إذا عبرتي للمسلم فعبريها على خير، فإن الرؤيا تكون على ما تعبر عليه».

وللحديث شواهد، فشطره الأول أخرجه الديلمي، وآخره من قوله يا عائشة أخرجه أبو نعيم من حديثها رضي الله عنها، وحسَّن ابن حجر إسناده[١].

والحاصل أن هذا باب يطول شرحه، وليس هنا مقامه، لكنني نبهت عليه لما رأيت من كلام الغزالي عن التعبير، فمما قاله: «ووراء العقل طور آخر تتفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأموراً أخر[٢]، العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز، كما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها»[٣].

ثم يقول: «وقد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم نموذجاً من خاصية النبوة وهو النوم، إذ النائم يدرك ما سيكون في الغيب، إما صريحاً وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير»[٣]. ومما قاله «وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثل المحوج إلى التعبير، فذلك من أسرار عجائب القلب، ولا يليق ذلك بعلم المكاشفة»[٤].

فقول الغزالي المتقدم «ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة...». يفهم منه أن الرؤيا الصادقة لا تقع إلا لأهل التقى والصلاح، ومن كسرت شهواتهم، ولذلك قال: «لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق». والحق أن الرؤيا

---

(١) «منتخب كنز العمال» (٦/٢٢٤) بحاشية المسند.

(٢) من جنس ما يذكره من التأويلات الباطنية، وغرائب أقواله المخالفة للشرع.

(٣) «المنقذ من الضلال» (١٧٩).

(٤) أنظر عجائب القلب في «الأحياء».

الصادقة تقع للمؤمن والمشرك، والطائع والعاصي، وإن كانت هي في حق أهل الصلاح أوقع وأغلب وأصدق وأقوى، وربما تجيء مثل فلق الصبح، ولكن لا يمكن الجزم بحدوثها بمجرد رؤيتها، وهو الفرق الذي ما زلت أحكيه منذ أن بدأت هذا الفصل، ومما يدل على جواز وقوعها للمشرك والعاصي وغيرهما، رؤيا العزيز ملك مصر، ورؤيا صاحبي السجن كما في القرآن، ورؤيا عاتكة عمة النبي ﷺ فيه يوم ولادته، وقد روى ذلك أهل السير من غير طريق.

ومن ذلك رؤيا كسرى يوم بعث النبي ﷺ، وهي مشهورة، ورواها الحافظ أبو بكر الخرائطي بإسناده إلى ابن هانىء المخزومي في كتاب «هواتف الجان»[1]. فعوّل صدقها على هتافات الجان، لا على أنها بشرى من الله، ونحو هذا يذكر عن ابن العربي المالكي القاضي وغيره، الذين قالوا ما يصدق من رؤى أهل الضلال فإنه يحمل على أنه من جنس ما يلقي الشيطان في قلب الكاهن أحياناً.

قلت: وهذا من ابن العربي وغيره تخصيص من غير مخصص ظاهر، لصريح النصوص الصريحة، «الرؤيا جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة». هذا مع أن الجزم بنسبته لأيّ القولين من حيث جواز حصوله وحدوثه سواء. ومثل هذا القول أنها قد تقع لأهل المجون والفساد والضلال، ولكنها تكون بشرى له بهدايته أو إنذاراً، وقد تكون لغيره من أهل الفضل كما في قصة يوسف عليه السلام وعاتكة وكسرى، نقل ذلك ابن حجر ونسبه لأهل التعبير[2].

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير، (٢/٢٦٨).

(٢) أنظر رؤيا أهل السجن في «فتح الباري»، كتاب التعبير.



الغزالي ومعرفة أسرار الغيب

الحمد لله الذي علم بالقلم، وأسبغ النعم، وجعل العلم للعقل مسارح، وخلق الكسب للقلب والجوارح، لينظر للخلق كيف يعملون، وهل يشكرون أم يكفرون، وقد سبق عنده في الكتاب كل ذلك، واختيار العبد لأي المسالك، والكل ميسر لما خلق له، وكل الناس يغدون، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها. فمن وفقه الله عمل بشرعه، والتزم حدوده، ومن سخط عليه أورده موارد الردى وسوء المنقلب، نسأله النجاة وتحقيق الاتباع، فليس أضر على دين العبد من أن يُشَرِّع ما لم يُشْرَع، أو يَسُنَّ ما لم يُسَنّ، أو يعتقد ما ليس بمعتقد، وما لا ينتهض بدليل، وهو المحاسب على كل الحركات، والسكنات والكلمات، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾. والذي يسطر الصفحات من غير أن يوسع التحري، ويستنفد من وتر الطلب كل منزع، لهو على شفا هلكة، وجرف هار، وطرق ضلال، إذ ليس كل قول حق، وليس كل ما يسمع يروى، كما صح في الخبر «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»(١).

والكتاب والسنة إنما هما الميزان، فما وافقهما هو الصواب المعتمد، وما خالفهما فهو الباطل المردود ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. فليتق الله الذين يكتبون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فانتحلوا من المذاهب أرداها ومن الأقوال أدناها، ومن الأحاديث أوهاها، ثم جعلوها حجة بين الله وخلقه وقالوا: هذا الصواب، ثم غلقوا الأبواب، وأسدلوا الحجاب.

اللهم لا ملجأ منك إلا إليك، ولا يعتصم إلا بك، ولا يتوكل إلا عليك، ولا يحب ويبغض إلا فيك، ولا يعبد إلا إياك، وبك المستعان في كل ذلك، فالفضل منك وإليك، ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

---

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه.

فالاستعانة على عبادته وطاعته منه، وهي لا تكون إلا بشرعه، الصراط المستقيم الذي أمرنا بسلوكه، وقد سبقنا في ذلك نبينا ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، وكل المنعم عليهم من أهل التوحيد، من والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اجعلنا منهم.

واعلم يا أخي رحمك الله وأرشدك الصواب، وفصل الخطاب، إن مما جاء في هذا الشرع قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

فقوله عز وجل ﴿إلا الله﴾ استثناء منقطع، أي أنه هو المتفرد سبحانه وتعالى بعلم الغيب دون سائر الخلق حتى ولو كان نبيه ﷺ.

ولذلك قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، لمسروق: «من زعم أن النبي ﷺ يعلم ما في غد فقد كذب» وفي رواية: «فقد أعظم على الله الفرية» ثم قرأت: ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾[1].

وقولها رضي الله عنها، لا يعارض ما جاء من اطلاع الله عز وجل نبيه ﷺ على بعض المغيبات، فهذا الاطلاع جزئي، لا كلي، ووقع في أمور مخصوصة، وهذا النوع خاص بالأنبياء عليهم السلام، ولا يجوز إطلاقه أو نسبته لغيرهم بحال، وكما جاء في سورة الجن: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝﴾.

قال ابن عباس: «هي معقبات من الملائكة يحفظون النبي ﷺ»[2]. ولأجل ذلك علمه الله سبحانه وتعالى أن يقول: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) طرف حديث متفق عليه.

(٢) رواه العوفي في تفسيره، ونقله ابن كثير في التفسير (٤/٤٣٣).

وهذا هو الحق الأبلج لا كما يقول أبو حامد: «والنبي له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام، إذ بها يطالع اللوح المحفوظ، فيرى ما فيه من الغيب، فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء»[1].

ومراد أبي حامد من هذا يفهمه كل لبيب، ويفهم أنه معارض لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وأخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غد، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، وما يدري أحد متى يجيء المطر».

«فصل في أن كل شيء كتب في اللوح المحفوظ عن رؤية الخلق»:

أخرج الترمذي وصححه، وأبو داوود في كتاب السنة، والإمام أحمد في المسند، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له أكتب قال يا رب وما أكتب؟ قال: أكتب القدر، وما هو كائن إلى الأبد». وفي رواية: «فجرى بما هو كائن إلى قيام الساعة».

وأخرج ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس يرفعه: «إن الله خلق النون وهي الدواة، وخلق القلم فقال: أكتب، قال: وما أكتب؟ قال أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، من عمل معمول، برٍ أو فجور، أو رزق مقسوم حلال أو حرام، ثم ألزم كل شيء من ذلك شأنه، ودخوله في الدنيا ومقامه فيها، وخروجه منها كيف، ثم جعل على العباد حفظة، وللكتاب

---

(١) «الاحياء» (٤/١٩٤) ونحو ذلك جاء في «الأربعين».

خزاناً، فالحفظة ينسخون كل يوم من الخزائن عمل ذلك اليوم فإذا فني الرزق وانقطع الأثر، وانقضى الأجل أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم، فتقول لهم الخزنة: ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً، فترجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا، قال: فقال ابن عباس: ألستم قوما عربا تسمعون الحفظة يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل»[١].

وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس: «واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»[٢]. وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ وقوله: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ومعنى قوله تباركت أسماؤه ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾. وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

والنبي ﷺ لما عرج به إلى السماء، وأدناه ربُّه عز وجل حتى سمع صريف الأقلام ليس في شيء من الروايات إنه رآها ـ أعني الأقلام ـ أو نظر إلى اللوح، وهو ﷺ لم يخبر بشيء من ذلك، بل إن الله عز وجل زكى بصره بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: ما ذهب يميناً ولا شمالاً ـ يعني البصر ـ ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ قال وما جاوز ما أمر به[٣] وذلك من رفيع أدبه ﷺ. هذا، وجاء في الأثر أن اللوح بين عيني إسرافيل، لا يؤذن له

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٠١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وصحّحه، وانظر طرقه وألفاظه وتعليقات مفيدة عليه في «نور الإقتباس في وصية النبي ﷺ لابن عباس» للحافظ ابن رجب الحنبلي.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٥٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي، في سورة النجم، وانظر منزلة الأدب في «مدارج السالكين»، لابن القيم رحمه الله.

بـالنظر فيـه(١). فكيف يـدعى بعـد ذلـك أن النبـي ينـظر في اللوح ويعـرف الغيب!!!. وأحفظ ما جاء عن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ قالت: «دخل عليَّ النبيُّ ﷺ غـداة بُنِيَ عليَّ فجلس على فـراشي مَجْلِسَـك مني ـ تقـول ذلـك للراوي ـ وجُويريّات يضربن بالدف يَنْدُبْن من قتل من آبائهن يوم بدر حتى قالت جارية: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال النبي ﷺ : لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين». خرجه البخاري في الصحيح.

وقد تقدم لك قوله ﷺ لما سئل عن رجلين: حتى متى يعذبان؟ فقال: «غيب لا يعلمه إلا الله»(٢). فإذا علمت هذا، فاقرأ عبارات أبي حامد وفلسفته في معرض حديثه عن القضاء والقدر، حيث يقول: «وامتلأت مشكاة بعضهم نـوراً ــ يعني بعض العبـاد ــ مقتبســاً من نـور الله تعــالى في السـمـاوات والأرض، وكان زيتهم أولاً صافياً، يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فمسته نار فاشتعل نوراً على نور فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركـوا الأمـور كلهـا كمـا هي»!!! افتـرى هـذه العبـارة تـركت شـاردة أو واردة إلا أحضرتها، نعوذ بالله من الزلل، ثم يتابع:

«فقيل لهم تأدبوا بآداب الله تعالى واسكنوا، وإذا ذكر القدر فـامسكوا، فـإن للحيطان آذانـاً وحواليكم ضعفـاء الأبصار، فسيـروا بسير أضعفكم، ولا تكشفـوا حجـاب الشمس لأبصـار الخفـافيش فيكـون ذلـك سبب هـلاكهم، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى، وانزلوا إلى سماء الدنيـا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء وتقتبس من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايـا نور الشمس والكـواكب في جنح الليـل، فيحيا بـه حياة يحتملها شخصه وحاله، وإن كان لا يحيا به حياة المـترددين، في كمال نـور الشمس، وكونوا كمن قيل فيهم:

شـربنـا شـرابـاً طيبـاً عنـد طيب ... كـــذاك شـراب الـطيبين يــطيب
شربنا وأهرقنا على الأرض فضله ... وللأرض من كأس الكرام نصيب

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٩٧).
(٢) «المسند» (٥/٢٦٦).

فهكذا كان أول الأمر وآخره»[١].

وفي الأربعين: «فأول الأمر ذهاب إلى الله ثم ذهاب في الله، وذلك هو الفناء، والاستغراق به، ولكن هذا الاستغراق يكون كبرق خاطف قلما يثبت ويدوم، فإن دام ذلك صارت عادة راسخة وهيئة ثابتة، وعرج بـه إلى العالم الأعلى، وطالع الوجود الحقيقي الأصفى، وانطبع له نَقْشُ الملكوت وتجلى له قدس اللاهوت»[٢]. فتأمل ما أعـظم بطلان زعمـه «فأدركـوا الأمور كلهـا كما هي».

لقد فات أبا حامد وغيره أن الناس كلهم خفافيش في بواهر تلك الأنوار الربانية، التي حجب عنها من هو خير منهم، أهل القرن الأول ومن بعدهم، فلم يدّعوا من ذلك شيئاً، وكيف يدّعونه ونبيهم ﷺ ،لمـا نسبت إليه الجارية بعض ذلك أنكره.

أو لم يدر أبو حامد وغيره أن الاغترار كل الاغترار، ادّعاء معرفة الحقائق لِطَيْفٍ لاح في الأفق فانشغل به القلب، ثم حسبه رَوْزَنَةً فتحت لعالم الغيب، وأنه بلغ من العلم كل مبلغ، ثم نسب نفسه لأعلى الرّتب، وقال: هذا نـوع آخر من العلم لا رخصة في ذكره، وإنما ينال بالذوق، وهو نور يحاكي النور الذي يشرق في عـالم النبوة، لا يجتمـع من أصحاب هـذا العلم في العصر إثنان[٣]، فإن لم تدركه فليكن أقـل حظك الإيمـان به، ويسمّـون هذا العلم بعلم المكاشفة، وسـائر علوم الشـريعة بعلم المعـاملة. وإذا ذهبت تستقصي حقائق الأمور سدّوا عليك كل باب وقالوا: أنت مقطوع عنه بنفسك، محروم منه بشواغلك وعلائقك[٤]، فاسلم نفسك للشيخ منكراً لـذاتك ومعـرفتك من الشـرع، لا تفتح عليـه ولا تتحدث بين يـديه[٥] فـرتبة الـولاية لن تصلهـا إلا بغيرك!!.

---

(١) «الاحياء» (٩٦ ـ ٤/٩٧).

(٢) «الأربعين» (ص٤٤).

(٣) سيأتي ذلك على لسان أبي حامد قريباً.

(٤) حكى ذلك الغزالي على لسان أبي يزيد في قصة طويلة «الاحياء»(٤/٣٥٨).

(٥) راجع ما كتبه الغزالي في عدم جواز إنكار المريد على شيخه إذا فعـل منكراً «الاحياء» (٤/١٧٨).

وحكوا في ذلك أسانيد تروى، حتى في إلباس الخِرْقَة الخضراء(١). فيا عجباً لقوم زكّوا إسناداً لشيخ في لَفّ خِرْقَة، وعابوا الأسانيد لأفضل الخلق(٢)!!!.

ولنرجع الآن إلى أبي حامد وشطحه في وصف من كشف الأسرار وهتك الأستار، بحيث يقول: «أما الروح التي هي الأصل، والتي هي إذا فسدت فسد سائر البدن، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه — يعني فيما تقدم من وصفه للروح — ولا رخصة في وصفه(٣) إلا بأن يقال هو أمر رباني كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾. والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها، بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق، وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة، قصور البصر عن إدراك الأصوات، وتتزلزل في ذكر مبادىء وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعَرَض، المحبوسة في مضيقها، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل، يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطواراً، فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد، فكذلك يدرك البالغ المعقولات، ولا يدرك ما وراءها لأن ذلك طور لم يبلغه بعد. وإنه لمقام شريف ومشرف عذب. ورتبة عالية، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد، ولجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال، وميدان رحب، وعلى أول الميدان عتبة هي

---

(١) قد رأيت في ذلك مخطوطاً تجاوز طوله المتر قد وُصِلَتْ أوراقه بعضها ببعض ويحكى فيه صاحبه سنده في الخرقة!!! هذا مع كون إلباس الخرقة لا يصح فيه شيء وإن زعمت المتصوفة.

(٢) سيأتي ذمُّهم للحديث وللإسناد في فصل ترك الإشتغال بالعلم.

(٣) أبل كل علوم المكاشفة المزعومة عنده لا رخصة في وصفها وذكرها كما يقول في «الاحياء» (٣/٤٠٧)، وما دام لا رخصة في ذكره فهو معلوم إذاً وهذا ما صرح به في «الاحياء» (٤/٩٠) حيث قال: «فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف سرّ الروح وإن اطّلع عليه» ويقول عن الروح أيضاً: «عرفها من عرفها وجهلها من جهلها» «الاحياء» (٤/٢٩١)

مستقر ذلك الأمر الرباني فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز، ولا لحافظ العتبة مشاهدة، استحال أن يصل الميدان فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهدات العالية»(١)!!! فأنت بعد كل هذه المفازات ما ارتقيت للمشاهدات العالية؟؟؟!!!.

«اللهم لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنب إلا أنت»(٢). اللهم واجرني من زلة القدم والقلم.

وتأمل قوله «أكثر الخلق» فهو صريح في أن بعض الخلق مستثنى من ذلك، وقد قاله: وتأمل قوله «عالم النبوة والولاية»، وهو كثيراً ما يقرن هذين اللفظين ببعضهما(٣)، وكل الخلق يعلم افتراقهما، وأمعن الفكر في قوله «يلحظ جناب الحق» وقوله «ولجناب الحق صدر والصدر: له مجال وميدان رحب، وعتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني» وانظر لأي مدى قد وصل!! وأما قوله «فلا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد» فلا أرى له مثلاً إلا قول الباطنيين في انتقال الأمامة عند طائفة، والحكم بأمر الله عند أخرى، والعياذ بالله، وإلا فليس بين علماء أهل السنة من سطر هذه المزاعم، ولو من غير دليل، حاشاهم ذلك، إذ ليس في النصوص الشرعية، والأحكام المرعية، ما يحتمل ذلك، أو يومىء إليه ولو بأبعد إشارة بل إنه قد تبين لك تعارض هذه المزاعم مع جحافل الأدلة.

والعاقل يتساءل: إذا كان بعض العارفين في نظر أبي حامد وعقيدته قد يقف على حقيقة الأمور، فكيف القول في الرسول ﷺ، أهو معهم في ذلك أم فوقهم؟؟ فإن قالوا: هو ﷺ معهم في ذلك، قلنا: لقد سويتم بين النبي

---

(١) «الاحياء» (٤/١١٥).
(٢) سيد الاستغفار، رواه البخاري.
(٣) تقدم لك بعض ذلك ما في ضغطة القبر، «الاحياء» (٤/٥٠٤)، وسيأتيك المزيد.

والولي!!، وقلتم بمذهب القائلين باكتساب النبوة الملحدين. وإن قالوا: هو ﷺ فوقهم في ذلك، قلنا: فأي شيء فوق المشاهدات العالية؟!! ولحظ جناب الحق وادراك الأمور كلها كما هي. بل وسماع كلام الله[1] ورؤية الله سبحانه من وراء ستر رقيق؟!!! وأي شيء ابقيتموه لأخرتكم جهلتموه؟؟!!.

ثم إنك إن سألتهم: لِمَ لَمْ يخبر النبي ﷺ بهذه الإطلاعات والمكاشفات قالوا: إنما أمر بكتم ذلك وستره، لأن العقول عند عامة الخلق لا تطيقه، «ولما كانت العقول التي يحصل بها التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله ﷺ أن يتحدث عنه بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم، ولم يذكر الله في كتابه عن حقيقة هذا الأمر شيئاً، ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته»[2].

وجوابنا على ذلك: لئن صدق ما قُلتم ـ ولا يصدق ـ لم ذكرتم أنتم أصل ذلك وعنوانه، أليس في ذلك تحيير للعقول، وضرب للمعتقدات، أوليس قولكم هذا يزعزع الإيمان من أصوله عند أكثر الخلق من غير العارفين، بل ويبطل عندهم الثقة بالذي أخبروا به، فإنكم بذلك تكونون قطّاع طريق، مخالفين للنبي ﷺ والسلف، لا متبعين وإننا إذا حملنا المسائل التي امتنع فيها الرسول ﷺ عن الإجابة على هذا المحمل من الكتمان ومخاطبة الناس على قدر عقولهم، بطلت جل تفسيرات الشريعة ومفاهيمها، وتعليلاتها التي هي من مصادر التشريع، بل، لم يعد لأكثر كلماته ﷺ من معنى وهذا يلزمنا اتهامه ﷺ بالتلفيق، وهو الصادق المصدوق فيما يخبر به، بل ولكان قوله ﷺ لجبريل عليه السلام، لما سأله عن الساعة، «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» نوعاً من الكذب حاشاه ذلك ﷺ. لأنه لا يمكن أن يقال هنا أنه كان هو وجبريل عليهما السلام يعلمان ذلك، فالله يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

(١) سيأتي تصريح الغزالي بذلك عند الحديث عن الإلهام.
(٢) «الاحياء» (٤/١١٥).

وإنما في اللغة تفيد الحصر، والمعنى أنه سبحانه وتعالى هو المتفرد بمعرفة ذلك.

وقد جاء في صحيح الإمام مسلم رحمه الله، «أن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر» فدل ظاهر الحديث أنه لا يعلم موعد قيامها، مع أنه المأمور بإقامتها.

وبالجملة فإن القائلين أن الله تعالى لم يأذن لرسوله ﷺ بالتحدث عن كنه الأمور وحقيقتها يسلكون مسلك أهل الباطن وبعض النفاة، غير عابئين بالأصول، واتباع الأثر.

وحول هذا يدندن شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية فيقول: «فهؤلاء ـ الباطنيون ـ يجعلون الرسول ﷺ إذا عظموه وقالوا كان كاملاً في العلم من جنس رؤوسهم الملاحدة، وإنه كان يظهر للعامة خلاف ما يبطنه للخاصة» ثم قال: «فإن المقصود هنا أن هؤلاء النفاة للعلوم والصفات والخبرية كصاحب «اللمعة» وأمثاله يقولون من جنس قول هؤلاء: «إن الذي أظهره ليس هو الحق الثابت في نفس الأمر، لأن ذلك ما كان يمكنه إظهاره للعامة». فإذا كانوا يقولون هذا في الرسول ﷺ نفسه، فكيف قولهم في اتباعه من سلف الأمة من الصحابة والتابعين».

وتابع: «وهذا المسلك يراه عامة النُفاة كابن رشد الحفيد وغيره، في كلام أبي حامد الغزالي من هذا قطعة كبيرة»[1].

قلت: وهذا واضح بيِّن، فالباطنيون لما جعلوا رؤوسهم وأئمتهم — الذين بذلوا الباطل وطمسوا الحق بدعوى الاختصاص بعد التجلي — كاملي المعرفة، ألزموا بنسبة ذلك للنبي ﷺ، إذ لا يمكن أن يحمل كلامه على غير مراده، فقالوا: «عَلِمَهُ وَكَتَمَهُ».

والنفاة لما قالوا: إن العامة لما كانت لا تطيق ذلك خوطبت بما تعرف ولا تنكر، ولكن الخواص خوطبوا بما يعرفون، وجزموا بكتمه ﷺ ذلك عن غيرهم.

(١) من «نقض المنطق» (١٣٤).

ثم يتابع شيخ الإسلام في «نقض المنطق» فيقول: «وابن سينا يذكر هذا المعنى في مواضع ويقول: «ما كان يمكن موسى بن عمران مع أولئك العبرانيين ولا يمكن محمداً مع أولئك العرب الجفاة أن يبينا لهم الحقائق على ما هي عليه فإنهم كانوا يعجزون عن فهم ذلك وإن فهموه على ما هم عليه انحلت عزائمهم عن اتباعه لأنهم لا يرون فيه من العلم ما يقتضي العمل». وهذا المعنى يوجد في كلام أبي حامد الغزالي وأمثاله ومن بعده، طائفة منه في الأحياء وغير الأحياء، وكذلك في كلام الرازي»[1].

قلت: وكثير من المتصوفة يحمل هذا اللواء، ويقاتل خلفه، والذين يدعون العلم من هؤلاء يستدلون له بقول أبي هريرة: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فإما أحدهما فبثثه وإما الأخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم»[2]. فيقولون هذا العلم الباطن والسر المكتوم الذي لم يحدث به، والذي اختص به الخواص من الأصحاب.

وفي ذلك يقول الزين ابن المنير ــ الذي حشا شيخ الإسلام ابن حجر الفتح بأقواله ــ : «جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم، حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهراً وباطناً، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال في الدين»[3].

والسؤال: فما المقصود بالوعاء الذي ما بثه أبو هريرة رضي الله عنه؟

يقول ابن حجر في الفتح[4]: «وحمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه أبو هريرة على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم، وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضه ولا يصرح به خوفاً على نفسه منهم، كقوله أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان، يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية

---

(١) «نقض المنطق» (١٣٤).

(٢) رواه البخاري في «الفتن» و«العلم» من الصحيح.

(٣) «فتح الباري» (١/٢١٦).

(٤) «الفتح» (١/٢١٦).

لأنها كانت سنة ستين من الهجرة، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة».

قلت: واستعاذة أبي هريرة أخرجها علي بن معبد وابن أبي شيبة من غير وجه كما نبه على ذلك الحافظ في أواخر الفتح[1].

ويؤيد هذا ما أخرجه البخاري عن عمرو بن سعيد قال: (كنت جالساً مع أبي هريرة في مسجد النبي ﷺ بالمدينة ومعنا مروان، قال أبو هريرة: سمعت الصادق المصدوق يقول: «هلكة أمتي على يدي غلمة من قريش». فقال مروان: لعنة الله عليهم غلمة، فقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بني فلان بني فلان لفعلت، قال الراوي، فكنت أخرج مع جدّي - يعني عمرو - إلى بني مروان حين ملكوا بالشام فإذا رآهم غلماناً أحداثاً، قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم، قلنا: أنت أعلم).

قلت: والحديث أخرجه البخاري في باب: «قول النبي ﷺ هلاك أمتي على يدي أغيلمة من قريش» من كتاب الفتن، ومروان المذكور هو ابن الحكم.

والحافظ ابن كثير أجاب بنحو جواب الحافظ ابن حجر فقال[2] «وهذا الوعاء الذي كان لا يتظاهر به هو الفتن والملاحم وما وقع بين الناس من الحروب والقتال وما سيقع — التي لو أخبر بها قبل كونها لبادر الناس إلى تكذيبه؟! وردّوا ما أخبر من الحق - كما قال لو أخبرتكم أنكم تقتلون إمامكم، وتقتتلون فيما بينكم، بالسيوف، لما صدقتموني، وقد تمسك بهذا الحديث طوائف من أهل الأهواء والبدع الباطلة، والأعمال الفاسدة، ويسندون ذلك إلى هذا الجواب الذي لم يقله أبو هريرة، ويعتقدون أن ما هم عليه كان في هذا الجواب الذي لم يخبر به أبو هريرة، وما من مبطل مع تضاد أقوالهم إلا وهو يدعي هذا، وكلهم يكذبون فإذا لم يكن أبو هريرة قد أخبر به فمن علمه بعده».

---

(١) «الفتح» (ص١٠/ ج١٣).
(٢) «البداية» (٨/ ١١٤).

وما أحسنه من جواب: «فإذا لم يكن أبو هريرة قد أخبر به فمن علمه بعده» إذ أنه رضي الله عنه حدث أنه لم يصرح، لا في مجالسه العامة ولا الخاصة، وجواب آخر أنه لو كان من جنس العلم لما جاز كتمه — سواء عند الخاصة أو العامة — لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ والآيات في ذلك كثيرة والأحاديث.

ثم يعود أبو حامد بعد ذلك ليذكر أن هذه المكاشفات والعلوم لها ثلاث رتب: ويقول عن الثالثة: «الرتبة الثالثة إن تدخل الدار فتنظر إليه بعينك وتشاهده، وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية، وهي تشبه معرفة المقرّبين والصِّدِّيقين، لأنهم يؤمنون عن مشاهدة، فيطوى في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين، ويتميزون بميزة بيّنة، يستحيل معها إمكان الخطأ!!

وهم أيضاً يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف، أما درجات الكشف فمثالها أن يبصر زيداً في الدار عن قرب في صحن الدار وقت إشراق الشمس فيكمل له إدراكه، والآخر في بيت أو من بعد في وقت عشية، فيتمثل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو، ولكن لا تتمثل في نفسه الدقائق والخفايا من صورته، ومثل هذا متصور في تفاوت المشاهدة للأمور الإلهية!!.

وأما مقادير العلوم فهو بان يرى في الدار زيد وعمراً وبكراً وغير ذلك، وآخر لا يرى إلا زيداً فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة، فهذه حال القلب بالإضافة إلى العلوم، والله تعالى أعلم بالصواب»[1].

ويقول في موضع آخر: «إن القلب مستعد لأن تتجلى فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها، وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة التي سبق ذكرها ـ وهي كما يقول: ارتكاب المعاصي، وعدم الإخلاص، وعدم البلوغ، أو التّقليد، أو الجهل بجهة العلم[2] ـ فهي كالحجاب المُسْدَل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ، الذي هو منقوش

---

(١) «الإحياء» (٣/١٦).

(٢) ذكر ذلك في «الإحياء» (١٣ ـ ٣/١٤).

بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة، وتجلي حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها[١] والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد، وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه، وكذلك قد تهب رياح الألطاف، وتنكشف الحجب عن أعين القلوب، فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ، ويكون ذلك تارة عند المنام، فيعلم به ما سيكون في المستقبل[٢]، وتمام ارتفاع الحجاب بالموت، فيه ينكشف الغطاء، وينكشف أيضاً في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم. تارة كالبرق الخاطف، وأخرى على التوالي إلى حد ما، ودوامه في غاية الندور، فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم، ولا في محلّه، ولا في سببه، ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب، فإن ذلك ليس باختيار العبد.

ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك!![٣] بل في مشاهدة المَلَك المفيد للعلم، فإن العلم إنما يحصل على قلوبنا بواسطة الملائكة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[٤].

فقوله: «وتجلي حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها» يفيد أن حقائق العلوم قد يقف عليها العبد، وقد لا يُغْفِلُ منها شيئاً، إذ المرآة لا تغفل من الصور التي تقابلها أي رسم قط.

وهذا الأمر قد صرح به الغزالي في «المنقذ» و«كيمياء السعادة» فقال في فصل عجائب القلب: «اعلم أن للقلب بابين إلى العلوم، واحد للأحلام، والثاني لعالم اليقظة، وهو الباب الظاهر إلى الخارج فإن نام غلق باب الحواس، فيفتح

---

(١) تأمل هذه العبارة.

(٢) تقدم أن هذا النوع ليس بالبين، وأنه لا يجوز الجزم بحقيقة ذلك، ولا اعتقاده، إذ أنه يفترق عن العلم من أوجه، أنظر فصل الرؤيا.

(٣) إذاً فالوحي لم ينقطع!!!

(٤) «الاحياء» (١٨ ـ ١٩/٣).

له باب الباطن، ويكشف له غيب من عالم الملكوت، من اللوح المحفوظ فيكون مثل الضوء، ربما احتاج كشفه إلى شيء من تعبير الأحلام»[(١)].

ويتابع: «وتحتاج أن تعرف في ضمن ذلك أن القلب مثل المرآة، واللوح المحفوظ مثل المرآة أيضاً، لأن فيه صورة كل موجود، وإذا قابلت المرآة بمرآة أخرى، حلت صورة ما في إحداهما في الأخرى، وكذلك تظهر صور ما في اللوح المحفوظ في القلب»[(٢)].

فتأمل قوله «صور ما في اللوح المحفوظ في القلب» ولم يقل بعض صور ما في اللوح، مما يؤكد ما ذهبت إليه.

ثم يتابع: (وكذلك تظهر صور ما في اللوح المحفوظ إلى القلب، إذا كان فارغاً من شهوات الدنيا، فإن كان مشغولاً بها كان عالم الملكوت محجوباً عنه، وإن كان في حال النوم فارغاً من علائق الحواس طالع جواهر عالم الملكوت، فتظهر فيه بعض الصور التي في اللوح المحفوظ)[(٢)] وهذا البعض مما هو خاص بالنوم.

وأما الآخر فيقول فيه: (ولا تظن أن هذه الطاقة تفتح بالنوم فقط، بل تفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة وتخلص من يد الشهوة والغضب، والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة، فإذا جلس في مكان خالٍ، وعطل طريق الحواس، وفتح عين الباطن وسمعه، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت، وقال دائماً: الله الله الله[(٣)]

---

(١) «كيمياء السعادة» (٨٦ ـ ٨٧) ضمن مجموعة رسائل «المنقذ ـ الكيمياء ـ القواعد العشرة ـ الأدب في الدين».

(٢) «كيمياء السعادة» (ص٨٧)، ضمن المجموعة.

(٣) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى الكبرى» (٢/٤٠٥) ما نصه: [ومن زعم أن ذكر العامة «لا إله إلا الله» وإن ذكر الخاصّة هو الإسم المفرد «الله»، وذِكْر خاصة الخاصة هو الإسم المضمر «هو»، فهم ضالون غالطون.

واحتجاج بعضهم على ذلك بقوله تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ من أبين الغلط فإن الإسم «هو» مذكور في الأمر بجواب الإستفهام، وهو قوله تعالى: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس. . .﴾ إلى قوله: ﴿قل الله. . .﴾ أي الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فالإسم مبتدأ وخبره قد دل عليه الاستفهام، كما في نظائر ذلك تقول: من جاره؟ فتقول: زيد.

بقلبه دون لسانه(١). إلى أن يصير لا خبر معه من نفسه ولا من العالم،

وأما الإسم المفرد مظهراً «الله» أو مضمراً «هو» فليس بكلام تام ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر، ولا أمر ولا نهي .ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة، ولا شرع ذلك رسول الله عليه السلام ـ قلت: مع أنه دلنا على كل أبواب الخير. فكيف إذا كان أخير الخير؟ ـ

ثم يتابع شيخ الإسلام، ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة، ولا حالاً نافعاً، وإنما يعطيه تصوراً مطلقاً، لا يحكم عليه بنفي ولا إثبات، فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله، ما يفيد بنفسه وإلا لم يكن له فائدة. والشريعة إنما تشرّع من الأذكار ما يفيد بنفسه، لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره، وقد وقع بعض من واظب على هذا الذكر في فنون الإلحاد، وأنواع من الإتحاد، كما بسط في غير هذا الموضع، وما يذكر عن بعض الشيوخ أنه قال: «اخاف ان أموت بين النفي والإثبات» ـ قلت: «وقد رأيت من يزعم ذلك، وإذا قال في أذانه «لا إله إلا الله» لم يمد بها صوته، ـ يعني «لا» ـ، خوفاً من ذلك» ـ حال لا يقتدى فيها بصاحبها فإن في ذلك من الخطأ ما لا خفاء فيه إذ لو مات العبد في هذه الحال لم يمت إلا على ما قصده ونواه ـ قلت: وبهذا أجبت على الفور شيخاً من أشياخهم، وهو قد نيف على الثمانين وأنا ما بلغت العشرين، لما اعترض علي في مدّي الشهادة في الأذان، فلله الحمد والمنّة ـ إذ الأعمال بالنيات، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه امر بتلقين الميت «لا إله إلا الله» ـ قلت: وهو عند مسلم وغيره ـ وقال من كان آخر كلامه «لا إله إلا الله» دخل الجنة ـ قلت اخرجه الإمام أحمد وأبو داوود بإسناد حسن ـ ولو كان ما ذكره محذوراً لم يُلقّن الميت كلمة يخاف أن يموت في أثنائها موتاً غير محمود، بل كان يلقن ما اختاره من الإسم المفرد، والذكر بالإسم المضمر المفرد أبعد عن السنة وأدخل في البدعة، وأقرب إلى إضلال الشيطان، فإن من قال: يا هو يا هو أو هو هو ونحو ذلك لم يكن الضمير عائداً إلاّ إلى ما يصوره قلبه، والقلب قد يهتدي وقد يضل.

وقد صنف صاحب «الفصوص» ـ ابن عربي ـ كتاباً سماه «كتاب الهو». وزعم بعضهم أن قوله «وما يعلم تأويله إلا الله» معناه «وما يعلم تأويل هو إلا الله» أي وما يعلم تأويل هذا الاسم إلا الله. ثم قال ـ ابن تيمية ـ: حتى قلت مرة لبعض من قال شيئاً من ذلك، لو كان هذا ما قلته لكتب «وما يعلم تأويل هو إلا الله» منفصلة.

ومما يبين ما تقدم ما ذكر سيبويه وغيره من أئمة النحو، أن العرب يحكون بالقول ما كان كلاماً، لا يحكون به ما كان قولاً، فالقول لا يحكى به إلا كلام تام، أو جملة إسمية أو فعلية، ولهذا يكسرون إنَّ إذا جاءت بعد القول، فالقول لا يحكى به اسم] انتهى قول شيخ الإسلام أبي العباس.

(١) اعلم أن الذكر أو قراءة القرآن بالقلب دون اللسان، لا يصح في المذاهب الأربعة، فالمالكية قالوا: أقل السّر حركة اللسان، وأعلاه إسماع الرجل نفسه. وقال الحنفية: أقل

= المخافتة إسماع نفسه، أو من بقربه من رجل أو رجلين، أما حركة اللسان مع تصحيح الحروف فإنه لا يجزىء على الأصح. وقالت الشافعية: أقل الإسرار أن يُسْمِع نفسه فقط حيث لا مانع. وهو قول الحنابلة، (الفقه على المذاهب الأربعة، للجزيري) (ص٢٦٣/ ١). وانظر ما جاء في «التبيان في آداب حملة القرآن» للنووي.

قلت وهو الحق المؤيد بالدليل، «فإن الذين حدوا الإسرار بإسماع الرجل نفسه أو رجلاً غيره، يحتج لهم بما رواه البخاري ومسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر في الأوليين بأم الكتاب وسورتين، وفي الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب ويسمعنا الآية أحياناً... الحديث».

وأما المالكية الذين جوزوا حركة اللسان فقط، فقد يستدل لهم بما أخرج عبد الرزاق في جامعه والبخاري في صحيحه وأبو نعيم في «الحلية» والإمام أحمد في «المسند»، عن أبي معمر قال: قلنا لخباب: «هل كان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر والعصر قال نعم، قال فقلنا: بأي شيء كنتم تعرفون ذلك، فقال: باضطراب لحيته ومنه إستنبط البيهقي أن الإسرار لا بد فيه من إسماع المرء نفسه «فتح الباري» (٢٤٥/ ٢) والخبر القاطع في المسألة في عدم جواز قبول قراءة النَفْس، ما أخرجه الإمام أحمد في المسند من غير طريق عن ابن عباس قال: قرأ النبي ﷺ في صلوات وسكت، فنقرأ في ما قرأ فيهن نبي الله، ونسكت فيما سكت، فقيل له: فلعله كان يقرأ في نفسه، فغضب منها - من المقالة - وقال: أيتهم رسول الله ﷺ. (المسند ٢١٨/ ١) وعند أبي داوود نحوه لكنه قال: «هذه شر من الأولى، لقد كان عبداً بلّغ ما أُمر به» وأصل المسألة أن يقال: العبادة شطران، عمل ونية، ولا يفترقان، لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» متفق عليه، والمعنى إنما الجزاء على الأعمال بالنيات، أو قبول الأعمال بالنيات، والأعمال منها ما يكون بالجوارح كالذكر والصلاة والصوم والحج والجهاد وإماطة الأذى... ومنها ما يكون بالقلب، كالمحبة والرضا والتسليم والتوكل، أو العُجْب والكِبْر والبغضاء والحسد، وقد تتداخل، ولكن لا يمكن لعبادة أن تخرج عن ذلك، ولا أعظم العبادات الإيمان، وقد اشتمل عليهما لأنه الأصل، الذي حمل الفروع، ولذلك أخطأ المرجئة لما قالوا: الإيمان هو مجرد التصديق، والجهمية أخطأوا لما قالوا: الإيمان مجرد تصديق القلب وعمله، وكذلك الكرّامية.

وأما أهل السنة فيقولون: الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان - يعني القلب - وعمل بالأركان؛ يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان. (أنظر كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية، وغيره من كتب العقيدة)، فإن كان العمل من جنس ما يفعل بالجوارح، - سواء كان قولاً أو فعلاً - فإنه لا يجوز العدول عنها وإلا بترت العبادة ولم تقبل، من أجل ذلك كان ﷺ يرشد أمته لا لمجرد العمل فحسب بل لمتابعته ﷺ في هيئة العمل، فيقول في

= الصلاة: «صلوا كما رأيتموني أصلي». ويقول في الحج: «خذوا عني مناسككم» متفق عليهما.
وفي هذا المعنى جواب الفضيل رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ قال: لا يقبل العمل حتى يكون أخلصه وأصوبه، قالوا: وما أخلصه؟ قال: أن يكون لله وحده دون سواه قالوا: وما أصوبه؟ قال: أن يكون على السُّنة. (أنظر كتب التفسير لهذه الآية). فإذا ما وافق العمل السنة وصَحَّت النية، قُبلت العبادة، ولما كان للعمل أدواته وللنية أدواتها، أصبح الخلط بين الأدوات قبيح، ومن مفسداته، ولأجل ذلك كره العلماء التلفظ بالنية في سائر العبادات، وقالوا: «النية محلها القلب»، وعدّ كثير منهم التلفظ من البدع، وإنما جوز ذلك بعض المتأخرين من أهل العلم، من غير مستند، وأحسن ما يستدل به على غلط هؤلاء أنه لم يؤثر عنه ﷺ في التلفظ بالنية شيء.
وقد كنت منذ زمن، أشكل على التلفظ بالإحرام أو الإهلال بالحج دون سائر العبادات، وهل هو من باب التلفظ بالنية؟ ثم تبين لي أنه ليس كذلك، بل هو من باب الإشعار بابتداء مناسك الحج، كالتكبير بالنسبة للصلاة، حيث اشتهر في الحديث «تحريمها التكبير» يعني الصلاة، ـ والحديث أخرجه الخمسة إلا النسائي ـ وتمامه «وتحليلها التسليم»، والذي يشرك بذلك قوله ﷺ لأصحابه لما أمرهم بفسخ الحج إلى عمرة، قال: «يا أيها الناس أحِلّوا . . .» متفق عليه، فإنه أومأ إلى أن الإهلال تحريم، والله أعلم.
والحاصل أن عمل الجوارح لا يصح بالقلب، وأن عمل القلب لا يصح بالجوارح، لغياب معنى الأداء.
هذا، وقد قال ابن حجر شارحاً قوله ﷺ «من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» وفي الحديث دليل على اشتراط النطق بكلمتي الشهادة لتعبيره بالقول«من قال» ـ «الفتح» (١/ ١٩٤).
هذا، وأعلم أن ضلال المتصوفة من هذا الباب واسع، حيث قدموا أعمال القلوب والنوايا، وأهملوا عمل الجوارح واعتنوا بالباطن واستهانوا بالظاهر،
والحق أن صلاح الباطن لا يكون إلا بصلاح الظاهر، وصلاح الظاهر لا يكون إلا بصلاح الباطن وأصلح الناس رجل صلح ظاهره وباطنه،
فإن قا : قد علمنا أن صلاح الظاهر بصلاح الباطن كما في قوله ﷺ «إلا وأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» متفق عليه، وغيره من النصوص، فما الدليل على إصلاح الباطن بالظاهر؟
والجواب: قال تعالى: ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ ومعنى الآية ما =

ويبقى لا يرى شيئاً إلا الله سبحانه وتعالى، انفتحت تلك الطاقة، وأبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء والصور الحسنة الجميلة الجليلة، وانكشف له ملكوت السماوات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه)!!.

فقوله «ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك» فإنه يجعل الفرق بين النبي والولي مضمحلاً متلاشياً، بل ويفهم من ذلك استمرار الوحي!!.

مع أن الوحي قد انقطع، وقد كان أبو بكر وعمر يبكيان من أجل أن الوحي قد انقطع[1] بوفاته ﷺ، أفترى أنه كان يقع لهما بعض ذلك[2]، ومن هنا تفهم معنى قول أبي بكر الطرطوشي رحمه الله عندما قال: «إن الغزالي شبك كتابه الاحياء بمذاهب الفلاسفة، ورسائل إخوان الصفا وهم يرون النبوة مكتسبة»[3].

أخرجه الإمام أحمد والنسائي واخرجه الترمذي ولفظه قال النبي ﷺ: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت فذلك قول الله تعالى: ﴿... كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون...﴾ قال الترمذي: حسن صحيح، وألفاظ الباقين متقاربة، ويشهد لذلك ما أخرجه البخاري من قوله ﷺ: «تعرض الفتنة على المرء كالحصير عوداً عوداً فأيما قلب اشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأيما قلب انكرها نكت فيه نكتة بيضاء... الحديث» وقال تعالى في المنافقين: ﴿... ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم...﴾ ومن هذا المعنى ما أخرجه الجماعة أن النبي ﷺ كان يقول: «لَتُسَوُّنَّ صفوفكم أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم» والمعنى بين قلوبكم وهي رواية أبي داوود، فجعل ﷺ من إصلاح الباطن تسوية الصفوف،

والنصوص في ذلك أكثر من أن تحصى،

فاستعن رحمك الله على صلاح قلبك بإصلاح ظاهرك، ولا تبتذلن من اعمال البر خصلة.

والنبي ﷺ يقول:

«لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق» أخرجه مسلم.

وفي الختام أعجب وأقول: ما ضرَّ أبا حامد لو ذكر الله بالقلب واللسان؟!!!.

(١) أخرجه مسلم من حديث أنس، وكان البكاء في بيت أم أيمن بعد وفاته ﷺ.

(٢) سيأتي في الرد على الإحتجاج بالوحي والإلهام باب خاص إن شاء الله تعالى،

(٣) «سيرة الغزالي» (٧٥).

واستدلال الغزالي بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ... ﴾ هو أشبه باستدلال من رجّح مذهب أبي حنيفة على مذهب الشافعي لما سمع قوله تعالى: ﴿ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾.

وإذا كان الإمام المحدث الحافظ شيخ الإسلام ابن حبان صاحب الصحيح، قد اتهم بالزندقة لقوله: «النبوة: العلم والعمل» وهجرة الناس، وأفتى بعض علماء عصره بقتله وكتب الخليفة في ذلك كتاباً.

فأين هذا من أقوال أبي حامد، هذا مع كون كلام الإمام الحافظ له مساغه وتأويله، وقلما يشك مسلم بحسن مراد الشيخ منه لحسن سيرته، ورفيع مكانته، وإن كنا لا نقول بعصمة أحد.

والحافظ الذهبي أصاب وأحسن في إخراج كلام الحافظ ابن حبان، ومع ذلك فقد جعله نَفَساً فلسفياً لا يسوغ.

فقال: (وهذا القول له محمل حسن فإنه لم يُرِدْ حصر المبتدأ والخبر، ومثله: «الحج عرفة»[١] فمعلوم أن الرجل لا يصير حاجّاً بمجرد الوقوف بعرفة، وإنما ذكر مُهِمَّ الحج. ومهمُّ النبوة إذ أكمل صفات النبي العمل والعلم، ولا يكون أحد نبياً إلا أن يكون عالماً عاملاً. نَعَمْ، النبوة موهبة من الله تعالى لمن اصطفاه من أولي العلم والعمل لا صلة للبشر في اكتسابها أبداً، وبها يتولد العلم النافع الصالح. ولا ريب أن ما نقل عن أبي حاتم — ابن حبان — لا يسوغ، وذلك نَفَسٌ فلسفي)[٢].

---

(١) «متفق عليه».

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» (١٦/٩٦)، «والتذكرة» (٣/٩٢١-٩٢٢)، «وميزان الاعتدال (٣/٥٠٧ - ٥٠٨) وجميعهم للذهبي. وانظر تاريخ الإسلام (ص١٦ - ١٧) أحمد الثالث (١٠/٢٩١).

دعوات أبي حامد لترك الاشتغال بالعلم والتعلم

قال أبو حامد في آفات العلم وهو الباب السادس من كتاب العلم عن بشر قوله[1]: [«حدثنا» باب من أبواب الدنيا، فإذا سمعت الرجل يقول حدثنا، فإنما يقول أوسعوا لي، ودفن بشر بن الحرث بضعة عشر ما بين قَمْطَرة وقَوْصَرة من الكتب].

ويعلل أبو حامد ذلك بأنه إنما قال ما قال لأجل الرياء والسمعة، ولا شك أن في هذا التعليل نظر.

أول ذلك اطلاق القول من بشر «حدثنا باب من أبواب الدنيا...» ولم يقيدها بالخوف من الرياء أو السمعة كما قيد أبو حامد.

وأما الثاني فدفن أوراق العلم، وهو محرم من وجهين:

أولهما تضييع العلم وعدم تبليغه، وكان الواجب اعطاؤها لمن ينتفع بها أو ممن هو ليس من أهل «أوسعوا لي».

ثانيهما ذات الدفن، وهو لا يليق بشرف حديث رسول الله ﷺ، بل إن الورقة إذا كتب عليها الحديث جاز تقبيلها كما فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما سأله أبو جحيفة هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟... الحديث، والقصة في البخاري[2].

ولقد جاء في رواية أبي طالب أن [الإمام أحمد سئل عن محو كتب الحديث، فقال: سبحان الله!! تمحى السنة والعلم؟! قلت: ما تقول؟ قال: لا.

---

(١) الأحياء (١/٦١ ـ ٢/٢٣٧) من كتاب العزلة ـ وصرح في كتاب الزهد أن ذلك يضاد الزهد (٤/٢٢٩) ـ وانظر (٣/٣٢٦).

(٢) أخرجها البخاري في غير موضع، لكن وقع في بعض طرق الحديث أنه أخذ الصحيفة فقبلها،

وقال أبو طالب: سألت أبا عبد الله ـ يعني الإمام أحمد ـ ما ترى في دفن العلم إذا كان الرجل يخاف أن ليس له خَلَفٌ يقوم به، ويخاف عليه الضيعة؟ قال: لا يدفن، ولعل ولده ينتفع به، وقال في رواية المروزي: ما يعجبني دفن العلم][1].

نعم، تعليل أبي حامد لبعض أقوالهم يليق عند من صرّحوا أو أشاروا للعلَة.

ثم يقول أبو حامد في نفس الباب[2]: [وقال أبو سليمان الداراني: «إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا» قال الغزالي: «إنما أراد طلب الأسانيد العالية، أو طلب الحديث الذي لا يحتاج إليه في طلب الآخرة]!!!

قلت: وهذا فقه في غاية السقوط، إذ أن طلب العلو في الإسناد من أجلّ العلوم وأعظم الجهاد حتى أن يحيى بن معين رحمه الله لما كان في مرضه الذي توفي فيه قيل له: ما تشتهي؟ قال: بيت خالي، وإسناد عالي[3].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: طلب الإسناد العالي سُنَّة عمن سلف[3].

[وروى عنه الخلال أنه سئل عن رجل يقيم ببلده وينزل في الحديث درجة؟ قال: ليس طلب العلم هكذا، لو طلب العلم هكذا مات آثماً، إنما يؤخذ العلم عن الأكابر][4].

[وقال البخاري في كتاب العلم: «باب الخروج في طلب العلم، ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد».

قال ابن حجر: وهو حديث «يحشر الناس يوم القيامة عراة...» أخرجه

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/١٢٤).

(٢) «الاحياء» (ج١/٦١).

(٣) «منهج النقد في علوم الحديث» (مسألة الاسناد العالي).

(٤) «الآداب الشرعية» (١/٥٩).

البخاري في الأدب المفرد وأحمد في المسند وأبو يعلى والطبراني في مسند الشاميين، ونحو هذا ما جاء بسند منقطع في المسند من ارتحال أبي أيوب الأنصاري إلى عقبة بن عامر الجهني من أجل حديث الستر.

قال: وروى أبو داوود عن طريق عبد الله بن بريدة أن رجلاً من الصحابة رحل إلى فضالة بن عبيد وهو بمصر في حديث.

وروى الخطيب عن عبيد الله بن عدي قال: بلغني حديث عند علي فخفت إن مات أن لا أجده عند غيره فرحلت حتى قدمت عليه العراق، وروى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيِّب قال: كنت لأرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد[١]، قال ابن حجر: وفي حديث جابر دليل على طلب علو الإسناد لأنه بلغه الحديث عن عبد الله بن أنيس فلم يقنعه حتى رحل فأخذه عنه بلا واسطة، وسيأتي عن ابن مسعود في كتاب الفضائل قوله: «لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني لرحلت إليه»، وأخرج الخطيب عن أبي العالية قال كنا نسمع عن أصحاب رسول الله ﷺ فلا نرضى حتى خرجنا إليهم فسمعنا منهم، وقيل لأحمد: رجل يطلب العلم يلزم رجلاً عنده علم كثير، أو يرحل قال يرحل، يكتب عن علماء الأمصار][٢] انتهى ملخصاً.

فتأمل قولهما ما أعظمه وهما الإمامان الجليلان[٣] اللذان لا يحلق شؤوهما في هذا العلم وضروبه، وأصوله، من أجل ذلك قال الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي: «أجمع أهل النقل على طلبهم العلو — يعني في الإسناد — ومدحه، إذ لو اقتصروا على سماعه بنزول لم يرحل أحد منهم»[٤].

---

(١) قلت: ونحو هذا صح عن بسر بن عبيد الله، أخرجه الدارمي بسند صحيح. انظر «الفتح» (٢/١٩٢).
(٢) «فتح الباري» (١/١٧٤).
(٣) أعني أحمد بن حنبل واحمد بن حجر.
(٤) مسألة العلو والنزول (ص١٠).

قلت: ونحو هذا ما جاء في كتاب الخطيب البغدادي الفذ، «الرحلة في طلب الحديث».

وأما قول أبي حامد (أو طلب الحديث الذي لا يحتاج إليه في طلب الآخرة) فقول لا يليق بأدنى طلاب العلم فضلاً عن العلماء، إذ ليس في الحديث ما لا يحتاج إليه في طلب الآخرة، بل إن مجرد طلب الحديث طلب للآخرة.

حيث قال ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع»[1] وقال: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة»[2] والنصوص في ذلك أكثر من أن تحصى، ومن هنا يعلم فساد قول أبي سليمان وبطلانه[3].

وإن تعليل أبي حامد أو تخصيصه وتقييده أفسد وأبطل، بل إن القرائن التي حفّت هذه النصوص تؤيد الاطلاق لا التقييد.

فأورد أبو حامد في كتاب النكاح: [سئل أبو سليمان الداراني عن النكاح فقال: «الصبر عنهن خير من الصبر عليهن[4] والصبر عليهن خير من الصبر على النار»، وقال: «الوحيد يجد حلاوة العمل ما لا يجد المتأهل»، وقال مرة: «ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته الأولى» وقال أيضاً: «ثلاث من

---

(١) رواه الإمام أحمد وابن حبان وصححه والحاكم من حديث صفوان بن عسّال رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

(٢) رواه مسلم.

(٣) هذا إن صح الحديث عن أبي سليمان، إذ المقصود فساد ذات القول سواء من قاله، وأبو سليمان هذا نقل عنه حق وباطل قلما يجتمعان في قلب واحد، وسيأتي بعض ذلك الحق، هذا ومن يقرأ ترجمته يعلم أنه شيخ إمام، فالله أعلم.

(٤) وهذا من جملة الباطل الذي نقل عنه. كما لا يخفى حيث رغب عن سُنَّة المصطفى القائل: «من رغب عن سنتي فليس مني» متفق عليه.

طلبهن فقد ركن إلى الدنيا: من طلب معاشاً أو تزوج امرأة أو طلب الحديث»][1].

فظاهر كلامه أن مطلق رجل تزوج فقد ركن إلى الدنيا ولم يثبت على مرتبته الألى، من غير استثناء، فلذلك يجب حمل ما تبقى من طلب المعاش أو الحديث من غير استثناء على ما تقتضيه اللغة.

وأما في آفات النكاح وفوائده فيقتصر على قوله: [من تزوج فقد ركن إلى الدنيا][2] ويعقب على ذلك: «أي يدعوه ذلك إلى الركون إلى الدنيا».

وأورد كل ذلك في كتاب العزلة ثم قال: [ويذكر أن رابعة قالت لسفيان: نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا، قال وفي أي شيء رغبت، قالت: في الحديث][3] وسكت عليه.

فهي نزعة عند القوم في تـركهم العلم والحديث على الأخص، ومما أورده الغزالي فـي هـذا الباب ما جاء في كتاب الخوف من الاحياء حيث قال:

[قال العنبري: اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض، فاطَّلع عليهم من كُوَّة وهو يبكي ولحيته ترجف، فقال: عليكم بالصلاة، ويحكم، ليس هذا زمان حديث، إنما هذا زمان بكاء وتضرع][4].

وليت شعري أيهما أفضل، البكاء والتضرع، أم طلب العلم والحديث الذي مما جاء فيه قوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»[5].

---

(١) «الاحياء» (٢/٢٤).
(٢) «الاحياء» (٢/٣٤).
(٣) «الاحياء» (٢/٢٣٧).
(٤) «الاحياء» (٤/١٨٦) ونسبة ذلك للفضيل عندي بعيدة لما عرف من علمه وإتباعه الأثر،
(٥) رواه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال: حديث حسن صحيح،

وفي حديث أبي الدرداء: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[١].

وهنا موضع القصة المشهورة عن ابن وهب لما كان في مجلس الإمام مالك رحمه الله — وكان للإمام مجلسان: مجلس للفتوى وآخر للحديث — قال ابن وهب: فتركت ألواحي وقمت أريد الصلاة فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه[٢].

وعلى هذا نص الإمام أبو حنيفة، وقال الإمام الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، وهو المروي عن الإمام أحمد رحمهم الله تعالى أجمعين[٢].

[وقال مهنا: قلت لأحمد بن حنبل حدثنا ما أفضل الأعمال؟ قال طلب العلم، قلت لمن، قال: لمن صحت نيته، قلت وأي شيء يصحح النية، قال ينوي يتواضع فيه وينفي عنه الجهل، ورأى ابن الشخير ابناً له يتعبد فقال أي بني فضل العلم أحب إليّ من فضل العبادة.

وقال الحسن بن ثواب قال لي أحمد بن حنبل: ما أعلم الناس في زمان أحوج منهم إلى طلب الحديث من هذا الزمان قلت ولم؟ قال ظهرت البدع، فمن لم يكن عنده حديث وقع فيها.

وقال بشر الحافي لا أعلم على وجه الأرض عملاً أفضل من طلب العلم والحديث لمن اتقى الله وحسنت نيته وقال سفيان: ما أعلم شيئاً يراد الله به أفضل من طلب العلم][٣]

---

(١) وأخرجه أبو داوود والترمذي والنسائي وابن حبان من حديثه عن النبي ﷺ، وأوله: «من غدا يريد العلم يتعلمه لله فتح الله له باباً إلى الجنة وفرشت له الملائكة أكنافها وصلّت عليه ملائكة السماء وحيتان البحر ثم ذكره...»

(٢) أنظر «مدارج السالكين» «منزلة العلم» لابن القيم.

(٣) «الآداب الشرعية»: (٢/٤٠) و(٢/٤٥) و(٢/١٢٧) و(٢/١٢٩).

[وقال المروزي قيل لأبي عبد الله: رجل له خمسمائة درهم ترى أن يصرفها في الغزو والجهاد أو يطلب العلم؟ قال إذا كان جاهلاً يطلب العلم أحب إليّ.

وقال في رواية يوسف بن موسى عجبت لمن يَتَثَبَّطُ عن طلب العلم، ويحتجون بالفضيل، ولعل الفضيل قد اكتفى، ليس يثبط عن طلب العلم إلا جاهل.

وقال عبد الرزاق عن قتادة عن معمر عن مُطَرِّف قال: حظ من علم أحب إليّ من حظ عبادة، سمعت ابن عباس يقول: مذاكرة العلم ساعة أحب إليّ من إحياء ليلة، وروى من طرق أخرى عن ابن عباس مثله.

وقال ابن وهب أخبرني عتبة عن نافع عن زيد بن أسلم أن ابن مسعود كان يقول لئن أجلس مجلس فقهٍ ساعةً أحب إليّ من صيام يوم وقيام ليلة.

وقال الأوزاعي: سأل رجل ابن مسعود أي الأعمال أفضل فقال العلم، فكرر عليه ثلاثاً كل ذلك يقول: العلم][1].

«وروى الخلال عن وهب بن منبه قال: مجلس يتنازع فيه العلم أحب إليّ من قدره صلاة»[2] «وروى الفقيه نصر بن إبراهيم المقدسي أن أبا الثلج سأل الإمام أحمد: أيها أحب إليك الرجل يكتب الحديث أو يصوم أو يصلي، قال يكتب الحديث»[3].

وقد أخرج أبو يعلى الموصلي والبيهقي من حديث حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فضل العلم خير من فضل العبادة وخير دينكم الورع» ونحوه عند البزار بلفظ «فضل العلم أحب إليّ من فضل العبادة وخير دينكم الورع» وأخرجه الطيالسي والحاكم وصححه، وأخرجه من طريق أخرى عن سعد رضي الله عنه

---

(١) الآداب الشرعية (٢/٤٥).
(٢) الآداب الشرعية (١٢٧ - ٢/١٢٩).

وأخرج الدارامي من حديث الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليُحْيي به الإسلام فبينه وبين النبيين درجة واحدة في الجنة»[١].

والنصوص في ذلك أكثر من أن تحصى، وما أرضى ما ذكر عن الإمام أحمد بن حنبل لما أقتيد إلى القتل في محنة خلق القرآن فقبل أن يصل الدار وقيل لما وصل حكى أنه رأى المزني تلميذ الشافعي فسأله عن قول الشافعي في مسألة المسح على النعلين أو نحوها.

ويعود الغزالي في كتاب الزهد من الاحياء فيقول:

[قال الجنيد رحمه الله: أحب للمريد المبتدىء أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله: التكسب وطلب الحديث والتزوج، وقال: أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهَمِّه»[٢] بعد أن قال أول ربع المهلكات من كتاب عجائب القلب[٣]:

[وأعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دو التعليمية، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم، وتحصيل ما صنفه المصنفون، والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة]!!!

خلافاً لما انتهجه أئمة المسلمين وعلماؤهم، وسلفهم الصالح، من الصحابة والتابعين وماذا بعد الحق إلا الضلال؟.

ثم يبرر ذلك فيقول: [بل قالوا — المتصوفة — : الطريق تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك، كان الله هو المتولّي لقلب عبده،

---

(١) أنظر «سنن الدارامي» كتاب العلم، وكذلك أخرجه ابن السُّنّي في «رياض المتعلمين»، والحسن المذكور قيل فيه أنه ابن عليّ رضي الله عنهما، وقيل البصري فيكون الحديث مرسلاً، وأخرج البزار عن أبي هريرة وأبي ذر: «إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد».

(٢) الأحياء (٤/٢٣٩).

(٣) الأحياء (٣/١٩).

والمتكفّل بتنويره بأنوار العلم وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب[1] وانشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب العزة، بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة، وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة، والتعطش التام، والترصد ودوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة][2].

وهكذا ارتضى المتصوفة غير ما شرع الرسول ﷺ لصحابته وأمته، الذين ما طلبوا الحقيقة والمعرفة من غير كلامه وحديثه ﷺ، فقضوا الأعمار يردّون المسائل إلى الله ورسوله، ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعمله الذين يستنبطونه منهم...﴾ الآية.

وأبى المتصوفة إلا أن يردوه إلى الضلال أو الخيال، أو ما يلقي الشيطان في قلوبهم، و«الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» كما صح عند الشيخين.

والإمام أحمد بن حنبل الذي كان فوقهم في المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق والشواغل عن الدنيا والإقبال على الآخرة، رئي في سنته التي توفي فيها يسير في الصحراء، وقد نحلت قامته وانحنى ظهره من كراريس يحملها عليه، فقيل له في ذلك، فقال كلمته التي هي أشبه بحديث الأنبياء: «مع المحبرة إلى المقبرة» وصدق الشافعي الإمام: «لولا المحابر لخطبت الزنادقة على رؤوس المنابر»[3].

وكأن الغزالي لم يقنع بما قاله فتساءل: [فإن قلت: فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خالٍ عنه؟ فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب، ولا يسمح بذكره في علم المعاملة][4].

---

(١) يقول الغزالي: «وفي الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغني عن مدد الأنبياء» («مشكاة الأنوار» ص٤٠)، هذا فيمن يكاد يشرق نوره، فكيف بمن أشرق؟!!

(٢) «الاحياء» (ج٣/ ص١٩).

(٣) الآداب الشرعية، فضل العلم.

(٤) «الاحياء» (ج٣/ ص٢٠).

فما حكم من استغنى بالكتاب والسنة في فهم المسائل الشرعية والأمور الأخروية؟

يقول الغزالي: [من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له فيها قدم](١).

ويقول: [فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة](٢).

ويرد على هذا شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول: [هذا الكلام مضمونه أنه لا يستفاد من خبر الرسول ﷺ شيء من الأمور العلمية، بل إنما يدرك ذلك كل إنسان بما حصل له من المشاهدة والنور والمكاشفة... وهذان أصلان للإلحاد فإن كل ذي مكاشفة إن لم يزنها بالكتاب والسنة، وإلا دخل في الضلالات...

وما جاء به الرسول ﷺ معصوم... وما يقع لأهل القلوب ففيه صواب وخطأ، وإنما يفرق بين صوابه وخطئه بنور النبوة، قال بعض الشيوخ ما معناه: قد ضمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة ولم تضمن لنا العصمة في الكشوف...

وهذا الكلام أصله من مادة المتفلسفة والقرامطة الباطنية الذين يجعلون النبوة فيضاً من العقل الفعّال ويجعلون ما يقع في نفسه من الصور هي ملائكة الله، وما يسمعه في نفسه من الأصوات هو كلام الله(٣)، ولهذا يجعلون النبوة مكتسبة فإذا استعد الإنسان بالرياضة والتصفية فاض عليه ما فاض من نفوس الأنبياء](٤).

(١) «الاحياء» (١/ ١٠٤).

(٢) «المنقذ من الضلال» (ص١١).

(٣) وسيأتيك تصريح الغزالي بسماع كلام الله في غير موضع.

(٤) «درء التعارض بين العقل والنقل» (ج٥/ ص٣٤٨).

ورحم الله الإمام الشافعي القائل: «لـو أن رجلاً تَصَوَّف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يصير أحمقاً، وما لزم أحد الصوفية أربعين يوماً فعاد عقله إليه»[١].

وأما إن سألت الغزالي عن دليله على ذلك فيقول[٢]:

[«بيان شواهد الشرع على صحة طريقه أهل التصوف من اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد» — الذي عليه الصحابة والتابعون والأئمة.

«اعلم أن من انكشف له شيء، ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري، فقد صار عارفاً بصحة الطريق، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغي أن يؤمن به، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً، ويشهد لذلك شواهد من الشرع والتجارب والحكايات:

أما الشواهد: فقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ... ﴾ فكل كلمة تظهر في القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام.

وقال ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، ووفقه فيما يعمل، حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم، تاه فيما يعلم، ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار».

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ من الاشكالات والشبه ﴿ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ يعلمه علماً بغير تعلم ويفطنه من غير تجربة.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ قيل نوراً يفرق بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات.

---

(١) «تلبيس إبليس» (ص٣٧١) لابن الجوزي.
(٢) «الاحياء» (٣/ ٢٣).

وكذلك كان ﷺ يكثر في دعائه من سؤال النور، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم أعطني نوراً وزدني نوراً واجعل لي في قلبي نوراً وفي قبري نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً حتى قال في شعري وفي لحمي ودمي وعظامي».

وسئل ﷺ عن قول الله تعالى ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ . . . ﴾ ما هذا الشرح؟ فقال: هو التوسعة أن النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح.

وقال ﷺ لابن عباس «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

وقال علي رضي الله عنه: «ما عندنا شيء أسره النبي ﷺ إلينا إلا أن يؤتي الله تعالى عبداً فهماً في كتابه وليس هذا بالعلم».

وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ . . . ﴾ إنه الفهم في كتاب الله، وقال تعالى ففهمناها سليمان، حص ما انكشف باسم الفهم.

وكان أبو الدرداء يقول: «المؤمن من ينظر بنور الله تعالى من وراء ستر رقيق، والله انه للحق يقذفه الله في قلوبهم ويجريه على ألسنتهم».

وقال بعض السلف: ظن المؤمن كهانة.

وقال ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى» وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

وروى الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العلم علمان، فعلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع».

وسئل بعض العلماء الباطن ما هو؟ فقال: هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله في قلوب أحبابه، لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً.

وقد قال ﷺ : «إن من أمتي محدثين معلمين ومكلمين وإن عمر منهم»

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث...﴾ يعني الصديقين، والمحدث الملهم والملهم هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل، لا من جهة المحسوسات الخارجة.

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف، وذلك علم من غير تعلم، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصصها بهم.

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء، بلا حفظ ولا درس!!!

وهذا هو العلم الرباني، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ مع أن كل علم من لدنه، ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علماً لدينا، بل اللدني الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج.

فهذه شواهد النقل، ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر][1].

فهذه أدلته قد سقتها بطولها، لم أغفل منها حرفاً واحداً، وذلك حتى أتعقبها بالنقد والنقض حرفاً حرفاً، ولا يبقى من بينها دليل واحد يعتمد عليه أو يعتضد به، وبالله المستعان.

نقض الاستدلال الأول:

أول ما استدل به الغزالي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وهو استدلال باطل من أوجه:

---

(١) «الاحياء» (٣/٢٤).

أولها: أن الجهاد المذكور في الآية ليس هو المجاهدة والتصفية التي زعمها، وجعل الجهاد مقصوراً عليها، كما أن هداية السبل في الآية ليست فتح العلوم من باطن القلب، فهذا تخصيص من غير مُخَصِّصْ.

وليس لعاقل أن يقول أن الذي طلب العلم ليس بمجاهد، بل إن أبا الدرداء ذكر عنه أنه قال: ومن رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه ودينه»[1] كما أن في بعض ما قدمت من الأحاديث في أول الباب شواهد.

وليس أحد من الناس يقول: إن نشر الدعوة ليس بجهاد، وكذلك فإن أولى ما يطلق عليه الجهاد هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا.

ولو ذهبت تستقصي ما يعد في الإسلام جهاداً، لخرج ذلك عن الحصر، بل لوجدت في اجتناب كل نهي وفعل كل أمر جهاداً، حتى السعي في طلب الرزق الذي عدّه المتصوفون ركوناً إلى الدنيا إذ هو لا يخرج عن كونه مما أمر به الشارع ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾.

والحاصل أن الذي يقوم ببعض هذه الأوامر دون بعض، فيقتصر على المجاهدة والتصفية والصقل كما يقول أبو حامد دون القيام بواجبات طلب العلم وتعليمه ونشر الدعوة وجهاد الكفار وغير ذلك فإنه يكون ولا شك مقصراً في معنى الجهاد أشد التقصير.

ومن كان حاله من التقصير كذلك لا يستحق أن يقال فيه ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾.

الوجه الثاني: هو في معرفة حقيقة الجهاد وأنه لا يتأتى إلا بطلب العلم وتحصيله، وهذا المتعبد الذي يحدثنا عنه أبو حامد، وهو في بداية مجاهداته، وقبل المكاشفات والفتوحات كيف تتم له هذه المجاهدات

---

(١) الأحياء (١/٩) فالعجب من أبي حامد كيف يورد الكلام ونقيضه.

والأحوال الصالحة، وهو لا يدري من العقيدة فصلاً، ولا يعرف الصلاة بل إنه قد لا يعرف موجبات الغسل وما لا يتم إلا به.

فإن قلتم ولكن المتعبد لا يخلو عن علم يعمل به، مما هو ضروري،

قلنا: كل علم لا تعرفه فأنت مضطر إليه، وإلا فلم المجاهدة وطلب المزيد، وليس بين أهل الدنيا من يستطيع أن يحصر ما يضطر لمعرفته دون سواه.

ورحم الله الإمام الشافعي القائل: المرء حاجته للعلم أكثر من حاجته الطعام والشراب قال: لأن المرء يحتاج إلى الطعام في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته للعلم بعدد أنفاسه[1]، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «مثل العابد الذي لا يتفقه كمثل الذي يبني بالليل ويهدم بالنهار»[2].

فإن قلت: فطالب العلم باحث، والمجاهد باحث، فلم أبحت للأول وقطعت على الثاني.

الجواب: أن ما يحصل لطالب العلم يقع أضعاف ما يحصل لمنتظر الفتح، والأول قاطع جازم في علمه، والآخر على شبه خيال ليس له ذلك، وهو الوجه الثالث.

الوجه الثالث: وهو كون تلك المعارف على فرض حصولها ليست مما يعتبر شرعاً ولا مما يسمى علماً، وتقدم لك بعض ذلك في فصل الرؤيا، وكلام شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، وأنه إنما يصير معتبراً بعد عرضه على الكتاب والسنة، إذ هما المعتبران فقط.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أحمد بن أبي الحواري أخبرنا عباس

---

(١) «الآداب الشرعية»، «فضل العلم»، و«المدارج»، منزلة العلم، و«البداية» في ترجمته رضي الله عنه.

(٢) ذكره عنها الديلمي وابن أبي الدنيا في «العلم» («منتخب كنز العمال» (٤/٥١) بحاشية المسند).

الهمداني أبو أحمد من أهل عكا في قول الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ قال : الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون، قال أحمد بن أبي الحواري : فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه وقال ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر — يعني الحديث — عمل به وحمد الله حتى وافق ما في قلبه، انتهى[1].

قلت: والسند كله متصل وصحيح وخاصة لأحمد بن أبي الحواري وأبي سليمان، وهما كما لا يخفى من أجلّ من أكثر النقل عنهم الغزالي في الاحياء، فالواجب عليه أن يقنع بقولهما.

نقض الاستدلال الثاني :

وهو استشهاده بقوله ﷺ : «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، . . . الحديث إلى آخره».

والحديث المذكور، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب المعتمدة، إنما انفرد بإخراجه أبو نعيم في حليه الأولياء من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وضعفه، دون قوله (ووفقه فيما يعمل. . . الحديث)، فهي زيادة قال عنها الحافظ العراقي: «لم أرها»[2]، وقد تقدم أن عبارة الحافظ هذه تفيد الوضع عند أهل المصطلح.

وقال الحافظ شمس الدين أبو عبد الله المقدسي الحنبلي بعد أن ساق حديث أبي نعيم: [قال أبو نعيم عقب ذلك ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام فوهم بعض الرواة فذكره عن النبي ﷺ][3].

---

(١) أنظر تفسير الآية عند ابن كثير وغيره.
(٢) «الاحياء» (٣/٢٣).
(٣) «الآداب الشرعية» (٢/٦٣).

فالحاصل أن الحديث ليس من جنس ما يحتج به، فكفينا مؤونة الرَّدِّ، والحمد لله.

نقض الاستدلال الثالث:

واستدل أبو حامد على صحة دعواه بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ﴾.

وهو استدلال لا يصح، حيث أن الآية ما سيقت لأجل هذا المعنى ولا ما يقرب منه، وإنما هي في حق من صبر على قضاء الله تعالى فأعقبه الله حسن الخاتمة ونعم المنقلب.

جاء في المسند من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب». ويقوي ذلك ما جاء في سبب نزول الآية.

قال محمد ابن إسحق: جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ، فقال له: أُسِرَ ابني عوف: فقال له رسول الله ﷺ أرسل إليه أن رسول الله يأمرك أن تكثر من قول «لا حول ولا قوة إلا بالله» وكانوا قد شدّوه بالقد فسقط القد عنه فخرج، فإذا هو بناقة لهم، فركبها وأقبل، فإذا بسرح القوم الذين كانوا قد شدوه، فصاح بهم فأتبع أولها آخرها، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب، فقال أبوه: عوف ورب الكعبة، فقالت أمه: واسوأتاه وعوف كيف يقوم لما هو فيه من القد، فاستبقا الباب والخادم، فإذا عوف قد ملأ الفناء ابلاً، فقص على أبيه أمره وأمر الأبل، فقال أبوه: قفا حتى آتي رسول الله ﷺ فأسأله عنها، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخبر عوف وخبر الأبل، فقال له رسول الله ﷺ: اصنع بها ما أحببت، وما كنت صانعاً بمالك ونزل ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

والحديث رواه ابن أبي حاتم، ورواه ابن جرير من طريقين لكنه فيه أن الأسير هو ابن عوف بن مالك الأشجعي، وأنه ساق غنماً لا إبلاً[1].

---

(١) أنظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٨٠) و«جامع البيان» للطبري (ص٩٠/ج٢٨).

وهذا المعنى بتمامه هو المروي عن ابن عباس يقول: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة.

وقال الربيع بن خيثم: (يجعل له مخرجاً) أي من كل شيء ضاق على الناس[1].

وقال عكرمة: من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجاً، وكذا روى عن ابن عباس والضحاك[1].

وقال ابن مسعود ومسروق: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ يعلم أن الله إن شاء أعطى وإن شاء منع، ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أي من حيث لا يدري[1].

وقال السدي: ﴿ومن يتق الله﴾ يطلق للسنة ويراجع للسنة[1].

قلت: ووجه ما قاله السدي وعكرمة والضحاك وابن عباس في رواية ظاهر، وهو مناسبة السياق للآيات ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾.

وأما وجه ما قاله ابن عباس والربيع وغيرهما دل عليه سبب النزول، وما رواه هو — ابن عباس — عن النبي ﷺ في الحديث المتقدم «من أكثر من الاستغفار جعل الله من كل هم فرجاً. . . الحديث».

وكأن ابن كثير جنح لهذا المعنى، فأورد حديث الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه. . . الحديث» وهو معنى مفهوم المخالفة للآية كما هو مقرر في علم الأصول، أما الذي يتقي يرزق، ومن يذنب يحرم.

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (٤/٢٨٠) و «جامع البيان» للطبري (ص ٩٠/ ج ٢٨).

وأورد حديثاً أخرجه ابن أبي حاتم من حديث عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ : «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنه ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها».

وحديثاً أخرجه الإمام أحمد من طريقين عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قَمِناً أن لا تسهل حاجته، ومن أنزلها بالله تعالى أتاه الله برزق عاجل أو بموت آجل».

ثم أورد ابن كثير في معنى قوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ حديث الإمام أحمد والترمذي عن ابن عباس لما أوصاه النبي ﷺ بقوله: «يا غلام احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

هكذا ساق هذه الرواية، ولو أتى بالرواية لأخرى وفيها: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» وفيها «وأعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً» لكان أجود وأحسن لأنه كان أصاب ما جاء في الآية من وجهين.

وترجيح ابن كثير لقول ابن عباس قوي جداً، لأن قول ابن عباس علاوة على ما تقرر له من الأدلة فهو عام يشمل قول السدي وعكرمة والضحاك لأنه خاص، والزمخشري المعتزلي في«كشّافه»كأنما جنح لقول عكرمة والضحاك ومن وافقهما، وقد ساق الأقوال كلها في تفسير الآية[1].

والأقوال جميعها ذكرها القرطبي، وزاد عليها تفسير الكلبي، والحسن وأبي العالية والحسن بن الفضل وسهل بن عبد الله، وعمر بن عثمان، وابن عيينة وغيرهم، وليس بين أقوال هؤلاء ما يشبه قول قتادة.

---

(١) «الكشاف» (٤/١١٩).

وقد قال القرطبي: «وقال أكثر المفسرين على ما ذكر الثعلبي أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي»[1]، وظاهر صنيعه ترجيح ما رجّح الزمخشري.

أما الرازي الفخر في «التفسير الكبير ومفتاح الغيب» فرجح كما رجح القرطبي والزمخشري أن المراد بالآية الطلاق، ثم ساق كلام الكلبي: من يصبر على المصيبة يجعل الله له مخرجاً من النار إلى الجنة، وقال قرأها النبي ﷺ — يعني الآية — فقال: مخرجاً من شبهات الدنيا وغمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة — ولم يعزه لأحد — ثم قال: «وقال أكثر إهل التفسير أنزل هذا وما بعده في عوف بن مالك الأشجعي»[2].

بقي القول على ما جاء من تفسير الآية على لسان قتادة قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ أي من شبهات الأمور والكرب عند الموت ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ من حيث لا يرجو ولا يأمل.

قلت: فأول ما في هذا القول مفارقته لمعنى ما جاء على لسان الغزالي، إذ ليس فيه «يعلمه علماً بغير تعلم ويفطنه من غير تجربة» فهذا قول لم أقف عليه لأحد.

ثاني ما في هذا القول: أن الخروج من شبهات الأمور، وقد جاء في الحديث «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات... الحديث» فالمشتبهات في الشريعة ما دارت بين الحلال والحرام وخفي وجهها في ذلك[3] وهذا يعني أن الاشتباه لا يحصل إلا بعد النظر في ما يحل وما يحرم، والنصوص الدالة على ذلك، وهذا يبطل ما زعم أبو حامد من الاستغناء عن طلب العلوم الكسبية، والاعتماد على الإلهام فقط.

هذا إن حملنا قول قتادة على أن الخروج هو الإلهام وما يفتحه الله على عبده.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٥٩ ـ ١٦٠/١٨).

(٢) «التفسير الكبير ومفتاح الغيب» (ص٣٥/ج٣٠).

(٣)، انظر تمام الحديث وشرحه في كتب الشروح للبخاري ومسلم.

أما المحمل الأصح عندي لقول قتادة — ولم أر أحداً نبه عليه — فهو أن المراد حصول المخروج يكون بمجرد التقوى، لأن حقيقة التقوى الابتعاد عن جنس ما كان من شبهات الأمور، وهذا هو المخرج.

يدل على ذلك حديث النبي ﷺ : «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس»(١) وبمعناه جاء تمام الحديث المتقدم «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. . .».

ثالث ما في هذا القول: أنه ليس فيه الاعتماد على العلوم الإلهامية فقط، دون سواها، وجعلها طريقاً لمعرفة سائر أحكام الشريعة، بل أنه خص الخروج بالمشتبه، إن سلمنا أنه عنى بالخروج الإلهام وما شابهه، وليس في المسألة تصريح.

رابع ما في هذا القول: معرفة حقيقة التقوى، والحديث المتقدم عن النبي ﷺ : «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس، حذراً مما به بأس» أصل في معرفة حقيقة التقوى، وأول ما يفهم منه أن المتقي عليه أن يعرف ما به بأس مما لا بأس به حتى يدع الأول للثاني، وهذه المعرفة تستلزم العلم، فتبين لك أن التقى لا يكون من دون علم، وكيف يتقي المرء ما يجهل؟!.

خامس ما في هذا القول: هو حال قتاده نفسه رحمه الله، وما عرف عنه من كثرة روايته للحديث وتلقي العلم، مما ينقض أصل أبي حامد عروة عروة.

فقتادة هو ابن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري الأعمى، أحد علماء التابعين والأئمة العاملين، روى عن أنس مالك من الصحابة، ومن التابعين عن ابن المسيب والحسن البصري وعطاء ومجاهد وابن سيرين ومسروق وغيرهم وروى عنه من الكبار جماعات كأيوب، وحميد الطويل وسعيد بن أبي عروبة والأعمش وشعبة والأوزاعي ومسعر ومعمر وهمام.

---

(١) أخرجه ابن ماجة والترمذي عن عطية السعدي وحسنه. .

قال ابن المسيب: ما جاءني عراقي أفضل منه، وقال بكر المزني: ما رأيت أحفظ منه، وقال ابن سيرين: هو أحفظ الناس، وقال مطر: كان قتادة إذا سمع الحديث يأخذه العويل والزويل حتى يحفظه، وقال الزهري: هو أعلم من مكحول، وقال معمر: ما رأيت أفقه من الزهري وحماد وقتادة، وقال قتادة: ما سمعت شيئاً إلا وعاه قلبي، وقال أحمد بن حنبل: هو أحفظ أهل البصرة لا يسمع شيئاً إلا حفظه، وكان يثني على علمه وفقهه ومعرفته باختلاف التفسير وغير ذلك.

وكان قتادة يقول: باب من العلم يحفظه الرجل يطلب به صلاح نفسه وصلاح دينه وصلاح الناس أفضل من عبادة حول كامل.

ويقول: لو كان يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى عليه السلام بما عنده ولكنه طلب الزيادة[1].

قلت: ولو جمعت أحاديث قتادة التي رويت عنه، لبلغت أسفاراً ضخاماً، وقد كان الأئمة يتتبعون حديثه ولو بعلو، ووقع له مما روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه بغير واسطة مئات الأحاديث.

ومما اتفق ما رواه عن أنس: «لا تقوم الساعة حتى يرفع العلم ويظهر الجهل...». أخرجه الإمام أحمد بإسناد صحيح فقال: ثنا هشيم أنا شعبه عن قتادة عن أنس بن مالك يرفع الحديث فذكره.

أما ما جاء في «مناهل العرفان في علوم القرآن» على لسان مؤلفه من قوله عن قتادة: «غير أنه كان يخوض في القضاء والقدر، فتحرج بعض الناس عن الرواية عنه...»[2].

---

(١) أنظر «البداية» (٩/٣٥٣ - ٣٥٢) وترجمته في كتب الرجال،

(٢) «مناهل العرفان في علوم القرآن» للزرقاني (١/٤٨٩) ذكر عنه ذلك بعد أن نقل بعض ما تقدم لك عنه،

فالأشبه عندي أنه نقله عن صاحب كتاب «التفسير والمفسرون»[1] حيث استخدم نفس عباراته حرفاً بحرف.

لكن قد صرح صاحب «التفسير والمفسرون» أنه اعتمد في قوله على ما جاء في «وفيات الأعيان»[2]، وصاحب «وفيات الأعيان» كما هو مشهور عنه ينقل الغث والسمين دون تمحيص، وكم استوى في كتابه خلق كثيرون من الأكابر والأراذل، فأتعب من بعده ليريح نفسه، ولا يحمل ذمته، سامحه الله وعفا عنه.

وكأن القضية غير ثابتة عليه، حيث أن الحافظ ابن حجر أفرد له في تهذيب التهذيب ترجمة ذاخرة، ولكنه لم يشر ولم يلمح لهذه التهمة من قريب ولا بعيد، وبعد أن ذكر عنه أضعاف ما قدمنا من عدالته وضبطه وواسع اطلاعه، ذكر أن ما يعاب عليه هو نقله عن كل أحد، ولم يزد على ذلك.

أقول هذا دفاعاً عن هذا المحدث الجليل، ليعلم أهل البدع أني لا أصنع صنعهم، فأحمل قول ابن خلكان لأشهر بإمام كقتادة، جرياً لابطال قوله، فالحمدلله الذي جعلني من محبي الحق وطالبيه.

فهذه الأقوال الواردة عن السلف في تفسير هذه الآية، فلا يقبل ممن بعدهم دلالة النص على غير هذه المعاني، وهذا أصل عظيم غفل عنه كثير من الناس، مع أن أهل العلم قد نبهوا عليه، سواء في ذلك القول أو العمل.

يقول الإمام الشاطبي في كتاب الأدلة الشرعية من «الموافقات في أصول الشريعة»[3].

[إن الوجه الذي لم يثبت عن السلف الصالح العمل بالنص عليه لا

---

(١) للدكتور الذهبي.

(٢) «وفيّات الأعيان» (٢/١٧٩) لابن خلكان، وكأنه هو أيضاً التقطها عن ابن حبان فإنه قال في «الثقات» قتادة: كان من علماء الناس بالفقه والقرآن، ومن حفاظ أهل زمانه، مات بواسط وكان مُدَلِّساً على قَدْرٍ فيه.

(٣) «الموافقات» (ج٣ ص٧١).

يقبل ممن بعدهم دعوى دلالة النص الشرعي عليه «قال»: إذا لو كان دليلاً عليه لم يعزب عن فهم الصحابة والتابعين ثم يفهمه من بعدهم، فعمل الأولين كيف كان مصادم لمقتضى هذا المفهوم ومعارض له ولو كان ترك العمل، قال: فما عمل به المتأخرون من هذا القسم مخالف لإجماع الأولين، وكل مخالف لإجماع فهو مخطئ. وأمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلالة، فما كانوا عليه من فعل أو ترك، فهو السنة والأمر المعتبر وهو الهادي، وليس ثَمَّ إلا صواب أو خطأ، فكل من خالف السلف الأولين فهو على خطأ، وهذا كافٍ].

أما في «الاعتصام» فقال[1]:

[كل من اتبع المتشابهات، أو حرّف المناطات، أو حمّل الآيات ما لا تحمله عند السلف الصالح، أو تمسك بالأحاديث الواهية، أو أخذ الأدلة ببادىء الرأي ليستدل على كل فعل أو قول أو اعتقاد وافق غرضه بآية أو حديث لا يفوز بذلك أصلاً، والدليل عليه استدلال كل فرقة شهرت بالبدعة على بدعتها بآية أو حديث من غير توقف.

فمن طلب خلاص نفسه تثبت، حتى يتضح له الطريق، ومن تساهل، رمته أيدي الهوى في معاطب لا مخلص له منها إلا ما شاء الله].

أذكر ذلك وأنبه عليه، فقد رأينا كثيراً ممن لم يتحصنوا بالعلم، قد جعلوا السنة بدعة، والبدعة سنة، والحرام حلالاً، والحلال حراماً.

وكثير منهم حسب وساوس الشيطان إلهاماً من الرحمن، وتلاعب به إبليس كما يتلاعب بالكرة الصبيان، يوهمه ويمنيه ويعده، ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ويقذف في قلبه الفتنة، ثم يقول له: هذا حبل الله، والعروة الوثقى، فتمسك، واعضض عليه بكل ناجذ، فهو غاية المطلب ومنتهى المآرب، ليس للعباد بعد ذلك من مطمع، فيقضي المغرور بقية عمره وهو على ذلك بعيداً عن نور الكتاب والسنة يتيه في عتمة الجهل، وتقتنصه حبائل الشيطان ومكائده.

---

(١) «الإعتصام» (ص٢٨٥ / ١) وقد عقد في الموضوع فصلاً حافلاً.

نقض الاستدلال الرابع:

وهو استدلاله بقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال الغزالي: «قيل نوراً... وعظامي»[1].

وأول وجه اعتراض على هذا الاستدلال من حيث اشتراط التقوى في الآية، وتقدم أن التقوى لا تكون إلا بعلم، فلا يستقيم لأبي حامد ما أراد. فهو زعم أن التقوى هي تلك الخلوة المزعومة، مع أنها الالتزام بكل ما أمر الله والانتهاء عن كل ما نهى،

ووجه الاعتراض الثاني أنه جعل الفرقان بمعنى فتح العلوم من غير تعلم بنور يقذف في القلب، والمعروف في تفسير الآية عن ابن عباس والسدي ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد (فرقاناً) مخرجاً، زاد مجاهد في الدنيا والآخرة وفي رواية عن ابن عباس (نجاة) وفي رواية ثالثة (يجعل لكم نصراً)[2].

وإلى هذا جنح الرازي فقال: (يجعل لكم فرقاناً) المعنى إنه تعالى يفرق بينكم وبين الكفار[3] وهو قول الزمخشري في الكشاف: «نصراً لأنه يفرق بين الحق والباطل»[4] والقرطبي قال: «وسئل ابن وهب مالكاً عن قوله ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ فقال مالك مخرجاً وقرأ (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) ثم ذكر قول محمد بن إسحق والسدي وقال: وقال الفراء: فتحاً ونصراً[5].

نعم قد ورد عن محمد بن إسحق أنه قال: (فرقاناً) أي فصلاً بين الحق والباطل. كذا وقع عند ابن كثير، وقد ذكره الخازن الصوفي في تفسيره ولكن بسياق أتم فقال: قال محمد بن إسحق: فصلاً بين الحق والباطل، يظهر الله

---

(١) الحديث عند الشيخين وغيرهما من حديث ابن عباس

(٢) أنظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٣٠١) أو تفسير ابن جرير الطبري، و«مجموع الفتاوى» (ص١١/ ج١٣).

(٣) «التفسير الكبير ومفتاح الغيب» للرازي (١٥٨/ ج١٥).

(٤) «الكشاف» للزمخشري (٢/١٥٤).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٧/٣٩٧).

به حقكم ويطفىء باطل من خالفكم[1]، ثم قال: وقيل: يفرق بينكم وبين الكفار يظهر دينكم ويعليه. ويبطل الكفر ويوهنه. وقال الشيخ محمود مفتي الديار الشامية في زمانه في تفسيره المسمى «در الأسرار»: (فرقاناً) علواً على أعدائكم[2].

قلت: وتفسير الفرقان بالنصر هو أولى ما تفسر به لوجهين:

أولهما: كون الآية سيقت في مقام تعليم المؤمنين أسباب النصر في المعركة، والآيات فيها وبعدها عن القتال.

ثانيهما: أن كلمة الفرقان قد وردت في نفس السورة بهذا المعنى، قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

وهنا أقول: فمن أين أتى أبو حامد بهذا التفسير «نوراً يفرق بين الحق والباطل»[3]؟!!.

وقد تبين أن أقرب من قال به ابن إسحق، حيث قال فصلاً بين الحق والباطل، وعنى بالفصل النصر كما وضح الخازن، ونحن لو سلمنا بصحة هذا التفسير، فمن يقول أن المراد به فتح العلوم من غير تعلم، والاستغناء عما سوى الخلوات، وترك الاشتغال بالعلم.

---

(١) «لباب التأويل في معاني التنزيل» للخازن (ص٢١/٣) ولكن هذه الزيادة قد تكون من إدراجه، فالله أعلم.

(٢) «در الأسرار» (ص١٥٩)، جنح لقول ابن عباس وغيره: نصراً، لكن لم يقل نصراً حيث التزم في تفسيره إهمال الحروف المجمعة ـ أي التي مالها نقطة أو نقطتان أو ثلاث نقاط ـ فاقتصر على الحروف المهملة وهي أربعة عشر حرفاً، فقال: علوّاً.

(٣) ربما نقل ذلك عن الخازن، والخازن صوفي كما هو مشهور عنه، حيث أنه قال في تفسيره: «يجعل لكم نوراً وتوفيقاً في قلوبكم تعرفون به الحق والباطل»، قال ذلك هو تفسيراً ولم ينسبه لأحد (ص٢١/٣).

هذا مع القول بأن التقى يزيد الهدى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ ويزيد الإيمان[1]، وربما أرشد التقى لحكمة التشريع كما قال تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ وهذا المعنى كنت قرأته في بعض كتب شيخ الإسلام ابن يتيمة ولا أذكرالآن موضعه، وقد أصاب ابن كثير رحمه الله وأجاد حيث قال عند هذه الآية ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ كقوله ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ وقوله ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به**﴾[2].

والتقوى ربما أرشد للصواب في بعض المسائل، وأخرج من بعض الشبه كما تقدم، ولكن ذلك يجب أن لا يفهم منه ما فهم أبو حامد، حيث أن هذا الخروج نسبته للعلم نسبة الرقمة السوداء في جلد الثور لأبيض، وليس هو بعلم.

فقول الخازن وأبي حامد يكون مقبولاً على هذا المعنى مؤيداً بالبرهان، وأما على محمل أبي حامد فغلط قبيح، مع أنه ليس تفسيراً لهذه الآية. سواء على المحملين.

نقض الدليل الخامس:

وهو قوله «وسئل ﷺ عن قوله تعالى: أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، ما هذا الشرح؟ فقال: التوسعة، إن النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح».

والجواب هنا: إن الشرح المذكور في الحديث ليس للآية التي ساقها، بل جاء الحديث تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾.

---

(١) إرجع لما كتبته عن هذا الموضوع قبل صفحات عند الحديث عن الذكر بالقلب دون اللسان.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٣٧).

والحديث المحتج به رواه عبد الرزاق في المصنف، وابن جرير في التفسير وابن أبي حاتم، والحاكم النيسابوري في المستدرك، والبيهقي في الزهد وغيرهم، وقد اتفقوا جميعاً على أنها آية الأنعام ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام**﴾ لا آية الزمر ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام...**﴾ الآية.

وأبو حامد نفسه قد ذكر الحديث في كتاب العلم صواباً[1] وصدره بآية الأنعام، ولكن وقع الالتباس عنده في هذا الموضع، وكأن ذلك أيضاً اشتبه على الحافظ العراقي فلم يتنبه لذلك، ومن هنا يعرف أن النور الوارد في الحديث إنما هو الإيمان، لا ما زعم أبو حامد من الفتوح الربانية، وذلك أن آية الأنعام إنما المقصود بها أهل الكفر عندما يشرح الله صدورهم للإيمان والإسلام فيصبحون على نور، بعد أن كانوا في ظلام الكفر وحيرة الضلال.

وهذا صريح جداً في رواية ابن جرير وابن حاتم الذي التزم بإخراج أصح ما في الباب[2] ففيها: «قال رسول الله ﷺ :﴿**فمن يرد الله أن يهديَه يشرح صدره للإسلام**﴾ قال: إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح... الحديث»[3].

ولذلك قال ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام...**﴾ يقول تعالى: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به[3].

وبعد هذا، تأمل ما بين الإيرادين من الفرق والمباينة. فآية الأنعام قبل الإسلام، وآية الزمر بعد الإسلام.

نقض الاستدلال السادس:

وفيه أربع جمل:

---

(١) «الاحياء» (١/٧٧).

(٢) ذكر هذا في المقدمة.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢/١٧٤).

أولها: دعاؤه ﷺ لابن عباس بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

وثانيها: قول علي: «ما عندنا شيء أسره النبي ﷺ إلينا إلا أن يؤتي الله تعالى عبداً فهماً في كتابه».

ثالثها: تفسير قول الله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ الحكمة هي الفهم في كتابه(١).

---

(١) قال ابن عباس في قوله ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ «يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله»، وروي عنه: «الحكمة في القرآن» يعني تفسيره قال ابن عباس فإنه قد قرأه البر والفاجر، وقال مجاهد: «الحكمة الإصابة في القول»، وفي رواية ثانية: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ «ليست النبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن»، وقال أبو العالية: «الحكمة خشية الله فإن خشية الله رأس كل حكمة»، وروى ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً: «رأس الحكمة مخافة الله»، وفي رواية ثانية عن أبي العالية: «الحكمة الكتاب والفهم» وقال النخعي: «الحكمة: الفهم»، وقال أبو مالك: «الحكمة: السنة»، وقال السدي: «لحكمة: النبوة»، أنظر تفسير القرآن العظيم (١/٣٢٢) قلت: وقد تقدم في أول الكتاب قول الشافعي: «سمعت ممن أرضى به من أهل العلم أن الحكمة في االكتاب هي السنة».

وقال الفخر الرازي في تفسيره (٧/٧٣)[والمراد من الحكمة إما العلم وإما فعل الصواب، يروى عن مقاتل أنه قال: تفسير الحكمة في القرآن على أربعة أوجه:

(أحدها) مواعظ القرآن، قال في البقرة ﴿...وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به...﴾ يعني مواعظ القران ـ قلت: والحكمة هنا السنة والله أعلم، أنظر كتب التفسير ـ ثم قال: وفي الأنبياء ﴿... **وأنزل الله عليكم الكتاب والحكمة...**﴾ يعني المواعظ ـ قلت وهي السنة هنا كذلك والله أعلم لا المواعظ ـ ثم قال: ومثلها في آل عمران ـ قلت: عنى قوله تعالى ﴿... **ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والأنجيل...**﴾.

(ثانيها) الحكمة بمعنى الفهم والعلم ﴿... **وآتيناه الحكم صبياً...**﴾ ـ قلت: وهو قول الجمهور ـ ثم قال: وفي لقمان ﴿ولقد أتينا لقمان الحكمة﴾ يعني الفهم والعلم ـ قلت: وزاد بعضهم التعبير ـ ثم قال: وفي الأنعام: ﴿... **أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكمة...**﴾ ـ قلت: هو كذلك إن شاء الله ـ

(ثالثها) الحكمة بمعنى النبوة في النساء: ﴿... **فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة...**﴾ يعني النبوة ـ قلت وفي ذلك خلاف ـ ثم قال: وفي صٓ: ﴿... **وآتيناه** =

ورابعها: «ففهمناها سليمان».

وقد جمعت هذه الأربع في بوتقةٍ واحدة، لأن ما يبطلها واحد، وهو كون الفهم لا يكونَ إلا في النص، والنص بحاجة إلى حفظ وتعلم، وفاهم ليس بيده نص، كمقاتل ليس معه سلاح.

لذلك جاء في الحديث

«نضر الله امرأً سمع مقالتي فحفظها فوعاها فأداها كما سمعها، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[1].

فعبر ﷺ عن النص بالفقه «ورب حامل فقه» أي رب حامل نص إلى من يعرف كيف يستخرج فقهه.

والحبر ابن عباس رضي الله عنهما كان كلامه تفسيراً للقرآن وبياناً، وهذا ببركةِ قوله ﷺ «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[2].

الحكمة وفصل الخطاب..﴾ - قلت: وقيل هنا الفهم والعقل والفطنة والعدل وإتباع ما في الكتاب وقيل النبوة وهو قول السّدي - ثم قال: وفي البقرة: ﴿... آتاه الله الملك والحكمة...﴾ - قلت: هو كذلك إن شاء الله -

(رابعها) القرآن بما فيه من عجائب الأسرار، في النحل: ﴿...إدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة...﴾ - قلت: وفسّر ابن جرير هنا الحكمة بالسنة - ثم قال: وفي هذه الآية ﴿... ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا...﴾ - قلت: وقد قدمت لك الأقوال فيها

وفي الإسراء: ﴿... ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة...﴾ والمراد هنا ما تقدم من أوامر القرآن،

وفي الأحزاب: ﴿...واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة...﴾ وهي السنة هكذا جزم ابن كثير في هذا الموضع.

(١) أخرجه أبو داوود والترمذي وصححه، وفي البخاري «فليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه».

(٢) رواه البخاري وغيره.

حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: نعم ترجمان القرآن ابن عباس[1].

وحينئذٍ فلا بد من طلب الحديث لأنه شطر النص، ومعرفة صحيحه من سقيمه ومقبوله من مردوده، إلى ما في هذا العلم من أصول مرعية، وضوابط شرعية.

وثمة أمر آخر، وهو أن ذات الفهم لذلك له قواعده التي لا يقبل إلا بها، فإن أعملت اعتد به وإلاّ ترك وأهمل، ومن هنا كان القول: ليس كل فهم صحيحاً.

والعامي، بل وبعض أهل العلم قد يفهمون من النصوص ما لا تحتمل، أو ما يكون خطأً، وليس بعد النبي ﷺ من معصوم.

فمثل هؤلاء لا يقبل فهمهم حتى يعرض على تلك القواعد، التي منها، أن يكون الفهم مما تجيزه اللغة وتستسيغه، وبمثله تكلم العرب، وإلا خرجت الألفاظ عن مدلولها،وأن يكون الفهم غير متعارض مع نص من نصوص الشريعة، لأن نصوص الشريعة لا تتعارض، وأن يكون الفهم لا يخرق إجماعاً لأهل العلم، لأن الأمة لا تجتمع على ضلالة، فلم تبق الضلالة إلا للفهم المخالف، إذ الحق لا يتعدد في المسألة الواحدة على الصحيح.

ومن هنا يدرك أمر آخر، وهو أن من أراد أن يبدي فهماً فإنه مطالب بمعرفة نصوص الشريعة في المسألة التي أبدى فيها الفهم، وذلك لأمرين:

أولهما: حتى لا يتعارض الفهم مع أي من النصوص، وبالتالي يكون ملغياً.

وثانيهما: حتى يكون الفهم مستنبطاً من كامل النصوص في المسألة لا من بعضها ولا يجوز الاستنباط من بعض النص دون بعضه.

---

(١) رواه ابن جرير بأسانيد صحيحة، أنظر مقدمة تفسيره ومقدمة مختصره لابن كثير، (ج١/ص٣) وقد عاش ابن عباس بعد هذا القول ثلاثين سنة أو نحو ذلك.

وكذلك فإن الفاهم مطالب بمعرفة ما أجمعت عليه الأمة حتى لا يخالفها ويحق عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

ومعرفة ما أجمعت عليه الأمة لا يمكن أن يتلقى إلا بطريق التكسب، التي هي غير طريق أهل التصوف، وهذا أمر معلوم مبسوط في كثير من كتب الشرع وما نازع فيه أحد من أئمة المسلمين.

فأين هذا مما أراده أبو حامد من صاحب العزلة والخلوة الذي تخلى عن العلوم جملة واحدة!!

وأبو حامد نفسه كم وقع في كثير من الفهوم الخاطئة التي لا تقبلها لغة، وتأباها نصوص، وتخرق إجماعاً، وسوف يأتيك بإذن الله بعضها عند الحديث عن تفسير الملك أو القلم بالعقل، وعند الحديث عن عذاب القبر وأنواعه، وغير ذلك من تأويلاته الباطنية،

بل وابن عربي الطائي رأس المتصوفة يحكي في «الفصوص»[1] جملة مما فهمه من النصوص وبعض ذلك شرك وضلال، حتى رماه بعض علماء الإسلام بالكفر والزندقة[2].

---

(١) كتابه المسمى «فصوص الحكم».

(٢) انظر وفيات سنة ٦٣٨ في «الضوء اللامع» لابن حجر، و«البداية» لابن كثير (ج١٣/ ص١٥٦) حيث يقول: وله كتابه المسمى بفصوص الحكم وذكر فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح. قلت: من ذلك قوله عن الله وهو يصرح بعقيدة الحلول والإتحاد:

فيحمدني وأحمده   ويعبدني وأعبده
ففي حال أقرّ به   وفي الأعيان أجحده

«فصوص الحكم» (ص٨٣).

وقال:

فلولاه ولولانا   لما كان الذي كان
وأنا عينه فاعلم   إذا ما قلت إنساناً
فلا تحجب بإنسان   فقد أعطاك برهانا
وكن حقاً وكن خلقاً   تكن بالله رحمانا

«فصوص الحكم» (ص١٤٣).

أنـظر ماقاله عنه شيخ الإسلام «الصفـدية» (ج١ / ص٥) وغيـره من كتبه كمجمـوع الفتـاوى (ج٥ / ص٢٠٠) وما بعدها هذا وسيأتيك من صريح عباراته بالكفر بين طيات هذا الكتاب كثير، لكن يذكر هنا أن بعض العلماء ممن ذبوا عنه ولم يحكموا عليه بالكفر، لم يبدوا عذرهم أو عذره في هذه الأقوال التي سطرها في كتبه، وبعضهم يغرب فينفيها عنه! مع أنهـا في كتبه، وبعضهم يحـاول صرفهـا عن معناهـا بـطول التعسف والتكلـف من غير جدوى.

ومن جملة هؤلاء الذّابين الإمام السيوطي رحمه الله فقد صنف كتاباً في الدفاع عن ابن عربي وإتهامه بالقول بالحلول والأتحاد، أسماه «تنبيه الغبي بتنزيه ابن عربي»، فأغرب، وأبعد النجعة، وأظهر التعصب والنزعة، وحاول تبرأته لكنه لم يقدر على ذلك،
والكتـاب في الظاهـرية بـدمشق تحت رقم (٤٥٨٦) وقد كتب بخط رديء مستعجم، يقـال إنـه خط السيوطي نفســه، والكتـاب ذكـره صـاحب «هدية العارفيـن» (١ / ٥٣٤) ونسبه للسيوطي،

نبهت على ذلك حتى إذا ما سمـع به بعض طـلاب العلم عرفـوه، ولم يغتروا بـه، ثم يجعلوه حجة على من تتبع القيل والقال،
ومن يقرأ الكتاب يعرف ما فيه،

والسيوطي رحمه الله كان الأجدر به أن يفهم كلام ابن عـربي على ظاهـره ومعناه، بـل وعلى حال ابن عربي وما عرف عنه، ولا يتأول له التأويلات، سيما وقد حقق الجهابـذة كلامه بعدما قرأوه على مقتضى اللغة، وشاهدوا تلامذته وناظروهم فيما أراد ابن عربي، فازدادوا معرفة بما أراد، فنعتوه عندها بالكفر، بعد قيام الدليل والبرهان،
وأما أن يأتي السيوطي رحمه الله بعد ثلاثة قرون، وهو لم ير إبن عربي، ولا من رآه، ولا من رأى من رآه، ليخبروه بحقيقـة مراده، ثم يصرف الألفاظ عن مدلولها، ويستثني من غير برهان، فإن ذلك غير مقبول.
وهذا كله إن صحت نسبة الكتاب للسيوطي
وذلك أنه رحمه الله وجـد لـه مـن المصنفات والرسائل جم غفير، جعل كثيراً من النّقاد يشكون في نسبة كل هذه الكتب إليه، ذلك أن الذي ثبت أنه من تصنيفه وتأليفـه كثير كثير. «كالجامع الكبير» و«الأوسط»، و«الدر المنثور بالتفسير بالمـأثور»، وهـو كتاب لاَ يلحق فيه شأوه، وشرح الموطـأ، شرحين «كشف المغـطى في شرح المـوطأ» و«تنـوير الحوالك على موطأ مالك» وشرح البخاري بـ«التوشيح على الجامع الصحيح» ومسلماً بـ«الـديباج على مسلم بن الحجـاج» والترمـذي بـ«قوت المغتـذي» وأبا داوود بـ«مرقاة الصعود» وابن ماجة بـ«مصباح الزجاجة» ثم للنسائي «المجتبى» بـ«زهر الربى» وغير ذلك

فيزعم أن فرعون كان أهدى من موسى عليه السلام، وإنه كان صحيح الإيمان[١]، وإن الولي خير من النبي، وأعلم منه، وفوقه في التلقي[٢] وإن العذاب والنعيم واحد[٣] وأنشد:

فإن دخلوا دار الشقاء فإنهم ... على لذة فيها نعيم مباين

والحاصل أن هذا النوع قد ضلت فيه أفهام، وزلت أقدام، وتاهت أحلام، ممن لم يتبينوا معنى الفهم وحدوده، بل ومصادره.

هذا، واعلم أن كثيراً من الفهم إنما يدرك بالتعلم كذلك، وهو ما يعرفه الحذاق المتضلعون من أهل النظر والاستدلال والاعتبار.

من مؤلفاته في اللغة «كهمع الهوامع»، والتاريخ، «كالنجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة»، وكتبه الطويلة العريضة التي تنقضي الأعمار ولا تنقضي.

وفي كتاب «مخطوطات السيوطي» ذكر فيه مؤلفاه ما يزيد على الألف، ثم لقيت الأخ محمد الشيباني أحد مؤلفي الكتاب، فأخبرني أنه وقف بعد ذلك على ضعفي ما ذكر فيه، وأنه ينوي أن يلحق فيه ملحقاً ضخماً، فالله أعلم،

وأثناء وجودي في دار المخطوطات كنت كثيراً ما أسأله عن بعض الرسائل له، فربما أغربت عليه!! من ذلك « نثل الكنان في الخشكنان» التي أودعتها كتابي الصادر عن تلك الدار على ما أذكر إذ الكتاب لا تصل إليه يدي الآن، فقد أخبرني أنه لم يعرفه من جملة ما عرف، ومن يقرأ «الابريز» لإبن المبارك يقف فيه على مئات من كتب السيوطي في بعضها جهالة. والحاصل أن رسالة السيوطي هذه تحتاج إلى طول تحقيق، وبحث وتدقيق، هذا مع كون السيوطي له مصنف أسماه «تنزيه الاعتقاد عن الحلول والاتحاد» وهو موجود في الظاهرة بدمشق تحت رقم /٣٨٧٢/ وهو في «كشف الظنون» (١/ ٤٩٤).

(١) وهذا ما حدا ببعض المتصوفة لأن يصنف رسالة أسماها «رسالة في صحة إيمان فرعون» وهو محمد بن أسعد الصديقي الشافعي المتوفي في حدود سنة ٩٢٨ على التقريب، والرسالة في الظاهرية برقم (٣٦٢٤) وذكرها صاحب «معجم المؤلفين» (٩/ ٤٧).

(٢) أنظر نقض الدليل العاشر من هذا الكتاب.

(٣) أنظر قول ابن عربي في ذلك من «الفصوص» (ج١/ص٩٤) وانظر رد شيخ الإسلام ابن تيمية على هذه الأقوال (مجموع الفتاوى ج١٣/ ١٨٨).

ورحم الله الإمام الشافعي القائل:

أخي لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبئك عن تفصيلها ببيان

ذكاء واجتهاد وحرص وبلاغة ... وصحبة استاذ وطول زمان

والقائل أيضاً:

تعلم إذا ماكنت لست بعالم ... فما العلم إلا عند أهل التعلم

تعلم فإن العلم أزين للفتى ... من الحلّةِ الحسناء عند التكلم

وقال البخاري «إنما العلم بالتعلم» فقال ابن حجر في الشرح[1]: «هو حديث مرفوع أورده ابن أبي عاصم والطبراني من حديث معاوية بلفظ «يا أيها الناس تعلموا، إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» إسناده حسن، إلا أن فيه مبهماً اعتضد بمجيئه من وجه آخر وروى البزار نحوه من حديث ابن مسعود موقوفاً، ورواه أبو نعيم الأصبهاني مرفوعاً، وفي الباب عن أبي الدرداء وغيره فلا يُغترّ بقول من جعله من كلام البخاري، والمعنى ليس العلم المعتبر إلا المأخوذ من الأنبياء وورثتهم على سبيل التعلم».

نقض الدليل السابع:

«وكان أبو الدرداء يقول: المؤمن ينظر بنور الله تعالى من وراء ستر رقيق، والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم، ويجريه على ألسنتهم».

وفي هذا الاستدلال جملة مسائل:

أولها: هل يصح هذا القول عن أبي الدرداء رضي الله عنه

ثانيها: هل النور المذكور في قول أبي الدرداء رضي الله عنه محصور بمن ذكرهم أبو حامد أم هو مطلق في حق كل مؤمن؟.

ثالثها: هل النور وذلك الحق مستوعب لجميع العلوم؟

رابعها: هل في القول ما يدل على الاستغناء عن طلب العلم؟.

---

(١) فتح الباري (١/١٦١).

أما جواب المسألة الأولى: فهو أن القول ذكر من غير إسناد ولا عزو، وليس هو من باب الموقوف أو المرفوع من الحديث، ولذلك لم يتكلم العراقي في تخريجه.

وأكثر من ذلك فإن الكلام غير مشتهر عن أبي الدرداء، وعلى فرض شهرته عنه، فإن الحكم والحالة هذه، إن هذا القول يكون من جنس ما يعتضد به، لا من جنس ما يعتمد عليه، هذا إن كان فيه ما يستدل به لأبي حامد، وليس فيه ذلك، كما في الجواب الثاني والثالث.

أما الجواب الثاني: فإن النور المذكور ليس محصوراً بمن ذكرهم أبو حامد، بل هو منسوب لجميع المؤمنين، فلا معنى لتقييده بالطائفة التي ذكرها أبو حامد.

وأما الجواب الثالث: فإن القول ليس فيه التصريح باستيعاب جميع العلوم، بل ولا بعضها فقول أبي الدرداء رضي الله عنه ـ إن ثبت عنه ـ حق ولا ينازع فيه مسلم، فإنه ما من مؤمن إلا ويجد في قلبه حقاً، وربما جرى على لسانه بعض ذلك الحق، في بعض الأمور، ومنه ما يغلب على نفسه أنه الحق، ومنه مايشك فيه أو يتردد، ولكن قد يجد أيضاً ما ليس بحق فيحسبه حقاً ثم يتبيّن له خلافه، ولكن ما يصدق يغلب عند المؤمنين على ما لا يصدق، وهو في كل هذا لا يكون مستوعباً كل الحق.

ورابع الأجوبة وآخرها: أنه ليس في قوله أي دعوة للاقتصار على الخلوة والتصفية لطلب العلم ولا الاستغناء عما استغنى عنه الغزالي.

نقض الدليل الثامن:

«وقال بعض السلف: ظن المؤمن كهانة».

والجواب: إن القول المذكور ـ إن ثبت[1] ـ فيه تشبيه الظن بالكهانة،

---

(١) لم أقف على هذا القول بعد طول البحث، وليس له أثر في الكتب السبعة كما في «المعجم المفهرس» ولا المسانيد الثمانية كما في «المطالب العالية» لابن حجر ولا عند من

والكهانة محرمة كما جاء في الحديث «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد»(١).

وعليه فالظن محرم، وقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ . . . ﴾ ومعلوم أن المخاطبين في هذه الآية هم المؤمنون.

والنبي ﷺ قال لأصحابه الذين هم أعمق إيماناً «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»(٢) ووجه الشبه بين الظن والكهانة أن كلاً منهما رجم بالغيب من غير دليل، ولا يجوز البناء على أي منهما ولا اعتقاد ذلك.

ولذلك فإنني لا أجد معنى لأقحام أبي حامد هذا القول في هذا الموضع، والاستشهاد به، إلا أن يكون رمى إلى أن بعض ظن المؤمن يصدق، كما قد تصدق بعض الكهانة، فإن أراد ذلك فهو ممّا يستدل به عليه.

نقض الدليل التاسع :

وهو الاستدلال بقوله ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى . . .».

والحديث المذكور انفرد به الترمذي الإمام من بين السبعة، وقال بعد إخراجه: «حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه وقد روى عن بعض أهل

= يخرج المراسيل أو المرفوعات أو الموقوفات كأبي داوود في «المراسيل» والمزي في «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» والبغوي في «شرح السنة»، ولا عند من اشتغل بإخراج المشتهر، كالسيوطي في «الدرر المنتشرة»، والعجلوني في «كشف الخفاء»، وغير ذلك من كتب المطولات.

(١) رواه البخاري ولمسلم نحوه لكنه قال: بات أربعين يوماً لا يقبل له صوم ولا صلاة، وأخرج الطبراني اللفظين بسند ليّن.

(٢) متفق عليه،

العلم[1] وتفسير هذه الآية ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال للمتفرسين».

قلت: فهو بهذا اللفظ لا يصح، لكن أخرجه ابن جرير والبزار كلاهما من طريق أبي بشر عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم»[2].

---

(١) جاء في منتخب «كنز العمال» (١/٢٣٨) بحاشية مسند الإمام أحمد: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل» رمز للبخاري في التاريخ، والترمذي عن أبي سعيد، والحكيم في «نوادر الأصول» وسمويه والطبراني في «الكبير» وابن عدي في «الكامل» عن أبي أمامة، وابن جرير عن ابن عمر، و«احذروا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله» أخرجه ابن جرير عن ثوبان انتهى.

وقال العجلوني في «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» (١/٤٢) بنحو هذا الذي تقدم في المنتخب ثم قال: وطرقه كلها ضعيفة، وبعضها متماسك فلا يليق مع وجودها الحكم على الحديث بالوضع (ملخصاً). قلت: وهذا معنى قول الإمام الترمذي: «وقد روى عن بعض أهل العلم» فـ«رُوى» بالبناء للمجهول إحدى صيغ التمريض الدالة على ضعف الحديث. وأحسن طرقه طريق الترمذي قال:

«حدثنا محمد بن إسماعيل ـ يعني البخاري ـ حدثنا أحمد بن أبي الطيب حدثنا مصعب بن سلام عن عمر بن قيس عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ فذكره...» فطريق البخاري والترمذي واحدة،

وفي هذه الطريق عطية العوفي الراوي عن أبي سعيد رضي الله عنه، وهو ضعيف مدلس، فلا يصح، وبذلك جزم المحدث الألباني، فإلى «سلسلة الأحاديث الضعيفة» رقم (١٨٢١) وجاء في مستدرك الحاكم «إن لكل قوم فراسة...» وصححه، لكن حكم عليه الصنعاني بالوضع، (كشف الخفاء) (١/٤٢).

وأما ابن جرير عن ابن عمر وعن ثوبان (٣٢/١٤٠) ففي الأول فرات السائب وهو متروك، وفي حديث ثوبان نوفل بن سعيد الرجي وهو منكر الحديث.

وما رواية الطبراني (٧٤٩٧) ففيها عبد الله بن صالح كاتب الليث، سيء الحفظ.

(٢) جاء في «منتخب كنز العمال» للمتقي الهندي (١/٢٣٨) على حاشية مسند الإمام أحمد:

«إن لله تبارك وتعالى عباداً يعرفون الناس بالتوسم» أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، والبزار عن أنس، (٣٦٢٠)، وقد ذكر ذلك الهيثمي في «المجمع» ونسبه للطبراني في «الأوسط» وقال إسناده حسن، وحسنه أيضاً السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٢٠) أما العجلوني فقال ما ملخصه:

وهذه الرواية توضح معنى الحديث، وهو أن بعض المؤمنين قد يعرفون حال من ينظرون إليه ولا يقعون فيما قد يقع فيه غيرهم من الاغترار بالمظاهر.

وقوله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ هو من هذا الضرب ولكن في حق المتوسِّم فيه.

ولذلك قال ابن عباس في هذه الآية: يعني السمت الحسن، وقال غيره الخشوع والتواضع[1] وذلك أن أعمال ابن آدم تظهر في وجهه، تَقْرَأ.

فأخرج ابن ماجه «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»[2] ونحو هذا يذكر عن عمر وعثمان رضي الله عنهما[1] وعند الطبراني - من حديث جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر».

لكن في رواته العزرمي وهو متروك.

وفي هذا المعنى ما أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث أبي

= روى الطبراني والبزار وأبو نعيم بسند حسن عن أنس رفعه:
«إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم».
(كشف الخفاء ومزيل الالباس) (٤٢/١).

قلت: فعلى حد قول هؤلاء أنه حسن، والحسن في الحكم كالصحيح عند جمهور أهل العلم، إلا البخاري ومن ذهب مذهبه، (أنظرمقدمة«نيل الأوطار»للشوكاني)

هذا، ولا تقل فكيف يحسن وقد أخرجه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»، وقد نبهت غير مرة على أن ما في «النوادر» ضعيف،

فالجواب على ذلك أن الحكم بالضعف على حديث يخرجه الحكيم إذا انفرد به، وأما أن يكون الحديث صح عند غيره، ولكن أخرجه هو بسند ضعيف، فلا يكون الحديث ضعيفاً، وهذا لا يخفى على أدنى طلاب العلم، وخاصة من يعلم أن الحكيم ما تعمد إخراج الضعيف،

ولكن نبهت على ذلك، إذ «لكل علم ملتقط».

(١) أنظر كتب التفسير، و«تفسير القرآن العظيم» (٢٠٤/٤).

(٢) وقيل وهو موقوف على جابر، وسنده حسن والله أعلم.

سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كُوَّة لخرج عمله للناس كائناً ما كان» وفي إسناده ابن لهيعة، والخلاف فيه معروف.

والشاهد من هذا، أن ابن آدم يحمل سيماه في وجهه، وهي تكون في بعض الناس أظهر من بعض بحسب أعمالهم.

حتى قال الإمام مالك: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا[1].

وقال مرة: «لقد رأيت النضرة في وجوه أصحاب الحديث ببركة دعوة النبي ﷺ» يعني قوله: «نضر الله أمرأً سمع مقالتي فحفظها فوعاها فأداها... الحديث»[2]

فإن كانت ظاهرة ساطعة قرأها كل الناس، كما هو ظاهر الأحاديث وحكاية مالك، والوقائع، والمشاهدة، وكلما بهتت، وتلاعب بها النفاق من تحسين الدَّلّ والهيئة، كلما تعذرت قراءتها، حتى تقتصر على العباد الواردين في الحديث.

ولذلك صدَّر الحديث بقوله «اتقوا فراسة المؤمن...» وفي رواية «أحذروا...» لأنكم مكشوفون معلنون، وهذا قريب مما جاء عن الدجال أنه «كتب بين عينيه كافر يقرؤها كل مؤمن»[3]

وكذلك الآية الواردة في الحديث فهي تشهد بذلك، وكذا تفسير السلف، فإنه لا يخرج عما ذكرت، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٠٤).
(٢) الحديث تقدم أنه في السنن بسند صحيح، وقول مالك قرأته غير مرة في كتب إبن تيمية، ولااستحضر موضعه الآن.
(٣) رواه البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فآثار تلك الصيحة وذلك العذاب بينة لم تدرس، يقرؤها كل متوسم، قال ابن عباس: للمتوسمين أي للناظرين، وكذا قال الضحاك، وقال قتادة للمعتبرين، وقال الإمام مالك عن بعض أهل المدينة (للمتوسمين) للمتأملين، وقال مجاهد: للمتوسمين للمتفرسين، وقال مقاتل: للمتفكرين[1].

قال العلاّمة ابن القيم رحمه الله: «ولا منافاة بين هذه الأقوال»[2].

قلت: وهذا صحيح، لأن العاقل إذا نظر تأمّل، وإذا تأمل تَفكّر، وإذا تفكر اعتبر، وهو المتفرس، إذ التفرُّس هو بمعنى التوسُّم[3].

---

(١) أنظر كتب التفسير من سورة الحجر.

(٢) أنظر مدارج السالكين (منزلة الفراسة) أو تهذيب مدارج السالكين (ص١١٠).

(٣) قال العجلوني: [وفي شرح مثلثة قطرب للشيخ برهان الدين اللخمي: الفراسة بكسر الفاء، قال في الصحاح الفراسة بالكسر، الإسم من قولك تفرست فيه خيراً] (كشف الخفاء ٤٢/١).

وقال صاحب «لسان العرب» (١٦٠/٦):

[الفراسة بالفتح: العلم بركوب الخيل وركضها،

وتفرّس في الشيء توسّمه، والإسم الفراسة بالكسر. وفي الحديث «إتقوا فراسة المؤمن...»

قال إبن الأثير: يقال بمعنيين، أحدهما: ما دل ظاهر الحديث عليه، وهو ما يوقعه الله في قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس.

والثاني: نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق، فتعرف به أحوال الناس، وللناس فيه تصانيف كثيرة قديمة وحديثة، واستعمل الزجاج منه أفعل، فقال: أفرس الناس أي أجودهم وأصدقهم فراسة ثلاثة: إمرأة العزيز في يوسف عليه السلام، وابنة شعيب في موسى عليهما السلام، وأبو بكر في توليه عمر رضي الله عنهما] إنتهى ما جاء في اللسان.

قلت: ومن قبيل ما ذكر ابن الأثير ما أخرج ابن عدي في «الكامل» والبيهقي في «شعب الإيمان» من حديث ابن مسعود موقوفاً «اعتبروا الأرض بأسمائها، واعتبروا الصاحب بالصاحب» وشطر الحديث الأول ينطبق على ما ذكره أهل السير من قول الحسن لما وصل إلى كربلاء، فقال: هي كرب وبلاء. وأخرج الحاكم وصحح «اعتبروها بأسمائها وكنّوها بكناها» عن أنس، وشطر الحديث الثاني: هو في معنى ما أخرج الطبراني في «الكبير» عن عقبة بن عامر «إن الرجل إذا رضي هدى الرجل وعمله فهو مثله» وفي المثل «قل لي من

وفي معنى التوسم حديث الزبير قال: لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعى حتى إذا كادت تشرف على القتلى، قال: فكره النبي ﷺ أن تراهم فقال: المرأة المرأة، قال الزبير رضي الله عنه: فتوسمت أنها أُمّي صَفيَّة، فخرجت أسعى إليها. . . الحديث»[1].

قال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن[2]:

[قال العلماء: التوسم فعل من الوَسْم، وهي العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها، يقال توسَّمت فيه الخير إذا رأيت ميسم ذلك فيه.

= تصاحب أقل لك من أنت» وفي الشعر «إن القرين بالمقارن يقتدي». وهو في الوقائع كثير، وهذا يعرف من باب التجربة كذلك،

وفي البخاري لما جاء سهيل بن عمرو ويوم صلح الحديبية قال ﷺ: «وقد سهل الله لكم من أمركم». ومثل ذلك تغييره لبعض أسماء الصحابة.

وأما ما يعرف بالخلْق كما ذكر: فمن قبيله حديث «الزرقة في العين يمن» أخرجه ابن حبان في «الضعفاء» عن عائشة والحاكم في «تاريخه» والديلمي عن أبي هريرة، لكنه ضعيف، وحديث من «سعادة المرء خفة لحيته» أخرجه الطبراني في «الكبير» وابن عدي في «الكامل» من حديث ابن عباس، وحديث «جعل الخير كله في الربعة» أخرجه ابن لال عن عائشة، وهما ضعيفان كذلك وحديث «من سعادة المرء أن يشبه أباه» أخرجه الحاكم في «مناقب الشافعي» عن أنس، وحديث «الشيب في مقدم الرأس ثم العذارين سخاء، وفي الذوائب شجاعة وفي القفا شؤم» أخرجه الديلمي عن ابن عمر، وهو والذي قبله ضعيفان، ولا أعلم أنه يصح في هذا الباب شيء، والمتقي الهندي يذكر في باب الفراسة أضعاف ما ذكرت ولكن لا يسلم في هذا المعنى حديث واحد، والله أعلم.

وأما ما يعرف بالأخلاق: فمن قبيله حديث «من سعادة إبن آوم رضاه بما يقضي الله واستخارة الله، ومن شقى ابن آدم سخطه بما يقضي الله وتركه استخارة الله. . .» أخرجه الإمام أحمد في «المسند» والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» وابن عساكر في التاريخ عن سعد وأحاديث من سعادة المرء كذا وكذا كثيرة، وفيها من المقبول غير قليل.

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١/١٦٥) والبيهقي في «السنن» (٤/٤٠١)، وإسناده جيد.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٤٣ ـ ٤٤ ـ ١٠/٤٥).

وفيه قول عبد الله بن رواحة للنبي ﷺ:

إني توسمت فيك الخير أعرفه   والله يعلم أني ثابت البصر[1]

وآخر:

توسمته لما رأيت مهابة   عليه وقلت المرء من آل هاشم

واتسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يعرف بها.

وقال ثعلب[2]: الواسم الناظر إليك من فَرْقِكَ إلى قَدَمِك، وأصل التوسم التثبت والتفكر، مأخوذ من الوَسْم، وهو التأثير بحديدة في جلد البعير وغيره، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصفاء الفكر.

زاد غيره: وتفريغ القلب من حشد الدنيا، وتطهيره من أدناس المعاصي وكدورة الأخلاق وفضول الدنيا.

روى عن ابن عباس: (للمتوسمين) قال لأهل الصلاح والخير، وزعمت الصوفية أنها كرامة.

وقيل: بل هي استدلال بالعلامات، ومن العلامات ما يبدو ظاهراً لكل أحد بأول نظرة، ومنها ما يتخفى فلا يبدو لكل أحد، ولا يدرك ببادىء النظر.

ثم قال: ومن أمثال ذلك ما جرى مع الإمام الشافعي ومحمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة وقد نظرا لرجل يطوف بالبيت، فقال أحدهما إنه نجار، وقال الآخر إنه حداد، ثم اجتمعا معه بعد في مجلس واحد فسألوه، فقال: كنت نجاراً، وأصبحت حداداً.

---

(١) جاء عند ابن سعد (٣/٢/٨٠ ـ ٨١)، وابن هشام (٢/٤/٣٧)، و«أسد الغابة» (٣/٢٣٥)،

أني توسمت فيك الخير أعرفه،   فراسةً خالفتهم في الذين نظروا

فهذا في المعنى أظهر.

(٢) النحوي المشهور.

وذكر من أمثلة ذلك أيضاً قول ابن عباس: ما سألني أحد إلا وعرفت إن كان فقيهاً أو غير فقيه وقصة أنس لما دخل على عثمان رضي الله عنهما، وكان قد رأى من حسن امرأة قد مرّت بقربه، فقال له عثمان رضي الله عنه: يأتي أحدكم والزنا في عينيه، أما علمت أن زنا العين النظر، فقال أنس: أوحي بعد النبي!!

فقال عثمان: لا ولكن برهان ودليل وفراسة صادقة[١].

ثم قال القرطبي:

قال القاضي أبو بكر ابن العربي: «إذا ثبت أن التوسم والتفرس من مدارك المعاني، فإن ذلك لا يترتب عليه حكم، ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرّس.

وقد كان قاضي القضاة الشامي المالكي البغدادي أيام كوني بالشام يحكم بالفراسة في الأحكام،جرياً على طريق أياس بن معاوية أيام كان قاضياً، وكان شيخنا فخر الإسلام أبو بكر الشاشي صنف جزءاً في الرد عليه كتبه لي بخطه وأعطانيه.

وذلك صحيح فإن مدارك الأحكام معلومة شرعاً مدركة قطعاً، وليست الفراسة منها»] انتهى.

قلت: وهذا هو الحق إن شاء الله، فهناك خواطر تهجم على القلب وتثب عليه وثوب الأسد على فريسته[٢] وتستحكم فيه ولكن نسبتها إلى العلم باطله ولا يجوز أن يطلق عليها علم ولا معرفة[٣]. وأعظم ما يفرق بينها وبين

---

(١) والقصة ذكرها الغزالي في أحيائه من هذا الباب.

(٢) ويقال إن اشتقاق الفراسة أخذ من هذا المعنى،

(٣) وهذه المعاني كثيراً ما تحضر عند الفطاحل ولا يصرحون بها، حتى حكى العلامة ابن القيم إن شيخ الإسلام إبن تيمية كثيراً ما تحضره مثل هذه المعاني، فيضرب عنها ويتمثل:

فكلما لاح لي من البرق نجدي أقول يا طيف إني عنك مشغول.

العلم أن العلماء أجمعوا ـ إلا من شذ ـ أنه ليس للقاضي أن يقضي إلا بالشهود أو البينة، وإن استحكم في نفسه غير ذلك، وغلب بفراسته النقيض، وقد قضى القاضي شريح بالدرع لليهودي، مع علمه أن الإمام علي صادق فيما يقول، وإن اليهودي كاذب، لما لم تكن لأمير المؤمنين بينة ولا شهود والقصة مشهورة.

والنبي ﷺ أصدق المؤمنين فراسة قال: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذن منه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من النار»(١).

ولهذا لما استؤذن النبي ﷺ في قتل بعض المنافقين قال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»(٢) فإنهم من أصحابه في الظاهر، وإن كان استحكم في نفوس الذين طلبوا منه ﷺ القتل أنهم منافقون، حتى طلبوا قتلهم.

وثبت في الصحيحين أنه اختصم إلى النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص، وعبد بن زمعة بن الأسود، في ابن وليدة زمعة.

وكان عتبة بن أبي وقاص قد فجر بها في الجاهلية وولدت منه ولداً، فقال عتبة لأخيه سعد: إذا قدمت مكة فانظر ابن وليدة زمعة فإنه ابني.

فاختصم فيه هو وعبد بن زمعة إلى النبي ﷺ.

فقال سعد: يا رسول الله، ابن أخي عتبة، عهد إليَّ أخي عتبة فيه، إذا قدمت مكة انظر إلى ابن وليدة زمعة فإنه ابني، ألا ترى يا رسول الله شبهه بعتبة؟

(١) أخرجه مسلم ومالك في الموطأ وغيرهما، انظر شرح النووي على مسلم كتاب القضاء، والسيوطي في «تنوير الحوالك على موطأ مالك» ٢/١٩٧ وتقريرهما للمعنى الذي ذكرت. وكذا كتاب المظالم عند البخاري في صحيحه «باب اثم من خاصم في باطل وهو يعلمه».

(٢) رواه البخاري وغيره.

وقال عبد: يا رسول الله، أخي، وابن وليدة أبي، ولد على فراش أبي، فرأى النبي ﷺ شبهاً بيناً بعتبة فقال: «هو لك يا عبد بن زمعة، الولد للفراش، وللعاهر الحجر، احتجبي منه يا سودة»، لما رأى من شبهه البين بعتبة.

ففي هذه القصة دليلان متعارضان: الشبه والفراش، والنسب في الظاهر لصاحب الفراش، فقال: «الولد للفراش».

وأما الشبه الذي هو من باب التفرس فلم يحكم به، ولا جعله دليلاً وقال: «وللعاهر الحجر» كما يقال: بفيك الكثكث، وبفيك لأثلب، أي التراب، والمعنى لا شيء لك إلا الخيبة.

وقائل قد يقول: أفلا تراه عمل بالفراسة في قوله «واحتجبي منه يا سودة» والجواب من أوجه:

أولها: إن أمره ﷺ لسودة بالاحتجاب ليس لنا الجزم فيه بأن الباعث عليه التفرس بل الأقرب والأصح أن الباعث عليه شهادة سعد.

فإن قلت: ولكن تعليل الراوي «لما رأى من شبهه بعتبة» لا شهادة سعد.

قلنا: أرأيت لو لم يشهد سعد، أما كان يلحق بأمه دون خصام مهما شابه عتبة، فإن قلت: لا، فقد خالفت الإجماع.

هذا، واعلم أن الشبه وقع من ضمن شهادة سعد فيلتحق بها.

ثم إن عدت فقلت: فلم لم يحكم بالولد لعتبة مع أنه اعتبر شهادته، أجبناك: لأن شهادته تدرأ بشهادة عبد، وتبقى بيّنةُ الفراش قاضيةً على احتمال التفرُّس.

ثانيها: إنه أمرها بالاحتجاب لأنه ممكن من غير ضرر، فلا بأس به لسد الذريعة، فإن قلت: ولكنك أنشأت حكماً حيث لم يعد الولد لسودة محرماً.

قلنا: كذلك كل فروع سد الذرائع تنشىء أحكاماً.

فإن قلت: فما الحكم الذي نشأ عنه سد الذريعة أليس هو التفرس.

قلنا: منشؤه شهادة سعد، لا التفرس، وذلك أن العلماء أجمعوا ـ إلا من شذّ ـ إن ابن الملاعنة ليس بولد في الميراث ونحوه، وهو ولد في تحريم النكاح والمحرمية، وذلك أنهم أعملوا أيْمان الرجل وزوجته كليهما.

ولو أن للتفرس موقعاً في الشرع لكان اعتباره هنا من الضرورات، ـ أعني في الملاعنة ـ وكذلك الحال هنا حيث أثبت لسودة أخته الميراث ونفي المحرمية.

ولكن انعكست الصورة هنا عن الملاعنة، فإن الولد في الملاعنة تكوّن في فراش الأب على الظاهر فيلحق به، دون التوارث لأنه عاد فأنكره.

وحاصل ما تقدم أمران:

أولهما: معنى التفرس الذي هو التوسم، وافتراقه عن المعنى الذي عناه أبو حامد.

ثانيهما: عدم اعتماد التفرس من مصادر العلم والشرع.

هذا، وليعلم أن أحق الناس بالفراسة وأليقها بهم هم السلف الصالح رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين، الذين هم أعمق المؤمنين فكرة وأصفاهم قريحة، وأحدهم خاطراً وأرقهم قلوباً، وأشدهم تقوى ومخافة.

ومع هذا كله فقد أعلن فاروقهم على المنبر:

[يا أيها الناس، ألا إنا إنما[1] كنا نعرفكم إذ بين ظهرينا النبي ﷺ، وإذ ينزل الوحي وإذ ينبئنا الله من أخباركم، ألا وإن النبي ﷺ قد انطلق، وقد انقطع الوحي، وإنما نعرفكم بما نقول لكم، من أظهر منكم خيراً ظننا به خيراً وأحببناه عليه، ومن أظهر منكم شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه، سرائركم بينكم وبين ربكم، ألا إنه قد أتى عليّ حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن يريد الله وما عنده، فقد خيل إلي بآخره، ألا إن رجالاً قد قرأوه يريدون به ما عند الناس، فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم... إلى آخر ما قال][2].

---

(١) أداة حصر تفيد أن المعرفة كانت فقط عن طريق ما ذكر ولا شيء سواه

(٢) رواه الامام أحمد في المسند بهذا اللفظ مع زيادة من حديث أبي فراس (١/٤١)=

وقد عد بعض العلماء من الفراسة ما كان من التنبه لبعض المعاني الخفية في النصوص، ودقائق المسائل، وهو من قبل الفهم، وتقدم الحديث عليه، وبعضهم ذكر لها نوعين آخرين يشترك فيهما المؤمن الكافر، ضربت عنهما صفحاً حتى لا يطول المقام[١].

نقض الدليل العاشر:

وهو قوله بأن النبي ﷺ قال: «العلم علمان، فعلم باطن في القلب، فذلك هو العلم النافع» وسئل بعض العلماء عن علم الباطن ما هو؟ فقال: هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبابه، لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً.

والجواب على هذا الاستدلال، أن الحديث من المراسيل، ولا يصح عن النبي ﷺ، فقد أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول بسند ضعيف، من حديث الحسن مرسلاً، وابن عبد البر كذلك من حديث الحسن مرسلاً لكن إسناده صحيح، ورواه الخطيب البغدادي في التاريخ من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد على حد قول الحافظ العراقي ثم قال: وأعلّه ابن الجوزي[٢] فالحديث من مراسيل الحسن على الصحيح والحسن هو البصري كما سيأتي في «الذهب»[٣] هذا وإن الناس قد اتفقوا على رد مراسيل الحسن جميعها ـ مع إمامته ـ سواء منهم من قبل المراسيل أو من ردها[٤]، فهذا وجه.

= والخطبة أيضاً أخرجها ابن سعد وابن عبد الحكم في «فتوح مصر»، و مسدد في «المسند»، وابن خزيمة والحاكم والعسكري في «المواعظ»، وأبو ذر الهروي في «الجامع»، وابن عساكر في «التاريخ» والبيهقي وسعيد بن منصور في «السنن» انظر منتخب كنز العمال (٦/٣٠٧) بحاشية المسند.

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ٤٩٩ الطبقة الثامنة.

(٢) انظر تخريج الحديث في كتاب العلم من «الاحياء» (١/٥٩) وجاء في «المنتخب» (٤/٥١) بحاشية المسند: رواه ابن أبي شيبة والحكيم عن الحسن مرسلاً، والخطيب عن جابر.

(٣) «الذهب الإبريز في المعجم الوجيز» (ص١٩٣).

(٤) فمن أهل العلم من رد المراسيل جميعها وهو قول أكثر أئمة الحديث على حد قول=

= الإمام مسلم في مقدمة صحيحه (ج١ / ٣٠) ومنهم من توسط فقبله عند المتابعة ونحوها، ومنهم من قبل مطلقاً إلا أن هذين الفريقين اشترطا في المرسِل أن لا يحدث إلا عن ثقة ، وهذا لا ينطبق على الحسن البصري كما سيأتي وانظر («التمهيد» ١ /٥) و(«الكفاية» ٣٨٥) و(«النكت» ٢ /٥٤٨) و(«رسالة أبي داوود إلى أهل مكة» ٢٤) و(«العدة» لأبي يعلى الفراء ٣ /٩١٠) و(«منهج النقد» ٣٧١).

مذهب الإمام أبي حنيفة:

قال الحافظ العلائي في «جامع التحصيل» (ص٩٢): قال الجصاص: «والصحيح عندي ما يدل عليه مذهب أصحابنا أن مرسل التابعين وأتباعهم مقبول ما لم يكن الراوي ممن يرسل الحديث عن غير الثقات».

مذهب الإمام مالك:

قال ابن عبد البر في «التمهيد» (١ / ٣٠ وما بعدها): «كل من عرف بالأخذ عن الضعفاء، والمسامحة في ذلك لم يحتج بما أرسله، تابعاً كان أو من دونه، وكل من عرف أنه لا يأخذ إلا عن ثقة فتدليسه ومرسله مقبول، فمراسيل سعيد بن المسيب ومحمد بن عبد الله عندهم - يعني المالكية - صحاح، وقالوا مراسيل الحسن البصري وعطاء - ابن أبي رباح - لا يحتج بها، لأنهما كانا يأخذان عن كل أحد».

مذهب الإمام الشافعي:

قال في الرسالة (ص٤٦١ فما بعدها)، ما ملخصه:

المرسل يعتبر بأحد هذه الأمور:

منها: أن ينظر للمرسِل هل شاركه الحفاظ المشهورون فأسندوه بمثل ما روى

ومنها: أن يوافقه مرسل آخر من غير رجاله، وهذا أضعف من الأول.

ومنها: أن ينظر هل روى عن أحد الصحابة في ذلك قول أو فتوى، وهذا أضعف،

ومنها: أن يفتي أهل العلم بنحو ما روى فكذلك يقبل،

ثم أردف هذه الأربعة شرطاً لا بد منه فقال ما نصه:

«ثم يعتبر عليه بأن يكون إذا سمى من روى عنه لم يسمِّ مجهولاً، ولا مرغوباً عن الرواية عنه» قلت: وهذا يخرج مراسيل الحسن من جملة المقبول عنده، فلم يأخذ بما أرسله إلا حديث «لا نكاح إلا بولي» فقبله لكونه روي موصولاً من غير طريقه كما هو عند الترمذي بهذا اللفظ. وانظر تعليق ابن حجر على هذا الحديث وسبب قبوله موصولاً في «النكت» (٢ /٦٠٦). وحديث «نهى عن بيع الطعام حتى يجري فيه الصاعان» قاله البيهقي ونقله عنه ابن رجب في شرح العلل (١ /٣٠١).

مذهب الإمام أحمد:

والوجه الآخر: أننا لو صرفنا النظر عن صحة الحديث، وهل يحتج به أم لا؟ فسوف نقف على متنه لمعرفة وجه الشهادة من هذا الحديث لتأييد زعم الغزالي رحمه الله.

فالحديث يقسم العلم قسمين، أحدهما العلم النافع، فإذا قلنا إن المقصود بالعلم النافع هو ما زعم من العلوم المتفجرة من ذات القلب، وجب المصير إلى القول أن العلم الآخر غير نافع، أو أنه على الأقل لا يدخل في العلم النافع، ومعلوم أن العلم الآخر هو الكسبي المتلقى من أقوال الشيوخ وكتب التفسير وقول السلف، وهذا المعنى باطل ولا شك.

إذ لا يجوز وصف الالهامات أو الأوهام الآتية من جوهر القلب والتي لا دليل عليها ولا برهان بأنها العلوم النافعة، ووصف العلوم المكتسبة من أهل العلم وكتب التفسير والحديث المتلقاة عن الرسول ﷺ بأنها ليست من العلم النافع، أو دونه في المرتبة.

= قال ابن رجب في «شرح العلل» (١/٣١٠): «ولم يصحح أحمد المرسل مطلقاً، ولا ضعفه مطلقا، وإنما ضعف مرسل من يأخذ عن غير ثقة، كما قال في مراسيل الحسن البصري وعطاء بن أبي رباح: هي أضعف المراسيل لأنهما كانا يأخذان عن كل أحد».
قلت: وهذا الذي أيده شيخ الإسلام في «منهاج السنة النبوية» (٤/١١٧) فقال:
«ومن عرف أن يرسل عن الثقة وغير الثقة، كان إرساله رواية عمن لا يعرف حاله فهذا موقوف».
وأيده الحافظ العلائي في «جامع التحصيل» (ص٩٦) فقال:
«من عرف أنه من عادته أنه لا يرسل إلا عن عدل موثوق به مشهور بذلك فمرسله مقبول، ومن لم يكن عادته ذلك فلا تقبل مراسيله».
والذهبي في «الموقظة» (٣٨) حكى كلاماً مفاده أن أوهى المراسيل مراسيل الحسن حيث قال: «وأوهى ـ المراسيل ـ من ذلك: مراسيل الزهري، وقتادة وحميد الطويل من صغار التابعين، وغالب المحققين يعدون مراسيل هؤلاء معضلات ومنقطعات». ونحو هذا قول السخاوي في «فتح المغيث» (١/١٥٥) بعد أن ذكر ثلاثة أنواع للمراسيل قال: «ودونها مراسيل من كان يأخذ عن كل أحد كالحسن».
ولذلك قال ابن عبد البر في «التمهيد». «وجمهور أئمة الحديث فرقوا بين من لا يرسل إلا عن ثقة وبين غيره» (١/٣٠) قلت: وغير الجمهور هم الذين ردوا المراسيل مطلقاً.

ولذا وجب الاعتقاد بأن المقصود بعلم الباطن - إن صح الحديث - أعمال القلوب من الرجاء والخوف والخشية والإخلاص والتوبة والحب في الله والبغض فيه ونحو هذا، وذلك أن العلم كله لا ينفع إن لم يقترن بهذه الأعمال، ويقوم على تلك المعاني، وانفصاله عنها يجعله من العلم الضار لأنه يكون من باب قيام الحجة، على صاحبه، نسأل الله العافية.

وسمي علماً لأنه إنما يحصل بالتعلم ويمارس كممارسته، واتسم بالنفع، لأن النفع لا يكون بدونه متلازماً.

وهذا المعنى هو المعمول به عند من يستعمل هذه الألفاظ من المتصوفة، وغيرهم، ويؤيد ما ذهبت إليه الرواية الثانية للحديث: «العلم علمان: علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه، وعلم في القلب، فذلك العلم النافع»، وهو لفظ رواية ابن أبي شيبة الصحيحة الإسناد، وكذلك حديث «العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان» لكنه موضوع[1]، ولو كان المراد به معرفة العلوم الشرعية فلا معنى لاتسامه بالنفع، إذ العلم علم، سواء كان من القلب متفجراً أو من التلقي والمدارسة مأخوذاً.

نعم، المعنى الذي أراده الغزالي تشهد له رواية الديلمي، ولكنها بإسناد ضعيف جداً.

واللفظ: «علم الباطن سر من أسرار الله وحكم من أحكامه يقذفه في قلوب من يشاء من عباده».

هذا، ثم وقفت فيما بعد بتوفيق الله ومنّه على ما جاء في «المعجم الوجيز»، وشرحه «الذهب الإبريز» وفيه: [(العلم علمان فعلم في القلب) ثابت، وهو ما أورث الخشية وهذب الأخلاق وأبعد عن الكبر ودواعيه، (فذلك العلم النافع) لصاحبه في الدنيا والآخرة (وعلم على اللسان) لا يتجاوز الآذان وهو ما أورث الكبر والطغيان والقسوة والشهوة والمغامرة على الأقران (فذلك حجة الله على ابن آدم) ويقال لهم لم تقولون ما لا تفعلون، وإذا تصفحت حال علماء زماننا تجده هكذا، ولا حول ولا قوة إلا بالله رب سلم رب سلم. (رواه ابن أبي

---

(١) «كشف الخفاء» (٢/٨٨) قال العجلوني: قال في «الخلاصة» موضوع.

شيبة والحكيم) الترمذي وابن عبد البر بإسناد صحيح عن الحسن البصري مرسلاً (والخطيب) بإسناد حسن عن الحسن عن جابر مرفوعاً، ورواه أبو نعيم والديلمي عن أنس مرفوعاً][1].

وأما قول الغزالي: [وسئل بعض العلماء عن علم الباطن ما هو: فقال هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله في قلوب أحبابه، لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً].

فإجابة السؤال ليست جواباً لبعض العلماء، وإنما هي حديث موضوع مختلق[2] ومعناه لا يرضى به إلا من كان من أهل الزندقة والضلال، لأن كلاماً أو فهماً أو علماً ما أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ، ولا فهمه هو صلوات الله وسلامه عليه، ولا حام حوله أحد من صحابته الكرام منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عباس وابن مسعود وحذيفة وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، ولا عرفه من الملائكة جبريل ولا ميكال، كيف يكون علماً وديناً.

والله قد أنزل فيما أنزل على رسوله ﷺ: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

---

(١) «الذهب الابريز في المعجم الوجيز» (ص١٩٣)، وبهذا يعلم أن جواب الأخ دمشقية وتعقبه على هذا الحديث بأنه موضوع (ص١٢٣ - «أبو حامد الغزالي والتصوف»)، تبعاً للعلامة ابن الجوزي، جواب من تعجل.

(٢) قال ابن عراق في «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة» (١/ ٢٨٠).

[عن الحسن سألت حذيفة عن علم الباطم ما هو، فقال سألت النبي ﷺ عن علم الباطن ما هو، فقال سألت جبريل عليه السلام عن علم الباطن ما هو، فقال سألت الله عز وجل عن علم الباطن ما هو فقال: يا جبريل هو سر بيني وبين أحبابي وأوليائي وأصفيائي أودعه في قلوبهم لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل (مي) - يعني أخرجه الدارامي - قال ابن حجر في «زهر الفردوس»: هذا موضوع، والحسن ما لقي حذيفة أصلاً.

وجاء في «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» (٢/ ٨٨):

[وما روى عن الحسن عن حذيفة سألت النبي ﷺ - فذكر الحديث السابق - ثم قال: قال ابن حجر: موضوع، ولم يلق الحسن حذيفة]

فإنه ولا شك لا يكون من العلم ولا من الدين فهم لم يفهموه وعلم لم يعلموه، والدين فقط هو ما سمعوه وعرفوه، وما أصدق ما قال الإمام مالك رحمه الله: «فما لم يكن يومئذٍ ديناً فليس اليوم دين» وهو إنما يكون محض تدجيل وضلال، والخلق ما لهم حاجة لما لم يأت من جهة الشرع، وحاجتهم للشرع فقط.

وقال تعالى: ﴿... قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فالنور هو ﷺ، والكتاب القرآن، بهما سلوك الصراط المستقيم لا بغيرهما.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فاعملوا بوصيته تفلحوا، واتبعوا صراطه تنجوا.

والقول المتقدم المزعوم لا أرى له شبهاً إلا ما قالته الرافضة الذين زعموا أن الإمام المعصوم يبلغ منزلة لا يصل إليها نبي مرسل ولا ملك مقرب، فهذا من شكله، بل وجلّ كلام الباطنيين يدور في هذا الفلك. لأنهم يجعلون الوليّ فوق النبي في التلقي، وأن النبي ﷺ من حيث هو وليّ أتم من حيث هو نبيّ!!

وقد قرر هذا المزعم غير واحد من رؤساء المتصوفة، فقال ابن عربي في «فصوص الحكم»[1] الذي هو نصوص الزندقة:

«فإذا رأيت النبي ﷺ يتكلم بكلام خارج عن التشريع فمن حيث هو ولي عارف».

قلت: وكيف يكون ﷺ كلامه خارجاً عن الشرع، والله يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ فإن كلامه ﷺ هو من الشرع، والشرع لا يخرج عن بعضه.

---

(١) «فصوص الحكم» (١/ ١٣٤) وما بعدها) لابن عربي الصوفي، ونحو هذا جاء في «الفتوحات المكية» (٢/ ٤٩).

ثم يتابع:

«ولهذا مقامه من حيث هو عالم أتم وأكمل من حيث هو رسول أو ذو تشريع بشرع، فإذا سمعت أحداً من أهل الله يقول أو يُنْقَل إليك عنه أنه قال: «الولاية أعلى من النبوة». فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه، أو يقول: إن الولي فوق النبيّ والرسول، فإنه يعني بذلك في شخص: وهو أن الرسول عليه السلام من حيث هو ولي أتم من حيث هو نبي ورسول، إلا أن الولي التابع له أعلى منه»!!!

وكان قد قال قبل ذلك: «إن خاتم الأولياء عنده أفضل من خاتم الأنبياء والرسل»[1].

وقال أيضاً[1]: «وإذا كان الرسول ﷺ يشبّه نفسه بلبنه في حائط فخاتم الأولياء في موضع لبنتين».

وقال[1]: «وليس هذا العلم ـ العلم الواسع ـ إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء، وما يراه أحد الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم، حتى الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء».

ثم قال بعده[1]: «فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين، فيكمل الحائط، والسبب الموجب بكونه رآها لبنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل في الظاهر، وهو موضع اللبنة الفِضَّة، وهو ظاهره، وما تتبعه فيه من الأحكام... وهو ـ الولي ـ موضع اللبنة الذهبية في الباطن فإنه أخذ من المعدن الذي يأخذ منه المَلَك الذي يوحى به إلى الرسول» انتهى.

قلت: فتأمل هذا التقارب، وهذه المشاكلة الواضحة، فإن كثيراً مما كتبه أبو حامد ونقلته عنه في هذا المصنَّف يخرج وبعض ما سطره ابن عربي من مخرج واحد.

---

(١) «الفصوص» (١/٦١) وما بعدها.

والقول الأخير الذي ساقه أبو حامد لهو نفس كلام ابن عربي قد غُيِّرت ألفاظه وعباراته، وإلا فكل منهما يجعل الوليّ يأخذ العلم الذي لم يسبقه في معرفته غيره، وبغير واسطة الملائكة حتى[1]. ومن أجل هذا فلا يرى ابن عربي أي حرج في أن يقول:

سماء النبوة في برزخ دوين الولي وفوق الرسول[2]

وأن يقول:

بين الولاية والرسالة برزخ فيه النبوة حكمها لا يجهل[3]

ولا شك أن المراد هنا هو تقدم مقام الولاية على سائر المقامات كما هو منطوق البيت المتقدم قبله، ومما لا شك فيه أيضاً، أن في هذا القول رفض، وكفر محض.

فالنبي ﷺ خير من أمته جميعها، وهو صاحب المقام المحمود والحوض المورود الذي يغبطه عليه الأوّلون والآخرون.

وقد صح عنه ﷺ قوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[4] وفي رواية «أنا سيد الناس يوم القيامة»[5] فلا يجوز تشبيه منزلة أحد من أمته بمنزلته ﷺ.

وحسنات أمته ﷺ له مثلها، لأنه هو الذي دلَّهم على هذا الخير، و «الدالّ على الخير كفاعله»[6].

---

(١) والعجب من أبي حامد كيف أجاز هـذا وقد جزم أن المعارف التي تفتح على العبد لا تكون إلا عن طريق الملك كما تقدم في فصل معرفة الغيب، فهو من جملة تناقضه المتكرر في مواضع من كتبه، بل في الكتاب الواحد.

(٢) «لطائف الأسرار» لابن عربي تحقيق أحمد زكي، وطه سرور (ص٤٩).

(٣) «الفتوحات المكية» لابن عربي (٢/ ٢٥٢).

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه البخاري.

(٦) قال الإمام أحمد في المسند «حدثنا إسحاق بن يوسف أنبأنا أبو فلانة ـ قال عبد الله بن الإمام أحمد ـ كذا قال أبي لم يسمّه على عمد وحدثناه غيره فسماه يعني أبا حنيفة عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال لرجل: اذهب فإن»

وفي معناه ما صح عنه ﷺ «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من عمله لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً... الحديث...»[1].

ومن هنا كان مستند من أفتى من جهابذة المحققين أن إهداء ثواب صالح الأعمال للنبيّ ﷺ لا يجوز، ولذلك لم يرد عن السلف في الاهداء له ﷺ شيء.

ووصف ابن عربي الشرع وتقسيمه لظاهر وباطن، وجعل الباطن منه هو الأعلى والأصل[2]، وإلحاق هذا الأصل بالولاية دون النبوة، خلاف ما اعتقده المسلمون.

جاء في الطحاوية التي تلقاها أهل العلم بالقبول[3]، وشرحها[4]:

[(قوله: ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء) قال الشارح - ابن أبي العز

= الدال على الخير كفاعله» (٥/٣٥٧)، قلت ولا أعلم أنه أخرج، عن أبي حنيفة في غير هذا الموضع، والله أعلم؛ والإسناد بعد أبي حنيفة متصل رجاله ثقات، وكذا إسحاق شيخ أحمد ثقة، وهذا الإسناد كثيراً ما يخرجه أحمد لكنه يخرجه عن سفيان أو سعيد بن سنان بدل أبي حنيفة.

وجاء في «الذهب الابريز»: والحديث رواه الإمام أحمد.

ورواه الإمام أبو حنيفة في مسنده وزاد «والله يحب إغاثة اللهفان»، وأبو يعلي عن بريدة رضي الله عنه، وابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» عن أنس وإسناده حسن. انظر «الذهب لإبريز» (ص١٠٩ - ١١٠) وقال المتقي الهندي، «أخرجه أبو داوود والترمذي عن ابن مسعود». ولفظه «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» (٦/٣٣٦) بحاشية المسند قلت: وأخرجه مسلم عن ابن مسعود أيضاً بهذا اللفظ.

(١) رواه البخاري وغيره.

(٢) «الفصوص» (١/٦٣).

(٣) قال الشيخ عبد الوهاب السبكي في «معيد النعم ومبيد النقم»: وهذه المذاهب الأربعة ولله الحمد في العقائد واحدة إلا من لحق منها بأهل الإعتزال والتجسيم، إلا فجمهورها على الحق يقرّون عقيدة أبي جعفر الطحاوي التي تلقاها العلماء سلفاً وخلفاً بالقبول (انظر السقيدة الطحاوية وشرحها ص٥ - الطبعة الثامنة).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (٤٩٢) الطبعة الثامنة لابن أبي العز الحنفي.

الحنفي ـ : يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الاتحادية(١) وجهلة المتصوفة، وإلا فأهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم ومتابعة الشرع، فقد أوجب الله على الخلق كلهم متابعة الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ . . إلى قوله . . . تَسْلِيمًا﴾.

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قال أبو عثمان النيسابوري: من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة، وقال بعضهم: ما ترك بعضهم شيئاً من السنة إلا لكبر في نفسه، والأمر كما قال، فإنه إذا لم يكن متبعاً للأمر الذي جاء به الرسول، وكان يعمل بإرادة نفسه فيكون متبعاً لهواه بغير هدى من الله، وهذا غش النفس وهو من الكبر، فإنه شبيه بقول الذين قالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برياسته واجتهاده في العبادة وتصفية نفسه إلى ما وصلت إليه الأنبياء، من غير اتباع لطريقتهم، ومنهم من يظن أنه قد صار أفضل من الأنبياء، ومنهم من يقول: إن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء، ويدعي لنفسه أنه خاتم الأولياء(٢) ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون(٣)، وهو أن هذا الوجود المشهود ليس له صانع مباين له(٤).

---

(١) الاتحادية: هم القائلون بمذهب الأتحاد كابن عربي وابن سبعين وابن الفارض والتلمساني والحلاّج وغيرهم، ويقال إن ابن الفارض قد رجع عن ذلك. فالله أعلم.

(٢) كما نقلت ذلك عن ابن عربي قبل قليل.

(٣) تقدم لك قول ابن عربي في ذلك في معرض نقض الدليل السادس قبل صفحات.

(٤) فيقولون إن الله حلّ في كل الأشياء واتحد بها، وكل ما في الكون معبود، فلا يفرق بين من يعبد الله أو العجل أو الحجر أو نفسه كما أنشد ابن الفارض في ذلك:

وما كان لي صلى سوائي ولم تكن ... صلاتي لغيري في أداء كل ركعةِ
وما زلت إياها وإياي لم تزل ... ولافرق بل ذاتي لذاتي صلتِ

لكن هذا يقول هو الله، وفرعون أظهر الإنكار بالكلية[1]، لكن كان فرعون في الباطن أعرف بالله منهم، فإنه كان مثبتاً للصانع[2]، وهؤلاء ظنوا أن الوجود المخلوق هو الخالق كابن عربي وأمثاله!!

وهو لما رأى الشرع الظاهر لا سبيل إلى تغييره قال: النبوة ختمت، لكن الولاية لم تختم، وادعى من الولاية ما هو أعظم من النبوة، وما يكون للأنبياء والمرسلين، وإن الأنبياء يستفيدون منها كما قال:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

وهذا قلب للشريعة، فإن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾

والنبوة أخص من الولاية، والرسالة أخص من النبوة كما تقدم التنبيه على ذلك[3].

= إليّ رسولاً كنت مني مرسل وذاتي بآياتي هي علي استدلت
فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن منادي أجابت من دعاني ولبت

وهؤلاء يستدلون على ما قالوا بقوله تعالى: ﴿... وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه...﴾ فزعموا أن كل معبود في الوجود من الأشياء هو الله، ولذلك صححوا إيمان فرعون وقالوا: لما كان كل ما في الكون رب، وكان فرعون أعلاهم منزلة جاز أن يقول: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ (أنظر مجموع الفتاوى ١٣/١٨٨).

وأصحاب هذه العقيدة جميعهم يقدمون الأولياء على الأنبياء، ويذكر بعضهم كابن سبعين أن النبوة لم تنقطع، فقال أحدهم: لقد ذَرَّبَ ابن آمنة لما قال «لا نبي بعدي»، ويقولون أيضاً، العبد يشهد أولاً طاعة ومعصية ثم طاعة بلا معصية ثم لا طاعة ولا معصية، ولكن بعض المحققين ينسب لابن الفارض رجوعه عن ذلك فيروى عنه أنه قال:

إن كان منزلي في الحب عندكم ما قد لقيت فقد ضيعت أحلامي
أمنية ظفرت بها نفسي زمناً واليوم أحسبها أضغاث أحلام

أنظر «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لابن تيمية (ص٥٠).

(١) قلت: عنى قوله: ﴿... يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري... الآية﴾ وهذا يبطل ما زعموه من كون فرعون أراد مرادهم لما قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾.

(٢) ورد ذلك في إسرائيليات كثيرة. فالله أعلم بصحة ذلك.

(٣) يعني في كتابه «شرح الطحاوية» (ص١٥٨)، وقد قرر شيخ الإسلام المسألة في «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» مجموع الفتاوى (٢٠/٢٣١).

وقال ابن عربي أيضاً في فصوصه:

«ولما مثَّل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللَّبِن فرآها قد كملت إلا موضع لَبِنَة، فكان هو موضع اللبنة غير أنه ﷺ لا يراها كما قال لبنة واحدة، وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤية، فيرى ما مثّله النبي ﷺ ويرى نفسه في الحائط موضع لبنتين!!

ويرى نفسه تنطبع في موضع اللبنتين فتكمل الحائط!!

والسبب الموجب لكونه يراها لبنتين، أن الحائط لبنة من فضّة، ولبنة من ذهب، واللبنة الفضة هي ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام كما هو أخذ عن الله في الشرع ما هو في الصورة الظاهرة متَّبع فيه لأنه يرى الأمر على ما هو عليه، فلا بد أن يراه هكذا، وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن!فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه المَلَك الذي يوحى إليه إلى الرسول ﷺ قال: فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد حصل لك العلم النافع»[1].

فمن أكفر ممن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب، وللرسل المثل بلبنة فضة فيجعل نفسه أعلى وأفضل من الرسل، تلك أمانيهم ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾.

وكيف يخفي كفر من هذا كلامه، وله من الكلام أمثال هذا[2]، وفيه ما يخفى منه الكفر، ومنه ما يظهر، فلهذا يحتاج إلى نقد جيد، ليظهر زيفه، فإن من الزغل ما يظهر لكل ناقد، ومنه ما لا يظهر إلا للناقد الحاذق البصير[3].

وكفر ابن عربي وأمثاله فوق كفر القائلين: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ

---

(١) يعني العلم النافع الوارد في الحديث السابق «العلم علمان... الحديث».

(٢) يعني بذلك الذين يدافعون عن ابن عربي، كالإمام السيوطي، لكنه حتماً لم يرده بعينه لأنه توفي قبل أن يولد.

(٣) قال المحقق: قال عفيفي ـ يعني أبا العلاء ـ: أنظر الرد على ابن عربي فيما نقل هنا عنه في «مجموع الفتاوى» (٢/٢٠٤).

رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ ولكن ابن عربي وأمثاله منافقون زنادقة اتحادية في الدَّرك الأسفل من النار][(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن حجر: «والنبيّ أفضل من الوليّ، وهو أمر مقطوع به عقلاً ونقلاً، والصائر إلى خلافه كافر لأنه أمر معلوم من الدين بالضرورة»[(٢)].

وجاء في «الصفدية» لشيخ الإسلام أبي العباس ابن تيمية[(٣)]:

[وأما ـ فيما يتعلق ـ بالإيمان بالرسل فقد ادعوا أن خاتم الأولياء بالله من خاتم الأنبياء، وإن خاتم الأنبياء هو وسائر الأنبياء يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء، وهذا مناقض للعقل والدين، كما يقال في قول القائل: «فخر عليهم السقف من تحتهم»: لا عقل، ولا قرآن.

فإنه من المعلوم بالعقل أن المتأخر يستفيد من المتقدم دون العكس، ومن المعلوم في الدين أن أفضل الأولياء يستفيدون من الأنبياء، وأفضل الأولياء من هذه الأمة هم صالحو المؤمنين الذي صحبوا رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾.

وافضل هؤلاء أبو بكر وعمر باتفاق أئمة السلف والخلف ـ والشيعة يفضلون علياً ـ واتفق المسلمون على أن أفضل الأولياء بعد رسول الله ﷺ أما أبو بكر وإما علي، وإن كان بعض الناس يحكي خلافاً في غيرهما من الصحابة.

ومن قال من مخطئي الصوفية أنه قد يمكن أن يكون في المتأخرين من هو أفضل من أبي بكر وعمر كما ذكره الترمذي الحكيم[(٤)] في كتاب «خاتم الأولياء» واتبعه على ذلك ابن حمويه وأمثاله.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٤٩٤) الطبعة الثامنة لابن أبي العز الحنفي.

(٢) «فتح الباري» (١/٢٢٠).

(٣) الصفدية (١/٢٤٧) تحقيق محمد رشاد سالم.

(٤) هو غير الترمذي صاحب السنن.

فهؤلاء مخطئون في ذلك بالكتاب والسنة والإجماع، والترمذي مع فضله وعلمه لما صنّف كتاب «خاتم الأولياء» أنكر المسلمون عليه ذلك وأخرجوه كما ذكر ذلك أبو عبد الرحمن السُّلَمي في «محنة الصوفية»، وقال إنهم نفوه وأخرجوه من بلدته وشهدوا عليه بالكفر، وذلك بسبب تصنيف كتاب «خاتم الولاية» ونسبوه إلى القبائح في الدِّين، وجاء إلى بَلْخ فَقَبِلَه أهل بَلْخ بسبب موافقته إياهم على المذهب[1]، وفي هذا الكتاب من الكلام البَاطل ما يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام، وهو الذي فتح الكلام في فتح الأولياء حتى جاء هؤلاء المتأخرون الذين يدعي كل منهم أنه خاتم الأولياء كابن عربي وابن حمويه وغيرهما.

وأتى بالعظائم التي لم يسبق إليها الترمذي ولا غيره، وفي كلام هؤلاء ونحوهم تفضيل بعض الأولياء على الأنبياء أو بعضهم.

وشيوخ الصوفية متفقون على تفضيل الأنبياء على الأولياء كما اتفق على ذلك سائر علماء المسلمين وقد ذكر أبو بكر الكلاباذي في كتابه «اعتقاد الصوفية» اجماع الصوفية على ذلك[2].

وهؤلاء الملاحدة من المتصوفة سلكوا مسلك ملاحدة المتفلسفة في تفضيل الفيلسوف الكبير على النبيِّ، ولهذا قال ابن عربي: «إن خاتم الأولياء يأخذ من المعدن الذي يأخذ عنه المَلَك الذي يوحى به إلى النبيِّ»].

ثم قال الإمام رحمه الله[3]:

[ولهذا يدعي بعضهم أنه أفضل من موسى بن عمران، وأنَّ التكليم الذي

---

(١) هذا الكلام بحروفه حكاه الذهبي في «السير» نقلاً عن السلمي، في ترجمة الترمذي الحكيم هذا، ونقله عنه المباركفوري في مقدمة «تحفة الأحوذي» (١/ ٢٧٤).

(٢) الكتاب هو «التعرّف لمذهب أهل التصوف»، والموضع المقصود (ص٦٩): «واجمعوا جميعاً أن الأنبياء أفضل البشر وليس في البشر من يوازي الأنبياء في الفضل لا صديق ولا وليّ ولا غيرهم وإن جل قدره وعظم خطره».

(٣) الصفدية (١/ ٢٤٩).

حصل له أعظم من التكليم الذي حصل لموسى لأن الكلام عندهم ليس خارجاً عن نفس موسى بل هو فيض فاض عليه كما يفيض على غيره.

ولهذا يقول بعضهم: «كُلِّمَ موسى من سماء عقله» وصاحب «مشكاة الأنوار» أشار إلى هذا المعنى الفاسد[1].

ولهذا بنى ابن قِسّيّ على ذلك في كتابه «خلع النعلين» وادعى في «خلع النعلين» إن وارداته عمرانية الأصل.

أي أشبه فيها موسى بن عمران حيث خلع الدنيا والآخرة، فوردت عليه المخاطبات الإلهية!!!!

ولهذا تكلم الناس في صاحب «مشكاة الأنوار» بالعظائم، والمتفلسفة ينتحلونه لهذا الكتاب وأمثاله وأهل الانتصار له يقولون: رجع عن هذا كلِّه، كما ذكر ذلك في غير كتاب، ومنهم من يقول: هذه الكتب مكذوبة عليه، ليست من كلامه، وأنكروا عليه في «الاحياء» وغيره أيضاً مواضع مثل هذا وأمثاله...] إلى آخر ما جاء من قول شيخ الإسلام.

نقض الدليل الحادي عشر:

وهو الذي استمده من قوله ﷺ «إن من أمتي مُحَدَّثين ومعلَّمين ومكلَّمين وعُمَرُ منهم» وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ ولا محدَّث...» يعني الصّدّيقين، والمحدَّث هو الملَّهم.

ونقض هذا الاستدلال من أوجه:

الوجه الأول: أنه لا يوجد حديث بهذا اللفظ، فإنه مغاير لروايات الحديث من وجهين:

أولهما: الجزم بوقوع التحديث في هذه الأمة.

---

(١) قال محقق «الصفدية»: أنظر «مشكاة الأنوار» للغزالي (ص٦٦ ـ ٧٣) نشر الدار القومية ـ القاهرة ١٩٦٤.

ثانيهما: إثبات لفظة معلَّمين، وكأنها مقحمة من أجل إثبات التعلُّم من غير واسطة دعماً لمذهبه.

وذلك إن الحديث أخرجه البخاري بلفظين:

الأول: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون، فإنْ يك في أمتي أحد فإنه عمر».

الثاني: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني اسرائيل رجال يُكَلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي منهم أحد فعُمَر».

وأخرجه مسلم ولفظه:

«قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم».

وأخرجه الترمذي بنحوه والنسائي[1].

فراوية الغزالي ليست برواية أصلاً!!

والجزم الوارد عنده بوقوع التحديث في هذه الأمة جزم باطل، لا يعتمد فيه على أية رواية مخرجة، بل ظاهر الروايات يأبى وجود المحدثين في أمته ﷺ.

وهو قول جمهور أهل العلم فإنهم قالوا: ظاهر الحديث يرفض وجود التحديث، وقال آخرون من أهل العلم: بل هو واقع في هذه الأمة[2].

قلت: لكن الجزم بوقوعه لا يقوم عليه دليل، فيبقى احتمالاً، فلا يستدل به، لأن القاعدة الشرعية أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال بطل في الاستدلال.

---

(١) أنظر تخريج الحديث في «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» الحديث رقم ١٧٧١٧ ـ ورقم ١٤٩٥٤، وانظر«النكت الظراف» تحت الحديث ١٧٧١٧.

(٢) نقل ذلك ابن حجر في «الفتح» وكان من جملة من رجّح وقوعه، وعلل ذلك بأن هذه الأمة خير من سابقاتها فالوقوع فيها أولى، قلت: في التعليل نظر، والربط بالخيرية ليس ببَيِّن، وهو إلى الحاجة أقرب، والأمة ليست تحتاجه لاكتمال الشرع، والله أعلم، «الفتح» (٧/٥١).

نعم قد وقع عند ابن سعد عن عائشة رضي [illegible]: «وما من نبي إلا في أمته معلِّم أو معلَّمان فإن يك في أمتي أحد فابن الـ[illegible]، إنّ الحقَّ على لسان عمر وقلبه».

لكن الحديث لا يصح[1]، وإن صح فهو رد لما زعم الغزالي حيث نفى التعلُّم عن سائر الأمة إلا عن رجل أو رجلين، والغزالي يثبت التعلُّم ـ يعني من غير واسطة ـ لكل أصحاب الخلوات.

الوجه الثاني: تغاير معنى التحديث عن المعنى الذي أراده أبو حامد وهو التعلم من غير واسطة الطلب له فإن التحديث لا يجوز إطلاق معنى العلم عليه أصلاً، والصواب أن يقال أن التحديث والإلهام والخاطر شيء واحد، وكل ذلك قد يصدق ويكذب، وليس كل ذلك من جنس ما يعتمد عليه أو يستدل به.

وأهل العلم اتفقوا أن أعلم الناس بمعنى المروي هو راوي الخبر نفسه[2]، ورواة هذا الخبر وإن اختلفت عباراتهم فقد اتحدت معانيهم.

قال ابن وهب ـ أحد الرواة عند البخاري ـ: «محدَّثون» «ملْهمون»[3].

أورد البخاري رحمه الله هذا التفسير بعد أن ساق الحديث، وناهيك بالبخاري من منتقٍ للروايات، وبابن وهب من محدِّث راويةٍ بارع.

والمعنى الذي أراده ابن وهب بالإلهام جاء مفسراً في رواية مسلم: «الإصابة بغير نبوة». وهذا المعنى جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «المَهْديّ المُلْهَم بالصواب الذي يُلقى على فيه»[4].

---

(١) مع التنبيه أن شطره الأخير «إن الحق على لسان عمر وقلبه» صحيح وسيأتي ذكر من اخرجه.

(٢) أنظر كتب الأصول باب: «إذا اختلفت فتوى الراوي مع روايته».

(٣) قال ابن حجر: وهذا القول قاله الأكثر («الفتح» ٧/٥٠).

(٤) «فتح الباري» (٧/٥٠) قال ابن حجر: وقع في مسند الحميدي عقب حديث عائشة ـ يعني كان فيمن كان قبلكم... الحديث ـ فذكره.

وقال الترمذي رحمه الله بعد رواية الحديث: «وعن بعض أصحاب ابن عينية ـ الذين رووا الحديث ـ محدَّثون يعني مفَهَّمون».

قلت: وهـذه الألفاظ بمعنى لمن تأمـل، لأن من فهم قـد ألهم الفهم حيث أنه لم يتلقه، فيكون هدي للصواب، فأصاب من غير نبوة، فكأنما ألقي الحق على فيه عندما ينطق به.

ولما كان الإلهام أو الفهم محلّه القلب جاء في رواية الإسماعيلي عن إبراهيم بن سعد: «محدَّث أي يلقى في رُوعه»[1] والرُّوع القلب.

والحاصل أن الأقوال تدور على هذا المعنى، وهو مما لا يعتبرني الشرع، حتى ولو كان قائله ولياً، حتى يوافق ظاهر الشرع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»[2]:

«لا يجوز لوليّ الله أن يعتمد على ما يُلقى إليه في قلبه، إلا أن يكون موافقاً للشرع وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً أو تحديثاً، أو خطاباً من الحق كذلك، حتى يقبل الموافقة من الشرع».

وقول شيخ الإسلام هذا يُحكى عن الأكابر المنسوبين للتصوف كأمثال أبي حفص القائل: «من لم يتهم خواطره فلا يُعَدّ في ديوان الرجال»[3].

وأمثال أبي سليمان الداراني رحمه الله القائل: «ربما يقع في قلبي النكة من تكت القوم ـ الصوفية ـ أياماً فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين، الكتاب والسنة»[3].

وأمثال السّرّيّ القائل[3]: «التصوف اسم لثلاثة معانٍ، لا يطفيء نور

---

(١) أنظر «الفتح» (٧/٥٠).

(٢) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص٢٨).

(٣) أنظر منزلة العلم في «مدارج السالكين» أو «تهذيب المدارج» (ص٤٦).

معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تَحْمِله الكرامات على هتك أستار المحارم».

وغيرهم كثير، وتتبع هذا من كلام الأشياخ طويل.

ودأبي في هذا الكتاب هو السّرد والعرض مع إيجاز الرفض والدحض، وفضح مواضع النقض.

ومن يعرف سيرة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه تبين له ما ذكرنا، وزالت شبهته، حيث إن ما ذكر عنه في هذا الباب كثير طويل، ثم ما ذكر عنه في تحري الحق واتهام الخاطر وتتبع الدليل مثل ذلك، فيظهر أن من اعتمد الأول وأغفل الثاني فهو على غرور.

فمن فضائله رضي الله عنه في هذا الباب قوله ﷺ: «فقد كان فيمن كان قبلكم... الحديث...» وتقدم.

ومنها قوله ﷺ: «لو كان بعدي نبيّ لكان عمر بن الخطاب» أخرجه الترمذي في مناقب عمر رضي الله عنه وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مشرح[1].

وقوله ﷺ: «إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه» وفي رواية «إن الله جعل الحق» أخرجه الترمذي عن ابن عمر، وأحمد عن أبي هريرة، والطبراني عن بلال ومعاوية، وفي حديث أبي ذر عند أحمد وأبي داوود «يقول به» بدل «وقلبه» وصححه الحاكم، وأخرجه الطبراني في الأوسط عن عمر نفسه.

وكان الإمام عليّ يقول: «ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر» وهذا القول من رواية الشعبي الثابتة عنه[2]، وفي لفظ آخر «كنا أصحاب

(١) قال المباركفوري في «تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي» (١٠/١٧٣) وأخرجه أحمد والحاكم وابن حبان والطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد، كذا في «الفتح».

(٢) أنظر «الفرقان» لشيخ الإسلام (ص٢٧).

محمد ﷺ لا نشك أن السكينة تنطق على لسان عمر» أخرجه مسدد وابن منيع والبغوي في «الجعديات» وسعيد بن منصور في سننه، وأبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «دلائل النبوة»[١]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كنا نتماجم أن السكينة تنطق على لسان عمر» أخرجه ابن عساكر وفي لفظ ثالث «كنا نتحدث أن ملكاً ينطق على لسان عمر» رواه أبو نعيم في «الحلية».

وبنحو هذا جاء في معنى التحديث:

فأخرج ابن عساكر من حديث أبي سعيد نحوه[٢]، أن النبي ﷺ قال: «من أبغض عمر فقد أبغضني، ومن أحب عمر فقد أحبني، وإن الله باهى بالناس عشية عرفة عامّة وأن الله باهى بعمر خاصّة وإنه لم يكن نبيّ قط إلا كان في أمّته من يحدَّث، وإن يكن في أمتي أحد فهو عمر، قيل يا رسول الله كيف يحدَّث؟ قال تتكلم الملائكة على لسانه».

وعند الديلمي: «أيد الله عز وجل عمر بملَكين يوفّقانه ويسدّدانه» وهو ضعيف[٣]، وعند ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه: «وإني لأحسب بين عيني عمر ملَكاً يسدّده»[٤].

وكان عبد الله ولده رضي الله عنهما يقول: «ما كان عمر يقول في شيء أني لأراه كذا إلا كان كما يقول»[٥].

---

(١) «المنتخب» (٤/٣٩٢) بحاشية المسند و(٤/٣٩٥).

(٢) قال ابن حجر في «الفتح»: [رويناه في فوائد الجوهري، وحكاه القابسي وآخرون (٧/٥٠) قلت: والحديث سنده جيد والله أعلم وقال الهيثمي في «الصواعق» (٩٧)، إسناده حسن.

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة وأبي بكر (٤/٣٧٠) «منتخب كنز العمال» بحاشية المسند.

(٤) نفس المرجع (٤/٣٩٥).

(٥) ذكره شيخ الإسلام في «الفرقان» (ص٢٧)، قلت: وقد أخرجه الترمذي في مناقب عمر بنحو هذا اللفظ، وسنده صالح ونسبه الهيثمي في «الصواعق المحرقة» للبخاري (ص٩٦) لكن بلفظ «لأظن» بدل «لأراه» ثم ذكره مرة ثانية فجعله طرفاً لحديث: «إن الله جعل الحق على لسان عمر...» فالله أعلم.

وأخرج أبو داوود والطبراني والحاكم عن أبي رمثة: «أصاب الله بك يا ابن الخطاب» أي جعل الصواب معك وقد روى في ذلك أحاديث كثيرة[1].

وقال عمر رضي الله عنه: «وافقت ربي في ثلاث» أخرجه البخاري ومسلم، وقد أحصى بعض أهل العلم موافقاته فنيفت على العشرين كما في «فضائل الإمامين»[2].

وللسيوطي منظومة تسمى «قطف الثمر في موافقات عمر» جمع فيها نحواً من ذلك، وابن حجر الهيثمي أفرد لذلك فصلاً في كتابه «الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة» فذكر سبع عشرة موافقة[3] بعضها في الصحيحين وبعضها في الصحيح وبعضها في السنن والمسانيد، وغالبها صحيح الإسناد.

وأخرج الشيخان من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت حتى أني لأرى الرّيّ يخرج من بين أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب، قالوا فما أوّلته يا رسول الله؟ قال: العلم».

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذَنُوباً أو ذنوبين وفي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، والله يغفر له ضعفه ثم استحالت غَرْباً فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَر حتى ضرب الناس بعَطَن» أخرجه البخاري ومسلم وهذا لفظه.

وجاء عند البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن

---

(١) انظر «الصواعق المحرقة» (ص٩٤ وما بعدها)، والمنتخب بحاشية مسند أحمد (ص٣٦٩ - ٤/٤١٢).

(٢) انظر حاشية «الصواعق المحرقة» (ص١٠١).

(٣) «الصواعق» (٩٩ - ١٠١).

النبي ﷺ قال: «بينا أنا نائم رأيت الناس يُعْرضون عليَّ وعليهم قُمُص، منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما دون ذلك، وعرض عليَّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يَجُرّه، قالوا: فما أوّلت ذلك يا رسول الله؟ قال: الدّين».

ولذلك قال عليّ رضي الله عنه لما عاد عمر رضي الله عنه في مرضه الذي توفي فيه: «يرحمك الله، ما خلفت أحداً أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك» أخرجاه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وعمر رضي الله عنه الذي هذه حاله أقال: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»، أو قال «في التحديث ما يغني عن الحديث» أو زعم أنه استغنى بما عنده عما عند غيره.

وهل أعجب عمر برأيه وفقهه عند المعضلات أم استنار بعلم من شهد الوقائع وحضر الدليل.

وكان رضي الله عنه يسأل عما غاب عنه من السّنة ويستشهد الصحابة في ذلك دأبه دأبهم، وقد مر بعض ذلك من كلامه وهو يخطب على المنبر[1].

ونهي عمر عن المغالاة في المهور مشهور في المسند والسنن[2]، لكن ليس عندهم ذكر المرأة ومراجعتها له، وقد وقع ذلك في رواية الحافظ أبي يعلى وابن المنذر والزبير بن بكار.

قال الحافظ أبو يعلي: حدثنا أبو خيثمة حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا أبي عن ابن إسحق حدثني محمد بن عبد الرحمن عن خالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق قال:

«ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال: يا أيها الناس ما إكثاركم في صُدُقِ النساء، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم، أربعمائة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو

---

(١) أنظر نقض دليل الفراسة.

(٢) وقال الترمذي بعد إخراجه: حسن صحيح.

كرامة لم تسبقوهم إليها، فلأعرفنّ ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم، قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعائة درهم قال نعم، فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن، قال وأي ذلك، فقالت أما سمعت الله يقول: ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾ قال، فقال: اللهم غفراً كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر فقال: يا أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب». ـ أي فليعط ـ

قال أبو يعلي: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليفعل، وإسناده جيد قويّ.

هكذا ساق القصة الحافظ ابن كثير في التفسير[1].

وقال الإمام أحمد في المسند: قرأت على يحيى بن سعيد بن زهير قال ثنا أبو إسحق عن حارثة بن مضرب أنه حج مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتاه أشراف أهل الشام فقالوا: يا أمير المؤمنين: إنا أصبنا رقيقاً ودوابّ، فخذ من أموالنا صدقة تطهرنا بها وتكون لنا زكاة، فقال: هذا شيء لم يفعله اللذان من قبلي، ولكن انتظروا حتى أسأل المسلمين[2]. فرضي الله عنه وأرضاه، وكيف لا يقولها وقد قالها من هو خير منه، أبو بكر[3].

ولا يقال في مثل هذا أن عمر لم يسبق لذهنه في ذلك رأي، وهو الذي

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٦٧).

(٢) «المسند» (١/٣٢).

(٣) عن قبيصة بن ذؤيب قال: «جاءت الجدة إلى أبي بكر فسألته ميراثها فقال: ما لك في كتاب الله شيء وما علمت لك في سنة رسول الله ﷺ شيء، فارجعي حتى أسأل الناس، فقال المغيرة بن شعبة حضرت رسول الله ﷺ أعطاها السدس، فقال هل معك غيرك فقام محمد بن مسلمة الأنصاري فقال مثل ما قال المغيرة فأنفذه أبو بكر...» رواه ابن حبان والحاكم وأبو داوود والترمذي وصححه.

شهد المعارك وتقسيم الغنائم مع النبي ﷺ وأبي بكر، وما تقدم من خلافته، وإنما أراد الحُجَّة والأثر.

ونحو هذا بقاؤه رضي الله عنه في سَرْغ حتى جاءه عبد الرحمن بن عوف بالأثر، والقصة ذكرها الحافظ ابن كثير(١) فقال: [قال ابن جرير: وفي هذه السنة قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام فوصل إلى سَرْغ في قول محمد بن إسحق، وقال سيف - إبن عمر - وصل إلى الجابية، - قلت والأشهر وصل إلى سرغ وقد تلقاه أمراء الأجناد، أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان، وخالد بن الوليد إلى سرغ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فاستشار عمر المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه، فمن قائل يقول: أنت قد جئت لأمر فلا ترجع عنه، ومن قائل يقول: لا نرى أن تقدم بوجوه أصحاب رسول الله ﷺ على هذا الوباء، فيقال أن عمر أمر الناس بالرجوع في الغد، فقال له أبو عبيدة أفراراً من قدر الله؟، قال: نعم نَفِرّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت إن هبطت وادياً ذا عُدوتين إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة، فإن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وأن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله، ثم قال: لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة.

قال ابن إسحق في روايته - وهي في صحيح البخاري - وكان عبد الرحمن بن عوف متغيباً في بعض شأنه فلما قدم قال: إن عندي من ذلك علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض قوم فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه» فحمد الله عمر يعني لكونه وافق رأيه، ورجع بالناس](٢).

وعمر رضي الله عنه المحدَّث - على قول - ما جلس في زاوية، ولا

---

(١) البداية (ج٧/ ص٨٥).

(٢) انظر «تاريخ الأمم والملوك» للطبري أحداث سنة تسع عشرة، والمسند (١/ ١٥).

اقتصر على تصفية، وانتظر الفتوحات ولكن كان يطلب الحديث ويرويه، ويسأل عن المسألة الفقهية غير مرة ليتعلمها[1].

وكان رضي الله عنه يتناوب مع صحابي آخر في حضور مجلس النبي ﷺ ، فمن حضر منهما أخبر من غاب بما سمع، والقصة في البخاري وغيره.

وهو رضي الله عنه قد وقع في المسند من حديثه مائتان وثمانية وتسعون حديثاً، هذا مع قوله لأسلم مولاه لما قال له حدثنا عن رسول الله ﷺ فأجابه: أخاف أن أزيد حرفاً أو أنقص إن رسول الله ﷺ قال: «من كذب عليّ فهو في النار»[2].

وهذا يذكر مع انشغاله رضي الله عنه بأمور الخلافة وعظائم المهمات، فليعلم.

فإن هذه هي السّنّة التي أمرنا بالأخذ بها كما صح في الخبر «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»[3].

وقد قال ﷺ «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»[4].

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب يوم الجمعة ومما قاله: «إني لا أدع بعدي شيئاً أهم إليّ من الكلالة وما أغلظ لي رسول الله ﷺ في شيء منذ صاحبته ما أغلظ لي في الكلالة، وما راجعته في شيء ما راجعة في الكلالة حتى طعن باصبعه في صدري وقال: «يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء». فإن أعش أقضي فيها قضية يقضي بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن... الحديث». وأخرجه أيضاً مقتصراً على مسألة الكلالة كلاهما من طريق أبي الجعد عن معدان عن عمر، وأخرجه من طريق جابر بن سمرة عن عمر بنحوه. قلت والحديث صحيح إن شاء الله، أنظر «المسند» (١/ ٢٦).

(٢) «المسند» (١/ ٤٧).

(٣) تقدم أنه في «المسند» وعند ابن ماجة والترمذي بسند صحيح.

(٤) انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للشيخ الألباني الحديث رقم ١٢٣٣.

وجاء عن محمد بن سيرين أنه قال: «لم يكن أحد بعد النبي ﷺ أهيب لما لا يعلم من أبي بكر، ولم يكن أحد بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد لها في كتاب الله أصلاً ولا في السّنّة أثراً فقال: اجتهد رأيي فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني واستغفر الله» أخرجه ابن سعد وابن عبد البر في العلم[١].

وأخرج أيضاً أن عمر قال: «احذروا هذا الرأي على الدين فإنما كان الرأي من رسول الله ﷺ مصيباً لأن الله كان يريه، وإنما هو منا تكلّف وظنّ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً» وأخرجه ابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن[٢].

فاسمعوا يا أهل الجق: «إنما هو منا تكلّف وظنّ».

وعن عمرو بن دينار «أن رجلاً قال لعمر بما أراك الله، قال: مه، إنما هذه للنبي ﷺ خاصّة» رواه ابن المنذر[٢].

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يرجع في قضاياه لعليّ رضي الله عنه لكونه كان مشتهراً بين الأصحاب بالحُجّة في القضاء، حتى روى أنه ـ يعني عمر ـ يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن ـ يعني علياً ـ رواه ابن سعد والمروزي في «العلم»[٢]، والحميدي في «النوادر» وابن سعد في «الطبقات»[٣].

وأما أبو حامد فيقول: «فمن إفاضة العقل الكلّيّ يتولد الإلهام، ومن إشراق النفس الكلية يتولد الإلهام، فالوحي حلية الأنبياء والإلهام زينة الأولياء»[٤].

ويقول: «وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحسّ يستغني الطالب بقليل التفكر عن كثرة التعلم»[٥]

(١) انظر «المنتخب» (٤/٧١) بحاشية المسند.
(٢) «المنتخب» (٤/٧٢) بحاشية المسند.
(٣) فتح الباري (١٣/٣٤٣).
(٤) «الرسالة اللدنية» (١١٦).
(٥) «الرسالة اللدنية» (١١٢) لكن هذا له محمل مقبول.

فهذا ابتداع الخلف، وذاك اتباع السلف.

هذه سيرهم وقضاياهم وأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم على النهج الذي أمروا فيه بقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ... ﴾.

وما أحسن ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«فأحسن الحديث وأصدقه كتاب الله، خبره أصدق الخبر، وبيانه أوضح البيان، وأمره أحكم الأمر، ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾، وكل من اتبع كلاماً أو حديثاً مما يقال: إنه يلهَمه صاحبه أو يوحى إليه أن ينشأه ويحدِّثه مما يعارض به القرآن فهو من أعظم الظالمين ظلماً»(١).

ويقول العلامة ابن القيم:

[وقد كان سيد المحدَّثين الملهَمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول الشيء فيرده عليه من هو دونه فيبين له الخطأ فيرجع عنه، وكان يعرض هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة، ولا يلتفت إليها ويحكم بها، ولا يعمل بها، وهؤلاء الجهال يرى أحدهم أدنى شيء فيحكّم هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة، ولا يلتفت إليهما، ويقول حدثني قلبي عن ربي...

وهذا غاية الجهل... ولعل الذي يخاطبهم هو الشيطان أو نفسه الجاهلة أو هما مجتمعين، ومن ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول مما يلقى في قلبه من الهواجس والخواطر فهو من أعظم الناس كفراً.

وكذلك إن ظن أنه يكتفي بهذا تارة وبهذا تارة، فما يلقى في القلوب لا عبرة به، ولا التفات إليه...](٢).

وجاء في الفتح(٣) عند شرح قصة موسى والخضر [قال ابن المنير: ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة فقالوا: إنه يستفاد من

---

(١) «نقض المنطق» (٧٢).

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/١٢٢) و(١/١٢٣).

(٣) «فتح الباري» (١/٢٢١).

قصة موسى والخضر أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء، وأما الأولياء والخواص فلا حاجة لهم إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم لصفاء قلوبهم عن الأقذار وخلوّها عن الأغيار فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكائنات يعلمون الأحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى، ويؤيده الحديث المشهور «استفت قلبك وإن أفتوك»، قال القرطبي: وهذا القول زندقة وكفر، لأنه إنكار لما علم من الشرائع فإن الله قد أجرى سنته وأنفذ كلامه بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه المبيّنين لشرائعه وأحكامه كما قال تعالى ﴿يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ وقال ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ وقد حصل العلم اليقين وإجماع السلف على ذلك فمن ادعى أن هناك طريقاً أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الطرق التي جاءت بها الرسل، ويستغني بها عن الرسول فهذا كافر يقتل ولا يستتاب...].

قلت: والغزالي ليس من القائلين بالشطر الأول بالاستغناء عن ظاهر الأحكام الشرعية، فيما أعلم - أعني لم يستغن هو نفسه - ولكنه قال: [وفي الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغني عن مدد الأنبياء][1]، ولكن كلامه داخل في الشطر الآخر من حيث جواز اعتماد الخواطر، وتعدد المسالك إلى معرفة الحق.

وأما قول أبي حامد الغزالي: «وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث...».

فهو استدلال بغير دليل، وذلك من أوجه:

أولها: إن القراءة المذكورة ليست من القراءات المعتبرة، كما نبّه على ذلك من أشار إليها من أصحاب التفاسير كالقرطبي مثلاً، فإنه قال[2]: «وهذه القراءة

(١) «مشكاة الأنوار» (ص ٤٠).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٨٠).

ذكرها ابن الأنباري في كتاب الرّدّ وقال: فهذا حديث لا يؤخذ به على أن ذلك قرآن».

قلت: وهذا الذي ذكره هنا ابن الأنباري صحيح، والله أعلم.

وأهل العلم والقراآت انقسموا في تحديد ضابط قبول القراءة على ضربين.

من اشترط التواتر وهم الأكثر الأغلب منهم الأئمة الأربعة[1] وموفق الدين المقدسي وابن مفلح وابن الحاجب وابن عبد البر وابن عطية وابن تيمية والتونسي في تفسيره والنووي والسبكي والأسنوي والزركشي والدميري وابن عرفة والسيوطي وجعله إجماعاً.

ومن القرّاء لم يخالف إلا بعض المتأخرين[2] فهؤلاء جميعهم لا يُقرّون هذه القراءة ولا يجيزون الصلاة بها، إذ هي لم تبلغ الشهرة فضلاً عن التواتر.

فالقراءة المذكورة ذكرها البخاري في صحيحه تعليقاً ـ بغير إسناد ـ والبخاري في الغالب يعلّق ما لم يصح على شرطه وهذا يعرفه أهل الخبرة في الصحيح، ولكن لا بد وأن يكون قد صح عند غيره وإلا لم يذكره بصيغة الجزم.

وهو هنا كذلك فالقراءة أخرجها سفيان بن عيينة في أواخر جامعه. وأخرجها عبد بن حميد من طريق سفيان بإسناد صحيح إلى ابن عباس[3].

وبذلك يعلم أن الحديث يدور على سفيان بن عيينة، فأين هو من التواتر.

---

(١) قال صاحب «مسلّم الثبوت» وشارحه: «ما نقل آحاداً فليس بقرآن قطعاً ولم يعرف فيه خلاف لواحد من المذاهب» نقل عنه ذلك صاحب «مناهل العرفان» (١/٤٢٦) وكان قد قال: «فلا بد من التواتر عند أئمة المذاهب الأربعة ولم يخالف منهم أحد فيما علمت بعد الفحص الزائد» «مناهل» (١/٤٢٢).

(٢) انظر «مناهل العرفان» (١/٤٢٢).

(٣) «فتح الباري» (٦/٥١).

هذا، والأعجب من ذلك أن الغزالي ممن انتصروا لهذا الرأي وأيدوه، وقد حكى ذلك في المستصفى وغيره ثم عاد هنا فتناقض!!

وأما من قال تقبل القراءة من غير تواتر فقد اشترط لذلك شروطاً ثلاثة ذكرها الإمام الجزري إمام القراءات في متنه فقال:

فكل ما وافق وجه النحو وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصح إسناداً هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت شذوذه لو أنه في السبعة[١]

وهذه القراءة فاتها الركن الثاني فافترقت عن رسم المصاحف العثمانية[٢].

وهذا نقوله إن تساهلنا في اعتماد هذا القول الذي يعدّه بعض أهل العلم خلاف الإجماع، كما نقل عن الإمام النويري المالكي شارح الطيبة فإنه قال:

«هذا قول حادث مخالف لإجماع الفقهاء والمحدِّثين وغيرهم من الأصوليين والمفسرين»[٣].

الوجه الثاني:

وقد أجاب به شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية فقال[٤]:

[«فإن قيل ففي قراءة ابن عباس «أو محدَّث»، وبهذا احتج الحكيم الترمذي[٥] وغيره.

قيل: أولاً هذه القراءة ـ إذا ثبتت أنها قراءة[٦]ـ فلا يعرف لفظ بقية سائر

(١) وكذلك أنظر كتابه «منجد المقرئين» (ص٥٠) فما بعدها و «مناهل العرفان» (١/٤١١).
(٢) وأنظر «النشر في القراءات العشر»، و«اتحاف فضلاء البشر».
(٣) نقله صاحب «نيل الأوطار» (٢/٢٦٣)، وله بحث في المسألة هناك أعتمد فيه قول الجزري فانظره.
(٤) «الصفدية» بتحقيق محمد رشاد سالم (١/٢٥٦).
(٥) يعني في كتابه «خاتم الأولياء» وقد تقدم ذكره.
(٦) ولم تثبت كما قدمت، وهو رحمه الله زج هذا الإفتراض لمحي بقية الشك من صدور أهله كعادته رحمه الله في تثبيت الحجة أو دفعها.

الكلام معها كيف كان[١] فإنها بتقدير صحتها، أما من الحروف السبعة وإما مما نسخت تلاوته[٢]. وعلى التقديرين فيجوز أن يكون نظم سائر الآية على وجه لا يدل على عصمة المحدَّث، بل فيها نسخ ما يلقيه في أمنية النبيّ والرسول دون المحدث[٣]، وإن ثبت أن الله تعالى كان ينسخ ما يلقي الشيطان في قلوب المحدثين قبلنا[٤] فلا يقتضي أن ذلك بوحيٍ يأتيه، بل يكون ذلك بعرضه على نبوات الأنبياء فإن خالف ذلك كان مردوداً.

وحينئذٍ فيكون حفظ الولي بمتابعة الكتاب والسنة، ولا ريب أن السنة كما كان الزهري يذكر عمن مضى من سلف المؤمنين قال: كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة، وقال مالك: «السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»].

قلت: وهذا الجواب يقطع حجة من اعتبر القراءة الصحيحة الإسناد، الذين قالوا: إذا صح إسناد القراءة فالواجب اعتبارها ولو لم تكن من القرآن، لأنها في أقل مراتبها حديث صحيح، وهذا القول يروى عن الحنفية خلافاً للجمهور[٥].

الوجه الثالث:

وهو من كلامه أيضاً رحمه الله:

«وإن قُدِّر أن المحدَّث ممن قبلنا كان ينسخ ما يلقيه الشيطان فيما يلقي الله

(١) قلت: والأولى أن يقال إنه كما هو عندنا في المصحف وإلا لجاء التنبيه على ذلك كما لا يخفى.

(٢) ولكن لو نسخ القول فالحكم باق كون الآية من الأخبار، والأخبار لا يجوز عليها النسخ، فيكون من باب نسخ الخط وإبقاء الحكم.

(٣) وهو احتمال بعيد لكنه وارد، فيقصم ظهر الاستدلال.

(٤) وهذا ما يوجبه إبقاء سائر الآية على ما هي عليه.

(٥) وللحنفية شروط في ذلك أيضاً فانظرها في كتب الأصول، وإنما أحببت التنبيه على ذلك لقطع دابر الإستدلال، لو سلمنا بصحة الأصل المذكور عن الحنفية، ولسنا الآن بصدد الترجيح، فالمسألة طويلة، والدرب شائك، وملخص ما عندي، أن أصل الحنفية قوي، لكن ليس على إطلاقه وإلا لزم الخطأ، والله أعلم.

من غير استدلال بالنبوة فيكون من قبلنا كانوا مأمورين باتباع المحدَّث مطلقاً لعصمة الله إياه، ونحن لم نؤمر بذلك، وسبب ذلك أن من كان قبلنا لم تكن تكفيهم نبوة واحد، بل كانوا يأخذون بعض الدين عن هذا النبيّ وبعضه عن هذا النبي بتصديق الآخر له، كما كان أنبياء بني اسرائيل مأمورون باتباع التوراة، وكما أن المسيح أحلّ لهم بعض ما حُرِّم عليهم، وأحالهم في أكثر الأحكام على التوراة.

وأما نبوة محمد ﷺ فهي كافية لأمته كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وفي النسائي وغيره أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة، فقال: «أمتهوكون يا ابن الخطاب كما تهوكت اليهود والنصارى، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم»[١].

وفي مراسيل أبي داوود: «كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم أنزل إلى نبيٍّ غير نبيهم»[٢] ونحن نعلم يقيناً بالاضطرار من دين الإسلام أن محمداً

---

(١) والحديث رواه أحمد في «المسند»، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وفي سنده جابر بن يزيد الجعفي وهو ضعيف وآخر من حديث عمر بن الخطاب عند أبي يعلى، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي، وهو ضعيف، وانظر «مجمع الزوائد» (١/١٧٣): فالحديث مع شواهده حسن والله أعلم، هذا مع أن في مراسيل أبي داوود مرسل من حديث أبي قلابة بنحو هذه القصة، ورجال السند جميعهم ثقات، وفي آخر القصة، قال الراوي لأبي قلابة: «ما المتهوكون، قال: المتحيرون» ذكره في باب ما جاء في العلم، وهو في التحفة برقم (١٨٩٩٨). وقد ساق الحافظ لهذا الحديث شواهد عدّة ثم قال: وهذه جميع طرق هذا الحديث وهي وإن لم يكن فيها ما يحتج به لكن مجموعها يفيد أن للحديث أصلاً «الفتح» (١٣/٥٢٥)، قلت: لكن ليس في أي من هذه الطرق طريق محمد بن عبيد عن حماد عن أيوب عن أبي قلابة لكونه مرسلاً من هذا الوجه، مع أن محمد ومن فوقه رجال الشيخين.

(٢) قال الشيخ شعيب محقق المراسيل: «رجاله ثقات رجال الصحيح غير عبد الله بن محمد، وهو ثقة، ورواه الدارامي (١/١٢٤)، ورواه ابن جرير في «جامع البيان»

رسول الله ﷺ أوجب الله تعالى علينا طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، ولم يأمر بطاعة غيره إلا إذا وافق طاعته، لا نبياً ولا غير نبيٍّ.

ونحن إذا قلنا شرع من قبلنا شرعٌ لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه[1]، فإنما ذلك لكونه مشروعاً على لسان محمد ﷺ بالأدلة الدالة على ذلك، وقد علمنا بالاضطرار من دينه أن من أطاعه دخل الجنة، فلا يحتاج مع ذلك إلى طاعة غيره، لا نبيّ ولا محدَّث، فلم يكن المتبعون لنبوته محتاجين إلى اتباع نبي غيره فضلاً عن محدث، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[2].

نقض الدليل الثاني عشر:

وهو قوله: [والقران مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف، وذلك علم من غير تعلم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصّها بهم، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾].

فأما قوله: «والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف» فقد تقدم الحديث على ذلك عند نقض الدليل الثالث، وخلاصته أن التقوى لا تتم إلا بعلم وعمل، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ...﴾ الآية».

= (٦/٢١)، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (١٤٨/٥) وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم ثم قال: وأخرج الإسماعيلي في «معجمه» وابن مردويه... فذكر نحو هذا الحديث لكن عن أبي هريرة رضي الله عنه، اهـ ملخصاً، «المراسيل» (ص٣٢٠) رقم ٤٥٤، باب ما جاء في العلم.

(١) وهي مسألة في «الأصول مشهورة والخلاف فيها أشهر وكثير من أهل العلم قالوا: شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما ينسخه، وكان شيخ الإسلام يذهب هذا المذهب حكاه في غير موضع من كتبه، أنظر «التوسل والوسيلة» (٨٨)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (ص١٧٢) وتعليق الشيخ الفقي على المسألة.

(٢) «الصفدية» (١/٢٥٧) (١/٢٥٩) وارجع لما كتبه بعد ذلك فإنه نفيس نادر.

بل إن التقوى وردت بمعنى التفقه، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ وقال ﷺ «من يتفقه في دين الله كفى الله همه ورزقه من حيث لا يحتسب».

أخرجه الرافعي عن أبي يوسف عن أبي حنيفة عن أنس، والخطيب وابن النجار عن أبي يوسف عن أبي حنيفة عن عبد الله الزبيدي[1].

ولا يقال هنا: أرأيت أن تفقه ولم يعمل؟

فإنه يجاب: بأن الفقه أخص من العلم، وليس كل عالم فقيه، وقد يحمل الرجل الفقه ـ الذي هو من العلم ـ من غير أن يفقهه «ورب حامل فقه ليس بفقيه»[2]، فالفقيه المتبصر بأمور الشرع الموفق للعمل، وكذلك صح عن النبي ﷺ قوله: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[3] فقطع بالخيرية للمتفقه.

والكفار قد وصفهم الله عز وجل بأنهم لا يفقهون فقال: ﴿ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾.

وكذلك وصف المنافقين، والمنافق في الغالب يكون عالماً بالحق فيحيد **عنه، فقال جل ذكره ﴿ذلك** بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا **يفقهون﴾**.

فالوصف بسلب الفقه شر كله.

والثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وقالوا لا تنفروا في الحر عاتبهم الله تبارك وتعالى ﴿... وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ وهم على القطع يعلمون أن نار جهنم أشد حراً، ولكن لما امتنعوا عن الغزو حضهم الله سبحانه على الفقه، الذي من مفهومه قيام العمل بموافقة العلم، فلما تابوا، تاب عليهم، وهو التواب الرحيم.

(١) انظر «منتخب كنز العمال» (ص٣٥/٤). بحاشية مسند الإمام أحمد،
(٢) أخرجه أبو داوود والترمذي وحسنه.
(٣) أخرجه الترمذي وصححه والإمام أحمد في المسند وابن ماجة وغيرهم،

فمن كانت هذه حاله في التقوى، وعلى هذا الفهم، يقع له من الهداية ما يقع، على المعنى الذي قدمته عند قول الله سبحانه ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[1].

وهو محصور بالضابط الذي ذكرته عند الحديث على معرفة الغيب[2].

وأما استدلاله بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فهو استدلال عليه لا له.

فقوله تعالى: ﴿هذا﴾ أي القرآن كما هو ظاهر السياق، والذين يهتدون به ويتعظون هم المتقون، فدلّ على أن سبب هدايتهم واتعاظهم ثم تقواهم لا هو إلهام لا تحديث ولا كشف، وإنما هو كلام الله وكلام رسوله ﷺ الذي هو تابع له من حيث معرفة الشرع، وهذا هو العلم كما قال ﷺ: «العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة»[3].

نقض الدليل الثالث عشر:

وهو قوله: [وكان أبو يزيد وغيره يقول: «ليس العالم الذي يحفظ من كتاب، فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس» وهذا هو العلم الرباني وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علماً لدنيا، بل اللدني الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج].

وهذا ما كان يجوز اقحامه بين ما استدل به، فليس هو بآية من الكتاب ولا نص من السنة، وقائله ما عده أهل العلم من بينهم، بل الغالب على ما يروى عنه إن صح أنه من الكفر والزندقة، وقطع طريق الذاهبين إلى الله.

---

(١) أنظر نقض الدليل الرابع.

(٢) أنظر فصل معرفة الغيب عند الغزالي.

(٣) أخرجه أبو داوود والحاكم وابن ماجة عن ابن عمرو، وإسناده حسن، والله أعلم.

والبسطامي هذا يروى عنه أنه كان لا يطيق العلم ويشق عليه، ومن ذلك قوله: «عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً أشدّ علي من العلم ومتابعته»[1] فقد يكون لأجل ذلك تركه، ثم قال ما قال من الضلال والكذب الذي هو أبين من الفجر المستطير بعد الغلس.

والعجب كل العجب من أبي حامد كيف يروي عن مشائخ الصوفية المتهمين ومن عندهم خلط ولبس، أقوالهم التي تؤيد مذهبه وطريقه، ولا يذكر ما يناقض ذلك فيما نقل عنهم.

فمن ذلك ما يُذكر عن سيد الطائفة وشيخها الجنيد بن محمد رحمه الله: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول، ومن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا مقيَّد بالكتاب والسّنّة»[2].

فتأمل هذا الأصل العظيم على لسان شيخ أشياخهم، فإنه ينسف قاعدة أبي حامد في هذا الفصل، ونسبتها لأهل التصوف.

والكلام المنقول عن الشيخ الجنيد رحمه الله وأعلى درجته ومنزلته أورده العلامة ابن القيم في «المدارج» في منزلة العلم التي قال في أولها:

[وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قد ينتهي إليه فسلوكه على غير طريق، وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدودة عليه سبل الهدى والفلاح، مغلّقة عليه أبوابها، وهذا إجماع من الشيوخ العارفين.

ولم ينه عن العلم إلا قطّاع الطريق منهم، ونوّاب إبليس وشرطه، ثم أورد قول الجنيد المتقدم وقال: قال أبو حفص رحمه الله: «من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنّة ولم يتهم خواطره لا يعدّ في ديوان الرجال».

---

(١) انظر «مدارج السالكين ومنازل السائرين» للعلامة ابن القيم، منزلة العلم، وذكر ذلك على سبيل تعظيم العلم عند المشايخ.

(٢) جاء ذلك في «الرسالة القشيرية» (١٠٧/١) تحقيق عبد الحليم محمود ط ١٩٦٦)، وله ألفاظ أخرى.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم ما أقبلها إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة[1].

وقال السّرّيّ: التصوف اسم لثلاثة معانٍ، لا يطفىء نور معرفته نور ورعه، ولا يحكم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار المحارم.

وقال أبو يزيد مرة لخادمه: قم بنا إلى هذا الرجل الذي يشهر نفسه بالصلاح لنزوره، فلما دخلا عليه تنخم ثم رمى بها نحو القبلة فرجع ولم يسلّم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدّعي.

وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله: من عمل عملاً بلا اتباع سنّة فباطل عمله.

وقال أبو عثمان النيسابوري رحمه الله: الصحبة مع الله حسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم.

وقال أبو الحسين النوري: من رأيتموه يدّعي مع الله عز وجل حالة تخرجه عند حد العلم الشرعي فلا تقربوا منه.

وقال أبو سعيد الخزاز: كل باطن يخالف الظاهر فهو باطل.

وقال أبو حمزة البغدادي ـ وكان من أقران الإمام أحمد وكان الإمام أحمد يحبه ـ: من علم طريق الحق عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا بمتابعة الرسول ﷺ في أحواله وأفعاله.

وقال أبو القاسم النصر آباذي: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع] انتهى ملخصاً ما أورده الشيخ ابن القيم على لسانهم.

---

(١) وذكرها القشيري في («الرسالة القشيرية» (١/ ٨٦) تحقيق عبد الحليم محمود ١٩٦٦.
وانظر ما تقدم من قوله في ذلك أيضاً عند نقض الدليل الأول، بالإسناد المتصل.

وهذا على القطع هو بعض ما قالوه وحكموا به، وهم روّاد الطريق وقوّاده، فلم لم يأت أبو حامد على ذكره، والإشارة إليه، وجعله من طريق المتصوفة، وأعني بالمتصوفة هنا، طائفة منهم، وهي التي ارتضاها أبو حامد وانتصر لها، لا الطوائف التي ذمّها وعابها، كطائفة أجلاف العوام[1]، وطائفة أصحاب الدعاوي الطويلة العريضة[2].

---

(١) فالغزالي يرى التفاوت بين طوائف المتصوفة وأشياخهم من حيث صحة الطريق، ويجعلهم أقساماً، فيذكر في الأحياء (١/٣٥) منهم فرقاً تحت عنوان شطح الصوفية، منها طائفة أجلاف العوام الذين بواطنهم مشحونة بالشهوات فيقول: «فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن فيها فتشتعل فيها نيران الشهوات، فيزعقون ويتواجدون، وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد» («الاحياء» ١/٣٦) قلت: والبادي الظاهر أن هذا القسم الذي ذكره هو الغالب على متصوفة هذا الزمان.

(٢) وأما أشياخ الصنف الآخر، ويسميهم أصحاب الدعاوي الطويلة العريضة المتشبهين بالفطاحل كما يقول فإنه ينفي عنهم بعض كلامهم، ويثبت بعضه متأولاً كما سيأتي، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم أهل العلم من أهل السنة: أصحاب عقيدة الحلول والاتحاد، والجمهور على تكفيرهم بـ[illegible] اختلافهم في صحة نسب الأقوال إليهم، وإلا فهم متفقون على ضلال هذه العقيدة وأصولـ[illegible]

وهؤلاء هم الذين قال فيهم أبو نعيم الأصفهاني في مقدمة كتابه «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»(ص٤) «وذلك لما بلغك من بسط لساننا، ولسان أهل الفقه والآثار في كل القطر والأمصار، في المنتسبين إليهم من الفسقة الفجار، والمباحية والحلولية الكفار».

فهؤلاء يقول فيهم الغزالي: «وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية:

(أحدهما) الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة والرؤية والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا وكذا، وقلنا كذا، ويستشهد فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: أنا الحق، وبما حكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال: سبحاني سبحاني، وهذا من الكلام عظيم ضرره في العوام، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوي، . . .

وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله، فلا يصح عليه ما يحكى وإن سمع ذلك منه، فلعله كان

والمراد قوله هنا، أن من تقدمت أقوالهم قد ارتضاهم أبو حامد وحشا الاحياء بأقوالهم، ولكنه امتنع عنها هنا، وهذا لا يحلّ.

فأهل البدع وحدهم الذين لا يعرجون إلا على ما وافقهم ويطرحون ما سواه. وكذلك فإن كثيراً من المشايخ الذين ارتضاهم الغزالي كانوا على مذهب أهل الحديث ومن رواته، وإن نُسِبوا إلى التصوف، كالفضيل بن عياض، والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التستري، وعمرو بن عثمان المكي، وعبد الله بن المبارك وكان من أمراء المؤمنين فيه، والحسن البصري، وأبي الحسين النوري، وغيرهم وكلامهم في السّنّة لا يخفى. حتى طعن عليهم فلاسفة التصوف بأقوالهم[1]، والسَّرِيّ السَّقطي رحمه الله، وهو من أجل

= يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه كما لو سمع وهو يقول: «إنني أنا الله لا إله لا أنا فاعبدني» فإنه ما كان ينبغي أن يفهم ذلك إلا على سبيل الحكاية.

(الصنف الثاني) من الشطح، كلمات غير مفهومة عند قائلها، بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله، لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه، وهذا هو الأكثر، وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها، وإيرادها بعبارة تدل على ضميره، لقلة ممارسة العلم، وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة، ولا فائدة من هذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويبهر الأذهان، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما اريدت بها، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه» (الأحياء ١ / ٣٦).

ويقول أيضاً عن هذه الطائفة في المنقذ (ص ٥٠): «ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الإحتراز عنه. وعلى الجملة ينتهي الامر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول والاتحاد وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ، وقد بينا وجه الخطأ في كتاب المقصد لأسنى، بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر»

(١) فإن ابن عربي لما قيل له: إن الجنيد سئل عن التوحيد فقال: «التوحيد إفراد الحدوث عن القدم». وكان علم ما يعتري بعض السالكين من المتصوفة، وما ادعاه ملاحدتهم من الحلول والاتحاد، فأراد أن يبين الحق في ذلك ويبطل الباطل. قال ابن عربي: «لا يميز بين المحدث والقديم إلا من كان ليس واحداً منهما»

ذكر ذلك في كتابه «التجليات» نقل ذلك عنه شيخ الإسلام في الصفدية (٢٦٥/١) تحقيق محمد رشاد سالم.

شيوخهم ـ وتلميذه شيخهم الجنيد إمام الطائفة ـ ، كان ينهى عن التصوف إلا بعد طلب الحديث ومعرفته ، حكى ذلك عنه الجنيد فقال : قال لي السّري شيخي يوماً : إذا قمت من عندي فمن تجالس ، قلت : المحاسبيّ فقال : نعم ، خذ من علمه وأدنه[1] ، ودع عنك تشقيقه الكلام والرد على المتكلمين[2] ثم لما وليت سمعته يقول : «جعلك الله صاحب حديث صوفياً ، ولا جعلك صوفياً صاحب حديث» والقصة في «الاحياء»[3] .

وقد تعقبها الغزالي بقوله : «أشار إلى أن من حصّل الحديث والعلم ثم تصوّف أفلح ، ومن تصوّف قبل العلم خاطر بنفسه» .

أفرأيت أبا حامد كيف يورد مثل هذه القصة عن أمامي التصوّف السري والجنيد واشتراطهما العلم قبل التصوف ، ثم يحكي عن المتصوفة والطريقة التي أرتضاها أن العلم إنما يتفجر في القلب بالتصفية والخلوة ، وفتح العلوم والمكاشفات ، دون طلب الأصلين !! .

= ومما قاله أيضاً : «مع أنه ـ ابن عربي ـ يقدح في توحيد الشيوخ الأكابر كالجنيد ، وسهل بن عبد الله ـ يعني لتستري ـ وأمثالهما ، ويطعن في قول الجنيد لما سئل . . . وذكر القصة» : (١/٢٦٥) .

وجاء في الفتح (١٣/٣٤٨) : «وقد غلا بعض المتصوفة فزعم أن المراد بالتوحيد اعتقاد وحدة الوجود وعظم الخطب حتى ساء ظن كثير من أهل العلم بمتقدميهم وحاشاهم من ذلك ، وقد قدمت كلام شيخ الطائفة الجنيد وهو في غاية الحسن والإيجاز وقد رد عليه بعض من قال بالوحدة المطلقة فقال : وهل من غير ، ولهم في ذلك كلام ينبو عنه سمع كل من كان على فطرة الإسلام» ـ قلت : كلام الجنيد كان قد ذكر قبل ورقتين (١٣/٣٤٤) حيث قال : قال الجنيد فيما حكاه أبو القاسم القشيري «التوحيد إفراد القديم عن المحدث» .

(١) لعل الصواب «وأدبه» بالباء ، لأن التلميذ لا يدني الشيخ ، وإنما الشيخ يدني التلميذ ويقربه منه ،

(٢) في الحكاية تصريح السري بكون الحارث متكلماً ، كما قدمت ذلك عنه في أول الكتاب عند الحديث عن شيوخ الغزالي .

(٣) «الاحياء» (١/٢٢) .

وهؤلاء الشيوخ ـ الذين هم على مذهب أهل الحديث ـ قد ينسب إليهم من الأقوال ما لا يحلّ ولا يصلح ولكنه قليل نادر، وحسن الظن بهم يجعلها عندنا من الافتراءات عليهم، والله أعلم، وليست العصمة لأحد بعد النبي ﷺ، إنما ذدنا عنهم بذودهم عن الكتاب والسنة، والقطع لا يجوز إلا بيقين، ولكن الحكم بغلبة الظن جائز إذا شهدت له القرائن.

وأما أبو يزيد البسطامي، وابن عربي وابن هود، وابن سبعين وابن الفارض والتلمساني وشيخه القونوي والسهروردي المقتول والحلاّج المصلوب، وابن قِسّيّ وأضرابهم، فالغالب على ما ينقل عنهم أو حكوه هم في كتبهم الكفر والزندقة والابتداع، وقد نقلت عنهم طرفاً من ذلك، وقد حكى أهل الزيج اجماع الفقهاء في عصر الحلاّج على صلبه[1]، والسهروردي على قتله[2]، وذكروا في تراجم الباقين كفراً وزندقة عظيمين.

---

(١) هو الحسين بن منصور، خالط الصوفية، وظهرت بدعته سنة تسع وتسعين ومائتين، كان يظهر التشيُّع لخلفاء العباسيين والتصوف للعامّة، وينادي بمذهب الحلول، قال ابن كثير: «فأما الفقهاء فحكى عن غير واحد من العلماء والأئمة إجماعهم على قتله، وأنه قتل كافراً، وكان كافراً مشعبذاً، ممخْرقاً، وبهذا قال أكثر الصوفية، منهم طائفة كما تقدم أجملوا القول فيه وغرهم ظاهره ولم يطّلعوا على باطنه ولا باطن قوله. . .» «البداية» (١١/١٣٣) ولذلك أمر الخليفة المقتدر بسجنه ثم بصلبه وقتله، وذلك سنة تسع وثلاثمائة، «وانظر تاريخ بغداد» (١١٢ — ١٤١) «المنتظم» (٦/١١٦٠ — ١٦٤) «لسان الميزان» (٢/٣١٤) «العبر للذهبي» (٢/١٤٠) «الفَرْق بين الفِرَق» (٢٤٦ — ٢٤٩) للباقلاني، وجواب شيخ الإسلام ابن تيمية عن سؤال عن الحلاج هل كان صديقاً أم زنديقاً (ضمن جامع رسائله ١٨٥ — ١٩٩) و(«الإستقامة» له أيضاً ص١/١١٩) تحقيق الشيخ محمد رشاد سالم،

(٢) السهروردي شهاب الدين أبو الفتح يحيى بن الحسن بن أميرك، قتل سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وقد قال الذهبي إمام أهل الجرح والتعديل فيه: «إنه قليل الدين» ووصْف مصنفاته بقوله: «وسائر مصنفاته ليست من علوم الإسلام» ثم قال في الذين أفتوا بقتله «أحسنوا وأصابوا».

أنظر «سير أعلام النبلاء» (ج٢١/ ترجمة٩٩) فإن له هنالك ترجمة مطولة.

وأما الذين كثر التوقف فيهم عند أهل العلم أمثال الشبلي، وأبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، والخواص، وبشر الحافي، وأبي سعيد الخراز وأبي سليمان الداراني، وأشباههم فإنما حصل ذلك لكثرة ما نقل عنهم من الحق والباطل معاً.

هذا، مع أن كثيراً من الحذّاق العارفين، ينتصرون لهم، ويقتصرون في تراجمهم على ذكر الحق الذي ورد عنهم، ويعتقدون فيهم الخير والصلاح والتقى[1].

والأشبه عندي أن هذا هو الصواب، وأنهم كانوا أهل اتباع، والنفس

---

(١) من هؤلاء المنتصرين الحافظ ابن كثير فمما أورده في ترجمة بشر الحافي بعد أن ذكر من روى عنهم من الأئمة ورووا عنه الحديث، نقل قول الإمام أحمد فيه لما مات: «ما ترك بعده مثله»، وذكر أن أهل بغداد اجتمعوا على جنازته عن بكرة أبيهم، وأن علي المدائني وغيره من أئمة الحديث كان يصيح بأعلى صوته في الجنازة: «هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة»، بل وذكر أنه كان له أخوات ثلاث: مُخّة ومُضْغة وزبدة وأنهن كن عابدات زاهدات مثله، وأشد ورعاً، رحمهم الله أجمعين، البداية (٢٩٧/١٠).
ومما يذكر في هذا الموضع أن الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله قد صنف كتاباً في سيرة بشر الحافي رحمه الله لكن لم يصل إلينا منه شيء، ولعله غرق في جملة الكتب التي غرقت،
ولكن ذكره في ترجمة الإمام أحمد، الشعرانيُّ في طبقاته، وابن خلكان في وفياته، ولو لم يكن في بشر إلا قول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله لما سئل عن الورع فقال: «أنا أستغفر الله لا يحل لي أن أتكلم في الورع وأنا آكل من غلة بغداد ولو كان بشر بن الحارث صلح أن يجيبك عنه»، لكفاه، رحمهما الله تعالى.
وأما في ترجمة أبي سليمان وبعد أن ذكر روايته للحديث ومحبته للعلم، وبعض أقواله التي قدمتها عنه في اتباع الأثر والسنة، قال: [وقال أبو سليمان: «إذا رأيت الصوفي يتنوق في لبس الصوف فليس بصوفي، وخيار هذه الأمة أصحاب القطن، أبو بكر الصديق وأصحابه» وقد ذكر من خوفه وورعه مع الإمام أحمد — وكان صاحبه — حكايات كثيرة، وذكر بعضها في ترجمة الإمام أحمد كذلك.] البداية (٢٥٥/١٠) فما بعدها ونحو هذا يجيء في ترجمة الشبلي والشيرازي والخوّاص والخرّاز وغيرهم، وقد فعل قريباً من هذا الذهبي في «السير» وابن خلكان في «الوفيات» مع أن هذا الأخير كثير الخلط في تراجمه، والله أعلم.

تميل لذلك عندما تقف على بعض ما يذكر عنهم من صفاء القريحة وحدة الخاطر المنقدحة من بين كلماتهم، والله أعلم، ولا يزكى على الله أحد، فإن مثلي يجهل حاله اللهم الحقني في عبادك الصالحين، يا رب.

والذي لا شك فيه أن أياً من هؤلاء لا ينتصر له أو عليه إلا بما معه من الحق والصواب.

ولنرجع الآن إلى قول أبي يزيد المتقدم، وبيان أوجه مخالفته للحق.

من ذلك سلب صفة العلم عن أئمة الهدى أمثال أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة، والبخاري ومسلم وغيرهم، لأنهم حفظوا ودونوا، وجلّ علمهم في الكتب، وليس في أبناء آدم من لا ينسى، فهذا معنى الشطر الأوّل من كلامه.

وأما الشطر الآخر فهو ضلال محض، لا يخرج إلا عن معتقدي اكتساب النبوة، ومن يجعلون الوليّ فوق النبيّ، وإلا فمن يأخذ العلم من ربه غير الأنبياء، بل الأنبياء لا يأخذون العلم أي وقت شاءوا ونبينا ﷺ لم يدر ما يصنع في حادثة الأفك، حتى نزل عليه الوحي بعد أيام والقصة في الصحيحين، ونحو هذا ما يروى عن ابن عباس في تأخر الوحي خمسة عشر يوماً عن النبي ﷺ لما سئل عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح فقال: «أخبركم غداً عما سألتم عنه»[1].

وكأن النبي ﷺ كان أخشى ما يخشاه على هذه الأمة أمثال هؤلاء، فأراد أن يقطع دابرهم ويقصم حجتهم، ويحذر ضلالتهم فـ «كشف الستارة ورأسه معصوب في مرضه الذي مات فيه والناس صفوف خلف أبي بكر فقال: يا ايها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له»[2].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/٧٢ — ٧١)، وصحة القصة متوقفة على معرفة حال شيخ محمد بن إسحق،

(٢) أخرجه مسلم وأبو داوود وغيرهما من حديث ابن عباس بهذا اللفظ، والبخاري من حديث أبي هريرة،

فلا يدعين مدعي أن له طريقاً إلى الله سبحانه وتعالى، أو معرفة بشرعه، من غير طريق رسوله ﷺ، إذ الأبواب كلها مغلقة موصودة إلا لمن اقتفى آثار الرسول.

ولا يشيع ذلك ويفتريه إلا شياطين الإنس والجنّ يحكي بعضهم لبعض زخرف القول غروراً، وسادات الصحابة لم يدّعوا مثل ذلك، ولا أحد من التابعين لهم بإحسان إنما كانوا إذا أرادوا معرفة أمور الدين استناروا بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة الذين شهدوا التنزيل والوقائع، وقد تقدم بعض ذلك عن الشيخين أبي بكر وعمر.

وصح أن سعيد بن جبير إمام التابعين وأكبر أصحاب ابن عباس ـ وكان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال: أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء، يعني سعيداً ـ وكان سعيد يقعد في الكعبة القعدة فيقرأ الختمة ـ صح أنه لما اختلف أهل الكوفة هل للقاتل من توبة، رحل من الكوفة إلى مكة يسأل ابن عباس عن ذلك.

روى هذا البخاري في صحيحه من كتاب التفسير عند قوله تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الآية ولفظه عن سعيد: «آية اختلف فيها أهل الكوفة فرحلت فيها إلى ابن عباس، فسألته عنها فقال: هي آخر ما نزل وما نسخها شيء».

وكذلك رواها عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ . . .﴾ الآية وهي من رواية محمد بن بشار عن غندر عن شعبة.

وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم أيضاً، والأغلب عندي أنه قد رواها من هذه الطريق في صحيحه، فإنه كان يعجب برواية غندر عن شعبة، كما يظهر من صنيعه في الصحيح.

والشاهد من القصة أن سعيداً رحمه الله لما أراد الحُجَّة ما انتظر في ذلك كشفاً ولا إلهاماً ولا تحديثاً، مع أنه زين العابدين وشيخ الورعين، وما ينسب إليه من الزهد والعبادة والخلوة لا ينسب لأكابر أشياخ هؤلاء المبتدعة.

وأمثال هذه الواقعة تنسب لأقرانه، وهم فطاحل الأمة وأنسك العباد، كسعيد بن المسيب سيد التابعين على الاطلاق، وعروة بن الزبير الذي أخذ نصف علم عائشة بالسؤال، ومطرف بن عبد الله الشخير صاحب سعيد، ومجاهد بن جبر الذي قال فيه الشافعي إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، وعطاء بن يسار، وعامر الشعبي وعكرمة بن عبد الله المدني وطاووس بن كيسان، ومحمد بن سيرين، والحسن البصري، ومن الناس غيرهم.

وقد قرأنا كتب الأئمة الكبار وأتباعهم، ومناظراتهم، فما وجدنا حرفاً واحداً، ولا فتوى من إلهام أو كشف أو تحديث، لا في موطأ مالك ولا مسند أبي حنيفة ـ إن صح عنه ـ، ولا في فقهه ولا في أمّ الشافعي، ولا مسند أحمد.

ولم يدع أحد منهم أنه رأى الرسول أو روحه، أو صورة ملك، فاقتبس منها فوائد، ولو قال أحد منهم أُلهمت أو حُدِّثت أو كوشفت أو حدثني قلبي عن ربي، لرموه بالعظائم ولقالوا: هذا قول لا يزن عندنا جناح بعوضه، وإنما العبرة عندنا بالإسناد وعلى ذلك اتفقوا، وأخرجوه[1] في كتبهم.

---

(١) قولي أخرجوه أي ذكروه بالإسناد، لا بمجرد القول والحكاية،

[وقال أبو الحارث لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: أترى للرجل أن يرحل لطلب العلم قال نعم، قد رحل أصحاب رسول الله ﷺ ومن بعدهم، . . .

وعن سعيد بن المسيب قال: «إن كنت لأسافر مسيرة الليالي والأيام في الحديث الواحد»، وقال أبو قلابة: «لقد أقمت بالمدينة ثلاثة أيام ما لي حاجة إلا رجل يقدم عنده حديث فأسمعه»، وعن الشعبي قال: «لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن فسمع كلمة تنفعه فيما يستقبل من أمره ما رأيت سفره ضاع»،

وفي الصحيحين من حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين. . . الحديث» قال الشعبي بعد أن ساقه: «خذها بغير شيء فقد كان الرجل يرحل في مثلها إلى المدينة — يعني من الكوفة ـ».

وأشار البخاري إلى حديث عبد الله بن أنيس وأن جابراً رحل إليه شهراً في حديث واحد. وهذا الحديث رواه الإمام احمد عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه إبتاع بعيراً وسار شهراً إلى عبد الله بن أنيس، والحديث فيه «أنا الله أنا الملك أنا الديان»

فقال سفيان الثوري رحمه الله: «الإسناد سلاح المؤمن، وإذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل»[1].

وقال عبد الله بن المبارك: «الإسناد عندي من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، فإذا قيل له: من حدثك، بقي»[2] أي حائراً ساكتاً[3]».

وقال سفيان بن عيينة: «حدثني الزهري يوماً بحديث، فقلت: هاته بلا إسناد، فقال الزهري: أترقى السطح بلا سلّم»[4].

فتأمل أقوالهم، وقول أبي يزيد الذي نحن بصدده، وانظر أي الفريقين أولى بالحق، فإنهم أرادوا تحكم الشرع ليجوزوا الصراط.

وهو أراد إلغاءه وطمسه، وإبطال لغة الحجة والبرهان والدليل القاطع ليشيع زيفه وضلاله ويطلي بدعته فلا ينازعه منازع.

ورحم الله من قال[5]:

ذهب الرجال وحال دون مجالهم ... زُمَرٌ من الأوباش والأنذال

= وفي الصحيح أيضاً أن وفد اليمن قالوا: «جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر...» قال ابن هبيرة: فيه الرحلة في طلب العلم] الآداب الشرعية (٢/٥٨).

(١) أخرجه ابن حبّان في مطلع كتاب «المجروحين» (١٩).

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحة (ص١٢)، والخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص٤١)، والترمذي في «العلل» «والجامع».

(٣) أنظر «شفاء الغُلَل، شرح العِلل»، آخر «تحفة الأحوذي» (١٠/٣٣٤).

(٤) أخرجه البيهقي كما في شرح العلل لابن رجب (ص٥٨)، وأخرجه غيره، انظر ذلك في «منهج النقد في علوم الحديث» للشيخ نور الدين عتر (ص ٣٤٤) فما بعدها.

(٥) الأبيات، ذكرها العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه الحافل الموسوم بـ «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» في مطلع قصيدة صدّرها بقوله: «وقال آخر وأحسن ما شاء» (١/٢٣١) فقال الشيخ محمد حامد الفقي محقق الكتاب في أسفل الصفحة: «أنا لا أشك في أن هذا القائل هو الإمام المحقق الرباني الصادق ابن القيم، وهذا نَفَسه في الشعر وروحه، وهذه شكايته من أهل زمانه فرحمه الله وجزاه خير الجزاء» قلت: حق للشيخ محمد رحمه الله أن يقول ما قال، وهو المدقق النحرير في كتب ابن القيم، وهذا من تعليقاته النفسية على الكتاب.

زعموا بأنهم على آثارهم ... ساروا ولكن سيرة البطّال
لبسوا الدُّلوق مرقعاً وتقشفوا ... كتقشف الأقطاب والأبدال
قطعوا طريق السالكين وغوّروا ... سُبْل الهدى بجهالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى ... وحشوا بواطنهم من الأدغال
إن قلت: قال الله: قال رسوله ... همزوك همز المنكر المتغالي
أو قلت: قد قال الصحابة والأولى ... تبعوهم في القول والأعمال
أو قلت: قال الآل آل المصطفى ... صلى عليه الله، أفضل آل،
أو قلت: قال الشافعي وأحمد ... وأبو حنيفة، والإمام العالي
أو قلت: قال صحابهم من بعدهم ... فالكل عندهم كشبه خيال،
ويقول: قلبي قال لي عن سرّه ... عن سِرّ سِرّي عن صفا أحوالي
عن حضرتي عن فكرتي عن خلوتي ... عن شاهدي عن واردي عن حالي
عن صفو وقتي عن حقيقة مشهدي ... عن سر ذاتي عن صفات فمالي،
دعوى إذا حققتها ألفيتها ... ألقاب زور لفقت بمحال
تركوا الحقائق والشرائع واقتدوا ... بظواهر الجهّال والضلاّل
جعلوا المرا فتحاً وألفاظ الخنا ... شطحاً وصالوا صولة الإدلال
نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم ... نبذ المسافر فضلة الأكّال
جعلوا السماع مطيّة لهواهم ... وغلوا فقالوا فيه كل محال
هو طاعة هو قربة هو سنّة ... صدقوا لذاك الشيخ ذي الإضلال
شيخ قديم صادهم بتحيّل ... حتى أجابوا دعوة المحتال
هجروا له القرآن والأخبار والآ ... ثار إذ شهدت لهم بضلال
ورأوا سماع الشعر أنفع للفتى ... من أوجه سبع لهم بتوال[1]

= المذكور آنفاً، وحبذا لو أبصرت النور تعليقات له كثيرة، قرأتها بخطه على بعض صفحات كتبه الخاصة التي لم تجد لها وارثاً، وبيعت بأبخس الأثمان، تبكي قلّة الدّارسين.

(١) أنظر ما قاله الغزالي عن السماع، وما فيه من الفوائد، وأنه يهيج القلوب أكثر من القرآن من سبعة أوجه «الاحياء» (٢/٢٩٨) و(٢/٣٠١)، وانظر رد الإمام الشاطبي على الغزالي في تجويزه للسماع، فإنه أفرد لذلك فصلاً طويلاً من كتابيه «الموافقات» و«الاعتصام».

تــالله مـا ظفـر العــدو بمثلهــا ... مـن مثلهم، واخيبــة الآمــال
نصب الحبال لهم فلم يقعوا بها ... فأتى بذا الشَرْكِ المحيط الغالي
فإذا بهم وسط العرين ممزقي الأ ... ثــواب والأديــان، والأحــوال
لا يسمعون سوى الذي يهوونه ... شغلاً بـه عن ســائر الأشغــال

إلى آخر ما جاء في هذه القصيدة الغرّاء، وهي تقع في مائة وثلاثين بيتاً، وكان الشيخ رحمه الله قد عقد في نفس الكتاب فصلاً في هذا المعنى، ومما جاء فيه[1]:

[ومن كيده - الشيطان - أنه يُحَسِّن إلى أرباب التخلي والزهد والرياضة العمل بها، دون تحكيم أمر الشارع، ويقولون: القلب إذا كان محفوظاً مع الله، كانت هواجسه وخواطره معصومة من الخطأ، وهذا من أبلغ كيد العدو فيهم.

فإن الهواجس والخواطر ثلاثة أنواع، رحمانية وشيطانية ونفسانية، كالرؤيا، فلو بلغ العبد من الزهد والعبادة ما بلغ فمعه شيطانه ونفسه لا يفارقانه إلى الموت والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[2]، والعصمة إنما هي للرسل صلوات الله وسلامه عليهم، الذين هم وسائط بين الله عز وجل وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومن عداهم يصيب ويخطيء، ليس بحجة على الخلق.

وقد كان سيد المحدثين الملهمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول الشيء فيرده عليه من هو دونه، فيبين له الخطأ فيرجع عنه.، وكان يعرض هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة ولا يلتفت إليها ولا يحكم بها ولا يعمل[3]

(١) إغاثة اللهفان (١٢٢/١) وما بعدها.

(٢) عدم مفارقة الشيطان لابن آدم، وجريانه في دمه، ثابت في الأحاديث الصحيحة عند الشيخين.

(٣) تقدم كثير من ذلك عند نقض الإستدلال بالتحديث والإلهام فارجع إليه.

وهؤلاء الجهال يرى أحدهم أدنى شيء فيحكم هواجسه وخواطره على [تـ]ـاب والسنة، ولا يلتفت إليهما ويقول: حدثني قلبي عن ربي، ونحن أخذنا الحيّ الذي لا يموت، وأنتم أخذتم عن الوسائط ونحن أخذنا بالحقائق، [و]تم اتبعتم الرسوم، وأمثال ذلك من الكلام الذي هو كفر وإلحاد، وغاية [صا]حبه أن يكون جاهلاً يعذر بجهله، حتى قيل لبعض هؤلاء: ألا تذهب [تسـ]ـمع الحديث من عبد الرزاق[1]؟ فقال: ما يصنع السماع من عبد الرزاق من [سـ]ـمع من المَلِك الخلّاق.

وهذا غاية الجهل فإن الذي سمع من الخلاق موسى بن عمران كليم [الرحـ]ـمن[2]، وأما هذا وأمثاله فلم يحصل لهم السماع من بعض ورثة الرسول، يدعي أنه سمع الخطاب من مرسله، فيستغني به عن ظاهر العلم، ولعل [الذي] يخاطبهم هو الشيطان أو نفسه الجاهلة، أو هما مجتمعين[3].

ومن ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول بما يلقى في قلبه من الهواجس [والخـ]ـواطر فهو من أعظم الناس كفراً، وكذلك إن ظن أنه يكتفي بهذا تارة [وبهـ]ـذا تارة، فما يلقي في القلوب لا عبرة به، ولا التفات إليه إن لم يعرض [على] ما جاء به الرسول، ويشهد له بالموافقة وإلا فهو من القاء النفس [والشـ]ـيطان.

وقد سئل عبد الله بن مسعود عن مسئلة المفوّضة شهراً، فقال بعد [شـ]ـهر: «أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن [الشيـ]ـطان، والله بريء منه ورسوله»[4].

---

(1) من أبرع المحدثين وأجلّ شيوخ الإمام أحمد، وله «المصنَّف»، فذ في بابه.

(2) سيأتي أن الغزالي قد ادعى بأن صاحب الرياضة قد سمع كلام الله، لكنه لم يحدد الكيفية.

(3) وهو كذلك على القطع سواء اعتبروه حقيقة بصوت، أو مجازاً بما يقع في النَّفْس.

(4) روى ذلك أبو داوود في «باب من تزوج ولم يسم صداقاً حتى مات».

وكتب كاتب لعمر رضي الله عنه بين يديه: «هذا ما أرى الله عمر، فقال: لا، امحه واكتب هذا ما رأى عمر»[1].

وقال عمر رضي الله عنه: «يا أيها الناس اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله عليه السلام لرددته»[2].

واتهام الصحابة لآرائهم كثير مشهور، وهم أبر الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأبعدها من الشيطان، فكانوا أتبع الأمة للسنة، وأشدهم اتهاماً لآرائهم، وهؤلاء ضد ذلك.

---

(١) كنت وقفت على هذه الحكاية فيما مضى، وطلبتها الآن في مظانّها فلم أجدها، ولكنها على القطع ليست في الكتب السبعة، ولا الموطأ، ولا في زوائد المسانيد الثمانية، وقد أخرج إبن المنذر أن رجلاً قال لعمر: بما أراك الله، قال عمر: مه، إنما هذه للنبي ﷺ خاصة، (منتخب الكنز ٤/٧١)

(٢) أبو جندل ابن سهيل بن عمرو، أسلم بمكة، فسجنه أبوه وقيده، فلما كان يوم الحديبية، هرب أبو جندل إلى النبي ﷺ وكان أبوه سهيل هو الذي تولى عن قريش عقد الصلح مع رسول الله ﷺ، فبينما هم يكتبون الصحيفة، إذ طلع أبو جندل، فقام إليه أبوه وضرب وجهه، وأخذ بتلابيبه يُتلُّه، وقال: يا محمد قد لجَّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال صدقت، فصاح أبو جندل بأعلى صوته: أيا معشر المسلمين أُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟!، فقال له النبي ﷺ: «أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، وإنا صالحنا القوم، وإنا لا نغدر» وكان الناس قد جاءوا مع رسول الله ﷺ لا يشكّون في الفتح. فحزن الناس بينهم عمر فحينها لو استطاع لرد أمر رسول الله ﷺ في أبي جندل، ولم يتركه للمشركين (إنتهى مختصراً مما كتبه الشيخ محمد في الحاشية) قلت: وفي بعض الروايات أن سهيلاً قال: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه على أن ترده فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب، فقال: فوالله إذاً لا أقاضيك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: فأجِزْهُ لي، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: بلى فافعل، قال: ما أنا بفاعل. (أنظر «زاد المعاد» ٢/١٢٥)، وأما قوله «إتهموا...» فأخرجه إبن أبي حاتم والبيهقي وابن عبد البر في «العلم»، وتقدم.

وأهل الاستقامة منهم سلكوا على الجادة، ولم يلتفتوا إلى شيء من الخواطر والهواجس والالهامات حتى يقوم عليها شاهدان].

وذكر أقوالهم وقد قدمت بعضها، ومما زاد هنا:

[وقال أبو بكر الدّقّاق: «من ضيع حدود الأمر والنهي في الظاهر حُرِمَ مشاهدة القلب في الباطن».

وقال الجريري: «أمرنا هذا كله مجموع على فصل واحد، أن تلزم قلبك المراقبة، ويكون العلم على ظاهرك قائماً».

وقال أبو أحمد الشيرازي ـ وكان من أكابر الصوفية ـ: كان الصوفية يسخرون من الشيطان، والآن الشيطان يسخر منهم][1]

والعلامة شمس الدين أبو عبد الله المقدسي الحنبلي عقد في «الآداب الشرعية والمنح المرعية» فصلاً في (كراهة الكلام في الوساوس وخطرات المتصوفة).

جاء فيه[2]:

[قال المروزي: سئل أبو عبدالله ـ يعني الإمام أحمد بن حنبل ـ عمن تكلم في الوساوس والخطرات فنهى عن مجالستهم وقال للسائل احذرهم، وقال سمعت أبا عبد الله يقول: جاءني الأرمينيون بكتاب ذكر الوسواس والخطرات وغيره، قلت: فأي شيء قلت لهم؟ قال: قلت هذا كله مكروه، وقال في موضع آخر للمروزي: عليك بالعلم عليك بالفقه.

وقال إسحاق بن إبراهيم سمعت أحمد بن حنبل يقول: من تكلم في الخطرات، التابعون تابعو التابعين؟! ـ يعني أن الصحابة والتابعين لم يكونوا يعتبرون شيئاً من ذلك ـ.

وقال أحمد بن القاسم سمعت أبا عبد الله ورجل يسأله من أهل الشام

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١٢٥/١).

(٢) «الآداب الشرعية» (٨٨/٢).

رجل غريب فذكر أن ابن أبي الحواري - وهو من كبار أهل التصوف - وقوماً معه هناك يتكلمون بكلام قد وضعوه في كتاب ويتذاكرونه بينهم فقال ما هو؟ قال: يقولون المحبة لله أفضل من الطاعة، وموضع الحب درجة كذا، فلم يدعه أبو عبد الله يستتم كلامه وقال: هذا ليس من كلام العلماء، ولا يلتفت إلى من قال هذا، وأنكره وكرهه[1]...

وقال أبو زرعة الرازي: وقال - يعني الإمام أحمد - : هل بلغكم أن سفيان ومالكاً والأوزاعي صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوسواس!!

ما أسرع الناس إلى البدع]، انتهى كلامه.

وقد أنشد الشافعي وأحسن ما شاء[2]:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال، حدثنا، وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وجاء في «الفتح» على لسان القرطبي:

«فمن ادعى أن هناك طريقاً أخرى يعرف بها أمر الله ونهيه غير الطرق التي جاءت بها الرسل يستغني بها عن الرسول فهو كافر يقتل ولا يستتاب، قال: وهي دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبينا لأن من قال أنه يأخذ عن قلبه وأن الذي يقع فيه هو حكم الله وأنه يعمل بمقتضاه من غير حاجة منه إلى كتاب ولا سنة فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة كما قال نبينا ﷺ «إن روح القدس نفث في روعي». قال وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال أنا لا آخذ عن الموتى، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت، وكذا قال آخر، أنا آخذ عن قلبي عن ربي، وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع.

قال ابن حجر: وقال غيره: من استدل بقصة الخضر على أن الولي يجوز أن يطلع على خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة ويجوز له فعله فقد ضل، وليس ما تمسك به صحيحاً...»[3].

---

(١) أنظر كتاب المحبة والشوق للغزالي في «الأحياء» فإن أكثره يندرج تحت هذا التحذير.

(٢) البداية (١٠/٢٥٤).

(٣) «فتح الباري (١/٢٢٢).

ولئن سألت الغزالي عن حقيقة هذا التلقي، فإنه يجيبك عن ذلك في غير موضع من كتبه فيقول في «المنقذ من الضلال»[(١)]:

[ومن أول الطريقة تبدأ المشاهدات والمكاشفات، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق[(٢)]، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه، وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ، وقد بينا وجه الخطأ في كتاب «المقصد الأسنى».

بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد عن أن يقول:

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة فمن لم يرزق شيئاً بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم، وكرامات الأولياء على التحقيق بدايات الأنبياء].

ولكن كلامه في «الفيصل» ربما يكون أكثر وضوحاً، ففيه[(٣)]:

[بل قد يتمثل الأنبياء والأولياء[(٤)] في اليقظة والصحة صورة جميلة محاكية لجوهر الملائكة، وينتهي إليهم الوحي والإلهام بواسطتها، فيتلقون من أمر الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في النوم، وذلك لشدة صفاء باطنهم].

ويزيد مراده وضوحاً قوله في «قانون التأويل» و «مشكاة الأنوار»[(٥)]:

---

(١) «المنقذ» (ص ١٧٨) تحقيق عبد الحليم محمود ط ثالثة

(٢) وهذا الكلام بتمامه جاء في «كيمياء السعادة» (ص ٨٨) ضمن مجموعة «المنقذ والقواعد الأدب».

(٣) «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»، (١٥٠و١٥٢) ط الجندي، ضمن مجموعة القصور العوالي.

(٤) أنظر جمعه المستمر بين الوليّ والنبيّ.

(٥) «قانون التأويل» (ص ١٤ و ١٥)، و «مشكاة الأنوار» (ص ٧٥) ط الدار القومية القاهرة سنة ١٩٦٤.

[فيشاهد في اليقظة ما يشاهده غيره في المنام...

وهذا النمط من الوحي[1] في اليقظة يحتاج إلى التأويل، كما أنه في النوم يفتقر إلى التعبير، والواقع منه في النوم، نسبته إلى الخواص النبوية نسبة الواحد إلى ستة وأربعين والواقع في اليقظة نسبته أعظم من ذلك، وأظن أن نسبته نسبة الواحد إلى ثلاثة[2].

فإن الذي انكشف لنا من الخواص النبوية تنحصر شعبها في ثلاثة أجناس][3].

ثم يتحدث عن غاياته فيقول: «وفي الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يستغني عن مدد الأنبياء»[4].

---

(١) فالوحي على زعمه لم ينقطع!!!.

(٢) فقد أدرك السالك الثلث من هذه الناحية!! وأما الثلثان الباقيان، فإنه سيدركهما ليستكمل النبوة!! ولكن من وجه آخر كما سيأتي.

(٣) وقد تكلم الغزالي عن الأجناس الثلاثة في «معارج القدس في مدارج معرفة النفس»، وتابع فيها ابن سينا متابعة تامة. وهي كما يقول ابن سينا في «الإشارات والتنبيهات» (٢/٣٦٨) ط المعارف ١٩٥٧ و«الشفاء» (٢٤٤ - ٢٠) ط براغ تشيكوسلوفاكيا، ١٩٥٦:

«الأولى نفسانية يؤثر بها على مادة العالم ونواميسه تأثيرا ينافي المعهود فتحصل له الخوارق والمعجزات».

«والثانية: خيالية فتجعل من الخيال حقيقة، واللاموجود موجود فيتقوى بها الحس الباطن ليشارف الواقع سواء بسواء، ويمثل ابن سينا لذلك كما في «الشفاء» بأن الملائكة ليست سوى صوراً نورانية أخرجها الحسّ لعالم المشاهدة، والثالثة قدسية، تجعله يدرك الحد الأوسط من كل قضية كلية من غير تعلُّم أو مُعلِّم، وعليه فإن إنباء النبي ﷺ عن بعض الغيبيّات إنما استدل عليها بواسطة القياس المنطقي لا أكثر».

(انظر «مقارنة بين الغزالي وابن تيمية» (ص٥٠)، و«نقض المنطق» (ص١٢٦ — ١٣٢)،

قلت: فالجنس الأول تحدث عن مثله في الكرامات.

والثاني عناه بذاته عندما جزم برؤية أرواح الملائكة والأنبياء في اليقظة بنفس دافع الحسّ الباطن

والثالث: هو في معنى الإلهام والفراسة،

(٤) «مشكاة الأنوار» (ص ٤٠).

وهذا الذي زعمه أبو حامد، لاقى آذاناً صاغية، عند جمهور المتصوفة الذين استحوذ الشيطان على قلوبهم وسوّل لهم، فزعموا هم كذلك أنهم من أهل تلك الأحوال، والدعاوي.

حتى زعم أحمد الغزالي أخو أبي حامد أنه كان كلما أشكل عليه شيء رأى رسول الله ﷺ في اليقظة فسأله عن ذلك فدلّه على الصواب[1].

حكى ذلك أبو الفرج ابن الجوزي في «المنتظم»، و«القصاص والمذكرين»[2] فقال: «أنبأنا محمد بن ناصر عن محمد بن طاهر المقدسي قال: كان أحمد الغزالي آية من آيات الله في الكذب، يتوصل إلى الدنيا بالوعظ، سمعته يوماً بهمذان يقول: رأيت إبليس في وسط هذا الرباط سجد لي، فقلت ويحك إن الله تعالى أمره بالسجود لآدم فأبى، فقال: والله لقد سجد لي أكثر من سبعين مرة، قال: فعلمت أنه لا يرجع إلى دين أو معتقد، وكان يزعم أنه يرى رسول الله ﷺ فيسأله عن المشكل، قال: وسمعته يوماً يحكي حكاية عن بعض المشايخ، فلما نزل سألته عنها، فقال: أنا وضعتها في الوقت، وله من هذه الحماقات والجهالات ما لا يحصى».

قال ابن الجوزي معقباً: «هذه من منكرات أبي الفتح الطوسي».

ويحكي أحمد بن المبارك عن شيخه عبد العزيز الدباغ أن الأولياء

---

(١) أنظر «البداية» (١٢/١٩٦) وقد نقل ابن كثير عن ابن الجوزي في «المنتظم» قوله: «وقد كانت له نكت إلا أن الغالب على كلامه التخليط والأحاديث الموضوعة المصنوعة، والحكايات الفارغة والمعاني الفاسدة، قال ابن كثير: ثم أورد ابن الجوزي أشياء منكرة من كلامه فالله أعلم، من ذلك أنه كلما أشكل عليه شيء فذكر الحكاية... ثم قال: وكان يتعصب لإبليس ويعتذر له، وتكلم فيه ابن الجوزي بكلام طويل كثير، قال: ونسب إلى محبة المردان والقول بالمشاهدة، فالله أعلم بصحة ذلك».

قلت: وأحمد هذا إتفقوا على متابعته مذهب التصوف، وذكر ابن خلكان في ترجمته أنه اختصر «الاحياء» في مجلد أسماه «لباب الاحياء».

(٢) «القصّاص والمذكرين» (ص١٥٦).

أحياءهم وأمواتهم، والنبي ﷺ وبعض الملائكة يجتمعون في غار حراء ينظر بعضهم لبعض، ويتصرفون في العوالم السفلية والعلوية والحجب السبعين، وهو ما يعرف عندهم بالديوان[1].

وحكى بعضهم عن ابن مندة ـ وهو لم يحكه عن نفسه ـ أنه كان إذا أشكل عليه حديث جاء إلى الحجرة النبوية ودخل فسأل النبي ﷺ عن ذلك فأجابه، حكى ذلك الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء»[2] واستدرك بقوله: «وهذه حكاية نكتبها للتعجب وإسنادها منقطع».

وكثير من المتصوفة زعموا ذلك وافتروه أو اشتبه عليهم، ذكر جملة غفيرة منه ابن أبي جمرة في «بهجة النفوس» واليافعي في «روضة الرياحين» والبازري في «توثيق عرى الإسلام» وكلهم من المتصوفة.

وجاء في «الإصابة في تمييز الصحابة»[3]:

[قرأت بخط العلامة تقي الدين ابن دقيق العيد أن الكمال بن العديم كتب إليهم أن عمه محمد بن هبة الله بن أبي جرادة أخبره قال: قال لي الشيخ ربيع بن محمود: كنت بمسجد النبي ﷺ فأتيته أستشيره في شيء فنمت، فرأيته، فقال لي: أفلحت دنيا وأخرى، ثم انتبهت فسمعته يقول لي وأنا مستيقظ، وذكر الحكاية...

قال الذهبي: الربيع بن محمود هذا، دجال مفتر ادعى الصحبة والتعمير في سنة تسع وتسعين وخمسمائة، ذكر ذلك في ترجمته من «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»].

ومن أجل هذا اشتد نكير علماء المسلمين عليهم فرموهم بالكذب والافتراء والتضليل، فقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»[4]:

---

(١) «الابريز»، (ص١٦٤ و١٧٠).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣٧ — ١٧/٣٨).
(٣) «الإصابة» (١/٥١٣).
(٤) «فتح الباري» (١٢/٣٨٥).

[إن ابن أبي جمرة نقل عن جماعة من المتصوفة أنهم رأوا النبي ﷺ في المنام، ثم رأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متخوفين فأرشدهم إلى طريق تفريجها فجاء الأمر كذلك، قال ابن حجر: وهذا مشكل جداً، ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة ولأمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة، ويعكّر عليه أن جمعاً جماً رأوه في المنام ثم لم يذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة، وخبر الصادق لا يتخلّف].

قلت: ونعما قال ابن حجر وأجاب، ولو سلمت هذه الدعاوي لأصحابها، لادعى من شاء ما شاء، وحُكى النسخ في كثير من الأحكام، وضيعت الحدود والحقوق من غير حجة ولا برهان.

والخبر الذي عناه ابن حجر بقوله: «وخبر الصادق لا يتخلّف»، هو قوله ﷺ «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة» خرجه البخاري وغيره.

فإنه ﷺ قد رآه كثير من المسلمين في المنام ولم يروه في اليقظة، فدل على أن ليس معنى الحديث كما فهموه.

ويؤيد هذا التفسير الرواية الأخرى للحديث: «من رآني في المنام فكأنما رآني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي».

وقد أجاب الحافظ عن معنى الحديث بأجوبة:

منها أن ذلك خاص بأهل عصره ممن آمن به قبل أن يراه.

ومنها أن المراد بالرؤية هي رؤيته ﷺ يوم القيامة بمزيد خصوصية.

ومنها أنه يرى تأويل الرؤيا في اليقظة بطريق الحقيقة أو التعبير.

وذكر كذلك أوجهاً أخرى تراجع في موضعها[1].

وكان قبل ذلك قد نقل عن القاضي أبي بكر ابن العربي المالكي قوله: «شذ بعض الصالحين فزعم أنها رؤية النبي ﷺ بعد موته، تقع بعيني الرأس حقيقة»[2].

---

(١) «فتح الباري» (١٢/٣٨٥).

(٢) قد صنف السيوطي في ذلك كتاباً أسماه «تنوير الحَلَكْ في إمكان رؤية النبيِّ والملك» وهو =

وقال القرطبي في «المفهم شرح صحيح مسلم» عند شرح الحديث المذكور:

[حملوا حديث من «رآني في المنام فسيراني في اليقظة» على أن من رأى النبي ﷺ بعد موته في المنام يراه في اليقظة، قال القرطبي: وهذا يدرك فساده بأوائل العقول، ويلزم عليه أن لا يراه أحد إلا على صورته التي مات عليها. وأن يراه رائيان في آنٍ واحد في مكانين، وأن يحيا الآن ويخرج من قبره ويمشي في الأسواق، ويخاطب الناس ويخاطبوه، ويلزم من ذلك أن يخلوا قبره من جسده ولا يبقى في قبره منه شيء، فيزار مجرد القبر ويسلم على غائب لأنه جائز أن يرى في الليل والنهار مع اتصال الأوقات على حقيقة في غير قبره، وهذه جهالات لا يلتزم بها من له أدنى مسكة من عقل].

وقال السخاوي في «المواهب اللدنية»[1]:

[لم يصل إلينا ذلك ـ يعني رؤيته النبي ﷺ بعد موته ـ عن أحد من الصحابة ولا عمن بعدهم وقد اشتد حزن فاطمة عليه ﷺ حتى ماتت كمداً بعده بستة أشهر على الصحيح وبيتها مجاور لضريحه الشريف ولم تنقل عنها رؤيته في المدة التي تأخرتها عنه، قال: وهذه الدعاوى إنما تنقل عن المتصوفة].

ثم قال بعد صفحات[2]:

[قال البدر بن حسن الأهدل: قلما تجد رواية صحيحة متصلة عمن يوثق به، وأما من لا يوثق به فيكذب، وقد يرى مناماً أو في غيبة حس فيظنه يقظة، وقد يرى خيالاً، أو نوراً فيظنه الرسول وقد يلبس عليه الشيطان، فيجب التحرز في هذا الباب].

ونقل الملا علي القاري في «جمع الوسائل شرح الشمائل للترمذي»[3]

= في الظاهرية برقم (١٢٦/ عام٣٨٦٢) ولكن لم يرد له ذكر في شيء من كتب التوثيق، «كالكشف» «والهدية» «والمعجم» وغير ذلك، فالله أعلم، وارجع لما كتبته عن مؤلفات السيوطي فيما تقدم.

(١) «المواهب اللدنية» (ج٥/٢٩٥).

(٢) «المواهب اللدنية» (ج٥/٢٩٨).

(٣) «جمع الوسائل» (ج٢/٢٣٨).

كلام البدر بن حسن واستحسنه ثم قال: [إنه لو كان له حقيقة لكان يجب العمل بما سمعوه منه ﷺ من أمر ونهي وإثبات ونفي، ومن المعلوم أنه لا يجوز ذلك إجماعاً، كما لا يجوز بما يقع حال النوم، ولو كان الرائي من أكابر الأنام].

وجاء على لسان شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في «رسالة العبادات الشرعية والفرق بينها وبين البدعية»[1]: [والشيطان كثيراً ما يتصور بصورة الإنس في اليقظة والمنام، وقد يأتي لمن لا يعرف فيقول: أنا الشيخ فلان أو العالم فلان، وربما قال أنا أبو بكر أو عمر، وربما قال أنا المسيح، أنا موسى، أنا محمد وقد جرى مثل ذلك أنواع أعرفها[2]، وثم من يصدق بأن الأنبياء يأتون باليقظة في صورهم، وثم شيوخ لهم زهد وعلم ودين يصدقون بمثل هذا، ومن هؤلاء من يظن أنه حين يأتي قبر نبي، أن النبي يخرج من

---

(١) «رسالة العبادات الشرعية» (٩٣ ــ ٩٤).

(٢) وهذا يكثر في آخر الزمان، بل بعد وفاته ﷺ بقليل، إن صحت الأحاديث، فقد أخرج الطبراني في «الكبير» عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «يوشك أن يظهر فيكم شياطين كان سليمان بن داوود أوثقها في البحر يصلّون معكم في مساجدكم ويقرؤون معكم القرآن، يجادلونكم في الدين، وإنهم لشياطين في صورة الإنسان». والحديث أخرجه الشيرازي في «الألقاب» عن ابن عمرو. وحدد السنة أنها سنة خمس وثلاثين. وأخرجه أيضاً ابن عساكر وأبو نصر السجزي في «الإبانة» وابن عدي في «الكامل» عن أبي سعيد لكن قال سنة مائة وخمس وثلاثين، وزاد أن تسعة أعشارهم يذهبون إلى العراق ويبقى عشرهم بالشام، وهو عند العقيلي في «الضعفاء»، وتعقبه بقوله: لا أصل لهذا الحديث، وقال أبو نصر غريب الإسناد والمتن، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، وأخرج أبو نعيم في «الحلية» عن أبي هريرة: «لا تنقضي الدنيا حتى يخرج شياطين من البحر يعلمون الناس القرآن. وكذلك رواه من حديث واثلة بلفظ مقارب، وعند الحاكم في «التاريخ» والديلمي في «المسند» عن ابن مسعود: «الشياطين يتصورون آخر الزمان في صور الرجال فيقولون حدثنا وأخبرنا فإذا جلستم إلى رجل فاسألوه عن اسمه وأبيه وعشيرته فتفقدونه إذا غاب» (أنظر «منتخب كنز العمال» ٤٨ ــ ٤٩/٤ و٧١/٤).

قلت: وهذا التنوع والإختلاف مشعر بأن الحديث له أصل يخرجه عن حدّ الغَرَابة والوَضْع، إن لم يرتق به إلى الحُسْن.

قبره في صورته فيكلمه، ومن هؤلاء من رأى في دائرة الكعبة صورة شيخ قال إنه إبراهيم الخليل ومنهم من يظن أن النبي ﷺ خرج من الحجرة وكلمه، وجعلوا هذا من كراماته، ومنهم من يعتقد أنه إذا سأل المقبور أجابه، وبعضهم يحكى أن ابن مندة كان إذا أشكل عليه حديث جاء إلى الحجرة النبوية ودخل فسأل النبي ﷺ في ذلك فأجابه، وآخر من أهل المغرب حصل له مثل ذلك وجعل ذلك من كراماته، حتى قال ابن عبد البر لمن ظن ذلك ويحك أترى هذا أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فهل في هؤلاء من سأل النبي ﷺ بعد الموت فأجابه، وقد تنازع الصحابة في أشياء كثيرة فهلا سألوا النبي ﷺ فأجابهم، وهذه ابنته فاطمة تنازع في ميراثها فهلا سألته فأجابها][1].

فهذا بيان بطلان زعمه في رؤية الأنبياء في اليقظة.

وأما إن كان الغزالي عنى برؤية أرواح الأنبياء والملائكة، نفس الروح وذاتها ـ ولم يعن الجسد، فهو أفسد وأبطل، وكل ذلك مخالف لما أجمع عليه أهل العلم، بل ومخالف لما جاء في الكتاب والسنة.

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وكان ذلك رداً على اليهود لما سألوا النبي ﷺ ، كما صح الحديث عند البخاري ومسلم.

والقول بمشاهدة الروح ومخاطبتها لم يحكه أحد من أهل العلم عن أحد من أئمة أهل السنة[2]، إلا المتصوفة فإنهم يروون فيه الوقائع عمن ليسوا بثقات، فليتق الله في ذلك.

وبقي أن يقال: إن الغزالي عني بالرؤية مجرد الخيال.

والجواب: أن لا عبرة بالخيال، لأن الخيال خلاف الحقيقة، ورحم الله ابن القيم حيث يقول[3]:

---

(١) قصة تنازع فاطمة وعليّ مع أبي بكر متفق عليها عند البخاري ومسلم.

(٢) أنظر كتاب «الروح» لابن القيم، و«الروح» لإبن مندة وغيرهما.

(٣) «إغاثة اللهفان» (١/١١٩).

[ومن كيد الشيطان ما ألقاه إلى جهال المتصوفة من الشطح والطامات، وأبـرزه لهم في قـالـب الكشف من الخيالات، فأوقعهم في أنـواع الأبـاطيـل والترهات، وفتح لهم أبواب الدعاوي الهائلات].

ثم قال: [فلغير الله لا له سبحانه ما يفتحه عليهم الشيطان من الخيالات والشطحات، وأنواع الهذيان وكلما ازدادوا بعداً وإعراضاً عن القرآن، وما جاء به الرسول كان هذا الفتح على قلوبهم أعظم].

وقبل أن أنتقل من هذا المقام فلا ضير في دحض الدعوى التي احتـج بها أبو حامد على صحة التعلم من الملائكة.

فإنه يقول في «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»[(١)]:

[والله يعطي ويمنع بواسطة ملائكته كما قال عليه الصلاة والسلام: «أول ما خلق الله العقل فقال بك أعطي وبك أمنع» ولا يمكن أن يكون المراد بذلك العقـل عرضـاً كما يعتقـده المتكلمـون، إذ لا يمكن أن يكـون العـرض أول مخلوق، بل يكون عبـارة عن ذات ملك من الملائكـة يسمى عقلاً من حيث يعقل الأشياء بجوهره وذاته من غير حاجة إلى تعلم، وربما يسمى قلماً باعتبار أنه تنقش به حقائق العلوم في ألواح قلوب الأنبياء والأولياء[(٢)] وسائر المـلائكة وحياً وإلهاماً، فإنه قد ورد في حديث آخر أن أول ما خلق الله القلم، فإن لـم يرجع ذلك إلى العقل تناقض الحديثان].

وقد جاء نحو هذا في «الاحياء» من أن العقل ليس بعـرض ولا جوهـر، وإنما هو أمر آخر سينبه عليه، ثم يتساءل:

[فإن قلت: فهذا العقل إن كان عرضاً فكيف خلق قبل الأجسام، وإن كان جوهراً فكيف يكون هـو قائم بنفسه ولا يتحيّز، فـاعلم أن هذا من علم المكاشفة، فلا يليق ذكره بعلم المعاملة، وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة][(٣)].

(١) «فيصل التفرقة» (١٥٠) ط الجندي، القصور العوالي.
(٢) الأنبياء والأولياء دائماً!!.
(٣) «الاحياء» (١/ ٨٣).

ودحض هذا الاحتجاج يأتي من أوجه:

أولها: أن الحديث الذي احتج به موضوع، وأحسن ما قيل فيه أنه ضعيف، وعندي أن في بعض رواياته زيادة منكرة قاضية بردّه[1].

ولإتمام الفائدة أقول: إن غالب ما يروى في فضل العقل وشرفه موضوع.

والغزالي ذكر في كتاب العلم في بابه السابع: «العقل وشرفه وحقيقة أقسامه ـ بيان شرف العقل ـ» عشرين حديثاً تعقبها كلها العراقي بالتضعيف.

وهذه الأحاديث أخرجها داوود بن المحبر أحد الضعفاء في كتاب «العقل»، وقد ذكر ذلك الحافظ العراقي، وداوود هذا ضعّفه الجمهور، وكذبه الحاكم وأحمد وغيرهما.

جاء في ترجمة مجاهد بن جبر المكي رحمه الله عند الحافظ ابن كثير[2]: [وقال داوود بن المحبر عن عباد بن كثير عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أطاع العبد الله بشيء أفضل من حسن العقل، ولا يقبل الله صوم عبده ولا صلاته، ولا شيئاً يكون من عمله من أنواع الخير إن لم يعمل بعقل، ولو أن جاهلاً فاق المجتهدين في العبادة كان ما يفسد أكثر مما يصلح»، قال ابن كثير: «ذكر العقل في هذه الحديث ورفعه إلى النبي ﷺ من المنكرات والموضوعات»، ثم قال: «قال الحاكم: حدّث ـ داوود ـ ببغداد عن جماعة من الثقات بأحاديث موضوعة حدث بها عن الحارث بن أبي أسامة، وله كتاب «العقل»، وأكثر ما أودع ذلك الكتاب موضوع على رسول الله ﷺ، وذكر العقل مرفوعاً في هذه الرواية لعله من جملتها، والله أعلم، وقد كذبه أحمد بن حنبل][3].

---

(١) إذ فيها: «وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم علي منك» ولو كان المراد بذلك الملك أو العقل لتناقض مع ما ثبت من تفضيل العبد الصالح على الملائكة فضلاً عن الأنبياء والرسل.

(٢) «البداية» (٢٥٦/٩).

(٣) وأما الحكاية التي ذكرها الغزالي في كتاب النيّة من «الاحياء» (٣٧٤/٤) عن الإمام أحمد =

وقال شيخ الإسلام في السبعينية[١]: [ذكر أبو حاتم والدارقطني وابن الجوزي أن الأحاديث المروية في العقل لا أصل لشيء منها، ثم نقل كلام ابن الجوزي، ويذكر فيه أن الدارقطني قال: «كتاب العقل وضعه أربعة أولهم ميسرة بن عبد ربه ثم سرقه داوود بن المحبر فركبه بأسانيد أخر. . .].

قلت: وكلام ابن الجوزي قاله في «الموضوعات»[٢].

وجاء في «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار بتخريج ما في الأحياء من الأخبار»[٣]:

[حديث: «أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر، فأدبر ثم قال الله عز وجل وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة، وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين].

وجاء في «الصفدية»[٤] لشيخ الإسلام:

[وأما ما يروى «أول ما خلق الله العقل قال أقبل فأقبل» فهو موضوع].

وقال كذلك في أول كتاب «الفرقان» وغير موضع من كتبه رحمه الله.

ثانيها: إن اطلاق لفظ العقل أو القلم على المَلَك باطل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٥]:

فليست بشيء، ولا تثبت عن الإمام أحمد، وقد جاء فيها: «إن داوود بن المحبر لما صنّف كتاب «العقل» جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه، فنظر فيه أحمد صفحاً فردّه، قال: مالك، قال فيه أسانيد ضعاف، فقال له داوود أنا لم أخرجه على الأسانيد، فانْظُر فيه بعين الخبر، إنما نظرتُ فيه بعين العَمَل فانتفعتُ، قال أحمد: فرُدَّهُ عليَّ حتى أنظر فيه بالعين التي نَظَرتَ، فأخذه ومكث عنده طويلاً، ثم قال: جزاك الله خيراً فقد انتفعتُ به».

(١) «السبعينية» (٥ — ٦).

(٢) «الموضوعات» (١/١٧٦).

(٣) المطبوع بهامش «الاحياء» (١/٨٣).

(٤) الصفدية (٢/٨٠).

(٥) «الصفدية» (٢/٨٠).

«ومن زعم أن العقل يسمى قلماً لأنه ينقش العلوم في لوح النفس، وسمى النفس لوحاً فأوّل ما في هذا أن هذا يعلم بالاضطرار أنه ليس من لغة العرب، ولا قاله أحد من مفسري القرآن والحديث».

قلت: واستدل لما قال شيخ الإسلام بأن من قرأ روايات الحديث، فإنه يقطع بأن المراد هو القلم، لا الملك.

فقد جاء في رواية الآجري في الشريعة، والواحدي في تفسيره[1]: «إن أول شيء خلق الله عز وجل القلم، ثم خلق النون وهي الدواة، ثم قال اكتب... الحديث» أخرجاه من حديث أبي هريرة، واقتصر على ذكر القلم دون العقل.

وكذا وقع في رواية ابن عباس المرفوعة، أخرجها ابن جرير وغيره[2]: «إن الله خلق النون وهي الدواة، وخلق القلم، فقال أكتب...».

وهذا اللفظ مقارب للفظ ابن أبي حاتم[2].

وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس: «رفعت الأقلام وجفت الصحف»[3].

فإن قال إن العقل هو الملك فمن الدواة؟!!! وما حقيقة الصحف؟؟!!!

وإن كان لا بد من مجاراته فأقول:

لا تقل الدواة العلم المنقول من اللوح إلى النفس، لأنك تكون شبهت المادة التي هي الدواة بغير المادة التي هي المعارف، وهي أمر معنوي.

ولا تقل الدواة هي اللوح فإنه من الباب الآنف وأعظم، وهو لا يتجزأ، وسره أكبر، فهذه النصوص ظاهرة صريحة، والتأويل فيما هو من هذا الباب يخرج الكلام عن مدلوله، والألفاظ عن معانيها، والعقود عن لوازمها، وفحواها.

---

(١) تفسير الواحدي (٤/١٥٧/٢).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤٠١/٤).
(٣) أخرجها أحمد والترمذي وصحح الحديث.

ومما يرشدك لما ذكرنا، أن العلماء اختلفوا في أول مخلوق، فذهب بعضهم إلى أنه العرش لحديث: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»[١].

وقال آخرون: بل هو القلم لحديث: «أول ما خلق الله القلم»[٢].

ولكن لم يقل أحد من أهل العلم أن المقصود بالقلم الملك، ولا عدّه أحد قولاً ثالثاً في المسألة، وكذلك العقل فإنه لم يصرح أحد من الناس بأنه أول مخلوق، لاتفاقهم على ترك الحديث الوارد فيه.

هذا مع أنهم ذكروا للقلم أنواعاً، وعدوه على أربعة أضرب:

قلم كتب به اللوح المحفوظ.
وقلم كتب خبر خلق آدم.
وقلم حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه.
والرابع هو الموضوع عن العبد عند بلوغه[٣].

وأما كون القلم العقل فتفسير لم يقله أحد من أهل التفسير، ولا حكوه عن أحد من السلف ولا عند قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أو عند قوله عز وجل ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ هذا مع قرب مناسبته في هذا الموضع بالذات.

ولكن أبا حامد كان يفرحه خرق الإجماع واتفاق الأمة، وقد صرح

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد والترمذي والبيهقي في «الأسماء» وقد أجاب القائلون بأوّلية خلق العرش عن حديث القلم بأنه ورد بفتح «أول» بناءً على الظرفية.
(٢) أنظر «العقيدة الطحاوية» وشرحها (ص٢٦٥) ط الثامنة.
(٣) أنظر هذه الأنواع في «شرح العقيدة الطحاوية» (٢٦٧) ط الثامنة.

بذلك[1] مراراً، و «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»[2].

وكون الملك يسمى عقلاً من حيث يعقل الأشياء بجوهر ذاته من غير حاجة إلى تعلم، على حد زعمه، باطل بصريح الكتاب، قال تعالى على لسان ملائكته : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ وباطل عند أولي الألباب، فإن من يعقل الأشياء من غير حاجة إلى تعلم، لا يغرب عنه شيء، ولا تفوته معرفة، ويدرك كل الحقائق عند الطلب، وهذا محال على كل الخلق، ومنهم الملائكة، كما هو بين في سياق الآيات: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

فمن أجل ذلك، لم يعرفوا الأشياء التي عرضت عليهم ولا عقلوها بجواهر ذواتهم، بل صرحوا بأن العلم مصدره التعلم.

وروى ابن عساكر عن أبي عبد الله مولى بني أمية عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول شيء خلقه الله القلم، ثم خلق النون وهي الدواة، ثم قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟، قال: اكتب ما يكون ـ أو ما هو كائن ـ من عمل أو رزق أو أثر أو أجل، فكتب ذلك إلى يوم القيامة، فذلك قوله ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ثم ختم على القلم فلم

---

(١) فمن ذلك ما قاله في «الأربعين» (٢١٥): «فاعلم أن مخالفتي للجمهور لا أنكرها، وكيف تنكر مخالفة المسافر للجمهور، فإن الجمهور يستقرون في البلد الذي هو مسقط رؤوسهم ومحل ولادتهم، وهو المنزل الأول من منازل وجودهم، وإنما يسافر منهم الآحاد» قلت: وفات الغزالي قوله ﷺ: «السفر قطعة من العذاب» صح ذلك في البخاري وغيره، **وإنما المحمود الهجرة ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيراً وسعة...﴾ وقال** في نفس الكتاب (٢١٧): «فيا مسكين كيف تهددني بالعاقبة وتخوفني مجاوزة **الجمهور** ومخالفة المشهور، وبذلك فرحي وسروري، إن الذين يكرهون مني، **ذلك الذي يشهيه** قلبي، فاطو طومار الهذيان، ولا تقعقعني بعد هذا بالشنان» قاله عند حديثه عن **عذاب القبر**، أجارنا الله منه، إنه سميع عليم مجيب،

(٢) أخرجه أبو داوود والنسائي وابن حبان والحاكم وصححوه. وأوله «ما من ثلاثة.... الحديث».

يتكلم إلى يوم القيامة، ثم خلق العقل، وقال وعزتي لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك ممن أبغضت».

فتأمل قوله «ثم ختم على القلم فلم يتكلم إلى يوم القيامة» وكيف أبقاه أبو حامد متكلماً ـ أعني إن جاريناه فيما أراد ـ.

وفي الحديث التصريح بكون القلم غير العقل، إذ لا يصح أن يقال: «إن أول شيء خلقه الله القلم...» ثم يقال: «ثم خلق العقل» ثم يكونان شيئاً واحداً، كما زعم أبو حامد.

وهذا كله إن لم ننازع في وجود عرض يسمى العقل، وإلا فإنه ليس في الجسد مضغة تسمى عقلاً.

ولذلك لم ترد كلمة «العقل» في القرآن، ولا في السنة الصحيحة، على الاطلاق، بل، ولا حتى عند أصحاب الكتب السبعة والموطأ، مع أنهم أخرجوا بعض الضعيف.

إنما الذي جاء ﴿ولكن أكثر الناس لا يعقلون﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ والقرآن أخبر أن هذا من أعمال القلوب، لا أنه يسند للعقل، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ولو كان في الإنسان ما يسمى عقلاً لما عدل عنه إلى غيره، إذ الأصل إسناد الفعل لفاعله، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾ ونحو هذا.

ومثل هذا ما جاء في السنة كالحديث الذي رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه وغيرهما عن أبي هريرة «كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه».

والمعنى: ومروءته تعقله، والمروءة في الرجل، كمال رجوليته، والترفع عن الفعال التي لا تليق بمثله، وذلك لا يحصل إلا بالتعقل.

وحديث «ما رأيت ناقصات عقل ودين ...» أخرجه أبو داوود وغيره، وعلى
ا يجب حمل «العقل» أي الطريقة والعمل لا أنه صفة كائنة في الجسد، والذين
علون الدماغ هو العقل، أخطأوا من وجوه ليس هنا موضع بيانها، والخلاصة
هذه المزاعم في العقل غير صحيحة، والقول بابتداء خلقه قول الفلاسفة
حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية:

[وأما ما يروى «أول ما خلق الله العقل قال أقبل فأقبل» فهو موضوع،
تقدير صحته فلفظه: «أول ما خلقه قال له»[1] فليس في شيء من العلم
قول عن الأنبياء لا عن نبينا ولا عن غيره، أن العقل أول المخلوقات،
يقول المتفلسفة، ومن أخذ عنهم من تكلم ومتصوف وغيره][2].

فقول أبي حامد: «فإن لم يرجع ذلك إلى العقل تناقض الحديثان» هو
، من بضاعته في الحديث مزجاة، يظن الدينار البهرج ذهباً.

إذ قد علمت أن الأول موضوع وأن الآخر صحيح، وإنما ينشأ التعارض
استوى الحديثان.

هذا، ومن هنا يظهر لك سبب إيراد الغزالي باباً للعقل وشرفه في مطلع
حياء»، فكأنه أراد مجاراة البخاري الذي ابتدأ صحيحه بكيفية نزول الوحي
، النبي ﷺ، ولكنه عند أبي حامد وحي على الأولياء!!!

وأما النوع الثالث الذي من أنواع التلقي المزعومة فهو ما جاء في
يمياء والسعادة»[3] حيث قال: [وتطهير القلب من كل شيء والابتهال إليه

ي قال له لما خلقه، وليس هو أول مخلوق، فتكون الجملة ظرفية.
«الصفدية» (٢ / ٨٠).
«كيمياء السعادة» (ص٨٩ — ٩٠) ضمن مجموعة «المنقذ» و«الأدب في الدين»
واعد العشرة» تحقيق محمد محمد جابر. وفي كتاب «مقارنة بين الغزالي وابن تيمية»
ح محمد رشاد سالم (ص٦٤) أن جاء في «كيمياء السعادة» (ص١٥ — ١٦) مجموعة
سور العوالي، القاهرة ١٩٣٤: «إن صاحب الرياضة قد يسمع كلام الله كما سمعه
، بن عمران عليه السلام».
قلت: لم أقف على هذا اللفظ فيما عندي من النسخ، وإن كان ما بين أيدينا يشبه ذلك.

سبحانه وتعالى بالكلية، وهو طريق الصوفية في هذا الزمان، وأما طريق التعليم فهو طريق العلماء، وهذه الدرجة الكبيرة مختصرة من طريق النبوة، وكذلك علم الأولياء لأنه وقع في القلوب بلا واسطة من حضرة الحق كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذه الطريقة لا تفهم إلا بالتجربة، وإن لم تحصل بالذوق لم تحصل بالتعلم.

وجاء في «القواعد العشرة»(1) فيمن يقومون الليل:

[وكشف لهم الحجاب عن جماله وكشط الضباب عن محاسن أثواب مقاله] ثم قال: [فتلذذوا بمناجاته وغابوا عن حضورهم في حضرته ثم تمثل:

قد كشف المولى منيع الحجاب ... وأسمع الأحباب منيع الخطاب

واحضروا حضرة أنس بها ... غابوا فهاموا بعد موت العقاب]

وفي «الإحياء»(2): [فيسمع لله وبالله وفي الله ومن الله] ذكر ذلك عند الحديث عن خواص الخاصة ومكاشفاتهم.

ففي هذه العبارات ظهر مفهوم ليس أضر منه على العباد، لم يستطع محبو الغزالي، ومنتحلو طريقته أن يبدوا عذره، بعد طول التكلف والتعسف، وقد شهدت من هؤلاء غير واحد من العرب وغيرهم من أهل فارس وأفريقية، الذين يشار إليهم بالبنان.

والذين تكررت مناظراتي معهم، رجع أكثرهم عن ذلك، والتزموا المنهج الحق، ودعوا إليه في أوطانهم، التي شهدت من نحو هذا كثيراً، ولم تزل تشهد من التلفيق، حتى أخبرني «تيجيري» كان يخدم أحد المساجد في بلاد الحجاز، إن أحدهم ادعى النبوة هو وزوجته، وزعم أنه ينزل عليه مثل هذا الكلام، كما فعل مسيلمة الكذاب، وأنه من أتباع الطريقة التيجانية، وهم فرقة من المتصوفة، فلربما كان هذا وأمثاله بعض قتلى أبي حامد، الذين قرأوا

---

(1) «القواعد العشرة» (ص٩٧) ضمن مجموعة «المنقذ» و«الأدب في الدين» و«القواعد العشرة» تحقيق محمد محمد جابر.

(2) «الإحياء» (٢/ ٢٩١).

هذه الكلمات فاعتقدوها. ثم جنحوا بالخيال عن المحجة بعد أن سوّل لهم الشيطان وأملى لهم.

وهؤلاء كثيرون لا يحصون، قلت فهمهم، وكلت هممهم، وإلا فكيف يُغتر بالاستدلال على هذه الدعوى بقوله تعالى ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو استدلال باطل من أوجه:

أولها: إن السياق للآيات دل على أن الخضر كان نبياً لقوله تعالى عن لسانه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ فإنه كان مأموراً بذلك[1]، وتقدم أن القول بنبوته قول الجمهور، وبهذا يسقط الاستدلال[2]، بل حتى لو قلنا بترجيح كونه وليا لا نبياً، فإن الاستدلال بذلك لا يستقيم، لأن القول بنبوته يبقى محتملاً، فلا يمكن الجزم، إذ القاعدة أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال بطل في الاستدلال، وهذا متفق عليه بين أهل العلم.

وإن من يرجوا الفوز يوم المعاد، لا يبني العقائد على الرماد

وحتى أننا لو جزمنا بكون الخضر ولياً، فيبقى من الأوجه:

ثانيها: وهو الوجه الذي قاله شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية، وأنه إن جاز وقوع مثل هذه الأمور في زمن موسى عليه السلام، فلكون موسى بعث في بني اسرائيل فقط، وأما نبينا ﷺ فقد بعث للناس كافة، فليس لأحد الخروج على شرعه.

وثالثها: وهو قاله أيضاً، وفيه الجزم بكون الخضر لم يكن مخاطباً بشريعة موسى عليه السلام حيث قال له الخضر: «أنت موسى بني اسرائيل؟»[3].

---

(١) قال ابن كثير في التفسير بعد قوله تعالى: ﴿وما فعلته عن أمري﴾: وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر (٣/٩٩) وانظر بقية التفاسير.

(٢) قال ابن كثير في «البداية» (١/٣٢٨) «وإذا ثبتت نبوته كما ذكرنا لم يبق لمن قال بولايته أن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر مستند يستندون إليه، ولا معتمد يعتمدون عليه» وانظر أدلته على ذلك من نفس الصفحة.

(٣) صح ذلك في رواية البخاري وغيره.

قلت:

ونحـو هذا أيضـاً مـا جـاء في الـروايـة نفسهـا: «يـا مـوسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمـه» ومثل هـذا لا يجوز أن يصـدر عن متبع شـريعة مـوسى عليـه السلام، بل إن ظاهره نبوة كل منهما.

وفي رواية أخرى وهي عنـد البخاري أيضـاً بأن الخضـر قال لمـا رأى مـوسى: «هل بـأرضي من سلام؟ من أنت، قـال موسى، قـال: موسى بني إسرائيل؟، قـال: نعم، قال: فمـا شأنـك، قال: جئت لتعلمـني ممـا علمت رشداً، قال: أما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك، يا موسى إن لي علمـاً لا ينبغي لـك أن تعلمـه، وإن لـك علمـاً لا ينبغي لي أن أعلمـه...» فهـذا أوضح دلالة لما قال شيخ الإسلام ووقع في رواية عمر بن إسحق أن الخضر قال له: «إن كان لك في قومك لشغل»[(١)].

وهذا كله ليس لأحد من أهل هذا الزمان أن يدعيه، فالاستدلال بهـذه القصة عيب.

ورابعها: وهو ما تقدم بأن لا عبرة بكل ذلك حتى يعرض على الشرع، فإن وافق قبل، وكان العمل بمقتضى الشرع لا بمقتضاه، وإلا رُدَّ وترك.

وإذاً فلا يطلق العلم إلا على ما جاء من جهة الشرع، وما سواه هو الظن والتخمين ولا حجة فيهما، ولا يطلق عليهما اسم العلم أصلاً.

وخـامسهـا: وهـو وجه لم أر من نبـه عليـه، حيث جـاء في روايـات البخـاري في أول القصة «إن موسى قام في بني اسرائيل خطيباً، فسُئل أي النـاس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك».

فلا يمكن أن يقال إن موسى كان مبعوثاً لمن هو أعلم منه، بل لا يمكن

---

(١) أنظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٩٥).

أن يقال إنه بعث لمن ذهب ليتعلم منه ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

وذلك لا يقوله رسول لمرسل إليه، وهو يدخل في الجواب الثالث[1].

سادسها: وقد انتزعته من قوله تعالى على لسان موسى: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ و﴿أمراً﴾ نكرة في سياق النفي تفيد العموم، فكيف جاز لموسى عليه السلام قولها للخضر لولا عصمته، والعصمة لا ينالها إلا الأنبياء.

فتحقق أن التحديث عند الخضر - على فرض صحة وقوعه على غير الأنبياء - هو لمن ليس له نبي، أو هو نبي، كما هو ظاهر السياق.

وشرع محمد ﷺ لكافة العباد، إلى يوم المعاد قطعاً، فلم تبق للمدعين حجة.

ولنرجع الآن إلى عبارات أبي حامد في سماع كلام الله، وعبارات أبي يزيد في أخذ العلم عن الله بغير واسطة، وبيان أن كلام الله عز وجل لا يشبه كلام المخلوقين، وإن الخلق جميعهم لا يطيقون سماع صوت الله عز وجل، إلا موسى كليم الرحمن عليه السلام.

هذا مع أن الذابين عن أبي حامد، ربما يقولون: إنه لم يرد السماع حقيقة.

والجواب أن صريح عباراته تنفي هذا المزعم، وتفترق عن جميع أوصافه لمعاني الإلهام والتحديث، وهو يجمل كل هذه الأنواع بواسطة الملائكة، إلا في هذا الموضع.

ثم إننا لو سلمنا بصحة فرضهم، فإننا لا نسلم بجواز إطلاق مثل هذه العبارات المبهمة التي قد تضل فيها أفهام وتزل أقدام، كما هو حال كثير من

---

(١) دندن ابن حجر في «الفتح» حول هذا المعنى، وأورد بعض ما قدّمناه من الأوجه عن شيخ الإسلام إبن تيمية، ثم قال: وينبغي اعتقاد كونه نبياً لئلا يتذرع بذلك أهل الباطل في دعواهم أن الوليّ أفضل من النبيّ، حاشا وكلا. «الفتح» (١/٢٢٠).

المتصوفة الذين ادعوا مثل هذه الدعاوي الباطلة، كابن قسي أبي القاسم أحمد بن الحسين بن قسي صاحب «خلع النعلين» [illegible] تأتيه واردات عمرانية الأصل، يسمع فيها كلام الله كما سمع موسى بن عمران[1].

ولذلك فلا بد من بيان هذه المسألة، واعتقاد الناس فيها ومذاهبهم، فلقد افترق معتقد أهل الملل والنحل في كلام الله على تسعة أقوال:

أولها: إن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معاني، فإن أراد الغزالي هذا المعنى، فهو باطل لأن كلام الله يسمع كما جاء في الحديث «يسمعه من قَرُب كما يسمعه من بعد»[2].

ثم هذا القول هو قول الصابئة والمتفلسفة، ولم يقل به أحد من أهل السنة[3].

ثانيها: إنه مخلوق، خلقه الله منفصلاً عنه، وهو قول المعتزلة[3]، وهذا باطل أيضاً فإن أهل السنة اتفقوا على أن كلام الله تعالى غير مخلوق، بل كفروا من قال بخلقه، كالإمام أحمد وابن خزيمة على حد ما ذكر الحاكم، وغيرهما من أهل العلم.

ثالثها: إنه معنى واحد قائم بذات الله، وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، فإن عبّر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبّر عنه بالعبرية كان توراة، وهذا قول ابن كلاّب والأشعري وغيرهما[3] والصحيح أن الأشعري رجع عن ذلك[4].

---

(١) [إدعى الهداية وتسمى بالإمام، وطُلِبَ فاختبأ، قتله أهل شلب سنة ست وأربعين وخمسمائة وكتابه «خلْع النعلين» طبع حديثاً في بيروت] انظر ترجمته في «الحُلَّة السِّيَراء» (ص١٩٩ — ٢٠٢)، الأعلام (١/١١٣ — ١١٤)، (١٠/١٦)]، مختصر عما قاله الشيخ محمد رشاد سالم في حاشية «الصفدية» (١/١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً بصيغة التمريض، وقال الحافظ: مختلف فيه «الفتح» (١٣/٤٥٨).

(٣) انظر «العقيدة الطحاوية» وشرحها لابن أبي العز الحنفي (ص١٦٨، ط الثامنة).

(٤) انظر كتاب الأشعري المسمى بـ «الإبانة عن أصول الديانة» وتصريحه فيه بأنه على=

رابعها: إنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام وطائفة من أهل الحديث، على حد قول ابن أبي العز الحنفي، فالله أعلم، ولكن هذا ينفي جواز حدوثه في غير الأزل، فليس هو مراد أبي حامد.

خامسها: أنه حروف وأصوات لكن تكلم بها الله بعد أن لم يكن متكلماً، وهو قول الكرامية[1]، وهذا كالذي قبله من حيث نفي حدوثه وحصوله، بعد أن تكلم به، وإن اختلفا في توقيت الكلام، وكل ذلك باطل مخالف لأقوال أهل السنة.

سادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يُحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهو قول صاحب «المعتبر» والرازي في «المطالب العالية»[1].

ووجه تعارضه مع مراد الغزالي واضح، بل معناه جعل الكلام والإرادة شيئاً واحداً، ونفي صفة الكلام بالكلية على المعنى المفهوم عند أهل السنة وغيرهم الذين تقدمت أقوالهم غير قول ابن كلاب فإن بينهما بعض تشابه.

سابعها: إن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره، وهذا قول أبي منصور الماتريدي[2] وهذا القول كاد يكون قريباً من قول أبي حامد لولا تعارضهما من جهة الكلام مسموعاً عنده غير مسموع عند أبي منصور.

ثامنها: أنه مشترك بين المعنى القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي الجويني شيخ الغزالي، وغيره[2] فقد يكون أبو حامد تبعه في هذا المعنى، مع أن صريح عباراته في السماع ـ وقد قدمتها ـ يقتضي المغايرة.

= مذهب الإمام أحمد، وانظر ما قلته عنه أول هذا الكتاب، تحت عنوان «السنة الميزان».

(١) أنظر «العقيدة الطحاوية» وشرحها لابن أبي العز الحنفي (ص١٦٩) ط الثامنة.

(٢) أنظر «العقيدة الطحاوية» وشرحها لابن أبي العز الحنفي (ص١٦٩) ط الثامنة، و«شرح حديث النزول» لابن تيمية (١٥٣) وما بعدها.

وهذا على كل الأحوال خطأ كما سيأتي التنبيه على ذلك عند شرح معتقد أهل السنة وهو:

تاسعها: إنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديماً، وهذا المأثور عن أئمة أهل الحديث والسنة(١)، ولكن لهم في ذلك أوجه تفصيل تتنافى مع ما جاء في قول أبي حامد.

الوجه الأول: إن كلامه يليق بذاته وكذلك كل صفاته، وما دمنا نجهل الذات فإنا نجهل كيفية الصفات، وهو معنى قول الإمام مالك: «والكيف مجهول»(٢) وكذلك نجهل كيفية كلامه وضحكه ونزوله و   كما ورد في الكتاب والسنة(٣).

والأحاديث صريحة في عدم مشابهة صوت الحق سبحانه وتعالى أصوات المخلوقين، بل وعدم قدرتهم على سماعه إلا أن يشاء هو جل وعلا.

فمن ذلك ما أخرجه إمام الأئمة ابن خزيمة في «التوحيد»(٤) بسنده إلى النبي ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله عز وجل أن يوحي بالأمر، تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفةٌ، أو قال: رعدة شديدة خوفاً من الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا، وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل «عليه الصلاة والسلام» فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر

---

(١) «العقيدة الطحاوية» وشرحها لابن أبي العز الحنفي (ص ١٦٩) ط الثامنة.

(٢) سئل الإمام مالك رحمه الله عن معنى قوله تعالى: ﴿... الرحمن على العرش استوى...﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك وعلاه الرحضاء –يعني العرق– وانتظر القوم ما يجيء منه، فرفع رأسه إلى السائل وقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأحسبك رجل سوء» ثم أمر به فأخرج، (انظر «مختصر العلو» طبع المكتب الإسلامي (ص١٤٢)، والرواية عنه مع شهرتها بهذا اللفظ أصح إسناداً، نبّه على ذلك الشيخ الألباني، وانظر «نقض المنطق» (ص٣).

(٣) أنظر «شرح حديث النزول» كله، خاصة (٩ — ١٣).

(٤) التوحيد (١٤٤).

جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سماء سأله ملائكتها، ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل عليه السلام، قال الحق وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل عليه السلام، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله[1].

ثم قال الإمام ابن خزيمة رحمه الله.

[باب من صفة تكلم الله عز وجل بالوحي، والبيان أن كلام ربنا عز وجل، لا يشبه كلام المخلوقين، لأن كلام الله كلام متواصل لا سكت بينه ولا سمت، لا ككلام الآدمي الذي يكون بين كلامه سكت وسمت لانقطاع النَّفس أو التذاكر، أو العي، منزّه الله مقدس عن ذلك أجمع، تبارك وتعالى].

ثم روى بسنده عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تكلم الله بالوحي يسمع أهل السماء صلصلة كجر السِّلسلة على الصفا، قال فيُصْعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا أتاهم جبريل فُزِّع عن قلوبهم، فيقولون يا جبريل، ماذا قال ربك؟ قال: يقول الحق، قال ينادون الحق الحق»[2].

ثم رواه بأسانيد أخرى، خمسة، كلها من طريق أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود بألفاظ مقاربة ورواه أيضاً عن غيره[3]، ثم قال[4]:

---

(١) والحديث معناه في الصحيحين من حديث أبي هريرة، وفي «الأسماء والصفات» للبيهقي بزيادة من «السماء والأرض» في أخرى.

(٢) ذكره البخاري في صحيحه تعليقاً عن ابن مسعود بصيغة الجزم فقال: «وقال عبد الله بن مسعود» مشيراً لصحة الحديث، وكذلك رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٢٠١)، وابن حبان في صحيحه، والخطيب في «تاريخه» (١١/ ٣٩٢) بسند صحيح.

(٣) والحديث أيضاً ذكره ابن كثير في التفسير من طرق، وحسب تفسير الآية على هذا للأكثر، منهم ابن عباس وابن عمر وابن مسعود والشعبي وإبراهيم، وقتادة والحسن وغيرهم (٣/ ٥٣٦).

(٤) «التوحيد» (١٦١).

[باب ... والدليل على نقض قول الجهمية الذين يزعمون أن كلام الله مخلوق جل ربنا وعز عن ذلك. قال الله سبحانه: ﴿ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾ ففرق الله بين الخلق والأمر الذي به يخلق الخلق بواو الاستئناف، وأعلمنا الله جل وعلا في محكم تنزيله أنه يخلق الخلق بكلامه قوله ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ فأعلمنا جل وعلا أنه يكون كل مُكَوَّن من خلقه بقوله كن، وقوله كن هو كلامه الذي به يكون الخلق، وكلامه عز وجل الذي به يكون الخلق غير الخلق الذي يكون مكوناً بكلامه، فافهم، ولا تغلط، ولا تغالط]

ثم راح يقرر المسألة بالآيات والأحاديث والاستنباط منهما، إلى آخر ما قال.

والشاهد أنّ جبريل عليه السلام والملائكة المقربين إذا تكلم الله عز وجل صعقوا، ولم يعقلوا شيئاً من كلامه جل وعلا، لعظم وقعه في نفوسهم وقوته.

فإذا ما ادّعى أحدهم أنه يسمع الخطاب من الله تعالى، كان هذا مناقضاً، غير متفق مع ما جاء في هذه الأحاديث الصريحة الصحيحة(١).

---

(١) جزمت بكونها صحيحة لأمرين.

أولهما: أن الحديث الأول مخرج في الصحيحين نحوه، والحديث الثاني معلّق عند البخاري بصيغة الجزم كما بيّنا ذلك آنفاً.

ثانيهما: هو تصحيح ابن خزيمة [illegible] أحاديث هذا الكتاب حيث قال إنه اعتمد في هذا الكتاب على كلام الله [illegible] وثبت عن نبينا ﷺ بالأسانيد الثابتة الصحيحة بنقل أهل العدالة [illegible] أهل المعرفة والعلم يعتدون بتصحيح ابن خزيمة رحمه الله [illegible] — كما هو حال جميع من صحّح — ويجعلونه بعد تصحيح الشيخين مقدماً على تصحيح الحاكم وابن حبان فابن خزيمة هو محمد بن إسحق شيخ [illegible] البخاري الذي أكثر في كتابه من القول: «حدثنا محمد بن إسحق»، بل هو من أجل شيوخ [illegible] ويحيى بن معين وغيرهما.

حتى قال الدارقطني: كان ابن خزيمة إماماً ثبتاً معدوم النظير، وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم فيه: «هو يسأل عنا [illegible] إمام يقتدى به»، وقال السبكي في طبقاته الكبرى: «هو إمام الأئمة المجتهد [illegible]» وانظر كتب الجرح والتعديل في ذلك.

وقائل قد يقول: قد جاء أن الله جل وعلا يخاطب العباد يوم القيامة كما في حديث بريدة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان»(١) فهذا معارض لما ذكره.

والجواب: أنه لا تنافي ولا تعارض، إذا الحديث عن يوم القيامة، كما في حديث ابن عمر أيضاً: «إن الله عز وجل يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ثم يقول: أي عبدي تعرف ذنب كذا وكذا... الحديث»(١).

فإن حال الآخرة تختلف عن حال الدنيا، كما اشتهرت بذلك الآيات والأحاديث.

وبهذا أكون قد أقمت الدليل على بطلان ما اعتمده الغزالي من الشواهد على صحة طريقة أهل التصوف، وبينت فساد الاستدلال بها قدر الإمكان بغاية البرهان، فلله الحمد والمنه.

واختتم المقام بما جاء في «تلبيس ابليس»(٢) لابن الجوزي رحمه الله:

[اعلم أن أول تلبيس أبليس على الناس صدهم عن العلم، لأن العلم نور، فإذا أطفأ مصابيحهم خبطهم في الظلم كيف شاء، وقد دخل على الصوفية من هذا الفن من أبواب:

أحدها: أنه منع جمهورهم من العلم أصلاً، وأراهم أنه يحتاج إلى تعب وكلف، فحسن عندهم الراحة فلبسوا المراقع على بساط البطالة...

ثم روى بسنده إلى الشافعي أنه قال: «أسس التصوف على الكسل».

وثانيها: أنه قنع قوماً منهم باليسير منه، ففاتهم الفضل الكثير.

وثالثها: أنه أوهم قوماً منهم أن المقصود العمل، ما فهموا أن التشاغل بالعلم من أوفى العمل(٣).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) «تلبيس إبليس» تحت عنوان: ذكر تلبيس إبليس على الصوفية في ترك التشاغل بالعلم،

(٣) قلت: والأحاديث في ذلك كثيرة، قدّمت بعضها، ومنها أيضاً قوله ﷺ لأبي ذر: «يا أبا ذر:

ثم أن العالم وأن قصر سير عمله فإنه على الجادة، والعابد بغير علم على غير الطريق.

ورابعها: أنه أرى خلقاً كثيراً منهم أن العلم هو ما اكتسب من البواطن، حتى أن أحدهم يتخايل له وسوسة، فيقول: حدثني قلبي عن ربي.

وكان الشبلي يقول:

«إذا طالبوني بعلم الورق   برزت عليهم بعلم الخرق»

وقد سموا علم الشريعة علم الظاهر، وسموا هواجس النفوس العلم الباطن واحتجوا له: «علم الباطن سر من أسرار الله عز وجل، وحكم من أحكام الله تعالى، يقذفه الله عز وجل في قلوب من يشاء من أوليائه».

قال: وهذا حديث لا أصل له عن النبي ﷺ، وفي إسناده مجاهيل لا يعرفون.

لأن تغدوا فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصبح تصلي مائة ركعة، ولأن تغدوا تتعلم باباً من العلم عُمِلَ به أو لم يُعْمَل خير لك من أن تصلي ألف ركعة» رواه ابن ماجة بسند حسن.

ومنها قوله ﷺ: «من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله» كذلك هو عند ابن ماجة بسند لا بأس به.

ومنها قوله ﷺ: «فضل العلم خير من فضل العبادة» أخرجه أبو يعلى الموصلي والبيهقي من حديث حذيفة رضي الله عنه.

ومنها قوله ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، وخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» أخرجه البخاري في الصحيح.

وعند الأربعة إلا النسائي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من غدا يريد العلم يتعلمه لله، فتح الله له باباً إلى الجنة، وفرشت له الملائكة أكنافها، وصلت عليه ملائكة السماء، وحيتان البحر، وللعالم من الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب في السماء، والعلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

ثم قال: «يروى عن أبي يزيد: «أخذوا علمهم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت»».

وأصل ما ينسب إلى هذا القائل أنه ما يدري ما في ضمن هذا القول، وإلا فهو طامة على الشريعة!

قلت: فمن [illegible] علم تام من مقاصد الشريعة وأصولها ما ينفي به خبث الجهال وزيفهم، والنبي ﷺ بقي بين صحابته رضي الله عنهم نيفاً وعشرين سنة يعلمهم الكتاب والسنة، ويحضهم على تبليغهما.

فصحّ في البخاري قوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية...».

وصح عند الترمذي وأبي داود: «نضر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه، فرب مبلَّغ أوعى من سامع».

وكان من هديه أنه يأمر بكتابة ذلك كما في حجة الوداع لما جاءه أبو شاة واعتذر لقلة حفظه فقال ﷺ: «اكتبوا لأبي شاة» والقصة في البخاري.

وأخرج الحاكم بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «قيدوا هذا العلم بالكتابة».

فهذا ديننا، وهذا شرعنا، والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب.

الفناء في التوحيد عند الغزالي : وكتم الأسرار

قال الغزالي في بيان حقيقة التوحيد في «الإحياء»[1]:

[للتوحيد أربع مراتب، وينقسم إلى لب وإلى لب اللب وإلى قشر وإلى قشر القشر، ولنمثل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإن له قشرتين، وله لب، وللبّ دهن هو لب اللب. فالرتبة الأولى من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله، وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين[2].

والثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام.

والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.

والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصديقين، وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد].

ثم يتابع[3]: [فإن قلت كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحداً، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحداً، فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: افشاء سر الربوبية كفر. ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة].

---

(١) «الاحياء» (٤/٢٤٥)

(٢) قلت: هذا من أعظم الجهل، وإلا فكيف يجوز أن يسوى بين الذاكر الغافل، والذاكر المنكر، فالذاكر المنكر كافر، ولا يجوز إطلاق هذا على الأول بحال!!

(٣) «الاحياء» (٤/٢٤٦).

ثم يقول بعد أسطر. [فإن قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه، فأقول: أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه، وليس التوكل أيضاً مبنياً عليه، بل يحصل حال التوكل بالتو[illegible] الثالث.

وأما الأول وهو النفاق فواضح.

وأما الثاني فهو الاعتقاد، فهو موجود في عموم المسلمين، وأما تأكيده بالكلام ودفع حيلة المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام، وقد ذكرنا في كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» القدر المهم منه.

وأما الثالث: فهو الذي يبنى عليه التوكل، فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به، دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب، وحاصله أن يتكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما يطلق عليه اسم، فالتفرد بإبداعه واختراعه هو لله عز وجل لا شريك له فيه].

قلت: وهذا النوع الثالث تفصيل لا معنى له، حيث أن كل ما ذكر فيه من وجوب إدراك العبد لكون الله جل وعلا هو الرازق والمعطي والمحيي والمميت والمتفرد في الخلق والأمر، كل ذلك من لوازم النوع الثاني الذي ذكره وجعله إيمان العوام، فإن من لا يؤمن بهذه المعاني ويعتقدها، دخل الفساد معتقده.

فمن يعتقد أن مع الله من أبدع واخترع يكون كافراً بالصفات مشركاً.

ومن يعتقد أن رازقاً أو معطياً مع الله يكون كافراً بالقضاء والقدر، جاهلاً ببعض الصفات التي جهلها كفر.

والعوام جمهورهم يعرفون هذه المعاني ويعتقدونها، وإن كان يقع في بعض تصرفاتهم ما يخالف ذلك، شأنهم في ذلك شأن من يعلم أن الكذب محرم، ثم يكذب، فإنه لا يجوز إنكار معرفة تحريم الكذب عنده، فإن التوفيق في فعل الطاعات من عند الله جل وعلا.

وكيف يعقل أن تخفى مثل هذه المعاني على العامي الموحد، وهي من أول مطالب الإيمان، ونصوص الكتاب والسنة مشحونة بذلك.

ومن فاته قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، لم يفته ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ وقوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾

بل إن الله عز وجل جعل ذلك من مدارك عقول كثير من المشركين الكافرين فقال جل ذكره:

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ومَن مِن المؤمنين لم يسمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ وقوله ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وقوله عظمت حكمته ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ وقوله ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وقوله ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقوله ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فإني تؤفكون﴾ وقوله ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾.

والشاهد هنا أن أشباه هذه الآيات ونظائرها كثير، ومثل ذلك في السنة، وأن تتبع ذلك يخرج عن الحصر، فلا يمكن غيابه عن أذهان العامة، وإن وقع منهم ما لا يتفق معه كما قدمت، فإن حصل ولا بد في النادر، فيبقى بطلان إطلاقه على العامة، والخاص لا يطلق على العام، ولكن العموم أصل الخصوص.

وليس المقصود هنا ابداء وجه الغلط في التصنيف عند الغزالي، إنما المراد بيانه، أن ابن عربي صاحب وحدة الوجود، كان قد اعتمد هذا التقسيم بعينه، وجعله أصلاً حيث قال في «الفتوحات المكية»(١) عند الحديث عن العقيدة الأولى:

[فهذه عقيدة العوام من أهل الإسلام، أهل التقليد، وأهل النظرة، ملخصة مختصرة... ثم أتلوها إن شاء الله بعقيدة الناشئة الشادية.

ثم أتلوها بعقيدة خواص أهل الملة من أهل طريق الله من المحققين أهل الكشف والوجود، وجردتها أيضاً في جزء آخر سميته المعرفة...

وأما التصريح بعقيدة الخلاصة فما أفردتها على التعيين لما فيها من الغموض، لكن جئت بها مبددة في أبواب هذا الكتاب...].

---

(١) «الفتوحات المكية» (ج١/ ص٣٨).

وشيخ الإسلام لا تفوته هذه الاستخلاصات، فحللها وأرجعها لأصلها في «الصفدية»[1] فقال:

[وإنما ظهر التفلسف في المتصوفة المتأخرين، فصارت المتصوفة تارة على طريقة صوفية أهل [illegible] وهم خيارهم وأعلامهم، وتارة على اعتقاد صوفية أهل الكلام، فهؤلاء دونهم، وتارة على اعتقاد صوفية الفلاسفة كهؤلاء الملاحدة.

ولهذا ذكر ابن عربي في أول «الفتوحات» ثلاث عقائد:

عقيدة مختصرة من إرشاد أبي المعالي[2] بحججها الكلامية.

ثم عقيدة فلسفية كأنها مأخوذة من ابن سينا وأمثاله.

ثم أشار إلى اعتقاده الباطن الذي أفصح به في «فصوص الحكم» وهو وحدة الوجود، فقال: «وأما عقيدة خلاصة الخاصة فتأ[illegible] مفرقة في الكتاب»].

ولنرجع الآن إلى قول أبي [illegible] تعريفه للفناء وحقيقت[illegible] يقول في كتاب آداب السماع والوجد من «الاحي[illegible]

[الحالة الرابعة: سماع من جاوز الأحو[illegible] والمقامات، فعزب عن فهم ما سوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها، وكان كالمدهوش الغائص في بحر عين الشهود، الذي يضاهي حاله حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط إحساسهن، وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فني عن نفسه، ومهما فني عن نفسه فهو عن غيره أفنى، فكأنه فني عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود.

ثم يقول: [ومثل هذه الحالة قد تطرأ في حق المخلوق، وتطرأ أيضاً في حق الخالق]!!!

---

(١) «الصفدية» (ج١/ ص٢٦٧).
(٢) «الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الإعتقاد».
(٣) «الاحياء» (١/ ٢٩١).

فإن أقل ما يقال في صاحب هذه العبارة أنه متجريء مدعٍ، لو كان كسر قلمه عنها وأمثالها، لكان أحظى بالاتباع، وأبعد عن الابتداع، والابتداع في التوحيد ليس كالابتداع في غيره.

وأنتقل بك الآن إلى «روضة الطالبين» لتستمع للغزالي وهو يفصل حقيقة هذا المشهد فيقول[1]:

[فإذا فنيت ذاتك وذهبت صفاتك، وفنيت ببقائه عن فنائك، وخلع عليك خلعة «بي يسمع وبي يبصر»، فيكون هو واليك ومتواليك، فإن نطقت فبأذكاره، وإن نظرت فبأنواره وإن تحركت فبأقداره وإن بطشت فباقتداره، فهناك تذهب الأثنية واستحالت البينية].

وذهاب الاثنية أن لا يبقى اثنان، واستحالة البينية، عدم إمكان المباينة والمفارقة لانعدام الاختلاف، سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم.

ويزيد الأمر تفصيلاً، لا بل حلولاً واتحاداً بقوله:

[فإن رسخ قدمك، وتمكن حال سكرك قلت: أنت (أي أنت هو) فأنت في الأول متمكن وفي الثاني متلون].

فتأمل وتعجب!!

وقل: أهذا صنيع من أنكر على أصحاب الدعاوي الطويلة العريضة أقوالهم.

وفي «ميزان العمل» قوله[2]:

[فقد عرفت أن سعادة النفس وكمالها أن تنتعش بحقائق الأمور الإلهية وتتحد بها كأنها هي].

ويعود ليتابع في الأحياء: [وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله، أعني أن ينساها فلا يبقى له التفات إليها، كما لم يكن للنسوة التفات

(١) «روضة الطالبين» (١٧).
(٢) «ميزان العمل» (٣٠).

إلى الأيدي والسكاكين، فيسمع لله وبالله وفي الله ومن الله، هذه رتبة من خاض لجة الحقائق وعبر ساحل الأحوال والأعمال، واتحد بصفاء التوحيد، وتحقق بمحض الإخلاص، فلم يبق فيه منه شيء أصلاً، بل خمدت بالكلية بشريته وفني التفاته إلى صفات البشرية رأساً].

ولما كان قول الغزالي هذا تنقدح من ثناياه معاني الحلول والاتحاد الظاهرة استدرك قائلاً: [لست أعني بفنائه فناء جسده، بل فناء قلبه، لست أعني بالقلب اللحم والدم، بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية وراءها سر الروح الذي هو من أمر الله عز وجل ـ عرفها من عرفها وجهلها من جهلها[1] ـ ولذلك السر وجود، وصورة ذلك الوجود ما يحضر فيه غيره فكأنه لا وجود إلا للحاضر[2].

ومثاله المرآة المجلوة، إذ ليس فيها لون في نفسها، بل لونها لون الحاضر فيها، وكذلك الزجاجة فإنها تحكي لون قرارها، ولونها لون الحاضر فيها، وليس لها في نفسها صوره، بل صورتها قبول الصور، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان.

ويعرب عن هذه الحقيقة ـ أعني سر القلب بالإضافة إلى الحاضر فيه ـ قول الشاعر:

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر]

وهكذا يبتعد الغزالي عن المعاني التي صاغها بقلم الاقتحام، بأسلوب المنطق، ومثال المرآة والنسوة والقدح.

وبغض النظر عن فوارق القياس، وبواعث الافتراق بين المقوس به والمقاس عليه، من جهة الداخل إذ الأول معنوي والمثال حسي، أو من جهة،

---

(١) وهذا قطع من الغزالي بمعرفته سر الروح، وإلا فكيف يعني أمراً يجهله؟!

(٢) هذا معنى قول أهل الباطن في التقمّص بعينه، فانهم يجعلون العبرة بالروح الحالّة في الجسد، لا بالجسد؛

الاختيار في الأصل، وعدمه في المثال، فلقد عاود الغزالي الخروج من حيث دخل، وكان الأولى به عدمهما، والاقتصار على ما تبناه هو في «المنقذ» عندما قال:

[ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز منه وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل ذلك خطأ][١].

وكأن الغزالي بعدما صاغ ما أراده من المعاني وخروجه بمثال المرآة والنسوة والقدح، أحس بقرب مخرجه من مخارج أهل الحلول والاتحاد فقال بعد البيتين المذكورين مستدركاً:

[وهذا مقام من مقامات علوم المكاشفة منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد، وقال: أنا الحق، وحوله يدندن كلام النصارى في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت، أو حلولها فيها، على ما اختلفت فيه عباراتهم، وهذا غلط محض، يضاهي غلط من يحكم على المرآة بصورة الحمرة إذا ظهر فيها لون الحمرة مقابلها].

وكان شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر أراد هذه الكلمات لما قال: «وقد ادعى طائفتان في تفسير التوحيد أمرين اخترعوهما، أحدهما المعتزلة، وثانيهما غلاة الصوفية، فإن أكابرهم لما تكلموا في مسألة المحو والفناء وكان مرادهم بذلك المبالغة في الرضا والتسلم وتفويض الأمر بالغ بعضهم حتى ضاهى المرجئة في نفي نسبة الفعل إلى العبد، وجر ذلك بعضهم إلى معذرة العصاة، ثم غلا بعضهم فعذر الكفار، ثم غلا بعضهم فزعم أن المراد بالتوحيد اعتقاد وحدة الوجود»[٢].

---

(١) «المنقذ» (٥٠)، وقد تقدم الرد على تلك المشاهدات التي عناها الغزالي.
(٢) «فتح الباري» (١٣/٣٤٨).

ولكن هل هذا آخر ما أراده أبو حامد في معنى الفناء الذي هو غاية التوحيد، إنه على القطع ليس آخر المطاف، لأنه منع من التصريح بعلم المكاشفة في غير موضع من كتبه وطالب بالصمت عن حقيقة نهاية الأقدام، وجوهر المذهب، الذي لو ذكره لكفره المسلمون على حد قوله، ولاستحلوا دمه، كما استحلوا دماء غير واحد من قبله، بل وينسب هذه الفتوى لأجل مشايخ الطريق.

فيحكي في «الاحياء» عن بعضهم قوله: «إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة».

يقول الغزالي معقباً: «أي يخرج عن حد عقولهم فيرون ما يقوله جنوناً أو كفراً»[1].

ويقول في «ميزان العمل» [من رآني في الابتداء رآني صديقاً، ومن رآني في الانتهاء رآني زنديقاً][2].

وينقل في «الأنوار القدسية» عن الجنيد: [لا يبلغ عندنا الرجل مبلغ الرجال حتى يشهد فيه ألف صدّيق من علماء الرسوم بأنه زنديق][2].

ويقول[3]: [وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتاً يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين، وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره وهذه الأبيات هي:

سرت بأناس في الغيوب قلوبهم ... فحلوا بقرب الماجد المتفضل
عراضاً بقرب الله في ظل قدسه ... تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهى ... ومصدرهم عنها لما هو أكمل
تروح بعز مفرد من صفاته ... في حلل التوحيد تمشي وترفل
ومن بعد هذا ما تدق صفاته ... وما كتمه أولى لديه وأعدل
سأكتم من علمي به ما يصونه ... وأبذل منه ما أرى الحق يبذل

(١) «الاحياء» (٤/٣١١).
(٢) «ميزان العمل» (٩٨)، و «الأنوار القدسية» (١/١٣٤) على هامش «طبقات الأخيار» للشعراني.
(٣) «الاحياء» (٤/٣٣٦ — ٤/٣٣٧).

وأعطى عباد الله منه حقوقهم وأمنع منه ما أرى المنع يفضل
على أن للرحمن سراً يصونه إلى أهله في السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك عمن لم ينكشف له، بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا].

ويقول في شرح معنى الانبساط بعد أن ساق حكايات فيها معجزات:

[فهذا وأمثاله يجري لذوي الأنس، وليس لغيرهم أن يتشبه بهم، قال الجنيد رحمه الله: أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة، وقال مرة: لو سمعها العموم لكفروهم، وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك][1].

والشيخ القطب الإمام أبو العباس ابن تيمية يذكر هذا في كتبه ويرد عليه رداً مجملاً، فيقول[2]:

[من عجيب الأمر أن هؤلاء المتكلمين المدعين لحقائق الأمور العلمية والدينية المخالفين للسنة والجماعة يحتج كل منهم بما يقع له من حديث موضوع، أو مجمل لا يفهم معناه، وكل ما وجد أثراً فيه إجمال نزله على رأيه، فيحتج بعضهم بالمكذوب، مثل المكذوب المنسوب إلى عمر «كنت كالزنجي»[3]، ومثل ما يروونه من سر المعراج[4] وما يروونه من أن أهل الصفة

---

(١) «الإحياء» (٤/٣٤١) وانظر نحو هذا في «ميزان العمل» (١٣٥)، و«جواهر القرآن» (٣٥)، وغير ذلك.

(٢) «نقض المنطق» (٦٩).

(٣) فيدّعون أن عمر رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يتحدث هو وأبو بكر بحديث وكنت بينهما كالزنجي» أي لا يفهم حديثهما لأنه تجاوز حد العقول.

(٤) يقول شيخ الإسلام نفسه عن سر المعراج: «إن الذين لبسوا الكلام بالفلسفة من أكابر المتكلمين تجدهم يعدون من الأسرار المصونة والعلوم المخزونة ما إذا تدبره من له أدنى عقل ودين وجد فيه من الجهل والضلال ما لم يكن يظن أنه يقع فيه هؤلاء، حتى قد يكذب بصدور ذلك عنهم، مثل تفسير حديث المعراج الذي ألّفه أبو عبد الله الرازي الذي احتذى فيه حذو=

سمعوا المناجاة من حيث لا يشعر الرسول، فلما نزل الرسول أخبروه فقال من أين سمعتم؟ فقالوا: كنا نسمع الخطاب، حتى أني لما بينت لطائفة تمشيخوا وصاروا قدوة للناس أن هذا كذب ما خلقه الله قط.

قلت: ويبين ذلك أن المعراج كان بمكة بنص القرآن وبإجماع المسلمين، والصفة إنها كانت بالمدينة، فمن أين كان بمكة أهل صفة؟!...

= ابن سينا، وعين القضاة الهمذاني، فإنه روى حديث المعراج، بسياق طويل وأسماء عجيبة، وترتيب لا يوجد في شيء من كتب المسلمين، لا في الأحاديث الصحيحة ولا الحسنة ولا الضعيفة المروية عند أهل العلم، وإنما وضعه بعد السؤال والطرقية أو بعض شياطين الوعاظ، أو بعض الزنادقة ثم أنه مع الجهل بحديث المعراج الموجود في كتب والحديث والتفسير والسيرة وعدوله عما يوجد في هذه الكتب إلى ما لم يسمع من عالم، ولا يوجد في أثارة من علم، فسّره بتفسير الصابئة الضالة المنجمين، وجعل معراج الرسول ترّقيةْ بفكره إلى الأفلاك، وأن الأنبياء الذين رآهم هم الكواكب، فآدم هو القمر، وإدريس هو الشمس، والأنهار الأربعة هي العناصر الأربعة، وأنه عرف الوجود الواجب المطلق، ثم أنه يعظم ذلك ويجعله من الأسرار والمعارف التي يجب صونها عن أفهام المؤمنين وعلمائهم، حتى أن طائفة ممن كانوا يعظمونه — يعني الرازي — لما رأوا ذلك تعجبوا منه غاية العجب، وجعل بعض المتعصبين له يدفع ذلك حتى أروه النسخة بخط بعض المشايخ المعروفين الخبيرين بحاله وقد كتبها في ضمن كتابه الذي سماه «المطالب العالية» وجمع فيه عامة آراء الفلاسفة والمتكلمين.

وتجد أبا حامد الغزالي — مع أن له من العلم بالفقه والتصوف والكلام والأصول وغير ذلك، مع الزهد والعبادة وحسن القصد، وتبحره في العلوم الإسلامية أكثر من أولئك — يذكر في كتاب «الأربعين»، ونحوه كتابه «المضنون به على غير أهله» فإذا طلبت ذلك الكتاب واعتقدت فيه أسرار الحقائق وغاية المطالب، وجدته قول الصابئة المتفلسفة بعينه، قد غيرت عباراتهم وترتيباتهم.

ومن لم يعلم حقائق مقالات العباد ومقالات أهل الملل يعتقد أن ذلك هو السّرّ الذي كان بين النبي ﷺ وأبي بكر، وأنه هو الذي يطلع عليه المكاشفون الذي أدركوا الحقائق بنور إلهي، فإن أبا حامد كثيراً ما يحيل في كتبه على ذلك النور الإلهي، وعلى ما يعتقد أنه يوجد للصوفية والعبّاد برياضتهم وديانتهم من إدراك الحقائق وكشفها لهم، حتى يزنوا بذلك ما ورد به الشرع، (نقض المنطق ٥٣ — ٥٤).

قلت: وانظر كتاب «الأربعين» عند الحديث عن عذاب القبر (ص٢١٢) لتجد ما أشار إليه شيخ الإسلام.

ثم يقول: وأما المجملات فمثل احتجاجهم نهي بعض الصحابة عن ذكر بعض خفي العلم كقول عليّ رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[(١)].

وقول عبد الله بن مسعود: «ما من رجل يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنته»[(٢)].

وقول عبد الله بن عباس في تفسير الآيات: «ما يؤمنك أني لو أخبرتك بتفسيرها كفرت، وكفرك بها تكذيبك بها» وهذه الآثار حق.

ولكن ينزل كل منهم ذلك الذي لم يحدث به على ما يدعيه من هذه الأسرار والحقائق، التي إذا كشفت وجدت من الباطل والكفر والنفاق.

---

(١) هو في البخاري عن علي موقوفاً.

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه.

ومعنى هذه الأحاديث ظاهر، ومثالها كمن يحدث عن سجود السهو من لا يعرف الصلاة أصلاً.

[وروى الحاكم في تاريخه بإسناده عن أبي قدامة عن النضر بن شُميل قال: سئل الخليل عن مسألة فأبطأ في الجواب فيها، فقلت ما في هذه المسألة كل هذا النظر، قال فرغت من المسألة وجوابها ولكني أريد أن أجيبك جواباً يكون أسرع إلى فهمك قال أبو قدامة فحدثت به أبا عبيد فَسُرَّ به.

وفي تاريخ عبد الله بن جعفر السرخسي أبي محمد الفقيه أخبرني محمد بن حامد ثنا عبد الله بن أحمد سمعت الربيع سمعت الشافعي يقول: لو أن محمد بن الحسن كان يكلمنا على قدر عقله ما فهمنا عنه، لكنه كان يكلمنا على قدر عقولنا فنفهمه].

هذا، أورده العلامة شمس الدين المقدسي في «الآداب الشرعية» (٢/١٦٤) في فصل: مخاطبة الناس على قدر عقولهم، وقد أورد فيه قوله ﷺ «أمرنا معشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم».

وذكر أن الحديث المذكور أورده الضياء في «المختارة»، وقال: الزراد ــ راوي الحديث ــ لم يذكره ابن أبي حاتم ولا الحاكم أبو أحمد في كتابه الكنى.

قلت: والمعنى أنه مجهول، والحديث ضعيف، والله أعلم.

حتى إن أبا حامد الغزالي في «منهاج القاصدين»[1] وغيره، هو وأمثاله
ت بما يروى عن علي زين العابدين بن الحسن أنه قال:

يا رُبَّ جوهر علم لو أبوح به ... لقيل: أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسناً

فإذا كانت هذه طرق هؤلاء الذين يدعون من التحقيق وعلوم الأسرار ما خرجوا به عن السنة والجماعة وزعموا أن تلك العلوم الدينية أو الكونية مختصة بهم، فآمنوا بمجملها ومتشابهها، وأنهم منحوا من حقائق العبادات وخالص الديانات ما لم يمنح الصدر الأول حفاظ الإسلام وبدور الملة، ولم يتجرأوا عليها برد وتكذيب، مع ظهور الباطل فيها تارة، وخفائه أخرى، فمن المعلوم أن العقل والدين يقتضيان أن جانب النبوة والرسالة، أحق بكل تحقيق وعلم ومعرفة وإحاطة بأسرار الأمور وبواطنها، وهذا لا ينازع فيه مؤمن، ونحن الآن في مخاطبة من في قلبه إيمان].

ثم يذكر شيخ الإسلام بعد ذلك أن أحق الناس بمعرفة ذلك بعد النبي ﷺ هم أصحابه، ثم أهل السنة والحديث من بعدهم لأنهم نقلوا أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته وسيرته وأيامه، وأكانوا أشد الناس اتباعاً لذلك.

وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام من أقوى الحق وأبينه، لا ينكره من له أدنى مسكة من عقل، ثم أن الإمام علياً رضي الله عنه لما سأله أبو جحيفة: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء، وفي رواية البخاري: هل عندكم شيء من الوحي غير ما في كتاب الله، قال علي رضي الله عنه لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة... الحديث.

---

(١) جاء في «منهاج العابدين» للغزالي (ص٣) ط الحلبي بمصر:

إني لأكتم من علمي جواهره ... كيلا يراه ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن ... إلى الحسين ووصّى قبله الحسنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وفي الصحيحين: «ما عندنا إلا كتاب الله وهذه الصحيفة عن النبي ﷺ: «المدينة حرم ما بين عير إلى ثور».

وفي رواية لمسلم: «خطبنا علي بن أبي طالب فقال: من زعم أن عندنا كتاباً نقرؤه إلا كتاب الله وما في هذه الصحيفة، قال: وصحيفته معلقة في قراب سيفه، فقد كذب، فيها أسنان إبل وأشياء من الجراحات، وفيها قال النبي ﷺ المدينة حرم . . . الحديث»[1].

فإذا كان الإمام علي رضي الله عنه يقسم على عدم اختصاصه بشيء من العلوم والأسرار، فإن الجهل كله في ادعاء أناس فوق هذا العلم معرفة وأسراراً.

وهذه الروايات إنما سقتها للرد على أبي حامد فيما ادعاه من إسرار النبي ﷺ لبعض أصحابه بخواص التوحيد[2]، ثم جعل هذا الإسرار من ما لا يجوز البوح به.

وكان قد أورد في فواتح إحيائه أن النبي ﷺ قال: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى».

والحديث المذكور أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه «أربعون حديثاً في التصوف»، وهو من شيوخ المتصوفة يضع لهم الأحاديث ويختلقها[3].

---

(١) قد جاءت روايات مستفيضة بما كتب في هذه الصحيفة غير ما تقدم، من ذلك رواية البخاري مثلاً: «فيها العقل والدّيه، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»، ولكنها في الجملة أحكام فقهية.ونحو هذا جواب محمد بن علي وابن عباس كما في المسند (١/٢٢٠).

(٢) قال ذلك في «الاحياء» (٤/٢٥٣)، كتاب التوحيد.

(٣) قال الذهبي: أبو عبد الرحمن السلمي شيخ الصوفية، كان يضع الأحاديث للصوفية، (ميزان الإعتدال)، (٣/٤٦) والحديث المذكور قال فيه العراقي مخرِّجاً: «رواه السُّلمي في «الأربعين» له في التصوف عن أبي هريرة بسند ضعيف». «الاحياء» (١/٢٠).

وكذلك الديلمي في كتابه «الفردوس بمأثور الخطاب[١]، وإيراده في هذا الكتاب حكم عليه بالضعف كما قال صاحب «المنتخب» في مطلع الكتاب[٢].

هذا، ولا يخفى أنه على فرض ثبوته ليس فيه حجة على الاطلاق، وكذا اعتمادهم على حديث أبي هريرة، فقد تقدم الحديث عليه في فصل معرفة أسرار الغيب.

وأما الأحوال التي أشار إليها الغزالي في الفناء ومعناه وحقيقته، فيكفي في عدم شرعيتها وردها وترك اعتبارها أنها ليست من خلق سيد الخلق ﷺ، ولا خلق صحابته، وأنه لم ينقل لنا في ذلك شيء عن الصدر الأول، بل الحق الذي يجب أن يعلمه أبو حامد وغيره، أن الحال التي وصفها في معنى الفناء، وغياب الذات والشهود ليست من أحوال المتعبدين، فضلاً عن ساداتهم، إذ العبادة لا تكون إلا بعبد ومعبود، عبد يستحضر ما للعبد من الفقر والذل والخضوع والحاجة والضعف، وما للمعبود من العظمة والكبرياء والقوة والغنى والإرادة، وكلما ازداد استحضاره لهذه المعاني حسنت عبادته واكتملت، وكل ما فاته شيء من ذلك بتر من عبادته بنفس القدر، لأن العبرة بالاستحضار.

ومن هذا المعنى قوله ﷺ : «ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها» وفي رواية «إلا ما وعى منها»[٣].

والنبي ﷺ في آخر معراجه لما وصل إلى سدرة المنتهى، لم تعتره تلك الحال، وكان على أكمل أوجه التلقي، ووصفه ربه، ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَىٰ ﴾ فإنه كان مدركاً لما يراه تمام الإدراك، ﴿ لَقَدْرَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾، ومن غير زيغ، ﴿ مَاكَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَارَأَىٰٓ ﴾.

ومن هذا المعنى تفهم سر إيراد النبي ﷺ قوله: «أحق ما قال العبد وكلنا

---

(١) كذا قال صاحب «كنز العمال»، (٤/٥١) بحاشية مسند الإمام احمد.
(٢) (ص٩/ ج١) بحاشية المسند.
(٣) اخرجه أبو داوود وغيره،

لك عبد» دبر قوله: «اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض، وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد»[1].

وتعلم بعض ما في قوله تبارك وتعالى على هذا النحو في إيراد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد قوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وتعلم لما قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[2]، فإنه يحمل هذا المعنى من صفات العبد والمعبود عند المسألة، وهي العبادة.

ولذلك قال جل ذكره: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فجعل الدعاء عبادة.

هذا، وليعلم أننا ما طولبنا بغير هذا في حياتنا الدنيا، لا بفناء ولا بغيرة، وإنما: ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾.

فلما تحقق معنى العبادة على هذا الضرب وجب اتباعه، ووجب اعتقاد العبودية في أرفع الرتب وأبلغ المقامات كما وصفها ربنا تبارك وتعالى فقال ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ...﴾، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ...﴾، وقال: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ...﴾. فالعبادة هي ما طولبنا به، وافترضت علينا، دون الفناء.

وقد قال تعالى في الحديث الإلهي: «ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه...»[3] والصوفية جميعهم لا يحسنون الاستدلال بهذا الحديث، ولا يفهمون معناه، إلا من رحم ربك، فأول ما يفعلونه أنهم يذكرونه دون هذا الشطر الأول، فيبتدئون بقوله تبارك وتعالى: «ما زال عبدي

---

(١) أخرجه مسلم عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الترمذي وغيره بسند حسن، ولفظ «مخ العبادة» ضعيف.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، وأوله: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرّب إليّ عبدي... الحديث».

يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها». ويفهمون من ذلك إطلاق الكرامات، وفعل المعجزات. ولو أنهم صبروا حتى يقرءوا تمام الحديث، ويتفكروا، لما استساغ لهم ذلك بمجرد التأمل. وتمامه: «ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...»[1].

فأخبر جل وعلا، أن العبودية لما تحققت في العبد، وعلم افتقاره وأن الله هو المعطي فخصه بالسؤال، بادره الله عز وجل بالإجابة.

وأخبر أن عبده لما علم بعزته وجبروته، وأن لا ملجأ إلا إليه، ولا استجارة منه إلا به، ثم لاذ بجنابه، بادره بإعاذته تبارك وتعالى، فإن هذا التقرب لما زاد من عبوديتهم ذكرهم الله عز وجل في أرفع مواقف العبودية، «السؤال» و«الالتجاء»، ولو كان المعنى إطلاق أيديهم في بعض القدر على حد فهم الصوفية، لضاعت المناسبة مع هذا الموقف.

وهذا حال أهل الإيمان، كل ما قربوا تقرَّبوا، وازداد شكرهم، وتواضعهم لخالقهم، فهؤلاء قَمِنٌ أن يُلحقوا بركب خير العباد ﷺ الذي كان يصلي حتى تورمت قدماه وهو الذي غفر له تقدم من ذنبه وما تأخر، فلما سئل في ذلك قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[2] هذه هي المقامات، لا مقات الأنس والانبساط!!!

وليت أبا حامد توقف عند هذا المعنى، وأعاره لبّه ليعلم أن ما سطره في «معنى الانبساط والادلال الذي تثمره غلبة الأنس» إنما هو محض ابتداع. فإنما قال تحت هذا الباب[3]: [أعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق، ولم ينغصه خوف التغير والحجاب فإنه يثمر نوعاً من الانبساط في

---

(١) ثم قال: «وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».
(٢) أخرجه البخاري وغيره.
(٣) «الاحياء» (٤/٣٤٠).

الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة ولكنه محتمل فيمن أقيم في مقام الأنس، ومن لم يقم من ذلك المقام ويتشبه بهم في الفعل والكلام. هلك به وأشرف على الكفر.

ومثاله، مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل... فقال برخ في مناجاته: «ما هذا من فعالك، ولا هذا من حلمك، وما الذي بدا لك. انقصت عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك، أم نفد ما عندك،أم اشتد غضبك على المذنبين، ألست كنت غفاراً قبل خلق الخلق الخاطئين، خلقت الرحمة وأمرت بالعطف، أم ترينا أنك ممتنع، أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة».

ـ قال في الحكاية ـ فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر، وأنبت الله العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب قال: فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربي كيف أنصفني فهم موسى عليه السلام به، فأوحى الله تعالى إليه: أن برخاً يضحكني كل يوم ثلاث مرات»[١]!!!

أما نبينا صلوات ربي وتسليماته عليه فكان إذا دعا مستسقياً قال: «اللهم اغثنا»[٢]، فإن معنى العبودية قد اكتمل في هاتين الكلمتين، وإن ما فيهما من معنى التوجه للإله الواحد، وإخلاص القصد وإظهار الحاجة، ما تنوء به الجبال الراسيات.

وإذا كان صح في الحديث عنه ﷺ «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[٣]. فإن كان للفناء ـ الذي يجعله أبو حامد نهاية الواصلين ـ موضع، فهذا موضعه، بنصّ الحديث، وفي هذا قال تعالى لنبيه ﷺ، ولأمته من بعده: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾.

---

(١) ثم حكى بعد ذلك مثالين، فارجع إليهما إن شئت.
(٢) رواه البخاري وغيره.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

وقال جل ذكره واصفاً عبده بأعلى مقامات العبودية: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى ماله وبعض صفاته، وصف عبده بأرفع مقاماته التي هي الصلاة[1]، ثم ذكر السجود من باب إيراد الخاص بعد العام تنبيهاً لشرفه، ولو كان هناك مقام أرفع منه لذكره تبارك وتعالى.

والذي يتأمل أداء الركعة لم تفته عظمة السجود، فأول ذلك أنه نهاية الركعة الواحدة، والعبرة بالخواتيم، وثاني ذلك أنه أنسب الهيئات في التواضع و«من تواضع لله رفعه الله»[2].

وقد كان ﷺ من هديه وسنته أنه يقول في هذا المقام الذي لاقرب فوقه: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين»[3]، فهو في هذا المقام لم يغب عن حاله وخلقه، بل عن سمعه وبصره، وحتى عن حسن خلقه، فعلمنا أن هذا من أتم العبادة وأكملها.

ونحو هذا قوله ﷺ في رواية أخرى أنه كان يقول في سجوده: «اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً وعن يميني نوراً وعن شمالي نوراً، وأمامي وخلفي نوراً، وفوقي نوراً وتحتي نوراً واجعل لي نوراً، أو قال اجعلني نوراً»[4].

---

(١) عند الشيخين البخاري ومسلم أنه سئل ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل فقال: «الصلاة على وقتها».

(٢) هذا اللفظ وبسياق أتم أخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن عمر، وفي معناه أحاديث كثيرة مخرّجة في الصحاح والسنن والمسانيد، أنظر «منتخب كنز العمال»، بحاشية المسند (١/١٥٩).

(٣) أخرجه مسلم وغيره في حديث طويل عن عليّ رضي الله عنه.

(٤) بعض حديث أخرجه مسلم.

وربما قال أيضاً: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقّه وجله، وأوله وآخره، وسرّه وعلانيته»[١].

وصلى عمار بن ياسر يوماً فأوجز فلما انفتل من صلاته أنكروا عليه، فقال: ألم أتم الركوع والسجود فقالوا بلى، فقال: أما إني دعوت فيهما بدعاء كان رسول الله ﷺ يدعو به «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، أسألك خشيتك في الغيب وكلمة الحق في الغضب، والرضا والقصد في الفقر والغنى ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، أعوذ بك من ضراء مضرّة، ومن فتنة مضلّة اللهم ربنا زيّنا بالإيمان، واجعلنا هداة مهديين»[٢].

فكل هذا وغيره ثبت عنه ﷺ في الركوع والسجود، وهو يفيد تمام الاستحضار وكذلك كان ﷺ في صلاته كلها، حتى أنه كان يسمع قراءة الصحابي من خلفه، فثبت أنه قال يوماً بعدما فرغ من صلاته: «إني أقول ما لي أنازع القرآن»[٣].

وثبت أنه سمع الذي قال من خلفه: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى».

فقال بعد الصلاة: «لقد رأيت بضعة عشر ملكاً ابتدرنها أيهم يصعد بها»[٤].

وكان ﷺ يرد السلام وهو في الصلاة فيشير بيده[٥].

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه أحمد والنسائي.
(٣) أخرجه الأربعة إلا إبن ماجة، وحسّنه الترمذي.
(٤) أخرجه إبن حبان وصححه، وأهل السنن.
(٥) أخرجه أصحاب السنن الأربعة، وأحمد في المسند.

وقال أيضاً في الرجل يسوي التراب حين يسجد، «إن كنت فاعلاً فواحدة»[(١)].

و «أمر بقتل الأسودين في الصلاة . . . العقرب والحية»[(٢)].

وكان «يحمل أمامة بنت ابنته زينب، فإذا سجد وضعها»[(٣)]،

و «أجاز في صلاة التطوع فتح الباب إذا كان لجهة القبلة»[(٤)].

ومشى أبو برزة الأسلمي الصحابي الجليل في صلاته بضع خطوات ليمسك راحلته، ونسب ذلك للنبي ﷺ[(٥)].

وكان ﷺ يغمز رجل عائشة رضي الله عنها إذا أراد السجود[(٦)]، وذلك في قيام الليل وقال مرة: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فاسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»[(٧)].

وعن عبد الله بن أبي أوفى «أن النبي ﷺ كان يقوم في الركعة الأولى من صلاة الظهر حتى لا يسمع وقع قدم»[(٨)].

فهذا وأمثاله لا يصنعه إلا من كان في تمام الحضور، يحس بكل ما حوله وأمته ﷺ ولا شك مخاطبة بذلك.

ولنرجع الآن إلى ما قاله الغزالي بعد وصفه حالة الفناء حيث يقول: (ولكنها ـ أي الحالة السابقة ـ في الغالب تكون كالبرق الخاطف لا يثبت ولا

---

(١) رواه الجماعة من حديث معيقيب رضي الله عنه.

(٢) رواه الخمسة من حديث أبي هريرة.

(٣) متفق عليه ونحو هذا في المسند لكن عن الحسن والحسين رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الخمسة إلا إبن ماجة.

(٥) القصة في البخاري وغيره.

(٦) رواه البخاري وغيره.

(٧) اخرجه أحمد وأبو داوود وغيرهما وفيه ضعف، لكن له شواهد، فالله أعلم.

(٨) متفق عليه من حديث أنس.

يدوم، وإن دام لم تطقه القوة البشرية، فربما اضطربت تحت أعبائه اضطراباً تهلك به نفسه كما روى عن أبي الحسن النوري أنه حضر مجلساً فسمع هذا البيت:

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً   تتحير الألباب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه، فوقع في أجمة قصب قد قطع وبقيت أصوله مثل السيوف، فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة، والدم يخرج من رجليه حتى ورمت قدماه وساقاه وعاش بعد ذلك أياماً ومات رحمه الله، فهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد، فهي أعلى الدرجات لأن السماع على الأحوال نازل على درجات الكمال، وهي ممتزجة بصفات البشرية وهو نوع قصور).

قلت: الحق كل الحق أن يقال إن السماع نازل بحسب الحال، لست أعني السماع الذي عناه أبو حامد وتعرفه الصوفية فإنه منكر وإن أطال الغزالي في الاستدلال له[1]. وإنما عنيت سماع القول الحق من نصوص الكتاب والسنة أو ما كان من معانيهما، فإن الرجل قد يقف على الآية أحياناً يكررها وتغزو قلبه معانيها وروحانياتها، وربما وجل القلب وزرفت العين، ثم هو قد يمر عليها مرة أخرى مر السحاب مع أنه يتدبر، وذلك لاختلاف الحال وافتراق النفس فإنها تقبل وتدبر، وهذا كثير معروف مألوف. ولكن ليس من الحق أن يقال أن هذه الأحوال تخرج عند الحد، وتغلب على الطور، وتبحث على الوجد المفارقة صفاته صفات البشرية، ثم جعل الامتزاج بصفات البشرية في هذه الأحوال نوع قصور، ونزول في درجة الفهم فإن القصور والنزول في درجة الفهم، اعتناق هذا المعتقد، والذود عنه، ونسج خيوط العنكبوت من حوله، ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) أنظر رد الإمام الشاطبي على إباحة السماع في كتابه «الإعتصام» فإنه أفرد في ذلك فصلاً طويلاً وكذلك أنظر الرد عليه في «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» لابن القيم فإنه أطال فيه فأفاد وأجاد.

فقد قال المتصوفة، وعلى الأخص من ينتسب منهم في طريقته لأبي بكر رضي الله عنه على حدّ زعمه لما طولبوا بالدليل على صحة الدعوى وهل تنسب لأحد من الصدر الأول، قالوا: هو فعل الصديق أبي بكر، وذكروا أنه لما جاء النبيَّ ﷺ بماله كله ووضعه بين يديه، وقال له النبي ﷺ : ما أبقيت لأهلك، فقال أبو بكر: أبقيت لهم الله ورسوله، زعموا أن النبي ﷺ قال له عندها: يا أبا بكر، إن الله قد رضي عنك، فهل أنت راضٍ عنه، قالوا: فقام أبو بكر وتواجد[1]، وبعضهم يقول: إنه حلج[2] أو حجل[3].

وكنت منذ سنين وأنا ما نيفت على العشرين أقول: إنْ ثبت أنه رضي الله عنه تواجد مرة، فلا يسلم التواجد كل مرة، وإن ثبت أنه فعله على تلك الحال، فلم يفعلونه في كل الأحوال، وإن كان هو فعل الصديق، والباعث عليه علو الفهم، فليس كل الناس صديقون، وإن كان هو رضي الله عنه فعله عن غير قصد وشعور، فإنهم يفعلونه بقصد وشعور، فقد افترق الحال، وبطل الاستدلال.

وأنا حينها ما كنت أقدر على الجزم بتضعيف هذه الزيادة، أو نفيها أصلاً، وإن كان في النفس من صحتها شيء وغلب أن الغالب عليها الوضع.

ثم منّ عز وجل وتفضل فشفى غليلاً وروى غليلاً، فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً. حيث وقفت بعد طول البحث والطلب من المظان، وهو فعل من طلب الحق أن الحكاية اقتصر على إخراجها عشرة من أهل الإسناد، ولكن ليس في رواية أحد منهم قول النبي ﷺ «يا أبا بكر إن الله قد رضي عنك، فهل أنت راضٍ عنه»، وتواجد أبي بكر أو حلجه.

---

(١) تواجد: أي أرى من نفسه الوجد من فرح أو محبة أو حزن، والمعنى أنه تحرك على غير المعتاد لشدة السرور، كالذي أخذته نشوة الطرب فتمايل على غير هدى.

(٢) حلج في مشيته: إذا مشى قليلاً قليلاً، وحلج في العدو: باعد ووسع بين خطاه، ومقصودهم هنا أنه أتى بما يشبه الرقص الذي يأتونه في زواياهم فهذه درجات الكمال عندهم!!!

(٣) مشى على رجل واحدة.

فأولهم الإمام الجليل أبو عيسى الترمذي، أخرجه من رواية هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب يقول: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، ووافق ذلك عندي مالاً فقلت اليوم أسبق أبا بكر أن سبقته يوماً، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك فقال: أبقيت لهم الله ورسوله قلت لا أسبقه إلى شيء أبداً. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

والحديث مخرج في المناقب، من سننه[1]، فالزيادة المختلقة ليست فيه، وثاني من أخرجه الحافظ الجهبذ أبو داوود السجستاني، أخرجه في كتاب الزكاة من سننه بنحو هذا اللفظ[2] والإمام الدارامي[3]، كلهم من طريق هشام بن سعد وهشام هذا مختلف فيه[4] وليس عندهم تلك الزيادة.

والحديث أيضاً أخرجه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني في كتاب «فضائل الصحابة»[5] بهذا اللفظ، لكن من غير طريق هشام بن سعد، وإسناده

(١) سنن الترمذي (٥/٦١٥).
(٢) أنظر كتاب الزكاة من سنن أبي داود الحديث (رقم: ٢٦).
(٣) سنن الدارامي (١/٣٩١).
(٤) هشام بن سعد ضعّفه الإمام أحمد وقال: كان يحيى بن سعيد لا يروي عنه، وقال الدوري عن ابن معين: ضعيف، وقال إبن أبي خيثمة عن ابن معين صالح وليس بمتروك وعنه أيضاً: ليس بذاك، وعنه أيضاً: ليس بشيء، وقال إبن أبي مريم: كان يحيى بن سعيد لا يحدث عنه، وقال العجلي: جائز الحديث حسن الحديث. وقال أبو زرعة: محله الصدق، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال النسائي: ضعيف، وقال مرة: ليس بالقوى، وقال أبو داوود: هشام بن سعد أثبت الناس في زيد بن أسلم قلت: فلعله لأجل ذلك صحح الترمذي حديثه كما تقدم. وقال ابن سعد: كان كثير الحديث يستضعف، وقال ابن المديني: صالح وليس بالقوى، وقال الساجي: صدوق. وذكره ابن عبد البر في باب من نُسب إلى الضعف ممن يكتب حديثه وقال: قال لي ابن معين: ضعيف، حديثه مختلط، وقال الحاكم أخرج له مسلم في الشواهد. أنظر «تهذيب التهذيب» لابن حجر (١١/٣٩).
(٥) «فضائل الصحابة» (١/٣٦٠).

ضعيف لأجل عبد الله بن عمر العمري، ويحيى بن محمد بن حكيم، وهو أيضاً ليس فيه الزيادة المزعومة.

وإلى هذه الطريق أشار الحافظ أبو نعيم في «الحلية»، بعد أن ساقه عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه به[1] وليس عنده ذكر الزيادة المختلقة. والحاكم أخرج الحديث أيضاً[2]، في مستدركه، دون الزيادة المذكورة.

هذا وقد نسب المتقي الهندي الحديث للشاشي وابن أبي عاصم وابن شاهين في «السنة» والبيهقي في «السنن» والضياء في «المختارة»، وليس فيه الزيادة المذكورة[3]. فالحديث ليس فيه الزيادة المذكورة على القطع، وهي إنما أوردها صاحب «نزهة المجالس» بغير إسناد ولا عزو حيث جاء في «المعجمْ الوجيز» وشرحه[4].

(ذكر صاحب «نزهة المجالس» أن أبا بكر أنفق ما له في سبيل الله وأعتق عبيده حتى تخلل بالعباءة فنزل جبريل على النبي ﷺ متخللاً بالعباءة فقال: يا محمد إن ملائكة السموات تخللت بالعباءة إكراماً لأبي بكر، يا محمد أقريء أبا بكر السلام من الله وقل له أن ربك عليك راضٍ، فهل أنت عنه راضٍ، فقال أبو بكر: إني عن ربي راضٍ، إني عن ربي راضٍ، إني عن ربي راضٍ، قيل وصار يفتل كالدولاب، وعنه أخذت الصوفية دورانهم). فتأمّل هذا الأخذ ما أوهاه!!!.

هذا، ولا أنسى قول الشيخ ابن عراق في ديباجة كتابه الموسوم بـ «تنزيه الشريعة المرفوعة» وهو يذكر «نزهة المجالس» للصفوري، وأمثاله فيقول: «كله حكايات عجيبة باطلة واهية».

---

(١) «حيلة الأولياء» (١/٣٢).

(٢) «المستدرك» (١/٤١٤).

(٣) منتخب كنز العمال (٤/٣٤٨) بحاشية مسند الإمام أحمد، وانظر سنن ابن أبي عاصم (٥٦٥).

(٤) الشرح المسمى: (الذهب الأبريز في المعجم الوجيز) لأبي المحاسن القاوقجي، وأما «المعجم الوجيز» فهو للمرغيني (ص٣٩٢).

واحتج المتصوفة على هذه الدعوى كذلك بما روى عن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أنه حجل[1] بين يدي النبي ﷺ يوم خيبر لما سمع النبي ﷺ يقول: «لا أدري بأيهما افرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر». والحق أن رواية الحجل ضعيفة جداً ولا تصح، بل هي منكرة.

فقد أخرج البغوي والباوردي وابن قانع والطبراني عن عبد الله بن جعفر عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «ما أدري أنا بفتح خيبر أفرح أم بقدوم جعفر»[2]. ولكن ليس في أي الطرق أنه حجل.

وقدوم جعفر ذكره ابن هشام في «السيرة» أيضاً[3] فقال: وذكر عن سفيان بن عيينة عن الأجلح عن الشعبي وذكر الحديث، وليس فيه أنه حجل، ورواية الشعبي أيضاً ذكرها ابن أبي شيبة والطبراني[4] وفي آخرها: «ثم تلقاه والتزمه وقبل ما بين عينيه» ولم يقل فحجل جعفر وإنما ذكر الحجل جاء في رواية مكيّ فقط، ومكيّ هذا حديثه غير محفوظ، وله مناكير، ذكره العقيلي في «الضعفاء الكبير» فقال[5]:

(مكي بن عبد الله الرعيني عن ابن عيينة: حديثه غير محفوظ ولا يعرف إلا به، حدثناه أبو علاثة محمد بن أحمد قال حدثنا مكي بن عبد الله الرعيني قال حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي الزبير عن جابر قال: لما قدم جعفر من أرض الحبشة تلقاه رسول الله ﷺ فلما نظر جعفر إليه حجل ـ قال مكيّ يعني مشى على رجل واحدة ـ إعظاماً لرسول الله ﷺ).

---

(١) أي مشى على رجل واحدة.
(٢) انظر منتخب كنز العمال (٥/١٥٤) بحاشية المسند. والأوسط والصغير للطبراني (ص٧ ــ ٨).
(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/٣٥٩).
(٤) منتخب «كنز العمال» (٥/١٥٥) بحاشية المسند.
(٥) «الضعفاء الكبير» للعقيلي (٤/٢٥٧)، ترجمة رقم ١٨٥٦.

وذكره الذهبي في الميزان فقال(١): [مكي بن عبد الله الرعيني، عن سفيان بن عيينة له مناكير ثم ساق كلام العقيلي المتقدم، والحديث].

أما الحافظ ابن كثير فقد قال في البداية(٢) نقلاً عن إمام الأئمة محمد بن إسحاق (وقد ذكر سفيان بن عيينة عن الأجلح عن الشعبي أن جعفر بن أبي طالب قدم على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر فقبل رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه. وقال: «ما أدري بأيها أنا أسَرُّ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر». وهكذا رواه سفيان الثوري عن الأجلح عن الشعبي مرسلاً(٣) وأسند البيهقي من طريق حسن بن حسين العرزمي عن الأجلح عن الشعبي عن جابر قال: لما قدم رسول الله ﷺ من خيبر قدم جعفر من الحبشة. فتلقاه وقبّل جبهته وقال «والله ما أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر». ثم قال البيهقي: حدثنا أبو عبد الله الحافظ ثنا الحسين بن أبي إسماعيل العلوي، ثنا أحمد بن محمد البيروتي ثنا محمد بن أحمد بن أبي طيبة، حدثني مكي بن إبراهيم الرعيني ثنا سفيان الثوري عن أبي الزبير عن جابر قال: لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة تلقاه رسول الله ﷺ. فلما نظر جعفر إليه حجل ـ قال مكي يعني مشي على رجل واحدة ـ إعظاماً لرسول الله ﷺ، فقبّل رسول الله ﷺ بين عينية. ثم قال البيهقي: في إسناده من لا يعرف إلى الثوري).

وهذا المعنى حكاه العلامة ابن القيم في «الزّاد» فقال(٤): [ولما قدم جعفر على النبي ﷺ تلقاه وقبّل جبهته وقال: «والله ما أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر».

وأما ما روي في هذه القصة أن جعفر لما نظر إلى النبي ﷺ حجل يعني

---

(١) «ميزان الإعتدال» للذهبي (٤/١٧٩).

(٢) البداية (٤/٢٠٦).

(٣) وكذا قال الحاكم: إنما ظهر بمثل هذا الإسناد الصحيح مرسلاً. قال الذهبي: وهو الصواب (٢١١/٣) المستدرك.

(٤) زاد المعاد (٢/١٣٩).

مشى على رجل واحدة إعظاماً لرسول الله ﷺ، وجعله أشباه الذباب الرقاصون أصلاً لهم في الرقص، فقال البيهقي: وقد رواه من طريق الثوري عن أبي الزبير عن جابر في إسناده إلى الثوري من لا يعرف].

قلت: فتبين أن حجتهم داحضة.

نعم جاء في قصة اختلاف علي وجعفر ابني أبي طالب رضي الله عنهما وزيد بن حارثة رضي الله عنه، رواية ضعيفة في المسند ذكر فيها الحجل.

قال الإمام أحمد حدثنا أسود -يعني ابن عامر- أنبأنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن هانيء عن علي رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وجعفر وزيد، فقال لزيد أنت مولاي، فحجل، وقال لجعفر: أنت أشبهت خلقي وخلقي قال فحجل وراء زيد، وقال لي: أنت مني وأنا منك قال: فحجلت وراء جعفر[1].

ولكن هانيء بن هانيء لم يرو عنه إلا أبو إسحاق، مستور[2] فهو آفة الحديث، يدل على ذلك أن القصة أخرجها الإمام أحمد في موضع آخر وليس فيها ذكر الحجل.

قال الإمام أحمد حدثنا أحمد بن عبد الملك حدثنا محمد بن مسلمة عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن محمد بن أسامة عن أبيه قال اجتمع جعفر وعلي وزيد بن حارثة فقال جعفر أنا أحبكم لرسول الله ﷺ وقال علي أنا أحبكم لرسول الله ﷺ وقال زيد أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ حتى نسأله، قال أسامة بن زيد فجاؤوا يستأذنونه. فقال أخرج فانظر من هؤلاء فقلت هذا جعفر وعلي وزيد ما أقول أبي. فقال ائذن لهم، ودخلوا فقالوا من أحب إليك قال فاطمة، قالوا نسألك عن الرجال قال أما أنت يا جعفر فأشبه خلقك خلقي وأشبه خلقي

(١) المسند (١٠٨/١)
(٢) أنظر كتب الرجال.

خلقك وأنت مني وشجرتي وأما أنت يا علي فختني وأبو ولدي وأنا منك وأنت مني، وأما أنت يا زيد فمولاي ومني والي وأحب القوم إلي[1].

قلت: واختلافهم في هذه القصة غير اختلافهم ثلاثتهم أيضاً في ابنة حمزة عم النبي ﷺ فتلك مخرجة في السنن والبخاري والمسند من طرق وليس فيها ذكر للحجل في جميع رواياتها[2] إلا ما جاء في روايةابن سعد فإنه قال: «اختصم فيها هو ـ يعني علياً ـ وجعفر وزيد فقال علي: ابنة عمي وأنا أخرجتها ـ يعني من الطواف بين الرجال ـ وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي ـ يعني أسماء بنت عميس ـ فقضى بها لجعفر وقال: الخالة والدة فقام جعفر، فحجل حول النبي ﷺ، دار عليه فقال: ما هذا، قال شيء رأيت الحبشة يصنعونه بملوكهم[3].

قلت: ورواية ابن سعد هذه منقطعة لأن حفص بن غياث لم يسمع من جعفر بن محمد[4]. ثم أنها إن صحت فليس يصح للصوفية استدلالهم، أول ذلك: إن النبي ﷺ أنكر فعله بقوله: «ما هذا». ثاني ذلك، إن الحجل فعل أهل الحبشة ـ كما في نفس الحديث ـ وهم نصارى من وجه، ويلتحقون بالروم من وجه آخر لأنهم على دينهم ويوالونهم كما عرف في تاريخ الحبشة، وقد نهى النبي ﷺ عن التشبه باليهود والنصارى وفارس والروم كما تواتر عنه ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن؟»[5].

---

(١) المسند (٥/٢٠٤) وأخرجها ابن سعد (٤/١/٢٤) و(٣/١/٢٩) ورجاله ثقات وصححه الحاكم (٣/٢١٧) ووافقه الذهبي وحسّنه ابن حجر في الإصابة (٤/٥٠).

(٢) أنظر البخاري في كتاب الصلح (٢٦٩٩) وفي المغازي (٤٢٥١) وانظر «المسند» (١/٩٩) و(١/١١٥) عن عليّ و(١/٢٣٠) عن ابن عباس وأخرجها أبو داوود في السنن (٢٢٧٨) و(٢٢٧٩) والترمذي (١٩٠٥).

(٣) ابن سعد (٤/١/٢٤).

(٤) أنظر كتب الرجال.

(٥) متفق عليه.

وفي لفظ البخاري: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمّتي مأخذ القرون شبراً بشبر وذراعاً بذراع فقيل يا رسول كفارس والروم، قال: ومن الناس إلا أولئك».

وعلى التخصيص فإنه ﷺ نهى عن فعل ما كان يصنعه أهل فارس والروم والأعاجم بملوكهم فقال: «لا تعظموني كما يعظم الأعاجم بعضهم بعضاً». وفي لفظ آخر: «لا تفعلوا كما يفعل أهل فارس بعظمائها[1]»ولما صلى الصحابة رضي الله عنهم خلفه قياماً وكان صلى قاعداً من المرض سلم وقال: «إن كدتم آنفاً تفعلون فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود»[2]

كما أمر ﷺ بمخالفتهم في أمور كثيرة نذكر بعضها للفائدة، فنهى عن الصلاة في أوقاتهم، واتخاذ الناقوس أو البوق أو النار للأذان، وصوم يوم عاشوراء إلا مع تاسع، أو يوم السبت منفرداً، ومشاركتهم أعيادهم ودخول معابدهم، أو تعظيم أي من شعائرهم، أو الدفن في مقابرهم، وأمرنا بمخالفتهم في تعظيمهم القبور واتخاذها عيداً، وأجاز الصلاة في النعلين مخالفة لهم، وأمر بتغير الشيب لأنهم لا يغيرون، وكذا جز الشوارب وإعفاء اللحى عكس ما يفعلون، وكره وضع اليد على الخاصرة لأنه من صنيعهم، وخالفهم في اتخاذ كبة الشعر، واشتمال الثوب، وأمر بتعجيل الفطر لأنهم يؤخرونه، وترك القيام للجنازة لما علم أنه فعلهم، وأمر بتنظيف الأفنية والمساحات لأنهم لا ينظفونها، وخالفهم في مجانبة الحائض، وحذر كثرة المسائل لكثرة مسائلهم، وقال: «اللحد لنا والشق لهم»[3] والسنة جاءت بذلك كله، امتثالاً لأمره تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ والآيات في ذلك كثيرة والحاصل هنا أن ثبوت الحديث

(١) رواه ابن ماجة، ونحوه عند أبي داوود وأحمد بن حنبل عن أبي إمامة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم.
(٣) أخرجه الأربعة.

المذكور ـ ولا يثبت ـ يدل على المنع لا الإباحة، ويدل على أن ذلك لم يكن يفعله أحد من العرب. وإلا لما استنكره ﷺ وسأل عنه بقوله: «ما هذا».

قال العلامة ابن القيم[1] [فإن تلك العادة كانت من فعل الحبشة تعظيماً لكبرائها كضرب الجوك عن الترك ونحو ذلك، فجرى جعفر على تلك العادة وفعلها مرة ـ إن صح الحديث[2] ـ ثم تركها لسنة الإسلام فأين هذا من القفز والتكسر والتثني والتخنث، وبالله التوفيق].

وصدق رحمه الله، فأين هذه الحال من الحال التي يحملونها عليها.

واحتج المتصوفة على هذه الدعوى كذلك بقوله تعالى ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾.

قال الإمام القرطبي في تفسيره عند هذه الآية من سورة الكهف:

[المسألة الثانية: قال ابن عطية: تعلقت الصوفية في القيام والقول بقوله: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾. قلت: ـ القائل هو الإمام القرطبي ـ : وهذا تعلق غير صحيح، هؤلاء قاموا تذكروا الله على هدايته وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم، وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء. أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام، وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان، هيهات بينهما والله ما بين الأرض والسماء. ثم هذا حرام عند جماعة العلماء... وقد قال الإمام أبو بكر الطرسوسي، وسئل عن مذهب الصوفية فقال: وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري، لما اتخذ عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون فهو دين الكفار وعباد العجل!!][3].

---

(١) «زاد المعاد» (١٣٩/٢/١) في عرض حديثه عن غزوة خيبر.
(٢) زيادة يقتضيها المقام لأنه كان نبّه قبل أسطر على عدم ثبوت الحكاية.
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي، سورة الكهف (٦٩/١٤).

فتأمل قوله: ثم هذا حرام عند جماعة العلماء. قاله القرطبي الإمام عند قوله تعالى ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا...﴾[1].

[المسألة الخامسة: استدل العلماء بهذه الآية على ذم الرقص وتعاطيه، قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل: «قد نص العلماء على النهي عن الرقص فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا...﴾ وذم المختال، والرقص أشد المرح والبطر. أو لسنا الذين قسنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسكْر، فما بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشعر معه على الطنبور والمزمار والطبل لاجتماعهما. فما أقبح من ذي لحية، وكيف إذا كان ذا شيبة يرقص ويصفق على إيقاع الألحان والقضبان وخصوصاً إن كانت أصوات النسوان والمردان. وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط ثم هو إلى إحدى الدارين، ويشمس[2] بالرقص شمس البهائم، ويصفق تصفيق النسوان».

ويقول الشهير بسلطان العلماء العز بن عبد السلام[3]: [وأما الرقص والتصفيق فخفه ورعونة مشبهة لرعونه الإناث، لا يفعلها إلا راعن أو متصنع كذاب. كيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبّه وذهب قلبه[4] وقد قال عليه الصلاة والسلام: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[5] ولم يكن واحد من هؤلاء الذين يقلّدونهم يفعل شيئاً من ذلك].

وأنشد الفقيه الشافعي ظهير الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نصر في شيخ له زاوية، ويقال له مكيّ:

(ألا قل لمكيّ قول النصوح ... وحقُّ النصيحة أن تُسْتَمَع
متى سمع الناس في دينهم ... بأن الغنا سُنَّة تُتَّبع

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي، سورة لقمان (١٠/٢٦٣).
(٢) شَمَسَت الدابة: شردت وجمحت.
(٣) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» العز عبد السلام (٢/١٨٦).
(٤) يعني من يفعل ذلك من المتصوفة ويزعم أنه أخذه الحال!!!
(٥) أخرجه البخاري ومسلم عن عمران بن حصين وغيره، بلفظ «خير الناس...» وأما رواية «خير القرون» فلا تصح والله أعلم.

وإن يأكل المرء أكل البعير ... ويرقص في الجَمْع حتى يقع
ولو كان طاوي الحشا جائعاً ... لما دار في طَرَب واستمع
وقالوا سكرنا بحب الإله ... وما أسكر القوم إلا القِصَع
تراهم يهزّوا لحاهم إذا ... ترنم حاديهم بالبدع
فيصرخ هذا وهذا يئنّ ... ويسّ لو تليت ما انصدع
فيا للعقول ويا للنهي ... إلا منكر منكم للبدع
تهان مساجدنا بالسماع ... وتُكْرم عن مثل ذاك البِيَع)[1]

والعلامة ابن القيم قد أدلى بدلوه في ذم رقص المتصوفة وسماعهم فأنشد[2]:

حتى إذا قام السَّماع لديهم ... خشعت له الأصوات بالإجلال
وامتدت الأعناق تسمع وحي ذا ... ك الشيخ من مُتَرنِّم قوّال
وتحركت تلك الرؤوس وهزّها ... طرب وأشواق لنيل وصال
فهنالك الأشواق والأشجان والأ ... حوال، لا أهلاً بذي الأحوال
تالله لو كانوا صحاة أبصروا ... ماذا دهاهم من قبيل فعال
لكنما سكر السماع أشد من ... سكر المُدام وذا بلا إشكال
يا أمّة لعبت بدين نبيها ... كتلاعبِ الصبيان في الأوحال
اشمتموا أهل الكتاب بدينكم ... والله لن يرضوا بذي الأفعال

إلى آخر ما جاء من قوله رحمه الله.

وقال الحافظ ابن حجر في شرح حديث عائشة عن الجاريتين اللتين كانتا تدفان بما قيل يوم بعاث. عند قولها «وليستا بمغنيتين»: [قال القرطبي: قولها «ليستا بمغنيتين» أي ليستا ممن يعرف الغناء كما يعرفه المغنيات، المعروفات بذلك، وهذا منها تحرّز عن الغناء المعتاد عند المشتهرين به، وهذا الذي

---

(١) البداية (١٣/٦٦)، وكذلك أوردها من ترجم للفقيه المذكور رحمه الله.
(٢) أغاثة اللهفان (١/٢٣٣)، ونسبة هذا الشعر له قالها الشيخ الفقي رحمه الله وكذلك أنظر (١/٢٢٥).

يحرك الساكن ويبعث الكامن. وهذا النوع إذا كان في شعر فيه وصف محاسن النساء والخمر وغيرهما من الأمور المحرمة لا يختلف في تحريمه، قال:

وأما ما ابتدعته الصوفية في ذلك فمن قبيل ما لا يختلف في تحريمه، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب إلى الخير، حتى لقد ظهرت في كثير منهم فعلات المجانين والصبيان. حتى رقصوا بحركات متطابقة، وتقطيعات متلاحقة، وانتهى التواقح بهم إلى أن جعلوها من باب القُرَب، وصالح الأعمال، وأن ذلك يثمر سنى الأحوال، وهذا ـ على التحقيق ـ من آثار الزندقة، وقول أهل المخرقة، والله المستعان][1].

وجاء في «الآداب الشرعية والمنح المرعية»[2] للحافظ العلامة الشيخ شمس الدين أبي عبد الله المقدسي الحنبلي.

[وقال ابن عقيل في «الفنون»: لما رأينا الشريعة تنهى عن تحريكات الطباع بالرعونات، وكسرت الطبول والمعازف، ونهت عن الندب والنياحة والمدح وجر الخيلاء، فسلمنا أن الشرع يريد الوقار دون الخلاعة فما بال التغبير[3]. والوجد وتخريق الثياب والصعق والتماوت من هؤلاء المتصوفة وكل مهيج من هؤلاء الوعاظ المنشدين من غزل الأشعار وذكر العشاق فهم كالمغني والنائح فيجب تعزيرهم، لأنهم يهيجون الطباع، والعقل سلطان هذه الطباع فإذا

---

(١) «فتح الباري» (٢/٤٤٢).

(٢) «الآداب الشرعية» (٢/٣٣٣)، نشر مكتبة الرياض (٣٩١ ـــ ١٩٧١).

(٣) التغبير وبعضهم يقول التغبير، هو شعر يزهّد في الدنيا يغنّي به مغني فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع أو مخدة على توقيع غنائه وهذا الذي اشتهر عن الشافعي تحريمه، حتى قال ابن قيم الجوزية: «وقد تواتر عن الشافعي أنه قال: خلّفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير، يصدون به الناس عن القرآن»، (إغاثة اللهفان) (١/٢٢٩) وقد ذكر ابن قيم الجوزية في هذا الموضع إباحة الغزالي للسماع، ثم ذكر ردود العلماء عليه وحججهم، هذا. وكنت قد قدمت إفراد الإمام الشاطبي فصلاً في الرد على السماع في كتابه «الاعتصام».

هيجها صار إهاجة الرعايا على السلطان. أما سمعت «يا احمسة رويدك سوقاً بالقوارير»[1].

وما العلم إلا الحكمة المتلقاه مع السكون والدعة واعتدال الأمزجة، أما رأيته عزل القاضي حين غضبه[2] وكذلك يعزل حال طربه، أما سمعت ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا﴾[3] فأين الطرب من الادب، والله ما رتمس قط ماتل، ولا تعرض للطرب فاضل، ولا صغى إلى تلحين الشعر إلا بَطِر..

فهذه فتن ومحن دخلت على العقول من غلبات الطباع والأهواء، وهل رأيتم في السلف أو سمعتم عن أحدهم أنه زعق أو خُرِق، بل سماع صوت وفهم واستجابة، فدل على أن ذلك التخبط ليس من قانون الشرع، لكن أمرٌ بخفض الصوت وغضه.

وأما التواجد والحركة والتخريق، فالأشبه بداعية الحق المخمود، ثكلت نفسي حين أسمع القرآن ولا أخشع وأسمع كلام الطرقيين فيظهر مني الانزعاج...

فلا يغرنكم تحرك الطباع بالاسجاع والألحان، فإنما هو كعمل الأوتار والأصوات].

---

(١) قالها ﷺ للحادي، وهو ينشد الشعر ويتغنى به في السفر، وحدا بالإبل: ساقها وغنى لها، وكأن شعره هيّج الإبل فأسرعت، فكادت القوارير تنكسر من شدة إضطراب ظهورها، فأمره ﷺ بالتخفيف، وكان اسم الحادي «أحمسة» والقصة في الصحيح، وفي بعض الشروح أن المراد بالقوارير النساء، فأمره أن يرفق بهنّ وهذا الجائز في السماع كما قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/٥٤٣): (ونقل ابن طاهر في كتاب «السماع» الجواز عن كثير من الصحابة. لكن لم يثبت من ذلك شيء إلا في النصب، وهو صوت فيه تمطيط يفعله الركبان، وهو ليس بحجة).

(٢) قلت: المراد قوله ﷺ: «لا يقضين حاكم بين اثنين وهو غضبان» رواه الجماعة عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٣) وهم الجنّ لما أتوا لسماع القرآن.

قلت: واحتج المتصوفة على ما زعموا بأن النبي ﷺ تواجد مرة حتى سقطت البردة عن منكبه قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا كذب باتفاق أهل الحديث»[١].

قلت: وهذه الحكاية لا تعرف بإسناد، لا صحيح ولا ضعيف، والله أعلم، ومن تحري توثق وبالله المستعان.

(١) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص٩).

الخاتمة

كنت عقدت العزم عند ابتدائي بهذا المصنف، أن أطيل الوقفات وأمعن التأمل في شخصية الغزالي الثانية، المبثوثة في كتبه، وأعني بها تلك التي إن وعظت بلغت، واستقرت القلوب، يحدوها صفاء الذهن وصدق القريحة، بألفاظ رشيقة، وأسلوب مرن متين، قل من يصيغ مثله، اللهم إلا عند ابن القيم وابن الجوزي، فلكأنهم من مشكاة واحدة، أو ربما كان على ضربهما ولونهما في اصطياد النفوس التي تعشق الحق، ولكنهما سبقاه بالاتباع، وتخلف عنهما بالابتداع.

وإن كتاباته التي من هذا الضرب، ربما كانت السبب في كثرة محبيه، ومنتحلي طريقته، حتى أنني كنت أنتفع أياماً طويلة ببضع كلمات منه، من الأحياء أو غيره، وربما أطلت الفكرة في كثير من النصوص التي يدندن حولها، بعد أن كنت أمر عليها مر الغافلين.

فمن ذلك قوله في منهاج العارفين(١): [واسجد لله سجود عبد متواضع علم أنه خلق من تراب يطؤه جميع الخلق، وانه ركب من نطفة يستقذر منها كل أحد، فإذا تفكر في اصله، وتأمل تركيب جوهره من ماء وطين، ازداد لله تواضعاً، ويقول في نفسه: ويحك لم رفعت رأسك من السجود، لم لم تمت بين يديه، وقد جعل الله السجود سبب القرب إليه فقال تعالى: ﴿**واسجد واقترب**﴾].

ومن ذلك قوله: [واعلم أن نفس ابن آدم مختصرة من العالم وفيها من

---

(١) «منهاج العارفين» (٨٨ — ٨٩) القصور العوالي، ويشار هنا إلى أن هذا الكتاب هو من أواخر ما صنف الغزالي.

كل صورة في العالم أثر فيه، لأن هذه العظام كالجبل ولحمه كالتراب وشعره كالنبات ورأسه مثل السماء . . . وفي باطنه صناع العالم، فالمعدة الطباخ والكبد الخباز، والأمعاء كالقصار . . . والمقصود أن تعلم كم في باطنك من عوالم مختلفة كلهم مشغولون بخدمتك، وأنت في غفلة عنهم وهم لا يستريحون، ولا تعرفهم أنت، ولا تشكر من أنعم عليك بهم][1].

ومن ذلك قوله في التفرقة بين الرياء والإخلاص: [وعلاقته ـ الإخلاص ـ أن لا يرضى بغير الحق ويرى ما سواه قاطعاً فيتجنب الخلق، لقول المختار «تعس عبد الدينار» وليترك لله سبحانه وتعالى جميع أمانيه لقوله عليه السلام «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وآكدها الشبهات فاحذرها أن تصيبك لقوله عليه السلام «دع ما يريبك» فإذا صحت هذه الأصول الثلاثة أثمرت أغصانها لك القربى فتكون بالصورة في الدنيا وبالمعنى في العقبى، وعلى قدر همك وثباتك على الفعل والترك تحظى من الحديث المشهور «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»][2] والشاهد أنّ هذا عنده موجود مشهود.

والغزالي فيما احسب كان عظيم التشوق للحق، وإن وصله متأخراً فيما نظن ونرجوا، ذو همة عالية تتقاصر عنها إرادات الفطاحل ولا أدلّ على ذلك من كثرة التصنيف، وتنويع المادة بين الرد على الفلاسفة والباطنية، والفقه، وأصوله، والتصوف وعلومه، والعقيدة والأخلاق والوعظ، وغير ذلك. ومن تثور فيه كل تلك الثورات، وتتجاذبه كل تلك الأهواء، وهو يصارعها، لا يثبت على قدم، ولذلك قلما يوجد بين العلماء من اضطرب اضطراب الغزالي ودار دورته، وهذا بتمامه حكاه في مقدمة «المنقذ»[3] عن نفسه، فقال:

[ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين، اقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة،

---

(١) «كيمياء السعادة» (ص٩٢) ضمن مجموعة (المنقذ والقواعد والأدب).

(٢) «القواعد العشرة» (١٠٠ ـ ١٠١) ضمن المجموعة السابقة تحقيق محمد محمد جابر.

(٣) «المنقذ من الضلال» (ص٥)، ضمن المجموعة.

وأتهجم على كــل مشكلة وأتقحم كــل ورطــة، وأتفحص عن عقيدة كــل فرقة. . .].

ومن سمات الغزالي الظاهرة فيه، قربه من القاريء، وصدق مصارحته، فيما يحكيه، وخلع كل أثواب التزين والمداهنة، وقلّ في الدنيا أن تجد من يقول: «وتفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحرّكها طلب الجاه وانتشار الصيت. . . »[١] أو قوله «أنا مزجي البضاعة في الحديث»[١] هكذا يسطرها أبو حامد، وقد كان يستطيع إخفاءها لو أراد.

ومن أبرز ما في هذا الباب، وأهم أحداثه المتربعة على عرش حياته، رجوع الغزالي للمنهج الحق ودعوته إليه، وأمره بالتزام منهج السلف على ما جاء في آخر كتبه[٢] تصنيفاً، المسمى «الجام العوام عن علم الكلام» فإنه أكثر فيه من وجوب اتباع السلف، وانتحال مذهبهم[٣].

فهذه السمات وأمثالها، يجب وصف الغزالي بها، ويحرم سلبها عنه، من باب ذكر الرجل بما فيه، وإحقاق الحق لأهله ولكن طول التتبع في هذا المجال ليس من شأننا، وإنما شأننا في هذا الكتاب التنبيه على رؤوس المسائل التي خاضها الغزالي فأبعد النجعة، فإن هذه المسائل بمثابة الأركان التي يقوم عليها التصوف الذي فصّل الغزالي تعاليمه في كتبه، فكان النقد من هذا الباب أولى وأقرب في الوقوف على حكم هذه الكتب ـ أعني التي خالف فيها الحق ـ والتي قال فيها الشيخ مفتي الشام ومحدثها أبو عمرو بهي الدين ابن الصلاح: (أبو حامد كثر القول فيه ومنه، فأما هذه الكتب ـ يعني المخالفة للحق ـ فلا يلتفت إليها، وأما الرجل فيسكت عنه، ويفوّض أمره إلى الله)[٤].

(١) العبارة الأولى في «المنقذ»، والثانية في «قانون التأويل» وقد تقدمتا.

(٢) أنظر «مؤلفات الغزالي»، للبدوي. (ص١٣ وص١٥).

(٣) «الجام العوام» (ص٦٢ و٨٨ و٩٦) وغير ذلك.

(٤) «نقض المنطق» (٥٥)، وقد قال إبن تيمية إنه قرأ ذلك بخطه.

ولكن رجوعه في الالجام كان جزئياً على الصحيح لا كلياً، فإنه عنى به ترك التأويلات في الأسماء والصفات، أو الكلامية في القضاء والقدر والمحاججة والتزام الامرار السلفي، بعد أن كان أشعرياً صرفاً في الغالب[١].

وإلى أي مدى كان رجوعه في ذلك لست أستطيع الجزم، وأنا أقرأ قوله: «يحرم على الوعاظ على رؤوس المنابر الجواب عن هذه الأسئلة بالخوض في التأويل والتفصيل بل الواجب عليهم الاقتصار على ما ذكرناه وذكره السلف»[٢]

فأما على غير المنابر فذاك شأن آخر، وهذا ظاهر في تسمية الكتاب أيضاً، «الجام العوام» وأما غيرهم فغير معني بذلك، على الأقل من باب مفهوم المخالفة وهذا من جملة أصول أبي حامد التي أصّلها ودعا لها، كما في «المضنون به على غير أهله» و «الاقتصاد في الاعتقاد».

وقد طرقت في مسألة الفناء عند الغزالي هذا الباب الذي أصّله عدم البوح بكل علم، وإن منه كهيئة المكنون وأما إنكار وجود غير هذا العلم عند بعض السلف وخواص الأصحاب فهذا لم يقله أو يصرح به، واستمع جيداً لقوله: «والعوام إذا طلبوا بالسؤال عن هذه المعاني يجب زجرهم ومنعهم وضربهم بالدِّرَّة كما كان يفعل عمر رضي الله عنه بكل من سأل عن الآيات المتشابهات» وأما قوله: «والصحابة بأجمعهم ما سلكوا في المحاجّة مسلك المتكلمين في تقسيماتهم وتدقيقاتهم» فإنك كما تراه يأتي في مقام التعليم وعرض الأدلة وهذا إنما يتأتى للعوام، وعلى الأكثر فإنه يراد به عدم التصريح في الكتب لأن الكتاب قد يقف عليه العاميّ وغيره.

ولعلك من أجل هذا المعنى الأخير، تقف على الفارق بين الكتب الثلاثة، الأولين «المضنون» و «الاقتصاد» والأخير «الالجام» فإن طريقته في

---

(١) أنظر «إلجام العوام» وقوله: «الحق هو مذهب السلف، ومن خالفهم في ذلك فهو مبتدع» (ص٦٢).

(٢) «إلجام العوام» (٧٠).

هذا الأخير مختلفة عن السابقين، حيث اقتصر فيه على إبراز معنى ترك الكلام، والاقتداء بطريقة السلف بأسلوب سلفي بحت. اعتمد فيه على فعل الصحابة وجمع النصوص، سوى ما استدل به من نصوص الكتاب والسنة.

وهذا الصنيع ما صنعه في «المضنون» و «الاقتصاد» حتى إنك لتجد فيهما مما يرد أكثر مما يقبل ويرتضى.

وأما تطرفه في «الالجام» لمسائل القضاء والقدر، ومجادلة أهل الكتاب، وغير ذلك فإنه أتى في مقام التمثيل لأصل الكتاب، ومن باب التفريع.

وليتني أكون مخطئاً في هذا الظن، ويكون رجوعه عن الكلام جملة واحدة من غير تفصيل، ولكني كما اقرأتك ليس يظهر ذلك حتى في تسمية الكتاب الذي كان الأصل وسمه «الالجام عن علم الكلام» لو سلمنا بذلك.

وعلى الجملة فلسنا [illegible] أن هذه كانت بداية الطريق، أو المنعطف في الرجوع لتعاليم السنة واتباع [illegible] السلف وإن آخر [illegible] كان موته وصحيح البخاري على صدره، ر[illegible] الله وعفا عنه وتجاوز، إنه سميع مجيب.

والله أسأل حسن المآب.

ذكر أهم المراجع الواردة في أصل الكتاب وحاشيته

— القرآن الكريم

— الآداب الشرعية والمنح المرعية — محمد بن مفلح المقدسي

— الإبانة — أبو نصر السجزي

— الإبانة عن أصول الديانة — أبو الحسن الأشعري

— أبو حامد الغزالي والتصوف — عبد الرحمٰن دمشقية

— الإبريز — أحمد بن المبارك

— الأجوبة الفاضلة في الأسئلة العشرة الكاملة — الكنــوي

— الإحسان بتقريب صحيح ابن حبان — إبن بلبان الفارسي

— إحياء علوم الدين — أبو حامد الغزالي

— إختصار علوم الحديث — عماد الدين إبن كثير

— الأدب في الدين — أبو حامد الغزالي

— أربعون حديثاً في التصوف — أبو عبد الرحمن السلمي

— الأربعين في أصول الدين — أبو حامد الغزالي

— الإرشاد إلى قواطع الأدلة وأصول الإعتقاد — أبو المعالي الجويني

— أزهار الرياض في أخبار عياض — شهاب الدين المغربي

— الإستقامة — أبو العباس إبن تيمية

— أسد الغابة في معرفة الصحابة — إبن الأثيــر

— الأسماء والصفات — الحافظ البيهقي

— الإشارات والتنبيهات — إبن سينــا

— الإصابة في تمييز الصحابة — إبن حجر العسقلاني

— الإعتصام — الشاطبــي

الكتاب	المؤلف
— أعلام الموقعين	إبن قيم الجوزية
— إغاثة اللهفان	إبن قيم الجوزية
— الإفراد	الدارقطني
— الإقتصاد في الإعتقاد	أبو حامد الغزالي
— إقتضاء الصراط المستقيم	أبو العباس إبن تيمية
— الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع	القاضي عياض
— الأم	الإمام الشافعي
— الإيمان	أبو العباس إبن تيمية
— الباعث على الإخلاص	الحافظ العراقي
— البحر المحيط	ابن حيان الأندلسي
— بر الوالدين	أبو بكر الطرطوشي
— بغية الملتمس	إبن أبي جمرة
— بهجة النفوس	إبن النجار
— التاريخ	الحاكم النيسابوري
— التاريخ	السرخسي
— التاريخ	إبن جرير الطبري
— تاريخ الأمم والملوك	إبن جرير الطبري
— تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي
— تاريخ دمشق	إبن عساكر
— تبيين كذب المفتري فيما نسب لأبي الحسن الأشعري	إبن عساكر
— التجليات	إبن عربي الصوفي
— تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي	المباركفوري
— تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف	الحافظ المزّيّ
— تدريب الراوي	السيوطي
— تذكرة الحفاظ	الحافظ الذهبي
— التعريف والأعلام	السهيلي

- تفسير القرآن العظيم — عماد الدين إبن كثير
- التفسير الكبير ومفتاح الغيب — الفخر الرازي
- تفسير الواحدي — الواحدي
- التفسير والمفسرون — الدكتور الذهبي
- التكملة — عماد الدين إبن كثير
- التكميل — عماد الدين إبن كثير
- تلبيس إبليس — إبن الجوزي
- تنبيه الغبي بتنزيه إبن عربي — السيوطي
- تنزيه الإعتقاد عن الحلول والاتحاد — السيوطي
- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الموضوعة — إبن عراق
- تنوير الحلك في إمكان رؤية الملك — السيوطي
- تنوير الحوالك على موطأ مالك — السيوطي
- تهذيب الأسماء واللغات — النووي
- توثيق عرى الإسلام — البازري
- التوحيد — إبن خزيمة
- التوسل والوسيلة — أبو العباس إبن تيمية
- الجامع — سفيان بن عيينة
- الجامع — أبو ذر الهروي
- جامع البيان — إبن جرير الطبري
- جامع بيان العلم — إبن عبد البر
- جامع التحصيل — الحافظ العلائي
- الجامع لأحكام القرآن — القرطبي المالكي
- جذوة الإقتباس — الحافظ الحميدي
- الجعديات — البغوي
- جمع الوسائل شرح الشمائل — ملا علي القاري

الكتاب	المؤلف
ــ جواب شيخ الإسلام، هل كان الحلاج صديقاً أم زنديقاً	أبو العباس إبن تيمية
ــ جواهر القرآن	أبو حامد الغزالي
ــ الحقيقة في نظر الغزالي	سليمان دنيا
ــ الحلة السيراء	إبن زاكور
ــ حلية الأولياء	أبو نعيم الأصفهاني
ــ حي بن يقظان	إبن الطفيل
ــ خاتمة القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع	السخاوي
ــ خاتم الأولياء	الحكيم الترمذي
ــ خزانة الأدب	الخطيب البغدادي
ــ خلع النعلين	إبن قسّيّ
ــ خلق أفعال العباد	البخاري
ــ خلق أفعال العباد	إبن راهويه
ــ درء التعارض بين العقل والنقل	أبو العباس إبن تيمية
ــ در الأسرار	محمود أفندي حمزة
ــ الدر المنثور بالتفسير المأثور	السيوطي
ــ الذهب الإبريز شرح المعجم الوجيز	أبو المحاسن قاوقجي
ــ ذيل التقييد	الفاسي
ــ الرحلة في طلب الحديث	الخطيب البغدادي
ــ الرد على الجهمية	الدارامي
ــ الرد على المنطقيين	أبو العباس إبن تيمية
ــ الرسالة	الإمام الشافعي
ــ رسالة أبي داوود لأهل مكة	أبو داوود السجستاني
ــ رسالة في صحة إيمان فرعون	الصديقي الشافعي
ــ الرسالة القشيرية	القشيري
ــ الرعاية	الحارث المحاسبي

ــ رفع الملام عن الأئمة الأعلام	أبو العباس إبن تيمية
ــ الروح	إبن قيم الجوزية
ــ الروح	إبن مندة
ــ روضات الجنات	معين الدين الأسفزاري
ــ روضة الطالبين	أبو حامد الغزالي
ــ روضة الرياض	اليافعي
ــ الرياء	أبو نعيم الأصفهاني
ــ رياض المتعلمين	إبن السني
ــ زاد المعاد في هدى خير العباد	إبن قيم الجوزيّة
ــ الزهد	البيهقي
ــ زهر الفردوس	إبن حجر العسقلاني
ــ السبعينية	أبو العباس إبن تيمية
ــ سبل السلام	الصنعاني
ــ سراج الملوك	أبو بكر الطرطوشي
ــ السهم المضيب في كبد الخطيب	أبو بكر الأيوبي، وآخر للسيوطي
ــ سلسلة الأحاديث الصحيحة	ناصر الدين الألباني
ــ سلسلة الأحاديث الضعيفة	ناصر الدين الألباني
ــ السلوك	المقريزي
ــ السنة	إبن أبي عاصم
ــ السنة	إبن أبي حاتم
ــ السنة	إبن شاهين
ــ السنة	أبو داوود السجستاني
ــ السنة	الخلال
ــ سنن إبن ماجة	إبن ماجة القزويني
ــ سنن أبي داوود	أبو داوود السجستاني
ــ السنن	البيهقي
ــ سنن الترمذي	الترمذي

— السنن	الزبير بن بكار
— السنن	سعيد بن منصور
— سنن النسائي	النسائي
— سير أعلام النبلاء	الحافظ الذهبي
— سيرة بشر الحافي	إبن الجوزي
— سيرة الغزالي	عبد الكريم عثمان
— السيرة النبوية	إبن هشام
— شجرة النور الزكية في طبقات المالكية	محمد بن محمد مخلوف
— شذرات الذهب في أخبار من ذهب	إبن العماد الحنبلي
— شرح ألفية العراقي	العراقي
— شرح حديث النزول	أبو العباس إبن تيمية
— شرح السنة	الحافظ البغوي
— شرح الطيبة	النويري المالكي
— شرح العقيدة الأصفهانية	أبو العباس إبن تيمية
— شرح علل جامع الترمذي	إبن رجب الحنبلي
— شرح النووي على صحيح مسلم	الإمام النووي
— شرف أصحاب الحديث	الخطيب البغدادي
— شروط الأئمة الخمسة	الحازمي
— الشريعة	الآجري
— شعب الإيمان	البيهقي
— الشفاء	إبن سينا
— الشفاء	القاضي عياض
— الصارم المنكي في الرد على السبكي	ابن عبد الهادي
— صحيح إبن حبان	إبن حبان
— صحيح مسلم	الإمام مسلم
— الصفدية	أبو العباس إبن تيمية
— الصلة	إبن بشكوال

— الصواعق المحرقة	إبن حجر الهيثمي
— الضعفاء	إبن حبان
— الضعفاء	العقيلي
— الضوء اللامع في محاسن أهل القرن التاسع	إبن حجر العسقلاني
— الطبقات	إبن سعد
— طبقات الحفاظ	السيوطي
— طبقات الحنابلة	أبو يعلي الحافظ
— طبقات الشافعية	السبكي
— طبقات القراء	الجزري
— طبقات الأولياء	الشعراني
— الطيبة	الجزري
— العبادات الشرعية والفرق بينها وبين البدعية	أبو العباس إبن تيمية
— العبر	الذهبي
— عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر	إبن الجوزي
— العدة	أبو يعلي الفراء
— العزاء	إبن أبي الدنيا
— العقل	داوود بن المحبر
— العلل	الترمذي
— العلل	الخلال
— العلم	إبن أبي الدنيا
— الغزالي	كارادوفو
— فتح الباري بشرح صحيح البخاري	إبن حجر العسقلاني
— فتح الملهم	القرطبي
— الفتوحات المكية	إبن عربي الصوفي

— فتوح مصر ابن عبد الحكم
— الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أبو العباس إبن تيمية
— الفرق بين الفرق الباقلاني
— فصوص الحكم إبن عربي الصوفي
— فضائل الصحابة الإمام أحمد بن حنبل
— فضائل الإمامين إبن حجر الهيثمي
— الفقه على المذاهب الأربعة الجزيري
— الفوائد أبو إسحق الزكي
— الفوائد الجوهري
— الفوائد القابسي
— الفوائد البهية عبد الحي اللكنوي
— فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة الغزالي
— قانون التأويل الغزالي
— القسطاس المستقيم الغزالي
— القصاص والمذكرين إبن الجوزي
— قضاء الحوائج إبن أبي الدنيا
— قطف الثمر في موافقات عمر السيوطي
— قواعد الأحكام في مصالح الأنام العز بن عبد السلام
— القواعد العشرة الغزالي
— قوت القلوب أبو طالب المكي
— الكامل إبن الأثير
— الكامل إبن عدي
— كتاب إتحاف فضلاء البشر على القراءات الأربعة العشر الشيخ أحمد بن محمد البنا
— كتاب إلجام العوام عن علم الكلام الغزالي
— كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف الكلاباذي

— كتاب التمهيد	إبن عبد البر
— كتاب جلاء العينين	الآلوسي
— كتاب العقيدة الطحاوية	الطحاوي
— كتاب الهو	إبن عربي الصوفي
— الكشاف	الزمخشري
— كشف الخفاء ومزيل الألباس	العجلوني
— كشف الظنون	حاجي خليفة
— الكشف والأنباء في الرد على الأحياء	التميمي
— الكفاية	إبن عبد البر
— الكفاية في علم الرواية	الخطيب البغدادي
— الكنى	الحاكم
— كيمياء السعادة	أبو حامد الغزالي
— اللآليء المصنوعة	السيوطي
— اللؤلؤ والمرجان	محمد فؤاد عبد الباقي
— لباب الأحياء	أحمد بن محمد الغزالي
— لباب التأويل في معاني التنزيل	الخازن الصوفي
— لطائف الأسرار	إبن عربي الصوفي
— لسان الميزان	إبن حجر العسقلاني
— المجروحين	إبن حبان
— مجمع الزوائد	إبن حجر الهيثمي
— مجموع الفتاوى	أبو العباس إبن تيمية
— مجموع الفتاوى الكبرى	أبو العباس إبن تيمية
— محنة الصوفية	أبو عبد الرحمٰن السلمي
— المختارة	الضياء المقدسي
— مدارج السالكين	إبن قيم الجوزية
— المراسيل	أبو داوود السجستاني

— المستدرك	الحاكم
— المستصفى	أبو حامد الغزالي
— مسلم الثبوت	إبن أبي شيبة
— المسند	أبو حنيفة
— المسند	أبو يعلى الموصلي
— المسند	أحمد بن حنبل
— المسند	البزار
— المسند	الحميدي
— المسند	الدارامي
— المسند	الديلمي
— المسند	الشافعي
— المسند	عبد بن حميد
— المسند	علي بن معبد
— مشكاة الأنوار	أبو حامد الغزالي
— مشكل الآثار	الطحاوي
— المصنف	عبد الرزاق
— المضنون به على غير أهله	أبو حامد الغزالي
— المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية	إبن حجر العسقلاني
— المطالب العالية	إبن سينا
— معارج القدس في مدارج النفس	أبو حامد الغزالي
— المعجم	أبو يعلى
— المعجم	الإسماعيلي
— المعجم الأوسط	الطبراني
— المعجم الصغير	الطبراني
— المعجم الكبير	الطبراني
— المعرفة عند مفكري الإسلام	محمد غلاب

— معيد النعم ومبيد النقم — السبكي

— المغرب في حلي المغرب — إبن حزم الأندلسي

— المغني عن حمل الأسفار في الأسفار — العراقي

— مفتاح الجنة في الإحتجاج بالسنة — السيوطي

— مفتاح السعادة — الشرواني

— المفهم شرح صحيح مسلم — القرطبي

— مقارنة بين الغزالي وابن تيمية — محمد رشاد سالم

— المقاصد الحسنة — السيوطي

— مقالة في مهرجان الغزالي — محمد ثابت وعثمان أمين

— المقصد الأسنى في معاني أسماء الله الحسنى — أبو حامد الغزالي

— مناقب الإمام أحمد بن حنبل — إبن الجوزي

— مناهل العرفان في علوم القرآن — الزرقاني

— منتخب كنز العمال — المتقي الهندي

— المنتظم في تاريخ الأمم والملوك — إبن الجوزي

— المنخول — أبو حامد الغزالي

— المنقذ من الضلال — أبو حامد الغزالي

— منهاج السنة — أبو العباس إبن تيمية

— منهاج العابدين — أبو حامد الغزالي

— منهاج العارفين — أبو حامد الغزالي

— منهج النقد في علوم الحديث — نور الدين عتر

— المنهل اللطيف في أحكام الضعيف — علوي المالكي

— المواعظ — العسكري

— الموافقات — الشاطبي

— مؤلفات الغزالي — عبد الرحمن البدوي

— المواهب اللدنية — السخاوي

— الموضوعات إبن الجوزي
— الموطأ الإمام مالك
— الموقظة الذهبي
— ميزان الإعتدال الذهبي
— ميزان العمل أبو حامد الغزالي
— النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة السيوطي
— نزهة المجالس الصفوري
— نزهة النظر ونخبة الفكر إبن حجر العسقلاني
— النشر في القراءات العشر الجزري
— النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام محمود قاسم
— النكت على ابن الصلاح إبن حجر العسقلاني
— نوادر الأصول الحكيم الترمذي
— نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار الشوكاني
— هدية العارفين حاجي خليفة
— هواتف الجان الخرائطي

— وظائف الليالي والأيام أبو موسى المديني
— الوفيات إبن منقذ
— وفيات الأعيان إبن خلكان



الفهرس

الموضوع | الصفحة

بين يدي الكتاب . ٥
الباعث على التصنيف
بين طيات الاحياء ٧
مداخل التخليط وايصادها ٨
المقدمة ١٣
تحقيق القول في «نحن دعاة ولسنا قضاة» ١٤
التحري عن العالم من الدين ١٧
السنة الميزان «حديث لا بد منه» ٢١
لطائف في معنى الرجوع إلى السنة عند الاختلاف ٢٢
لا اسلام بغير سنّة ٢٣
بين الروافض والخوارج والزيدية وبين السنة ٢٤
أبو الحسن الأشعري يخرج عن السنة ثم يعود ٢٤
ذكر إمام أهل الظاهر أبي محمد ببعض ما له وما عليه ٢٥
فتاوى دارسة لم يوافقها الأثر ٢٦
الغزالي يحكي ترجمته ٢٩
الغزالي الورّاق طالب العلم ٢٩
بين يدي الجويني في نيسابور ٢٩
نظامية بغداد تستقبل شيخها ٣٠
لمّة الملك ولمّة الشيطان ٣٠
كلمة في القلب ٣١
سقوط الاختيار ٣١
في منارة مسجد دمشق ٣٢
عند صخرة بيت المقدس ٣٢
داعية فريضة الحج تؤذّن: «إلى الحجاز» ٣٢
دعوات الأطفال ومهمات العيال تنادي: «إلى الوطن» ٣٢
«في طوس» وهو في السياق: عليك بالإخلاص ٣٤
صحيح البخاري آخر ما اكتحلت به العين ٣٥
الغزالي يذكر مؤلفاته ٣٧
تنازع العلماء في بعضها في القديم والحديث ٣٧
مائة فما فوق ما بين رسالة وكتاب ٣٩

الموضوع الصفحة

الغزالي بين الحديث والمحدثين ٤٥
بضاعة مزجاة ٤٥
التنويه بحافظ الوقت العراقي ٤٦
تحقيق فيما اشتمل عليه الاحياء من الأحاديث ٤٨
أقوال أهل العلم في أحاديث الأحياء ٤٩
«اذا رأيت في الاسناد حديث فلان الزاهد فاغسل يدك من الإسناد» ٥١
ضعف حديث المكاشفة ٥١
حديث الصلاة في أو خميس من رجب: موضوع ٥٢
حديث صلاة الخامس عشر من شعبان: باطل ٥٢
حديث فضل صلاة يوم الأحد بصلاة مخصوصة: ضعيف ٥٣
حديث في فضل صلاة يوم الاثنين بصلاة مخصوصة: ضعيف ٥٤
حديث في فضل صلاة يوم الثلاثاء بصلاة مخصوصة: ضعيف ٥٤
حديث في فضل صلاة يوم الأربعاء بصلاة مخصوصة: ضعيف ٥٥
حديث في فضل صلاة يوم الخميس بصلاة مخصوصة: ضعيف جداً ٥٥
حديث في فضل صلاة يوم الجمعة بصلاة مخصوصة: باطل ٥٥
حديث في فضل صلاة يوم السبت بصلاة مخصوصة: ضعيف جداً ٥٧
حديث في فضل صلاة ليلة الأحد بصلاة مخصوصة: منكر ٥٧
حديث في فضل صلاة ليلة الاثنين بصلاة مخصوصة: منكر ٥٧
حديث في فضل صلاة ليلة الثلاثاء بصلاة مخصوصة: منكر ٥٨
حديث صلاة ليلة الأربعاء بصلاة مخصوصة: ضعيف جداً ٥٨
حديث صلاة ليلة الخميس بصلاة مخصوصة: منكر وضعيف ٥٩
حديث صلاة ليلة الجمعة بصلاة مخصوصة: منكر أو باطل وضعيف ٥٩
حديث صلاة ليلة السبت بصلاة مخصوصة: باطل ٦٠
أصحاب السنن لا يخرجون مثل هذه الأحاديث ٦٠
آثار الوضع في هذه الأحاديث ٦١
ليست من جنس الأحاديث الضعيفة التي قبلها بعض العلماء في فضائل الأعمال ٦١
بطلان حديث المسبعات العشر ٦٢
كل الأحاديث التي تفيد وجود الخضر واهية، وقول علماء السنة في ذلك ... ٦٤
بيان الضعف في الأحاديث الواردة عن الخضر ٦٤

الموضوع — الصفحة

شكوت إلى جبريل ضعفي. . . » باطل أو موضوع ٧١
«بطلان الحديث الوارد في دخول الجنة دون المرور على الصراط ٧٢
الحديث الوارد في دفع إحدى زوجات النبي ﷺ صدرة: «لا أصل له» ٧٢
قول الحافظ في حديث: «اسكت. . . »: «لا أعرف لهذه اللفظة رواية» ٧٣
«سوء الخلق ذنب لا يغفر» ضعيف ٧٣
حديث في البخل لا أصل له ٧٣
أحاديث في الجوع والعطش لا أصل لها ٧٥
حكايات في الجوع يدرك فسادها بأوائل العقول ٧٧
كيف كان طعام أهل الصفة ٧٧
«من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكبر» ضعيف أو موضوع. . . . ٧٨
«الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً» ضعيف ٧٩
«خير الأمة فقراؤها. . . » لا أصل له ٧٩
«الفقر أزين بالمؤمن. . . » ضعيف ٧٩
أحاديث في ذم الأغنياء، ليست بشيء ٧٩
تساهل الامام الحاكم في مستدركه، وقول العلماء في ذلك ٨٠
«إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب. . . » لا أصل له ٨٧
ثلاثة لا تدره ٨٧
مدى معرفة الغزالي بالسنة على حد قول شيخ الإسلام ابن تيمية ٨٨
ثقافة أبي حامد في الميزان ٩١
شيخ الإسلام ابن تيمية يحلل مادة الغزالي العلمية يرجعها لأصولها ٩١
الامام أبو بكر الطرطوشي يدلي بدلوه ٩٥
الامام الذهبي يتحرى ٩٥
الامام القاضي أبو بكر ابن العربي يصف شيخه ٩٦
الغزالي يسمّي مطالعاته ٩٦
تحقيق لشيخ الاسلام ابن تيمية في كتب شيوخ الغزالي بالمعنى ٩٧
قول العلامة ابن الجوزي في ذلك ٩٨
الخطيب البغدادي يصف قوت القلوب ٩٨
أبو حامد وردود العلماء عليه ٩٩
شيخ الإسلام ابن تيمية يذكرهم ١٠٠

الصفحة
الموضوع

المفسر المجتهد أبو الحسن المرغيناني ١٠٠
أهل بيت القشيري ١٠٠
الشيخ أبو البيان إبن الحوراني ١٠١
المقرىء الشيخ أبو العباس ابن شكر ١٠١
الامام الفقيه أبو عمرو ابن الصلاح ١٠١
الإمام النووي شارح صحيح مسلم ١٠١
الإمام أبو بكر الطرطوشي ١٠٢
الإمام أبو عبد الله المازري ١٠٢
القاضي ابن حمدين القرطبي ١٠٢
القاضي أبو بكر ابن العربي المالكي ١٠٢
الإمام أبو الوفاء ابن عقيل ١٠٣
العلامة ابن الجوزي والإمام المقدسي، والكردي ١٠٣
الحافظ إبن كثير ينص على من ردّ على الغزالي ١٠٤
الحافظ الذهبي يورد في ترجمة الغزالي من اعترض عليه ١٠٤
عبد الغافر الفارسي تلميذ الغزالي ١٠٥
الذهبي يوافق الفارسي ١٠٥
الإمام أبو بكر ابن العربي المالكي ١٠٥
أبو علي الصدفي، والقاضي عياض ١٠٥
الإمام أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي ١٠٥
الإمام أبو عمرو ابن الصلاح ١٠٦
العالم أحمد بن صالح الجيلي ١٠٦
الإمام أبو عبد الله المازري ١٠٧
قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن حمدين القرطبي ١٠٧
الإمام أبو بكر ابن الطرطوشي ١١٠
الإمام القاضي أبو بكر ابن العربي مرة ثانية ١١١
الإمام المازري مرة ثانية ١١١
الإمام العلامة ابن الجوزي ١١٣
الإمام المقري أبو الحسن ابن سكّر ١١٣
الغزالي ينقم على من رد عليه في حياته ١١٥

الموضوع	الصفحة

اعلام الأحياء بأغاليط الاحياء ١١٩
زندقة فما فوق ١٢٠
شطحات الصوفية عند الغزالي ١٢١
الغزالي في «افشاء سر الربوبية..» ١٢١
إبطال زعمه من أربعة أوجه ١٢٢
الغزالي ورؤية الله عز وجل في الدنيا ١٢٥
قوله في ذلك في ربع المنجيات ١٢٥
الكشف عن ذلك ومقداره ١٢٧
خبر داود عليه السلام في ذلك ١٢٨
مشاهدة جمال الحضرة «كيمياء السعادة» ١٣٠
كشف الحجاب في «القواعد العشرة» ١٣٠
اشعار وحكايات في «الأحياء» ١٣٠
نفيه المشاهدة في كتاب التفكر من الأحياء ١٣١
اختلاف الأحكام عند الصوفية باختلاف مقام المتعبد ١٣٢
تعليل اثبات الرؤية ونفيها عند الغزالي ١٣٣
النظر الى الله عز وجل من أمور الآخرة ولا مطمع لأحد في ذلك في الدنيا ... ١٣٥
بيان الأحاديث الواردة في الرؤية في الآخرة وأنواعها ١٣٥
رد تأويل الغزالي للمحبة برفع الحجاب ١٣٨
تحقيق القول أن النبي ﷺ لم ير ربه في معراجه ١٤٠
نفي التعارض بين «رأيت نوراً» و «نور أنى أراه» ١٤٠
بيان أقوال الحبر ابن عباس الواردة عنه في ذلك ١٤٣
ذكر الخبر الوارد عن عائشة رضي الله عنها في نفي الرؤية ١٤٤
ذكر الخبر الوارد عن ابن مسعود رضي الله عنه في نفي الرؤية ١٤٥
محاولة تضعيف حديث ابي ذر عند مسلم لإمام الأئمة ابن خزيمة ١٤٥
حكاية الإمام الدارمي اتفاق الصحابة على عدم الرؤية، وبيان أن هناك من شذّ ١٤٦
لا تعارض بين أقوال السلف في ذلك ١٤٦
ذكر الخبر الوارد في رؤية النبي ﷺ ربه في منامه ١٤٧
من روى عن ابن عباس أن النبي ﷺ رأى ربه بعينه فقد غلط ١٤٨
ابن خزيمة ينكر صراحة حديث رؤية العين ويقول: «ليس الخبر بالبين...» . ١٤٩

الموضوع الصفحة

خطأ من نسب الحديث المتقدم لكتاب التوحيد للإمام ابن خزيمة ١٤٩
ذكر بعض من نقل الاجماع في عدم جواز وقوع الرؤية في الدنيا ١٥١
خطوات نحو الصرانية ١٥٣
ذكر الخبر الوارد في قول موسى عليه السلام «قال ربّ أرني أنظر اليك...» ١٥٤
فائدة في رؤية الله عز وجل في المنام ١٥٤
رؤيا المنام ليست بشرع ولا علم ١٥٦
وفاة قبل وفاة ١٥٦
صنوف الرؤى ١٥٧
ماذا يقول من رأى ما يكره ١٥٨
المكاشفة في المنام عند الصوفية والغزالي ١٥٩
الخلاف مع الغزالي من أوجه ١٦١
قصة عثمان بن مظعون رضي الله عنه ١٦١
ما في حديث الطفيل بن عمرو من الفوائد ١٦١
الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره ١٦٢
الخلاف مع الغزالي جعل الأولياء والأنبياء سواء في الإطلاع والمشاهدة ... ١٦٢
كل ما استدل به الغزالي عن النبي ﷺ حصل يقظة لا مناما ١٦٣
«غيب لا يعلمه إلا الله» ١٦٤
مكانة التعبير من الرؤيا ١٦٤
فائدة في ان التعبير غير توقيفي وأمثلة ذلك ١٦٥
الرؤيا الصادقة تقع لكل إنسان ١٦٩
الغزالي ومعرفة أسرار الغيب ١٧١
وجوب التحري في المسألة واجب شرعي ١٧١
معرفة الغيب مما اختص به الله ١٧٢
رأي الغزالي في ذلك ١٧٣
فصل في أن كل شيء كتب في اللوح المحفوظ عن رؤية الخلق ١٧٣
نصوص الغزالي في حدود العبد بمعرفة الغيب ١٧٥
تعليل الغزالي لعدم اخبار النبي ﷺ بكل ما علم ١٧٩
الرد على أدلته ١٧٩
شيخ الإسلام ابن تيمية يبين أهل هذا الاعتقاد وأصحابه ١٨٠

الموضوع | الصفحة

المتصوفة يعتمدون بزعمهم على حديث في البخاري ١٨١
رد شيخ الاسلام ابن حجر بايراده قول الزين ابن المنير في رد الاستدلال .. ١٨١
معنى الحديث عند أهل العلم ١٨١
مراتب المكاشفة عند الغزالي ثلاث ١٨٣
رد شيخ الإسلام ابن تيمية على مستحب الذكر بالإسم المفرد أو المضمر .. ١٨٥
الرد على مستحب الذكر بالقلب دون اللسان ١٨٦
مجازفة الإمام الحافظ ابن حبان بعبارة، ومجازفة الغزالي بعبارات ١٩٠
دعوات الغزالي لترك الاشتغال بالعلم والتعلم ١٩١
«حدثنا باب من أبواب الدنيا» ١٩١
«إذا طلب الرجل الحديث فقد ركن إلى الدنيا» ١٩٢
مكانة الاسناد عند المسلمين ١٩٢
تأويل الغزالي لكلام أبي سليمان الداراني ١٩٢
طلب العلم أفضل من صلاة النافلة عند الأئمة الأربعة ١٩٦
آثار في طلب العلم وفضله ١٩٦
راي الغزالي في كيفية استقاء العلوم الشرعية ٢٠٠
رد شيخ الإسلام ابن تيمية على دعوى الغزالي ٢٠٠
أدلة المتصوفة على صحة طريقهم في اكتساب المعرفة ٢٠١
نقض الاستدلال الأول من أوجه «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» ٢٠٣
الوجه الأول: الجهاد المذكور في الآية ليس هو المجاهدة والتصفية
التي يفعلها المتصوفة ٢٠٤
الوجه الثاني: الجهاد لا يتأتى إلا بطلب العلم ٢٠٤
الوجه الثالث: معارف الصوفية على فرض حصولها ليست بشرع ٢٠٥
نقض الاستدلال الثاني «من عمل بما علم...» ٢٠٦
ضعف الحديث المذكور وأنه ليس في الكتب المعتمدة ٢٠٦
نقض الاستدلال الثالث: «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً...» ٢٠٧
سبب نزول الآية ٢٠٧
تفسير السلف لمعنى الآية ٢٠٨
تفسير قتادة رضي الله عنه لهذه الآية ٢١٠

الموضوع | الصفحة

مفارقته قول قتادة لقول الغزالي من أوجه أربعة ٢١٠
بيان حال قتادة وأنه من أوعية العلم ٢١١
كلمات جامعة للإمام الشاطبي في «الموافقات» و «الاعتصام» ٢١٣
نقض الاستدلال الرابع: «يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً...» ٢١٥
وجه الاعتراض الأول: إشتراط التقوى ٢١٥
وجه الاعتراض الثاني: حمل الفرقان على فتح العلوم الإلهامية ٢١٥
نقض الدليل الخامس: «أفمن شرح الله صدره للاسلام... ما هذا الشرح... الحديث» ٢١٧
خطأ الغزالي في ايراد الحديث لآية الزمر، مع أن الوارد آية الانعام ٢١٧
نقض الاستدلال السادس وفيه أربع جمل تدور حول الفهم والحكمة ٢١٨
معنى «الحكمة» في كتاب الله ٢١٩
الفهم لا يكون إلا من نص، والنص بحاجة إلى تعلّم ٢٢٠
معرفة النص لها أصول وضوابط ٢٢١
الفهم له أصوله وضوابطه ٢٢١
الخطأ في الفهم قد يؤدي إلى الكفر، ووقوع ابن عربي في ذلك ٢٢٢
دفاع السيوطي عن ابن عربي ـ ان صح ـ بغير حجة ٢٢٣
نظرة في مؤلفات الامام السيوطي ٢٢٣
حديث «انما العلم بالتعلم» ٢٢٥
نقض الدليل السابع: قال أبو الدرداء: «المؤمن ينظر بنور الله...» من أوجه ٢٢٥
الوجه الأول: عدم ثبوت ذلك عن أبي الدرداء ولا غيره من السلف ٢٢٦
الوجه الثاني: النور المذكور ليس محصوراً بالمتصوفة ٢٢٦
الوجه الثالث: النور المذكور لا يستوعب جميع العلوم فيستغنى به ٢٢٦
الوجه الرابع: القول لا يدعو للإقتصار على علوم الخلوة ٢٢٦
نقض الدليل الثامن: «ظن المؤمن كهانة» من أوجه ٢٢٦
الوجه الأول: لا يعرف هذا القول في شيء من الكتب ٢٢٦
الوجه الثاني: تشبيه الظن بالكهانة يفيد حرمته لا قبوله ٢٢٧
نقض الدليل التاسع: «إتقوا فراسة المؤمن...» ٢٢٧

الموضوع | الصفحة

ضعف الحديث الوارد ٢٢٧
تحسين حديث «إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم» ٢٢٨
معنى التوسم ٢٢٩
معنى الفراسة ٢٣٠
أنواع الفراسة، والأحاديث الواردة في ذلك ٢٣١
قول الإمام القرطبي في معنى التوسم ٢٣٢
قول القاضي أبي بكر ابن العربي بعدم اعتماد التفرس والتوسم ومثال ذلك في السنة .. ٢٣٤
قول امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك ٢٣٧
نقض الدليل العاشر: «العلم علمان: فعلم باطن في القلب...» ٢٣٨
الحديث من مرسلات الحسن البصري رحمه الله ورضي عنه ٢٣٩
مرسلات الحسن البصري ضعيفة عند العلماء (وهو الوجه الأول) ٢٣٩
ليس في متن الحديث ما يستدل به لقول الغزالي (وهو الوجه الثاني) ٢٤٠
حديث آخر: «العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان» موضوع ٢٤١
المعنى المراد من «علم الباطن» ٢٤١
«علم الباطن سر من أسرار الله.....» موضوع ٢٤١
معنى الحديث «... سر من أسرار الله...» غير مقبول عند أهل الإسلام .. ٢٤٢
ابن عربي يقدم الوليّ على النبيّ ٢٤٣
النبيّ ﷺ خير البريّة ٢٤٥
قول صاحب الطحاوية وشارحها فى الرد على ابن عربي ٢٤٦
فلسفة ابن عربي في تقديم خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء ٢٤٩
كفر ابن عربي فوق كفر القائلين «لن نؤمن لك حتى نؤتى
مثل ما أوتي رسل الله....» من شرح الطحاوية ٢٤٩
رد شيخ الإسلام ابن تيمية على مقولة ابن عربي بالعقل والنقل ٢٥٠
المسلمون أخرجوا الترمذي الحكيم من بلدته وشهدوا عليه بالكفر
لما صنف «خاتم الأولياء» ٢٥١
شيوخ الصوفية متفقون على تفضيل الأنبياء على الأولياء ٢٥١
المتفلسفة يعتمدون «مشكاة الأنوار» ٢٥٢
نقض الدليل الحادي عشر المستمد من قوله ﷺ «إن من أمتي محدثين...» ٢٥٢

الموضوع | الصفحة

الوجه الأول: عدم وجود رواية توافق اللفظ الذي أورده الغزالي ٢٥٢
بيان ثمرة إختلاف اللفظ ٢٥٣
الوجه الثاني: مغايرة معنى الحديث عن المعنى الذي أراده الغزالي ٢٥٤
الإلهام ليس من الشرع وقول شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك ٢٥٥
أكابر الصوفية لا يقيمون وزناً للإلهام ٢٥٥
ذكر الأحاديث الواردة في فراسة عمر وحدة خاطره ٢٥٦
ذكر الوقائع الواردة في اتهام عمر رضي الله عنه لخاطره ٢٥٩
الغزالي يعتمد الإلهام، وشيخ الإسلام وتلميذه وأهل العلم ينكرون ٢٦٣
نقض الاستدلال بقراءة: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي
ولا محدث...» ٢٦٦
الوجه الأول: أنها ليست من القراءات المعتبرة ٢٦٦
بيان شروط القراءة المعتبرة عند علماء المسلمين ٢٦٧
الوجه الثاني: أنه لا يعرف بقية الكلام لهذه القراءة إن صحّت،
وهو جواب شيخ الإسلام ٢٦٧
الوجه الثالث: قد يكون من قبلنا يقبل منهم اتباع المحدث دوننا،
وهو جواب شيخ الإسلام كذلك ٢٦٨
نقض الدليل الثاني عشر: «والقرآن مصرّح بأن التقوى...» ٢٧٠
التقوى بين العلم والفقه ٢٧١
نقض الدليل الثالث عشر: «وكان أبو يزيد وغيره يقول...» ٢٧٢
قول الرجل ليس من الدليل ٢٧٢
بيان اختلاف أكابر المتصوفة مع أصحاب القول السابق ٢٧٣
الغزالي يقسم أهل التصوف لطوائف ٢٧٥
كثير ممن نسبوا إلى التصوف كانوا على طريقة أهل الحديث ٢٧٦
من نقل عنهم حق وباطل من أهل التصوف وهم إلى التضليل أقرب ٢٧٨
طائفة ثالثة ٢٧٩
قول أبي يزيد يسلب صفة العلم عن أئمة الهدى ٢٨٠
قول أبي يزيد لا يخرج الا عن معتقدي اكتساب النبوة ٢٨٠
بيان أن طلب العلم هو سبيل السلف الصالح ٢٨١

الموضوع | الصفحة

الإسناد من الدين ٢٨٢
أبيات للعلامة ابن القيم، وكلمات ٢٨٣
حقيقة التلقي عند الغزالي ٢٩٠
مزيد تفصيل للغزالي في ذلك ٢٩٠
حكاية عن أخي الغزالي، أحمد ٢٩٢
حكاية عن أحمد بن المبارك وشيخه عبد العزيز الدباغ ٢٩٢
حكاية عن الشيخ ابن منده ٢٩٣
حكاية الربيع بن محمود ٢٩٣
تعليق الحافظ ابن حجر على هذه الحكايات ٢٩٤
معنى حديث: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة» ٢٩٤
قول الحافظ ابن حجر في «الفتح...» ٢٩٤
قول الإمام القرطبي في «المفهم...» ٢٩٥
قول الإمام السخاوي في «المواهب...» ٢٩٥
قول الشيخ علي القاري في «جمع الوسائل...» ٢٩٥
قول شيخ الإسلام في «العبادات الشرعية...» ٢٩٦
احتمال في قول الغزالي والرد عليه ٢٩٧
العقل هو الملك عند الغزالي، وربما يسمي قلماً أيضاً، وهو نوع اخر ٢٩٨
رد الاحتجاج من أوجه ٢٩٩
الوجه الأول: الحديث الذي احتج به الغزالي ضعيف أو موضوع ٢٩٩
غالب ما يروى في العقل وشرفه موضوع، وغالبه من وضع ابن المحبر ٢٩٩
قول شيخ الإسلام ابن تيمية في «السبعينية» عن ذلك ٣٠٠
قول العلامة ابن الجوزي في «الموضوعات» ٣٠٠
قول الحافظ العراقي في «المغني» ٣٠٠
قول شيخ الإسلام في الصفدية ٣٠٠
الوجه الثاني: اطلاق لفظ «العقل» أو «العلم» على «الملك»، باطل ٣٠٠
قول شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك ٣٠١
بيان أن روايات الحديث ترد تعسف الغزالي ٣٠١
الغزالي وفرحه بمخالفة الجمهور ٣٠٣
العقل الوارد في الكتاب والسنة ٣٠٣

الموضوع الصفحة

نوع ثالث من التلقي عند الغزالي «علم يقع في قلوبهم من غير واسطه من حضرة الحق» ٣٠٥
قول الغزالي عن ذلك في «الكيمياء» و «القواعد» والأحياء ٣٠٥
الغزالي يستدل بـ «وعلمناه من لدنا علماً» ٣٠٦
الرد عليه من أوجه ٣٠٧
الوجه الأول: ان الخضر كان نبياً ٣٠٧
الوجه الثاني: أن موسى بعث لبني اسرائيل خاصة، والنبي ﷺ بعث للناس عامة فجاز للخضر ما جاز له، وليس ذلك لأحد من هذه الأمة وهو قول شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٠٧
الوجه الثالث: كون الخضر غير مخاطب بشريعة موسى عليه السلام، وهو قول شيخ الإسلام أيضاً ٣٠٧
الوجه الرابع: عدم اعتبار هذا التلقي حتى يعرض على الشرع ٣٠٨
الوجه الخامس: لا يمكن ان يكون موسى مبعوثاً لمن هو أعلم منه ٣٠٨
الوجه السادس: الجزم بنبوة الخضر، وهو داخل في الجواب الأول ٣٠٩
افتراق أهل الملل في كلام الله تعالى على تسعة أقوال ٣١٠
بيان معتقد أهل السنة في ذلك ٣١٢
بيان وجه الخلاف مع الغزالي ٣١٢
كلام الحق لا يشبه كلام المخلوقين ٣١٢
اختتام المقام بكلام العلامة ابن الجوزي في «تلبيس ابليس» ٣١٥
الفناء في التوحيد عند الغزالي، وكتم الأسرار ٣١٩
معنى التوحيد عند الغزالي وأقسامه ٣١٩
بيان فساد تقسيم الغزالي ٣٢٠
تقسيم الغزالي والحلاج يخرج من مشكاة واحدة ٣٢٢
شيخ الإسلام ابن تيمية يرجع هذه التقسيمات لمصادرها ٣٢٣
أبو حامد يعرف الفناء ٣٢٣
كلامه عن الفناء في «الأحياء» ٣٢٣
كلامه عن الفناء في «روضة الطالبين» ٣٢٤
كلامه عن الفناء في «ميزان العمل» ٣٢٤
عودة إلى «الأحياء» ٣٢٤

الموضوع — الصفحة

الرد على تمثيل الغزالي بوجود الفوارق، ومطالبته بالإقتصار على ما جاء في «المنقذ» ٣٢٥
كتم الأسرار عند الغزالي ومن نقل عنهم ٣٢٧
شرح حالة الانبساط عند الصوفية ٣٢٨
شيخ الإسلام ابن تيمية يردّ على المخالفين من هؤلاء رداً مجملاً ٣٢٨
شيخ الإسلام ابن تيمية يردّ على المخالفين من هؤلاء رداً مفصلاً ٣٣٠
تأييد شيخ الإسلام على ما قال بسؤال أبي جحيفة ٣٣٢
بيان أن الأحاديث المعتمدة عند الصوفية في هذا الباب ضعيفة أو موضوعة ٣٣٢
الفناء ليس من مطالب الشرع ولا فعله الصدر الأول ٣٣٣
حقيقة العبادة قد بينتها النصوص ٣٣٤
الكلام على حديث «من عادى لي ولياً...» ٣٣٥
الكلام على انبساط الصوفية، وتعريفهم له، ٣٣٦
ما في السجود ومعانيه ينافي ما فهمته الصوفية ٣٣٧
الوجد عند المتصوفة وأدلتهم في ذلك ٣٤٠
تضعيف دليلهم من أوجه ٣٤١
بيان ضعف رواية حلج أبي بكر، وأنها ليست في كتب الحديث ٣٤٣
احتجاج المتصوفة بحجل جعفر ٣٤٤
بيان أن رواية الحجل ضعيفة ولا تصح ٣٤٤
بيان أنها على فرض صحتها فإنه لا يستدل منها بشيء ٣٤٧
بيان أن الحجل من فعل أهل الكتاب، وقد أمرنا بمخالفتهم ٣٤٧
تعلق الصوفية بقوله تعالى: «إذ قاموا فقالوا...» ورد الإمامين القرطبي وابن عطية على ذلك ٣٤٩
فتوى الإمام عز الدين بن عبد السلام في رقص الصوفية وتصفيتهم ٣٥٠
أبيات للفقيه الشافعي ظهير الدين أبو اسحاق ابراهيم بن نصر ٣٥٠
أبيات للعلامة ابن الجوزي في رقص الصوفية ٣٥١
فتوى الشيخ ابن عقيل في «الآداب الشرعية» والقرطبي فيما نقله ابن حجر ٣٥١
فتوى الامام الشافعي في تغبير الصوفية ٣٥٢
فتوى شيخ الإسلام بأن حديث تواجد النبي ﷺ كذب باتفاق أهل الحديث ٣٥٤
الخاتمة ٣٥٥

الموضوع الصفحة

الغزالي وشخصيته الثانية ٣٥٥
نماذج من أقواله الشاهدة على حسن طويته وبليغ وعظه ٣٥٦
رجوع الغزالي للمنهج الحق واتباع السلف ٣٥٧
فتوى الشيخ ابن الصلاح في كتب الغزالي ٣٥٧
مدى رجوع الغزالي في كتابه «إلجام العوام» ٣٥٨

